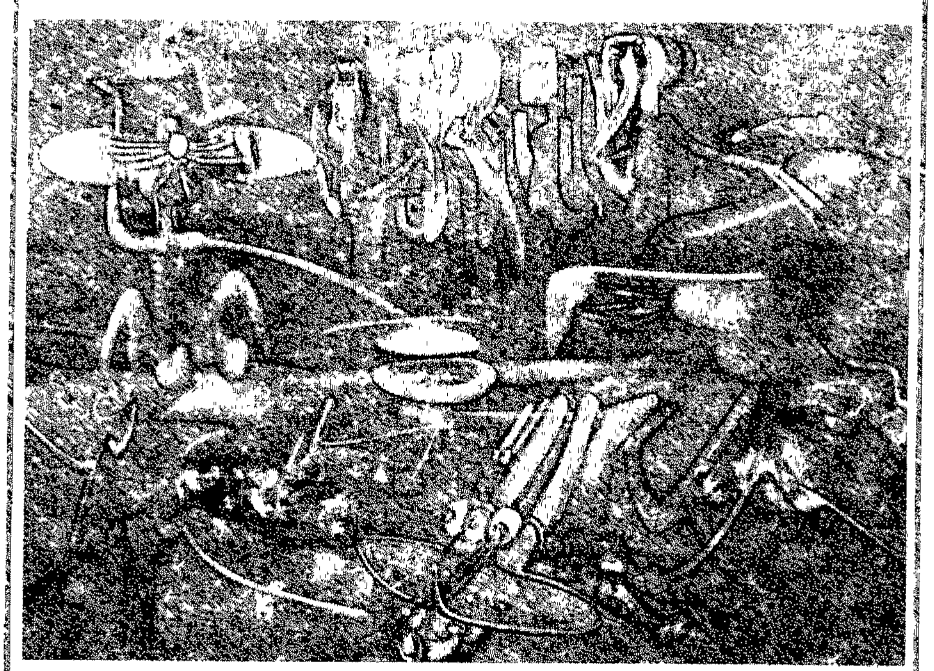
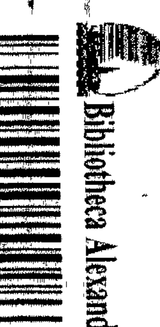
يوري بونداريف

# اللعبة



ترجمة:
الدكتور نزار عيون السود




روايات عالمية «٢٦»

الاشراف الفني : زهـــــيرالحـــمو

# اللعبة

روايات عالميّة

« ٢٦ »

يوري بونداريف



# اللعبة

ترجمة:
الدكتور نزار عيون السود

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٠

**العنوان الاصلي للكتاب :**

ЮРИЙ БОНДАРЕВ





اللعبة = Игра / تأليف يوري بونداريف ؛ ترجمة نزار عيون السود

. ــ ط. ١ . ــ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٠ . ــ ٤٠٨ ص. ؛ ٢٤ سم

. ــ ( روايات عالمية ؛ ٢٦ ) .

١ ــ ٨٩١٫٧٣ ب و ن ل ٢ ــ العنوان ٣ ــ بونداريف

٤ ــ عيون السود ٥ ــ السلسلة .

مكتبة الاسد

الايداع القانوني : ع ــ ١٨ / ١ / ١٩٩٠



## يوري بونداريف في سطور

— ولد يوري فاسيليفيتش بونداريف عام ١٩٢٤ في مدينة أورسلك ، الواقعة في جنوبي أوكرايينا . كان عمره ١٧ عاماً عندما بدأت الحرب عام ١٩٤١ بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي . أمضى الضابط الشاب بونداريف سنوات الحرب جنباً إلى جنب مع الجنود ، حيث كان يقود بطارية مدفعية . جرح أكثر من مرة وكوفيء بأنواط الشجاعة .

— بدأ بونداريف بنشر أعماله الأدبية منذ عام ١٩٤٩ . في عام ١٩٥١ تخرج من معهد مكسيم غوركي للأدب في موسكو . وقد اعتبره أستاذه الكبير قسطنطين باوستوفسكي ، أحد ممثلي « الأدباء الشباب الموهوبين ، الذين يمكن تسليمهم بجرأة راية الأدب الروسي السوفييتي » .

— كان لروايتيه « الصمت » و « الثلج الحار » الفضل الأكبر في بروزه في الصف الأول من الكتاب السوفييت .

مهما كان موضوع أعمال بونداريف الأدبية ، تبقى الرجولة ، والروح الانسانية ، والمسؤولية عن آلام الآخرين ، ومعاناته لمصائب الغير موضع اهتمامه . يهتم الكاتب بتصرفات الناس وسلوكهم في الظروف العصيبة ، حيث يطرح أمام الانسان خيار مصيري : أن أكون أو لا أكون . في مؤلفات بونداريف يتشابك بصورة وثيقة الماضي والحاضر ، وتلقى الأضواء على الأحداث والطباع من وجهات نظر مختلفة ، ومتباينة في أغلب الأحوال ، ويقترن فيها العمق السيكولوجي بالوصف الصادق للأحداث . وأبطال بونداريف هم أناس صامدون قادرون على الوقوف والثبات حتّى النهاية .

— فاز عام ١٩٧٢ بجائزة لينين لسيناريو فيلم « التحرير » ، وبجائزة الدولة عام ١٩٧٥ لرواية وسيناريو فيلم « الثلج الحار » ، وبجائزة الدولة عامي ١٩٧٧ و ١٩٨٣ لروايتيه « الشاطيء » و « الاختيار » . وترجمت غالبية رواياته إلى كثير من اللغات ، ومنها العربية .

هذه الرواية « اللعبة » ، التي نقدمها للقاريء العربي ، هي آخر أعمال بونداريف الروائية ، صدرت في موسكو عام ١٩٨٥ .

— المترجم —

# الفصل الأول

أثناء عودته من المطار بسيارة الأجرة ، شعر كريموف بتوعك صحته . كان العرق يتصبب على صدغيه ، وكان يشعر بالاختناق ، وقد التصقت قبة قميصه القاسية برقبته المتعرقة . أنزل عدة مرات زجاج النافذة ، أملاً بأن يجف عرقه قليلاً ، واتكأ على مسند المقعد الخلفي ، وعندها هب تيار صيفي من الهواء ، المشبع بالغازات الدافئة المقذوفة من السيارات ، على وجهه الرطب .

دهش باستغراب من كثرة الناس ، كما في أيام العيد ، في مثل هذه الساعة ، على مواقف الباصات ، وأمام المخازن والمحلات التجارية ( متى يعمل الناس اذن ؟ ) ، وشاهد بريق الشمس الصباحي المتلألىء بين أوراق الأشجار ، وعلى الواجهات الزجاجية ، وكانت تدور أمام عينيه ، كما في الأرجوحة ، الشوارع الأخرى والواجهات والمقاعد على الأرصفة تحت ظلال المظلات الحمراء ، والحشود الأخرى التي كانت ترتدي ألواناً مبرقشة منوعة ، وبدت وكأنها شمس أخرى ، قائظة ، حتى في ساعات الصباح الباكر . هذه الأرجوحة المتلألئة ، كما في الحلم المخدر ، كانت تمحو بكبرياء ، وتهين بشيء ما ، تواضع الشوارع الموسكوفية ، التي كانت تترك أثراً حزيناً في نفسه دائماً لدى

عودته إلى مدينته من رحلاته الخارجية . بيد أنه كان يشعر بانزعاج آخر ، لأنه في سفراته الخارجية السابقة ، لم يشعر سابقاً بمثل هذا الاختناق في حنجرته ، وكأن نحيباً لم يفرغ قد انعقد فيها واستقر . لم يكن يدرك ما الذي حدث له ، وكان مستعداً لأن يضحك على نفسه لعاطفيته المفرطة ، التي لم يكن لها من مبرر .

ماذا حدث له ؟ كان كل شيء رائعاً في باريس المضيافة ، حيث أمضى ستة أيام من الاحتفالات والضجيج في الخارج ، في حفلات الاستقبال ، التي لا تلزمه بأي شيء ، في قاعات السينما المكيفة ، في حفلات الكوكتيل ، والمناقشات والسهرات الليلية في الكباريهات ، مع الظلمة الخفيفة ذات الأريج الذكي ، والأرائك المخملية ، وأجساد النساء الباهتة على خشبة المسرح ؛ وفي الصباح ، حلاقة الذقن الأنيقة ، وعند الإفطار ، تناول فنجانين من القهوة المنشطة المنعشة ، ومشاهدة عروض الأفلام ؛ وأخيراً جائزة الشرف للاخراج ، غير المتوقعة والمنتظرة في آن واحد . كل شيء في المهرجان كان موفقاً ومرضياً ، بيد أنه بقي في نفسه ، من هذه الأيام الجميلة ، المشوشة ، مذاق دبق من الألم ، وهذا مالم يرد تذكره .

أغمض عينيه ، ساعياً إلى التكيف مع الحياة الموسكوفية السابقة ، بوتيرتها المألوفة ، ومن جديد ، الاستوديو ، والمجالس الفنية ، والاستعداد لمرحلة التصوير ، بيد أنه نما عنده ، لسبب غير معروف ، قلق مزعج ، وفكر في نفسه قائلاً : « لقد عدت قبل الموعد المخصص وسأستريح في بيتي يومين » .

عندما اقتربت السيارة من منزله في شارع لينين ، وانعطفت إلى

الفناء تحت أغصان الحور ؛ وعندما ولج إلى برودة المدخل الحجرية ، وإلى غرفة المصعد المخدوشة الجدران ، ومن ثم شاهد ساحة المصعد المألوفة ، وباب شقته المغطى بالمشمع البني وزر الجرس الموسيقي ، لم يستطع التغلب على الشعور الذي سيطر عليه ، الذي كان يعتصر حلقه بالدموع ؛ واضطر ، من أجل أن يهيء نفسه ، التوقف قليلاً في بهو الدرج .

قرع كريموف الجرس أربع مرات ( وهو رمز متعارف عليه بين أفراد الأسرة ) ، وأرهف سمعه ، ثم ضغط على زر الجرس ثانية ، بانتظار أن يسمع من خلف الباب صوت زوجته أو ابنته أو ابنه . بيد أن الصمت كان مسيطراً خلف الباب ، ووصلت إلى مسامعه خشخشة غامضة في فراغ الشقة الخالية : لاأحد في البيت ، كما يظهر .

فكر في نفسه ساخراً : « زوجتي المحبوبة ، وأولادي الأحباء يستقبلونني بالأحضان » .

بعد أن فتح الباب بمفتاحه ، وأدخل الحقيبة إلى البهو ، الذي فاح منه دفء الغبار المنزلي ، نظر إلى المرآة فوجد نفسه مرهقاً ، متعباً ، وشعر فجأة ، أنه كان سعيد الحظ ، مع ذلك ، بصورة غير متوقعة . أجل إنه كان متعباً إلى حد كبير ، وأراد أن يخلو إلى نفسه ، ويخلد الصمت ، ويستلقي على الأريكة ، بوهن وتراخ ، دون تفكير . أراد أن يقلب المجلات ، ويتصفح الجرائد والرسائل ، التي تلقاها أثناء غيابه .

خلع سترته ، وأخذ ينتقل بين غرف شقته . واضح ، أن الأسرة رحلت إلى المنزل الريفي ، كانت النوافذ في الشقة الحارة كلها محكمة

الاغلاق ، وقد أسدلت الستائر عليها . وكان الهواء المحبوس الخانق يسود أنحاء الشقة كلها ، وكانت أشعة الشمس ، المتغلغلة من خلال ثقوب الستائر ، ترقد هنا وهناك ، على أرضية الشقة الخشبية ، وعلى السجاد والأثاث . أما في المطبخ ، الذي تخلو نوافذه من الستائر ، فقد كانت تفوح منه رائحة غطاء الطاولة المشمعي ، الساخن من أشعة الشمس . أما ايصال الهاتف ، فقد وقع على الأرض ، من على الخزانة الصغيرة ، واصفر لونه بتأثير أشعة الشمس ، فغدا أشبه بلفافة شبه مستديرة .

في كل مرة ، عندما كان يعود من سفر خارج الوطن ، كان يسيطر عليه احساس بأنه عاش طويلاً مرحلة حقيقية ، خاقتها لعبة الحياة ، وأن عليه ، وهو المنهاك من هذه اللعبة ، أن يتحرر ، في أحاديثه مع الأصدقاء ، من شيء خليط ، أشبه بالكوكتيل ، من الأحاديث الكثيرة في المطاعم ، التي كان عليه أن يمارسها فترة من الوقت ، مسلياً طموحه ، متمتعاً بفضوله .

والآن ، أراد أن ينزع عن نفسه عبئاً شاقاً من الناحية الروحية ، ومزيفاً في الوقت نفسه ، ناجماً عن ابتساماته ، وعن ثرثرة المثقفين العقلية ، أراد أن يغتسل من العذوبة المعطرة للصابون الأجنبي ، الذي كان مشبعاً بشيء ما أنثوي ، من الرائحة الكيميائية الصناعية التركيبية ، التي كانت تسود صالات السينما الباريسية وغرفته في الفندق ، أراد أن يغتسل مما قد عاشه وانقضى .

كان « الدوش » البارد يغسله بإبر مطرية ناعمة ، وكان الماء يطبطب بضجيج ربيعي منعش . كان باب الحمام مفتوحاً ، وبدا وكأن صدى البحر يتردد في الشقة الخالية من السكان . بعد أن دلك جسمه بالمنشفة ،

تمشي بقدميه الحافيتين بين الغرف على الأرضية الخشبية الدافئة . وقبل أن يرتدي ثيابه ، قال محدثاً نفسه ، بصوت عال في غرفة الطعام : « حسناً ، كل شيء سيزول وينقضي » ، وسكب قدحاً صغيراً من الكونياك ، وكرعه ، فوخزته موجة جارحة ، وشعر بشيء من الراحة اثر ذلك .

ثم استلقى على الأريكة في مكتبه ، وأخذ يقلب ما غص به صندوقه البريدي من المجلات والصحف والدعوات المختلفة لأمسيات ومعارض ، وأخذ يفتح مغلفات الرسائل دون أن يقرأها ، ناظراً فقط إلى عناوين المرسلين ، أملاً بالعثور على اسم معروف . وتعثرت نظراته بمغلف أزرق اللون ، وضعه ببطء على زاوية الطاولة الصغيرة ، حيث استرعى انتباهه على الفور خاتم رسمي لم يألفه « الإدارة العامة لوزارة الداخلية » ، وأثار في نفسه ، حالاً ، قلقاً مريباً .

« إذن ، بدأ كل شيء من جديد . . . أو على الأصح ، ما يزال كل شيء مستمراً ؟ » . وتريث قليلاً ، ثم مزق المغلف من طرفه ، وقرأ بسرعة ، أن عليه هو ، فياتشيسلاف أندرييفيتش كريموف : الحضور في الرابع من تموز ( يا الشيطان بعد ثلاثة أيام ؟ ) إلى المحقق توكاريف على العنوان التالي : شارع بتروفكا ، البناء ٣٨ ، الطابق الثاني ، الغرفة رقم ٢٠٠ ، حاملاً معه جواز سفره أو وثيقة تثبت شخصيته . « لماذا المرة الثانية ؟ لقد التقيته في الاستوديو . أجل ، المحقق توكاريف أوليغ غريغوريفيتش ، شاب مهذب ، ذكي ، ذو شاربين أنيقين . ولكن ، مهما حصل لي ، فلن أذهب إلى بتروفكا ، أيها العزيز أوليغ غريغوريفيتش ، ولا أريد أن تصبح ظلاً لما حدث » .

في خضم تأملاته ، أبعد كريموف الدعوة الموجهة إليه ، وأخذ يقلب مقالاً يستعرض أفلام مهرجان باريس ، فشعر بشيء من زيف القرار الذي اتخذه قبل دقيقة واحدة ، وبالتشويه المبتذل في تقويم فيلمه ، وبالمعارضة الساذجة لـ « الأخلاقية الاشتراكية والنقاء الروحي بقساوة الأبطال الغربيين ، الذين يتميزون بعالم داخلي ، أشبه بالمحارة الفارغة » .

« يالنقادنا من مهرة . ولكن ، لم هذه النزعة البدائية المبتذلة ؟ » — وضحك كريموف غاضباً ، متصوراً بوضوح الوجه الممتليء للمخرج الأمريكي الشهير ، الروسي الأصل ، الإنسان الموهوب اللاذع ، الذي عرض فيلماً أذهل الجميع ، وهو فيلم « سودوم وغومورا » يتحدث عن هلاك مستشفى المجاذيب — الذي يرمز لهلاك البشرية التي فقدت الرحمة . — لو كان محاججي جون غريتشمار معي لقهقه عالياً . «النقاء» ، « الأخلاق » ، « السمو » — أية عبارات مهترئة ، يا الهي ، اقتبسناها البرهان والدفاع ، وتسلحنا بها من الرأس حتى أخمص قدمينا . نحن ، النخبة ، نسبنا لأنفسنا الطهارة الملائكية ، دون النظر إلى أي اعتبار ، تاركين الغرب كل ما هو شيطاني شرير » .

وبدأ يقرأ بعصبية وقهر ، مقالة انتقادية أخرى ، حيث تراءت له من جديد العبارات الجوجة عن الجنس ، والشذوذ ، واللاأخلاقية في فيلم جون غريتشمار ، وقبل أن يكمل قراءتها ، رمى الصحيفة جانباً ، وهو يحدث نفسه بصوت عال :

— يا البلاهة ، فليأخذه الشيطان ، يالها من بلاهة . . .

لقد فاز كل منهما بالجائزة ، ودعيا كلاهما إلى حفلات الافطار ( مخرجان من الدولتين العظميين ) ، وكانا يلتقيان كل مساء في بار

الفندق بعد عرض الأفلام السينمائية ، كان أحدهما يقدم للآخر الويسكي والفودكا أكثر من اللازم ، رغم أنه كان من المستحيل التفوق على الأمريكي في الشراب . وأمضيا ليلتين في الأندية بدعوة من غرينتشدار ، وفي كل مرة كانا يتناقشان حول مصائر روسيا ، وكان يفرق بينهما ، إلى حد الكراهية المتبادلة ، تباين المواقف ، ولكن كان يجمع بينهما ، في الوقت نفسه ، شيء ما ، ربما هو فضول لا حدود له ، لمعرفة أحدهما الآخر .

كانت الليلة الثانية في النادي ، منهكة بصورة خاصة ، بالمناقشات الحامية ، وبكثرة الشراب والمشاهد . وفي الصباح ، قبيل بداية العروض السينمائية الصباحية ، كان يقلب ، ورأسه موجوع ، صحيفة « باري — ماتش » على الطاولة ، راجياً من الظروف أن تخلصه اليوم من حفلات الكوكتيل ، ومن ربطة العنق المحكمة الشد على عنقه ، ومن سموم غرينتشمار الكحولية ، وأن تسمح له بالتقاط أنفاسه ليتنفس بحرية ، وليتسكع دون تفكير في شوارع باريس المسائية . كان بهو الفندق واسعاً رحباً ، وقد غطيت أرضه بالسجاد السميك المزين بنقوش شرقية وليست فرنسية ، وكانت تظهر فيه فخامة المرايا الأمريكية ، والمقاعد الوثيرة العريضة ، والأرائك المنجدة بالجلد الصناعي الأحمر ، وحركة الأجسام بالقرب من الأبواب الزجاجية ، ومنضدة مضيف المطعم ، والأصوات الخافتة ، والروائح المرة والدافئة للسجاير والعطور — كل شيء كان مألوفاً وعادياً ، بالنسبة لفندق ، وقد رآه كريموف أكثر من مرة في البلدان الأخرى ، وكان نادراً ما يلقي نظرة عابرة على وجوه المنتجين والمخرجين ، التي يعرفها والتي لا يعرفها ، الحليقة إلى حد النعومة والملتحية ( نموذجان واسعا الانتشار للوجوه في العالم المعاصر ) ، وعلى

الأجساد الرياضية المشدودة للنجوم السينمائية ، والممثلات الشهيرات ، الصبايا والمتصابيات بآثار الليل ، المتبقية على أعينهن اللامعة بصورة مفرطة . بيد أن شيئاً ما كان يمنع ملاحظته التقليدية ، أما أنه تثاقل في رأسه ، واما السطوع الزئبقي في أعماق المرايا ، ورأى ، دفعة واحدة ، الجميع ، الذين اجتمعوا بعد طعام الفطور وفجأة غطى العرق وجهه ظناً منه أنهم جميعاً يلاحظون نظرته المتفحصة . نقل نظراته إلى صفحة « باري ماتش » ، وفي اللحظة ذاتها ، سمع ضحكاتهم وعباراتهم المتسامحة ـ الساخرة ، كانوا يتحدثون عن فضوله السمج ، الذي لا يحق له أن يبديه نحوهم ، وشعر على الفور باحتقان جلده على وجهه . رفع رأسه عن المجلة ورأى واحداً من جماعة المنتجين والمخرجين ينظر إليه نظرة ثاقبة هادئة : إنه رجل يعرفه جيداً ، خط الشيب شعره قليلاً ، كان يرتدي بزة رمادية ، رجل التقاه كريموف أكثر من مرة . « انني أعرفه ، ولكن من هو هذا الرجل ، من هو هذا ؟ » . وكما لو أنه يلوح من سمك ثقيل ضاغط ، أخذ ، شيئاً فشيئاً ، يتعرف على تسريحة شعره ، وجبينه ، والشيب في شعره ، وربطة عنقه ، محاولاً أن يلتقي بعينيه ، وجهاً لوجه ، وعيناً لعين ، لكن الأعين المتباعدة لم تلتق : كانت عيناه في الظل ، كان يتجنب نظرته ، ومن هناك كان ينظر باتجاهه بجمود ، ومع العرق الذي غطاه فجأة من الضعف ، حتى خشي ألا تتوقف ضربات قلبه ، أدرك أخيراً ، من كان يشبه هذا الرجل . .

مما لاشك فيه ، أن الارهاق العصبي قد يكون سبباً لهذه الهلوسات . وكان قد سمع بأنواع مختلفة من الانعصابات ، لدى أناس من مهنته ، لكنه لم يعرف أن مثل هذه الحالات تحدث على هذا النحو بالذات . « غير ممكن ، سخافة ، ترهات ! أمر يثير الخبل ! » . وعندها ، نهض

ورمى المجلة على الطاولة الصغيرة ، واستعاد عزم سنوات الحرب ، فانطلق بثبات وتصميم نحو هذا الرجل ، الواقف في زحمة المنتجين السينمائيين . لكن هذا الرجل ، ذا البزة الرمادية كان قد اختفى . . . وظهر مكانه المخرج الفرنسي كاود ميلييه ، وهو رجل نحيل ، متقدم في السن ، قوي البنية ، ذو هيئة مستهترة ، جاءته من حاجبيه القصيرين المصبوغين . انحنى كاود ميلييه لكريموف بمجاملة ، عارضاً شعره المسرح بمهارة على صلعته ، الذي كان لا يزال رطباً من الكولونيا . وبدون سبب معروف ، رد عليه كريموف بانحناءة مماثلة ، وقال بمجاملة متكلفة « بونجور مسيو » — وسيطر على ارتباكه ، فسار من أمامه إلى نهاية البهو ، نحو البار ، حيث رأى هناك خلف منصة البار ، كعادته دائماً ، جون غريتشمار ، الذي لوح له بيده مسروراً . لقد كان وجود غريتشمار بمثابة إنقاذ له : « أنا مسرور بلقائك يا فياتشيسلاف » .

بعد يوم واحد ، تكرر شيء مشابه في الطائرة ، حيث بدا له أن كل ما هو أجنبي ، مبرقش ، مختلط بافراط ، مرتبط يومياً بالتوتر النفسي ، ببذل الجهد ، قد انتهى ، وفي الصالة شبه الفارغة من المسافرين على طائرة الآيروفلوت العزيزة ، شعر بالإشراق والصفاء ، وسمع الكلام الروسي . . . وشعر بالاستغراب من وجود ذبابتين في الطائرة ، هنا ، على ارتفاع تسعة كيلومترات . كانتا تزحفان على زجاج الكوة المستديرة ، وكانت أشعة الشمس تلقي ضوءها الساطع الذهبي على أكوام الغيوم ، التي تبهر العين بتجاعيدها الجامدة في الأفق ، أما السهل المسطح من الغيوم المنخفضة فكان يبدو وكأنه محيط متجمد . وعبر شقوقه ، كانت ترى بصعوبة كبيرة ، وفي عمق سحيق يصعب

تصوره ، المدن الغارقة تحت مياه هذا المحيط ، وخطوط الطرق والغابات القاتمة .

كان كريموف ينظر إلى الجبال الجليدية الجبارة ، إلى الذبابتين الزاحفتين على زجاج كوة الطائرة ، وكان من دواعي سروره أن يفكر بعدم التطابق بين العلو الشاهق وبياض الغيوم الناصع وبين الذبابتين السائحتين ، اللتين دخلتا إلى صالون الطائرة ، أما من مطار شيريميتيوفو بموسكو أو من مطار أورلي بباريس . كيف ؟ ومن أجل ماذا دخلتا ؟ .

وبعد أن فكر بعدم التطابق هذا وبـ « لماذا » الحتمية ، رأى نفسه ، بمتعة ووضوح ، وقد تحرر ببساطة ما ، من الطائرة ومن جسمها الفولاذي وموادها ، ومن المقعد الذي كان يجلس عليه ( بيد أنه حافظ على وضعية الجلوس في الجو ) ، رأى نفسه طائراً محلقاً فوق صحراء بيضاء ، فوق الضياء الممتد النجوم ، التي تغسلها الرياح والشمس .

« أنا أعرف ماذا حصل لي — أكد كريموف لنفسه ، محاولاً تفسير حالته — لقد تحقق حلم في شعوري . كنت أرغب دائماً بامتلاك جهاز طيران ، من نوع طائرة عمودية بمقعد واحد ، وكانت رغبتي شديدة أحياناً بالابتعاد عن الجميع في آخر اليوم ، والارتفاع فوق الأرض ، والتحليق بدون طرق ، والهبوط في مكان ما ، في مرج أسطوري يخبو عند الغروب ، حيث يرنو هدوء الغابة إلى البحيرة . . . ولكن بأي مناسبة فكرت بهذا الأمر ؟ في تلك الأثناء ، رأيت نفسي في ردهة الفندق — إنساناً وحيداً بين حشد من الناس ، يرتدي الملابس الأنيقة ، ويتقن خلق مشاعر الآخرين وابداعها ، لكنني إنسان زائد خارج بلدي . — وشعرت بشيء من الحرج . . . ولكن كيف أفسر ، أنني

أشعر الآن بوضوح ، بضغط الهواء على وجهي . وباختناق مؤلم في صدري ، وبتحرر كامل من المادة . . . ؟ » .

اقتربت المضيفة ، متمايلة برشاقة على كعبي جزمتها ، مبتسمة بترحاب ، تحمل طبقاً كانت تتصاعد فوقه فقاعات الماء المعدني من الأقداح ، سألته فيما إذا كان يرغب بقدح من ماء « بورجومي » المعدني ، — اقتربت نحوه من الصالة المضيئة ( هذا هو الجمال المادي في صورة امرأة ) ، أما كريموف فقد صمت ، غير راغب بالرد على ابتسامتها ، أو الاستماع إلى همساتها الناعمة ، والنظر إلى هذه المخلوقة الشابة ، الكاملة من الناحية الخارجية ، التي كانت تعرف من أي بلد عائد ، وكانت قد شاهدت أفلامه . كل شيء أصبح واقعياً بصورة ثقيلة ، بالمقارنة مع ألم التلاشي والاضمحلال المضني في التحليق الحر فوق الغيوم الممتدة ، التي تغطي الأرض . رفض تناول قدح « بورجومي» وطلب قدحاً من الكونياك ، ثم أدار وجهه نحو الكوة الزجاجية . هذا الانطواء لم يلاحظه كريموف في نفسه سابقاً . أغمض عينيه دقيقة واحدة ، وخيل إليه ، في هدير المحركات الذرية الطائرة ، عواء شيطاني ، صراخ الضحايا وبكاؤها ، جوقات من الآلات النحاسية ، المختلطة بالرعد السيمفوني . حاول كريموف التقاط ، حفظ نوتة موسيقية معينة ، لكن الموسيقا النحاسية كانت تتبدل كل ثانية ، وتكبر وتتعاظم ، لتتحول إلى نواح هائل ، كانت تهدر وتعصف في أذنيه ، كأنها صوت الكون ، الذي يتهدد العالم كله ، وتابع تفكيره وهو بين الحلم والواقع : « ايرينا . . . كل شيء انقلب بعد موتها . . . » .

على زجاج كوة الطائرة ، كانت تتنقل الأطياف الشمسية . جاءت المضيفة ذات الشعر الأشقر ، فمدت له فوطة وهي تبتسم — كما في

السابق — بشفتيها اليانعتين ، وسألته من جديد شيئاً ما ، فلم يسمعها . كان غير مكترث بالطعام وبابتسامتها المدروسة هذه . هنا ، لاحت بذهنه فجأة فكرة ، وكأن المحركات الذرية ستغص وتنطفيء ، وستتعثر الطائرة في الجو ، وتبدأ الكتلة الفولاذية كلها بالسقوط إلى الأسفل ، هاوية من عل .

ستصرخ هذه المضيفة بشفتيها اليانعتين ، المدهونتين بالحمرة ( لن يتمكن أحد من تقبيلهما أبداً ) صرخة مرعبة ، وسيصرخ صالون الطائرة كله ، برعب ووحشية ، صرخة الموت . . . . واستغرق في التفكير آنذاك ، محدثاً نفسه : « وأنا ؟ ماذا سأفعل في هذه اللحظة ؟ سوف أنتظر الصدمة الأخيرة وأودع الحياة ؟ أنا أعرف جيداً أنني لن أصرخ ، ولن أطلب الرحمة . . . »

أدار وجهه ، متأملاً الذبابتين الزاحفتين على زجاج كوة الطائرة ، وكان بوده أن يستعيد الحالة السعيدة التي خرقها — التبخر ، كما في الحلم ، على ريشة حمام فوق الأمواج الجوية ، حيث ينعدم الخوف والواجبات — أي نعيم هذا !

« الخوف ؟ هل فكرت بالخوف ؟ »

شعر كريموف وكأن رنين الهاتف يكاد يضربه على صدغيه ، فقد نسي أجراس الهاتف خلال أسبوع . نفض النعاس عن عينيه وارتمى على الأريكة ، ماداً يده بصورة آلية إلى سماعة الهاتف الموجود على الطاولة الصغيرة . سحب يده بسرعة — حتى الآن لم يعرف أحد أنه في موسكو وأول حديث هاتفي من المنزل — انها ظروف المنزل وواجباته وهمومه . لم تعرف أولغا أنه وصل إلى موسكو قبل يومين من الموعد

المحدد ، لذا من غير الممكن أن تتصل زوجته أولغا من البيت الريفي .
واستلقى من جديد ، حالماً بأن يستغرق في العوم السعيد في عالم النسيان ، لكن رنين الهاتف للمرة الثانية أرغمه على رفع السماعة :

— نعم ،— قال بصوت خافت ، منتظراً سماع صوت مولوتشكوف النشيط ، مدير الانتاج . وأسرع ، مستغرباً النفس الحذر في السماعة : — نعم ، أنا أسمع ، تكلم ، ولا تخجل بعد أن ضربت الرقم .

— هذه أنا — غرّد صوت ، شبيه بصوت الأطفال ، على نحو ممدود — مرحباً يا بابا ، أنت وصلت ؟ لقد ضربت الرقم بصورة اعتباطية ، وفجأة أسمعك ترد على الهاتف . انه أمر مذهل ! نحن في المنزل الريفي . بطلب من أمي ، أتكلم معك من كشك الهاتف قرب الشاطىء . لقد شعرت مسبقاً بأنك وصلت . أنا مسرورة بعودتك يا بابا .

— تانكا ، يا كلبي الصغير العزيز — قال كريموف متأثراً ببهجة مفاجئة — إنني لم أرك ولم أسمع صوتك منذ قرن كامل . كيف كنتم تعيشون بدوني ؟ كيف الماما ؟

— الماما ؟ مذهلة .

— بأي معنى ، مذهلة ؟

— أنا أعتقد ، أن أمي أجمل امرأة في العالم ، وهي تشعر بشوق كبير إليك . هذا سر بيننا . لا تفشه . أتعرف لماذا ؟ في الأمسيات ، كانت تجلس في مكتبك وتقرأ . . . . أوه ، يا للهول ! — أخذت تانيا تزعق بصورة لعوبة — لقد اقتربت من كشك الهاتف مجموعة كبيرة من الناس ، وهم ينقرون بالقطع النقدية على الزجاج . بابا ، أنا مسرورة ،

ونحن بانتظارك ! إلى اللقاء ! السيارة في المرآب . لقد سافرنا بالقطار الكهربائي .

— قولي لماما ، أنني سأتأخر في موسكو بسبب أشغال ضرورية ، سآتي لعندكم غداً — قال كريموف ، سامعاً الصوت المتقطع في سماعة الهاتف التي وضعتها ابنته على الجهاز في كشك الهاتف بالقرب من شاطيء الضاحية ، وأحس ، بجلاء ، بمذاق شفتي أولغا ، وبنظرة عينيها الداكنتين المتسائلة من الأسفل إلى الأعلى ، عندما قبلته بشفتيها أثناء اللقاء ، وعبارتها اللطيفة المدللة « ها أنت هنا » ، — وفكر ، كارهاً نفسه ، بأنه قادر على ألا يقول لها الحقيقة ، وعلى اخفاء ما يمكن أن يهينها أو يجرح كرامتها ، فهي لم ترتكب أي ذنب .

تحامل على نفسه ، مجبراً إياها على الانتعاش والنشاط ، فقفز من الأريكة وأزاح الستارة وفتح النافذة على الاشراقة المشمسة لأوراق شجر الحور ، واستنشق حرارة الاسفلت في يوم المدينة الدافيء . دغدغ وجهه زغب أشجار الحور ، الذي يغطي منطقة جنوب — غربي موسكو بكاملها . وطار الزغب في مكتبه . نفخ كريموف الوبر من على خديه ، واقترب من المرآة ، وصعر خده ، قانعاً بأنه حلق ذقنه بعناية في الصباح ، في الفندق ، قبل توجهه إلى المطار . في أيام العطلة وأوقات الفراغ لم يكن يحب الفوضى وعدم العناية بهندامه ، التي كان يسمح بها لنفسه أثناء العمل ، ناسياً الحلاقة ومفضلاً ارتداء السترة والكنزات الصوفية القديمة .

« وهل أعرفه ؟ — فكر كريموف بسخرية ، متعرفاً في المرآة على هذا الرجل المنهك ، الذي شاب شعره ، بعينيه الرماديتين الضيقتين ،

الذي يمت إليه بصلة الرحم ، الرجل المألوف وغير المألوف في الوقت نفسه . وفجأة تذكر ردهة الفندق في الصباح ، وذلك الرجل الآخر بوجهه الذابل في زحمة النجوم المشهورين ، الرجل الخامل ، الحسن الهندام ، والغريب هنا ، وارتجف من الخجل ، من تفاهة الأيام الستة في باريس — ما هذا التعاقب الجهنمي للأحداث ؟ يبدو لي أنني أحيا حياة غير واقعية ، متناقضة ، جانبية . انني أسير ، أتناول الطعام ، أنطق الكلمات والعبارات ، أسافر إلى الخارج ، أحصل على جوائز لست بحاجة إليها ، أما نفسي ، روحي ، فهي هناك ، في ذلك اليوم الحزيراني المرعب ، حيث ماتت ايرينا » .

* * *

# الفصل الثاني

كعادته ، دخل إلى غرفة الاستقبال بخطى واثقة ، خطى إنسان يعرف ، أنه هنا أمام باب مغطى جيداً بغطاء جلدي ثمين ، لا يسمح بوصول ضجيج الاستوديو إلى داخل مكتب المدير ، وأن السكرتيرة البشوشة ، ذات التسريحة الأنيقة ، ستستقبله ، وبرفقتها سيدخل إلى المكتب ، حيث سيجامله من بعيد بالابانوف فاتحاً يديه ، وبصوته العريض « آه . من شرفنا بقدومه ! » — وبنشره لهذا الجو من الطيبة والاحترام والرقة ، سيلوح ايفان كسينوفونتوفيتش بالابانوف ، من خلف مكتبه الكبير ، مثل قنفذ عجوز مبتهج ، ويعانقه ، وكأنه مستعد للموت على الفور ، في مكانه ، من الشمس المشرقة الباهرة ، المتلألئة في مكتبه .

في ذلك الصباح ، دخل كريموف ، المتعب بعد تلك الليلة الرديئة في باريس ، وبعد إقلاعه بالطائرة ، إلى مكتب بالابانوف ، وبذل جهده كي يبدي لامبالاة ودية تجاه السكرتيرة : « كيف صحتك ، يا نينشكا ؟ » — وشعر على الفور بشيء جديد في راحة كفها الفاترة ، وفي نظرتها الفارغة فوق رأسه ، وظهر له شيء جديد في عبارتها ، حيث لم تدخله مباشرة إلى مكتب المدير ، واختفت لحظة خلف الباب ، وهي تقول : « الآن سأعلمه » . بعد دقيقة ، وبعد أن أدخلته إلى مكتب المدير

بايماءة من رأسها ، شعر بأن الريح قد غيرت اتجاهها ، هنا ، بعد رحيله إلى فرنسا .

ــ آه ، تفضل ، تفضل أيها الباريسي ــ قال بالابانوف بصوت أجش ، وكأنه يخرج من صدره ، وبقي جالساً وراء مكتبه ، خلافاً لعادته ، دون أن يرفع رأسه ، الذي يشبه القنفذ ، عن الأوراق التي كان يُبدي وكأنه يقرأها بامعان ، وأشار بيده إلى المقعد المقابل لمكتبه ــ تفضل ، أرجوك . أهنؤك بسلامة الوصول . الباقون سيصلون بعد غد ؟ نعم . أهنؤك بالجائزة الدولية . لقد نوهت بأن الرأسمالية عفنة نخرة ، والحمد لله . فليعطسوا ويمسحوا وجوههم ، وليفعلوا ما يريدون . ولماذا قدمت قبل موعدك ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟ باريس هي باريس ، نساء على « الموضة » ، واجهات مترفة ، بارات ، عصير التفاح المخمر ــ تابع بالابانوف حديثه بصوته الهادر ، وهو غارق بين الأوراق ، مغطياً عينيه الصغيرتين بحاجبيه المتدليين ــ وأنت عدت قبل الموعد المحدد ؟ غير مفهوم . انها مدينة لعوب ، لعوب . . . ن . . . ع . . . . م .

لاحظ كريموف هذا الانشغال الزائف ، والاستخفاف اللامبالي ، وهو ما لم يمكن تصوره ، ولو تلميحاً ، قبل شهر . جلس على المقعد الجلدي ، وقطب جبينه عندما نطق بالابانوف بجملته الأخيرة :

ــ أحدهم قال عبارة جميلة عن باريس ، إنها مدينة المدائن . . .

ــ بارات ، واجهات ، عصير التفاح المخمر ــ إنها قصة أطفال للأغبياء الكبار ــ قاطعه كريموف بضجر ، رامياً سيجارته التي لم يكملها في أنظف منفضة سجاير ، ممتلئة بمشابك الورق ، على طاولة بالابانوف . ــ

أنت ، كما أرى ، مشغول جداً ، ايفان كسينوفونتوفيتش ؟ ربما آتي عندما تنتهي من قراءتك الممتعة ؟ حدد لي وقتاً ، وسأنتظر .

— ز . . . . ع . . . . م ، دفعنا غالياً ثمن الكونترباص . . . ز . . . . ع . . . . م ، نحن جميعاً أغبياء .

حرك بالابانوف جفنيه المنتفخين ، وتنفس كالمصاب بالربو ، مشمراً قميصه عن ساعديه ، كما لو أنه يستعد للصراع ، وحرك حاجبيه الأحولين باتجاه منفضة السجاير ، ثم أمسك عقبة السيجارة بأصابعه المنتفخة ، كما لو أنها فأرة ميتة ورماها في سلة المهملات تحت الطاولة ، باصقاً على أصابعه .

— ز . . . . ع . . . . م ، آسف ، لقد تركت التدخين منذ خمسة أعوام ، — قال بالابانوف مذكراً ، وحرك بشرود حذر الأوراق الموجودة على الطاولة — بِمَ يمكنني إدخال الفرحة إلى قلبك يا عزيزي فياتشيسلاف أندريفيتش ؟ كان بودي جداً أن أفرحك ، جداً جداً ، ولكن بأي شيء ؟

— ليس بشيء خارق للطبيعة — أجاب كريموف ، دون أن يحزر تماماً سبب جفاء بالابانوف ومراوغته — لقد قدمت قبل الموعد المحدد من المدينة اللعوب ، كما لاحظت ، فقط لأني سأبدأ بعد شهر بتصوير فيلمي . إن ما يهمني الآن ، بصورة خاصة ، هو هذا الموضوع فقط — تابع كريموف قوله مؤكداً عدم رغبته بالتلون والتكيف مع شيء جديد ما ، ظهر في فترة غيابه ، وبعد أن أكد على « هذا الموضوع فقط » ، سأل بلهجة رسمية لطيفة : — ايفان كسينوفونتوفيتش ، آمل أن الموقف

لم يتغير في الاستوديو من السيناريو الذي قدمته ؟ وإذا كان قد تغير ، فكيف ؟

— من أعماق روحي ، كان بودي مساعدتك ، من أعماق روحي . . . — جمع بالابانوف مشابك الورق في المنفضة ، وقد أنزل حاجبيه — ولكن . . . هل من المعقول أنك لا تفهم ؟ . . .

— أريد أن أفهم — قال كريموف بحدة هادئة — ماذا قررت بالنسبة لفيلمي ، يا للشيطان ؟

— ن . . . ع . . . م ، أسمح لنفسي بأن أكدرك ، — قال بالابانوف بصرامة وتنفس من جديد مصفراً كالمريض بالربو ، مشمراً قميصه عن ساعدين أشعرين كجذعي شجرة — كيف يمكنك أن تصور الفيلم ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، بعد شهر ، بعد تلك الظروف المأساوية ، . . . بعد وفاة ايرينا سكفورتسوفا ، ليس لديك بطلة رئيسية . ستضطر للهبوط إلى أرض الآثام . أجل ، الكونترباص غالي الثمن !

— دع الكونترباص جانباً ، ايفان كسينوفونتوفيتش — قال كريموف ببرود . — أنت لست صادقاً معي . أرجو أن تشرح لي ما حدث بخصوص الفيلم ، وأرجو ألا تكذب علي ولا تخدعني ، إذا سمحت .

« لماذا قلت « لا تكذب » ؟ وعلى أي أساس ؟ » .

— أود أن ألفت انتباهك ، إلى أنني أنا ، ما زلت حتى الآن ، مدير الاستوديو . — نطق بالابانوف وقد احمر وجهه احمراراً شديداً ، فاكتسب شعره الشائب ، الشبيه بشعر القنفذ ، لون الثلج المتساقط ، بالمقارنة مع الاحمرار الشديد لجبينه العريض . — عفواً ، لست أنت ،

بل أنا المسؤول عن الانتاج السينمائي ، بما في ذلك فيلمك، يا فياتشيسلاف أندريفيتش . وذلك على الرغم من شهرتك التي ، أستطيع القول ، بأنها أفقدتك صوابك ! — صرخ بالابانوف بصوت أجش ، وهو ينبش بأصابعه بقلق ، مشابك الورق في المنفضة . — وأنت ، كما يبدو ، لا تريد تحمل أية مسؤولية عن فيلمك ، وكأن كل شيء مسموح لك ! إنك عابث ، يا فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنك تعبث أكثر من اللازم . . .

— مسؤولية ، أعبث ؟ — هز كريموف رأسه . — سخافة .

— لا تتظاهر بالجهل ، ولا تعتبر نفسك ساذجاً ، فياتشيسلاف أندريفيتش ! — أبعد بالابانوف المنفضة ، وقد ارتفع جفناه إلى الأعلى ، وكانت عيناه الرصاصيتان تبحثان عن شيء ما على قصبة أنف كريموف ، وقد احتقنتا بنار حادة — أنا إنسان تابع ، مقيد ، ومهما كان موقفي منك ، ليس باستطاعتي مساعدتك ، رغم مطالبتك لي بألا أكذب ، — قال بالابانوف شاعراً بالإهانة ، مما زاد من احمرار وجهه . — أنا آسف . . . وأشك بأن تصور أنت هذا الفيلم . فهذا أمر لم يعد من صلاحيتي .

— تشك ؟ لماذا ؟ من صلاحية من اذن ؟

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، ألا تدرك أنه نتيجة ما حدث في مجموعتك التصويرية ، أنت مهدد بالمحاكمة ؟ أم أنك ، أنت الرجل المشهور ، تعتبر القوانين السوفييتية لا تنسحب عليك ؟

— ماذا تعني ؟

نطق كريموف بـ « ماذا تعني » ، وأخذ ينقلب إحساسه الخانق إلى كآبة ، إلى عتلة ثابتة لا تلين ، تدور في نفسه ، وهو ما بدأ قبل

شهر ، بعد ذلك اليوم المحتوم ، حيث بدا وكأن حركة الحياة الطبيعية قد توقفت لوقت طويل ، وأنه ، هو كريموف ، لن يعود سريعاً إلى عماله . ولكن ، قبل سفره إلى فرنسا ، تحادث لمدة ساعة مع بالابانوف ، الذي أسف لما حدث ، وكان متعاطفاً بجزع ، ومهتماً بمتابعة العمل في تصوير الفيلم ، أما هذه الرسميات الزجاجية ، التي صدرت الآن عن مدير الاستوديو ، والذي لم يستخدمها من باب الحذر إلا نادراً ، فقد أثارت في نفس كريموف اشمئزازاً مضنياً .

— أظن أنك قلت المحاكمة ؟ — قال كريموف متظاهراً بالدهشة — على أي شيء يريدون محاكمتي ؟

توقف بالابانوف عن العبث بمشابك الورق ، ولوح بعصبية بيده التي تشبه الرفش ، تعبيراً عن اليأس .

— اسمح لي بأن أخبرك ، فياتشيسلاف أندريفيتش — قال بالابانوف بصوت عريض لاهث — بأنني استُدعيت للتحقيق . . . بخصوص ذلك الحادث الغريب . . . العجيب . . . أنا أتحدث عن التحقيق في تلك القضية المأساوية . . . في تلك القضية الاستثنائية .

— ايفان كسينوفونتوفيتش ، تحدث بوضوح أكبر ، أنا أصغي إليك بانتباه .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، لقد تبين أنك كنت على علاقة خاصة مع الممثلة سكفورتسوفا ، التي ماتت بصورة مأساوية ، ولذا فقد اخترتها لتقوم بالدور الرئيسي . . .

— حتى لو كان الأمر كذلك ، رغم أنه ليس كذلك ، فما علاقته بالقضية الاستثنائية ، حسب تعبيرك الملطف للغاية ؟

« غريب — أنني أرى نفسي من فترة لأخرى من الجانب — فكر كريموف وهو يتأمل وجه بالابانوف الكبير ، المصبوغ بالدم ، ويرى ، في آن واحد ، نفسه بصورة ضبابية قليلاً ، جالساً على الأريكة مقابل الطاولة — يرى وجهه الذي تبدو عليه آثار الإرهاق تحت عينيه ، وقد ارتدى بزته الصيفية وقميصه النضر ، الذي ترطب تحت ابطيه . — ما عمر هذا الرجل الذي خط الشيب شعره ؟ وهل يشبه القاتل المحترم لعشيقته ، كما يمكن أن يتخيله بالابانوف ، أو ربما أنه يشبه بطل فيلم بوليسي فرنسي عن حياة المثقفين المعتدين بأنفسهم والمحبين لذواتهم ؟ » .

— اشرح لي ، ايفان كسينوفونتوفيتش ، بصورة أوضح ، ماذا تقصد تحديداً ؟ — كرر كريموف برصانة — وبماذا يمكنك التأكيد إذا كنت لا تعرف شيئاً ؟ على الأصح ، إذا كنت لا تعرف رأسك من رجليك ، حسب التعبير العسكري ، وأعتذر أشد الاعتذار على العبارة الفظة . .

— كن حذراً ، كن حذراً — صاح بالابانوف ، وهز وجنتيه الثقيلتين ، دون أن يرفع رأسه — إن قضاياك المريبة ، على أقل تقدير ، تبحثها مؤسسات أخرى ، ولا أرغب حتى بالالتفات إليها . أما بالنسبة لتصرفك اللاأخلاقي مع سائق سيارة الاستوديو ستيبان غولين ، فهنا . . .

« . . . فهنا ، وباعتباره مدير الاستوديو ، سيضع النقاط على الحروف . على أية حال ، يبدو الأمر ، من بعيد ، مضحكاً وغير مفهوم : أنا الرجل المثقف ، ضربت السائق . . . ولكن ماذا كان سيفعل هذا الحكيم بالابانوف ، عندما كانت سكفورتسوفا راقدة

بلا وعي على العشب ، في ثوب السباحة الرطب ، ولم تكن السيارة موجودة في مكانها ؟ ماذا كان باستطاعته هو ، بالابانوف ، أن يفعل ، إذا ما رأى آثار أحمر الشفاه على أعقاب السجاير البارزة من المنفضة على باب السيارة ، التي وصلت متأخرة أربعين دقيقة ؟ هل كان سيشعر بالغضب والغيظ من السائق الذي ذهب إلى مكان ما ، وكان على الأغلب ينقل ركاباً إلى المنازل الريفية ، في الوقت الذي كانت فيه سكفورتسوفا تصارع الموت ؟ أجل ، غير مفهوم . لكن بالابانوف ، هذا المرائي العتيق ، رجل ذو وجهين ، إنه ممثل في مكتب . ربما ، لهذا السبب ، أشعر بالتقزز من صوته الخشن المتقطع ، ومن احمرار جبينه ورقبته ، ومن رأسه الشبيه برأس القنفذ ، والأهم من ذلك ، من عينيه الشبيهتين بعيني القنفذ ، الذي يخفيهما ، محافظاً على هيبته ، خائفاً من النظر إلي . إنه ينفض يديه من المسألة » .

— يمكنني أن أتصور تماماً آلامك ومعاناتك ، أثناء استجوابك في إدارة خطيرة . انني أقدم اعتذاري للدقائق المزعجة التي سببتها لك — قال كريموف ساخراً ، وهو ينظر إلى جفني بالابانوف المتحركين باضطراب ، ورأى نفسه من جديد في الماضي الضبابي الغامض : شكل وجهه البيضوي الشاحب ، وضعيته وهو جالس على المقعد — والتحذير الذي وخذه بألم ، أزعجة بصورة جدية للمرة الأولى : « ماذا حل بي — إنني منهك حتى النهاية ؟ ولا أستطيع الخروج من هذه الدوامة ؟ إنني سأنهار اذن » .

قال بالابانوف بصوت غليظ :

— نعم ، لم أشعر بالسرور أثناء إجابتي عن الأسئلة .

— لم تكمل حديثك : الكونترباص غالي الثمن . ولكن ، يجب

الافتراض أن أجوبتك لم تكن سوداء اللون . لهذا ، لا أسألك ، ايفان كسينوفونتوفيتش ، ماذا ، وكيف أجبت . أريد أن أعرف شيئاً آخر : ماذا قررت بخصوص الفيلم أثناء غيابي ؟

— آسف ، لن تصور الفيلم الآن .

— ماذا يعني « الآن » ؟

أبعد كريموف مرفقيه عن مسندي المقعد ، ونهض بسرعة ، متوتراً ، شاعراً ، للحظة ، بظلمة تغشى عينيه ( « أوه ، يا لوضعي السيء ، أي ضعف هذا ! » ) ، وعلى الفور ظهرت أمامه ، من خلال الطاولة هيئة بالابانوف الحرقاء ، بكتفيه المنحدرين ، وقده السمين ، وقد نهض مذعوراً من المقعد بقوة خوف غريب ، غسل الاحمرار عن وجهه . وتصور كريموف ، وهو مندهش من فكرته المضحكة ، كيف كان سيصرخ مذهولاً ، هذا القنفذ الحذر بالابانوف ، وسيرتد عن الكرسي ويقلبه ، لو أنه لمسه باصبع واحد على أنفه الكبير ، وهو يقول له : « يا عزيزي المعذب من أجل الحقيقة » ..

— أعتذر على حدتي — قال كريموف وهو يميل رأسه بصورة مضحكة ، مطمئناً بالابانوف — في جميع الأحوال ، لن تتمكن من كبح خيالك الجامح ، وهذا سيقودك بعيداً . ماذا يعني « الآن » — قال مخصصاً — الآن ، الآن ، الآن ، إلى أن أدان ، إلى أن أدخل السجن ، أجب : من اتخذ هذا القرار ؟ أنت ؟ لجنة شؤون السينما ؟ نصحت بذلك إدارة خطيرة في شارع بتروفكا ؟

ارتدى بالابانوف سترته المعلقة على ظهر المقعد ، وشد أزرارها

بصورة موحية ، مبرزاً بطنه الدائري مثل المشد ، وقال بنفس متقطع ، يصدر صفيراً :

— أنا أيضاً أرجو المعذرة . فياتشيسلاف أندريفيتش المحترم ! يجب أن أغادر مكتبي الآن . ولكن . . . أرجو الصفح — وبات وجهه باكياً ، وداس بقدميه حول المقعد جيئة وذهاباً ، مبعداً ما بين يديه — أرجو الصفح ، يا عزيزي ! ولكن ، هل من المعقول بعد كل ما حدث ، أنك لا زلت تأمل ؟ لا زلت تطالب ؟ لا زلت تسخر ؟ لا تسبح بين الغيوم ، امش على الأرض ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟ هل تدرك بم أنت متهم ؟ لقد أحببتك واحترمتك .

— متهم ؟ — استغرب كريموف ببرود ، وتابع حديثه بلباقة مفرطة — أشكر لك الصدق الجزئي في عبارتك الأخيرة . إنني أدرك أن مصيري لا تقرره أنت ، ايفان كسينوفونتوفيتش . أفضل تمنياتي لك .

* * *

« أي حديث سخيف أخرق هذا ! ولم كان هذا الحديث ؟ » .

قبل سفره إلى مهرجان باريس ، دعا بالابانوف كريموف إلى مكتبه ، وأثناء تقديم الشاي له ، حرك حاجبيه بطيبة قلب ، محاولاً اقناع كريموف باصرار ، أنه في هذه الفترة ليس هناك من يمكن إرساله إلى الرأسماليين سوى كريموف ، وأنه بحاجة إلى شيء من الانسجام ، وتغيير الجو بعد كل ما حدث . ومن المفيد له أن يرنو إلى البرجوازية ، وأن يظهر أمام الأوساط السينمائية العالمية في المهرجان ، وربما يحضر

معه جائزة من الجوائز إلى موسكو ، وهذا ما يأمل به هو بالابانوف ، ومسؤولون من مستوى أرفع . وأثناء حديثه على هذا النحو ، كان يدفع ملعقة الشاي باتجاه السقف ، كانت ضجته المألوفة ، وتشميره الحماسي عن ساعديه ( استعداد غير عاجل لمسألة هامة ) — كل هذا كان مألوفاً بالنسبة لكريموف ، منذ أكثر من عام واحد ، كل شيء كان عليه أن ينبىء بأن بالابانوف عجوز طيب ، راعي الفنون ، ليبيرالي بميزة معروفة هي الاحمرار السريع من الاستغراب ، ومن السخط معاً ، وتأنيب مرؤوسيه بصوت مرتفع ، وهو أمر لم يلحق ، عموماً ،ضرراً بأي كان ، وذلك لأنه لم يكن من هواة الوشاية والدسائس في الاستوديو ، حيث كان في كل مرة يقضي على الخلافات ، ويقوم بتهدئة المختلفين ، ويقضي على التوترات الناشئة بين مجموعات التصوير .

أما الآن ، فقد خرج كريموف من عند بالابانوف وهو يشعر بوسوسة مخربة غبية بلهاء ، باستبدال مخادع الواقع القديم بواقع جديد سخيف ، لم يدركه بعد بشكل كامل . وما كاد يجتاز عتبة مكتب المدير ، حتى حركت السكرتيرة ، ذات الوجه البعيد الغور ، كتفها بسرعة ، ثم قالت بلطف ودلال مزيف للرجل ذي الشعر الطويل ، الذي كان جالساً على المقعد ، مرتدياً سترة ( « تفضل ، رفيق كوزين » ) ، فعبر الرجل العتبة ، وهو ينظر بحنق إلى كريموف ، واندفع إلى الباب رافعاً رأسه ، بكبرياء رجل معتبر ، شهير ، لحقت به إهانة ، وأرغم على الانتظار طويلاً .

« أي سخيف هذا الـ « كوزين » — حدث كريموف نفسه ، عندما رأى المخرج ، العامل في التلفزيون ، الرجل المتماق البشوش أثناء

اللقاءات ، الذي ينفرج فمه عن ابتسامة معسولة ، تخفي وراءها نظرة ملؤها الحقد المتعالي .

بيد أن ما آلمه أكثر من أي شيء آخر ، هو أنه وفق الطريقة التي اتبعها وحفظها منذ زمن طويل ، في أن يكون ودوداً وساخراً ، دون إساءة ، مع زملائه ، فقد حنى رأسه لكوزين ، بقوة العادة ، ولعن تلك الانحناءة التي كانت تعني الضعف ، بل وحتى أنه توقف في غرفة الانتظار .

— لا تزعلوا من عجوز غبي كبير السن ، ولا تشعروا بالامتعاض ، يا أبناء القبيلة الواحدة العظماء — قال كريموف بصورة ساخرة مؤثرة ، بانحناءة راهب غيورة ، أصبحت لسبب ما ، دارجة في الفترة الأخيرة ، مثلها مثل تبادل القبل بين الرجال في أوساط الممثلين ، وبعد أن سعل بخفر ( واضعاً راحة يده على فمه ) ، مقوساً ظهره ، ومردداً « الآن ، الآن » بحركة خادم مطيعة في مسرحية ، وأغلق الباب من الممر ، ملاحظاً ، بسرور خلال ذلك ، وجهي كوزين والسكرتيرة المصعوقين — مهرج ، ماجن ، بهلول ، ممثل رخيص — قال كريموف بصوت عال ، وضحك في الممر شبه المظلم ، محتقراً نفسه لما كان مكروهاً بالنسبة له ، وما لم يستطع ، ولم يرد ، مقاومته لسبب ما . ماهذا ؟ يفوح مني تهريج غير معقول ! وكأني ، لاعتزازي وفخري بنفسي ، أحرم الجميع من القدرة على أن يكونوا أناساً عاقلين . وأي إنسان آخر في نفسي ، يملي علي هذه اللعبة التي تعافها روحي ؟ » .

ولكن ، عند سيره في ممرات الاستوديو إلى مجموعة التصوير ، وبوقوعه بين الدهاليز المظلمة الممرات تارة ، وبين أشعة الشمس القوية ،

القادمة من الممرات ، والتي تكشف عن ساحة الاستوديو ، تارة أخرى ( وهناك كان يسود اندماج سعيد لغيوم الصيف فوق أشجار الحور ) ، تذكر كريموف ، من جديد ، يوم موت ايرينا ، المشابه لهذا اليوم ، من حيث الحرارة والاشراق ، والخضرة . في تلك الأثناء ، سار كريموف متجهاً أيضاً إلى مجموعة التصوير ، وكانت ايرينا تنتظره في غرفة مدير الانتاج ، من أجل الذهاب إلى دير سباسكي ، لمراسة الطبيعة ، حيث كان من المقرر تصوير المشهد في ذلك اليوم ، سار كريموف في هذا الممر بالذات ، كما يسير إنسان لا يشك اطلاقاً ، بثبات كل ما هو أرضي ، وكان مزاجه صباحياً ناضراً . لقد كان كل شيء رائعاً ، موفقاً ، وقد تم العثور على الممثلة ، واقرارها لدور بطلة الفيلم الرئيسة ، وكان من المفروض أن يبدأ التصوير في شهر آب .

والآن ، كان يلتقي في زوايا الممرات العديدة ودهاليزها وجوهاً وأشخاصاً معروفين ، كان بعضهم يتظاهر بالانشغال ، ويدير وجهه كما لو أنه عن غير قصد ، وكان بعضهم الآخر يحييه بحركة غير ملحوظة من الذقن ، وآخرون كانوا ينظرون بنهم إلى حدقتيه بفضول لا يفتر ، الأمر الذي كان يعذب الكثيرين ، المستعدين للدفاع عنه وادانته ، في الوقت نفسه ، على السر الذي يدغدغ الأعصاب ، سر موت الممثلة الشابة الموهوبة .

* * *

# الفصل الثالث

في الشتاء ، كانت تقيم في حي أوردينكا ، عند قريبتها ، أما في أوائل الصيف فقد انتقلت إلى فندق « بالتشوغ » المتواضع ، القائم في شارع بياتنيتسكايا ، مقابل الجسر القديم ، عبر القناة «كنافا» . كانت هذه زاوية هادئة من منطقة زاموسكفوريتشي ، حيث كانت تنتهي ضجة الشوارع الرئيسية بحشودها البشرية الزاحفة على الممرات ، وببريق السيارات وضجيجها ، وبرائحة الغازات التي تقذفها السيارات ، وبطوابير الناس المتزاحمين لشراء البوظة والعصير ، وبمقاهيها الغاصة بالناس ، التي تشبه الحمّامات لانحباس الهواء فيها ، وبتجوال الناس على ساحة تياترالنايا ، وفي جادة ستاليشنيكوف ، وفي شارع بتروفكا . بالقرب من الفندق ، كانت الشوارع الضيقة على الجانب الآخر من القناة ، تشبه مدينة تجارية قديمة ، برصانتها الخادعة ، ومخابزها الصغيرة ذات الستائر القماشية المخرمة على واجهاتها ، وبالمرايا القديمة الطراز في صالونات الحلاقة ( التي تفوح من أبوابها رائحة كولونيا « شيبر » ) ، وبأشجار الزيزفون القديمة ، التي لا تزال قائمة هناك ، حيث كانت تقوم في الماضي الأسوار والأسيجة ، وأقواس البوابات والأبراج في الساحات المعشوشبة . هذا الجزء من موسكو ، الذي لم يغطى كله

بناطحات السحاب بصورة مشوهة ، كان كريموف قد صوره في مشاهد قبل الحرب لفيلم عن العام الحادي والأربعين ، وأحب الراحة المتواضعة لهذه الأزقة والشوارع الضيقة التي لم تهدم كلها .

عندما وصل في ظهر يوم أحد إلى فندق « بالتشوغ » ، كان يلاحظ بفرحة التعرف ، ظل الأشجار السائل على الكورنيش الناعس ، وماء القناة الناعس ، ورذاذ قوس القزح من سيارة رش الشوارع ، وهو في حيرة من السبب الذي جعل ايرينا تنظم هذا اللقاء في الفندق ، الذي تكاد الشمس تحرقه في هذه الساعات . لكنه ، بعد أن تذكر رأسها المرمي إلى الوراء بمرح ، وزوايا شفتيها ، التي انفرجت عن ابتسامة ، وجملتها المسرحية التي أطلقتها بسرعة خاطفة : « أعين لك موعد عمل في فندق « بالتشوغ » ، — أدرك أن هذه لعبة يسعدها ويرضيها مشاركته فيها . ووافق بفضوله . وفي ردهة الفندق ، لم يوقفه الحاجب الشاب ، ولم يسأله إلى من هو قادم ، بل أحنى رأسه مرحباً ، ويبدو أنها قد أخطرته بذلك ، وعندما وصل في الطابق الثاني إلى البساط القرمزي الممدود على الأرض ، وبلغ حجرتها في آخر الردهة ، تصور مباشرة خلف الباب حجرة صغيرة ، خضراء من أشجار الزيزفون المشرقة على نوافذها .

— ادخل ، من فضلك . أنا أنتظر ، ولكن للأسف بدون ثوب السهرة . هل تسامحني ؟

لمح من الباب المفتوح نظرتها ، المصوبة إلى عينيه ، المعبرة عن الثقة المرحة ، مما ولد صعوبة التواصل معها وبساطته في آن واحد .

— أليس على هذه الصورة ، كان الناس يلتقون في القرن التاسع

عشر الطبيب المذكر ؟ — قالت ايرينا ، وانحنت وهي تقول مضيفة — فياتشيسلاف أندريفيتش ، أحبيكم ؟

— وماذا في الأمر ، ليكن كذلك — وافق كريموف بعدم اكتراث . ولم يتمالك نفسه ، فعانقها برفق ، شاعراً بأنها ترتجف من الارتباك . واستسلمت بكامل جسدها ليديه ، ملتصقة به بوجل ، وبدا وكأنها بردت من هذا العناق . — أين ستكون حفلة الرقص ؟ — سأل كريموف باهتمام مقصود . — وإلى أين تأمرين بالذهاب ؟

— الآن سأفكر بكل شيء ، وسأستشير بعضهم ، — قالت بصرامة . وابتعدت ، ولمست المرآة بأنفها ، ثم تنهدت قائلة — لا ، لا ، لا أريد الذهاب إلى حفلة الرقص ، لندعها المساء . ولتنتظرنا العربة . ولكن ألا نسافر معاً إلى أوستراليا ؟ أولاً ، سنلتقي ، عند كل خطوة ، حيوانات الكنغر الرائعة مع صغارها . . .

— ومهما كان غريباً ، فالناس هناك يمشون على رؤوسهم — قال كريموف بسذاجة — لكن مارأيك لو نستبدل أوستراليا بمكان ما وطني ؟ حديقة سوكولنيكي ، مثلاً . نتنزه هناك ، ونتناول طعام الغداء ، ثم نذهب إلى الاستوديو . ينتظروننا في الساعة الثالثة . سنقوم بتصوير اللقطات السينمائية التجريبية . السينما أكثر متعة من آوستراليا ، سترين ذلك يا ايرينا .

— موافقة على الحديقة الوطنية . بدون مخالطة الكنغر .

بقي فترة طويلة غير واثق من موافقتها على التمثيل . في تلك السنة

كان الشتاء كثير الثلج ، والصقيع قارصاً ، وكانت الأمسيات عاصفة في شقة قريبتها ، التي سافرت إلى أرخانغسك ، ذات الغرفة الواحدة . وقد أذهله تعرفه البطيء عليها .

في مساءيوم ماطر ، نزل من سيارة الأجرة في الزاوية ، وسار على قدميه في شارع أوردينكا ، وقد غطته العاصفة من قدميه حتى رأسه ، وكان بصعوبة كبيرة يرى أمامه على الرصيف البقع المضيئة من النوافذ ، حيث رسم غبار العاصفة الثلجي لوالب حازونية ، وفي الأعلى ، إلى جانب المصابيح التي تصر ، كان الثلج يطير بصورة منحرفة ، مائلة تارة ، أو ينتشر على شكل أمواج بيضاء تارة أخرى ، وفي كل مكان ، كان ثمة جنون مندفع عنيف . كان كريموف يمشي منقضاً على الريح ، وقد ارتقى في نفسه الاحساس بالاكتمال المادي للحياة والصحة ، والحنان غير المفهوم . رن الجرس ، ففتحت الباب ، خلع كريموف في الردهة معطف الفراء ، البارد من الصقيع والزمهرير ، والمغطى بالثلج ، وقال بانفعال :

– إنه الشتاء .

رفعت ايرينا عيناها ، ولاح منهما تعبير المشاركة السعيدة .

– عاصفة في الشارع ، أليس كذلك ؟

– عاصفة .

– الثلج يدور ؟

– الثلج .

– الجو بارد ، والمصابيح تئن وتهتز غالباً . جميل الآن أن يستقل

المرء قطاراً ويسافر إلى جهة ما ، ويصغي إلى العاصفة . صحيح ؟ اني لم أراك منذ فترة طويلة . تبدو وكأنك خرجت لتوك من المزلجة ، ورائحة البراري تفوح منك .

وأسندت راحة كفها إلى خده البارد .

لكنني واثقة ، من أنك لم تشعر بشوق لأي كان . نسيت ، غالباً ، جميع من في الدنيا ، أثناء عملك في الاستوديو ، بين الهرج والمرج .

— كان هناك هرج ومرج — قال كريموف ولم يتمالك نفسه من جديد فعانقها وقبلها عند منحنى حاجبها الطري الحريري .

أريد أن تبقى عندي اليوم ، — قالت هامسة ، وابتعدت بخوف خفي ، وجلست على الأريكة ، وعلى طريقة الأطفال هددته ، ثم هددت نفسها بالاصبع ، وهي تقول بصورة مضحكة : — لقد فقدنا عقلنا نحن الاثنان . انها نهاية العالم .

جلس كريموف بالقرب منها ، واستلقت ايرينا بهدوء ، ومدت يديها ، ثم سألته بهمس خفي :

— قل لي ، في أي شيء يكمن مغزى الحياة ؟

— ماذا تقصدين ؟ في أي معنى ؟

— في المعنى المهيب .

— ايرينا ، وهل تظنين أن هناك من يستطيع الإجابة بدقة ؟

ـ لكن ، على أي حال ، يجب أن يكون هناك مغزى رئيسي ما ، لما يحدث بيني وبينك . فأنت لا تحبني ، أليس كذلك ؟

وعضت على شفتها ، وأضاءت عيناها الخضراوان باستسلام معبرتين عن جهل خبيث .

ـ لا ، ليس هذا سؤالي . قل لي ، هل هناك ما يروقك فعلاً في شخصي ؟

ـ هكذا اذن . . .

ـ ألا تريد الإجابة ؟

ـ ايرينا ، كنت أسير الآن وأفكر فيك . كنت أذكر كيف تبتسمين أحياناً ، بصورة غامضة ساحرة . ليوناردو دافينشي كان يعشق ابتسامة الجوكندا . . .

ـ وأنت ؟

ـ عني ، لاداع . لأي حديث . . .

وردت عليه بابتسامة سعيدة ، صريحة .

ـ لا .

ـ ماذا ؟

ـ أنت لا تعرف شيئاً .

ـ ماهو الذي لا أعرفه ؟

ـ الذي ببساطة موهبة الجاذبية ، هذا كل شيء . واحرقت حدقتيه

بعينيها بخوف . — اذن ، تعجبك تلك الفتيات مثلي ؟ وغالباً ، ترغب بأن أكون زوجتك ، ولو لفترة قصيرة ؟ أم لا ؟

— أريد ، ولا أريد . أنت فتاة من عالم آخر . من كوكب آخر . من صحن طائر .

— قدني أنت اذن — قالت مازحة ، وبخوف ، ابتعدت عنه إلى الأريكة . — قدني ، وجهني . فأنت تعرف كل شيء . سأخضع لك قليلاً .

لم يكونا قريبين ، وانحنى كريموف ، وقبل بحذر رمشها الواخذ المدغدغ ، أما أصابعه فقد كانت تمر بلطف على شعرها الطري ، على رقبتها الناعمة المنحنية ، وهنا أحس فجأة بفقراتها الضعيفة ، الشبيهة بفقرات طفلة ، وسيطرت عليه شفقة خارقة ، فأبعد يده ، راغباً بالنهوض ، وهو يحس حركات جسمها الخفرة ، المتعثرة . أما هي ، فبعد أن أغلقت عينيها ، أرجعت رأسها إلى الوراء ، فلمعت أسنانها البيضاء المتشابكة برطوبة ، وانفرجت عن ابتسامة تجمع بين الحزن والفرحة . وهمست قائلة :

— هكذا يحدث ، عندما يفارق المرء الحياة . إنه شيء مرعب . . .

كان يرى وجهها الذي لا يدرك غوره في تبدله الجذاب ، وكان يحس بالهواء الساخن المنبعث من همسها ، وفي لحظة من اللحظات ، كان يوده أن يتصور ، أنه ، وهو الإنسان الجدي ، الخبير ، ليس في العقد الخامس ونيف من العمر ، وأنها ، هي ، ليست أصغر منه بمرتين ، وأنه مغرم بلا وعي ، كما كان مغرماً ، في سنوات بعد الحرب .

بأولغا ، وأنه خاضع مستسلم لوسوسة الشيطان ، المخدر ، الذي لا يستطيع التخلص من حبائله . بيد أنه عندما كان يعانق ايرينا ، شعر لسبب ما ، بحالة شديدة من البرودة ، وبشفقة تخدشه بصورة آثمة .

ـ ايرينا ـ قال كريموف ـ يجدر بنا ألا ننسى ، أننا قد نصبح مضحكين ، سخيفين . أنا بالطبع ، أتحدث عن نفسي .

كان يذكر : في تلك الأمسية الشتوية ، في شارع أوردينكا ، كانت ايرينا تحاول الابتسام ، وتنظر إلى صدره بعينين مرفرفتين ، وقد أخذت الدموع تغشيهما وتسيل منهما . كانت مستسلمة الصمت ، وكانت بصمتها كأنها ترجوه أن يقدم لها مساعدة ما ، وهو ، من أجل إخماد هذا الألم المجهول الموجع ، قال لها مطمئناً :

ـ ماذا بك ؟ وإلا ، فسوف أبكي أنا أيضاً . وهكذا ، سوف ننوح نحن الاثنان .

ـ تحبني الكلاب والأطفال ـ قالت بهدوء ، وهي تمسح دموعها بيدها . ـ يكفي أن أقول في الشارع لأي كلب : « تعال معي ، يا أحمق » حتى يركض ورائي . وقد لاحظت في المنتزهات العامة ، أن الأطفال يقتربون مني حالما أنظر إليهم . . . أما أنت فلا تحبني ، بل تشفق علي . أنت يجب أن تحب فتيات أخرى ، غيري تماماً . لكنني لست امرأة خيالية ، لست امرأة من المريخ . قل لي ، لماذا القوي يعذب الضعيف ؟

ونظرت إليه في عينيه بخضرة عينيها الضعيفتين البريئتين . أما هو ، كريموف ، المصعوق بقناعتها هذه ، فقال على سبيل المزاح :

— ايرينا ، أنت تنظرين إلي ، ليس كما أنا بالفعل ، بل كما لا أريد أن أكون .

— على أية حال ، أنت أقوى مني . فالرجل هو ملك الطبيعة ، صياد ، مدافع ، أما أنا فكائنة ضعيفة من الجنس الآخر ، عليها أن تخبز الخبز وتلد الأطفال .

— ولهذا فأنت أقوى .

— أنا ، أنا ؟ . سألت ايرينا بصوت ممدود . — أنت جاد في قولك ، أم أنك تمزح كعادتك ؟

— لا بالطبع ، أنا أقوى . أولاً ، لدي إرادة حديدية ، وأنا لا أستطيع رؤية دموع الآخرين ، وبخاصة عندما تبكي امرأة . وثانياً ، عندما يضرب طفل ، فانني مستعد لأن أكره البشرية لقسوتها . ولكن ، في أغلب الحالات ، تأخذني الشفقة على الجميع ، وعلى كل شيء ، وعندها يمكنني أن أسامح الناس على أعتى الآثام وأشدها . وأسامح نفسي أيضاً . ان ملك الطبيعة محروم من السلطة ولا يرغب بها . طالما أن الجنس البشري مستمر ، فالمرأة هي ملكة الطبيعة .

أوقفته ايرينا بحركة ضعيفة من جفنيها .

— لا ، أنا أرى طيبتك ، واهتمامك بي ، بفتاة بائسة وجميلة من فرقة بالية مسرح البولشوي ، كانت بدايتها جيدة للغاية ، ثم وقعت لها كارثة . آه ، كم أكره عندما يشفقون علي ويتعاطفون معي : « كم أنت سيئة الحظ يا ايرينا ! » .

— يشفقون ويتعاطفون ؟ وهذا أمر سيء إلى هذه الدرجة ؟

— سيء . . . أنا أدرك عدم الانسجام بيننا . بينك وبيني . أنت . قد أنجزت الكثير ، أما أنا ، فكأنني كسرت قفلاً ودخلت شقة غنية غريبة . غير أنني أحببت الرقص منذ طفولتي . ولم يكن يلزمني أي شيء . لا المال ، ولا المجد ، ولا القيم ، ولا شيء آخر ، أنت تعرف . . . — ونظرت إليه ثانية نظرة خضرة ، وانحنت شفتيها بابتسامة مذنبة . — أتعرف ، إنني أحياناً ، أغضب لهذا السبب على نفسي ، جداً . . . حيث أخرج عن طوري .

— وهل يمكنني أن أساعدك بشيء يا ايرينا ؟

— تساعدني — لا ، لا حاجة . سأتغلب على ذلك . أحوالي جيدة كلها .

— إذن ، كل شيء جيد ؟ — كرر كريموف .

— كل شيء على الإطلاق — قالت ايرينا ، وغرقت بدموعها ، وهي تسحب الهواء بأنفها بصورة متقطعة — أتسمع ؟

— ماذا ؟ — ومسح بظهر أصابعه خيوط الدموع الحارة التي سالت على وجنتيها . — وعلام البكاء ؟

— اتسمع ، أي سكون في البيت ؟ عاصفة . . . . وأي سكون هذا . . .

— وما شأننا به ، بهذا السكون ؟

— لا ، لا . إنه سكون ، أتعرف ، . . . إنه صوت غريب ، شبيه بصوت الظلم والموت .

ـ لازلت طفلة يا إيرينا ، ومازال أمامك الكثير .

ـ أتظن أنني لا أعرف ما هو الظلم ؟ وما هو الإخفاق ؟

ـ أجيبي بصراحة : كيف تعيشين يا إيرينا ؟

لكنها كانت قد لاذت بالصمت ، وجفت الدموع من على أهدابها المغلقة من التعب ، وارتجفت أجفانها ، كانت تصغي وكأنها في غفوة ، إلى شيء ما خفي مكنون ، غير قادر على معرفته وإدراكه ، وفكر كريموف ، بأنه يجب وضع حد لهذا العذاب الطوعي ، ومفارقة هذه الفتاة الرائعة ، التي جذبته برقتها الضعيفة ، وبلغز حياتها الغامض .

في كل مرة ، كانت تستقبله بابتهاج كبير تارة ، وبرشد جدي تارة أخرى ، وكانت عيناها تتلألآن بهيام تارة ، وبحزن تارة أخرى ، وكانت تبرز من تحتهما أحياناً حلقات زرقاء تدل على توعك صحتها . في بعض الأحيان ، وبعد أن تتمرن على جهاز الحركة أكثر من ساعة ، كانت ترقد على الأريكة ، مرتدية البزة الرياضية ، ودون أن تنهض ، كانت تبتسم بحزن ، ، متأملة وجهه ، ولكن ما إن يحاول الكلام ، حتى تغطي فمه بيدها ، وترجوه هامسة : « لاداع ، تعال اليوم ، نستسلم الصمت » . وقد وجدها أكثر من مرة وسط الغرفة ، وهي شاردة جالسة على السجادة وإلى جانبها كتاب ، وهي غارقة في وحدتها ، منفصلة عن العالم كله . وأحياناً ، كان يتملكها مرح شبيه بمرح الأطفال ، وهي نشيطة منتعشة ، رائعة العينين ، وكانت تجره إلى الناس ، إلى الجمع ، إلى « بارك » الثقافة المركزي ، الذي كانت متعلقة به لتوفر الألعاب فيه مثل « الدولاب الشيطاني » و « غرفة المرايا الضاحكة » ، وإلى مطاعم ضواحي موسكو ( كي لا يلتقيا صدفة بمعارفهما من

المسرح ) ، حيث كانت تعلمه رقصة الروك العصرية ، ودون أن تشعر بالحياء من أي مكان ، لافتة الانتباه إليها بشبابها الجريء ، ومرونتها ، وشعرها الأشقر القريب إلى البياض .

مع ذلك ، لم يكن كريموف يعرف كيف كانت تعيش ومن أية موارد . لم تكن إيرينا لتذكره ، أو لتحدثه بشيء عن إصابتها ، ولم تكن تسمح له بأن يراقب تدريباتها على جهاز الحركة ، وبدا ، وكأنها كثيراً ما تمارس أعمالاً جانبية وغير لازمة . جاء ذات مرة إلى شقتها في أوردينكا في الساعة السابعة مساء ، ورآها تمارس عملاً غريباً . كانت مستلقية على الأرض ببزتها الرياضية ، وقد تناثرت من حولها الكتب والمراجع الهندسية ، وجداول اللغاريتم ، وأوراق رسمت عليها زوايا وخطوط ، وكانت هي مستندة بيدها إلى خدها ، تكتب صيغاً وقوانين في دفتر مدرسي ، هاتفة من حين لآخر :

ـ جيوب تمام الزاوية ، جيوب الزاوية ، أي شيء مقرف !

دخل المرح إلى قلبه ، وسأل ماذا يجري في البيت ، فردت بامتعاض ، أنها تحل مسألة هندسية ، لم تستطع أن تحلها في فترة سابقة ، أثناء اختبار قدمته في الصف التاسع ، لكراهيتها الشديدة للقوانين ، وبعد أن أجابت ، خلطت الأوراق بعضها ببعض ، وأغلقت جداول اللغاريتم ، وعضت بصورة عابسة على طرف قلم الرصاص .

ـ ذلك الاختبار ، تلك المذاكرة في الهندسة تراودني في الحلم أحياناً مثل كابوس . أريد أن أتخلص منه ولا أستطيع ذلك . وقد حصل لي هذا الكابوس في يوم عيد ميلادي قبل بضعة سنوات . ـ نقرت

ايرينا بأصابعها بضيق وكدر . – على فكرة ، لدي اليوم حفل ، ابق عندي ، سترى معارفي من ممثلين ورسامين ، وأشقياء لطفاء . . .

* * *

اندفع هؤلاء « الأشقياء اللطفاء » إلى شقة إيرينا بصياحهم وضجيجهم وزعيقهم في الساعة العاشرة مساء : فتبادلوا القبلات ، وصرخوا بعبارات الترحيب الحماسية ، وبعد أن رموا بمعاطفهم وسترهم على أرض البهو ، ملأوا الغرفة بكاملها : كانوا شباباً يرتدون الكنزات السميكة ، وفتيات نحيفات رشيقات يرتدين السراويل . قام أحدهم ( « تتري ، رسام موهوب بصورة نادرة » – قيل لكريموف فيما بعد ) ، وهو أسود الشعر ، قصير القامة ، ذو عينين ضيقتين على شكل زاويتين ، فبسط يده وصاح قائلاً : « إيرا ، إيرينتشكا ، يا ضوء روحي ! » ، ولوح بزجاجة الكونياك . فلم يصغ إليه أحد . عندئذ ، صعد إلى الطاولة ، وحرك شفتيه وحنجرته كما لو أنه يعزف على السكسفون ، وأخذ يقوم بحركات جسدية من الرقص البدائي ، ثم صرخ قائلاً :

– إيركا * ، أيتها الجميلة ! أهنؤك ! . . .

– كفى ، توقف ، دياس ! – كان أحدهم يهدئه بصوت جهوري ، أجش ، كأنه صوت ممثل . – اهدأ ، أريد أن أقول نخباً ! هدوء ، يا عصابة ! سكون كيميائي مطاق !

كانت الفتيات المقشعرات من البرد ، بسراويلهن ، يتزاحمن ، ويجلسن إلى المائدة ، التي أصبحت على الفور وكأنها مجتاحة ، مغمورة ،

* إيرا ، إيرينتشكا ، إيركا – هذه أسماء تحبب وتلطيف لاسم إيرينا – المترجم –

مغطاة برماد السجاير الرطب . وكان الشباب يتسابقون برجولة الفرسان ، بالانحناء أمام إيرينا ، دون الالتفات إلى كريموف ، ما عدا رجلاً متوسط العمر ، ممتلىء البطن ، ذا عين حولاء ، كان يبدو من تحت قميصه الصوفي بقبته المفتوحة وقميصه الداخلي المتسخ . قال الرجل بصوت متعثر ، وهو يمسك بيد كريموف مصافحاً :

– لقد سبق أن رأيتك في مكان ما – قال واهتز مخموراً ، ومقرباً كرسيه من المائدة . – أين ، أين يا ترى . . .

– يبدو لي كذلك أننا التقينا . أين ، لا أذكر .

– سكون . . . كيميائي مطلق ! – هدر صوت الباريتون القوي ، الشبيه بصوت ممثل . – هذا البيت . . . في هذا البيت المجيد ، في بيت المولودة اليوم ، يمكننا البقاء حتى الصباح ! نحن نحب هذا البيت ، لأنه يمكننا القدوم إليه في أي وقت من أوقات اليوم . عاشت شمس هذا البيت ، أورا ! . . . هدوءاً يا عصابة ! أيها الدهان دياس ، اخرس . يا عمي ، عمي العزيز ، فيما بعد ، ليس الآن ، ستتحدث عن النساء اللواتي كن في حياتك ، وفي أي وقت ! . . . هدوء ، سكون الأموات ! لم أنه حديثي بعد . . .

– أتسمع ؟ هل تفهمهم ؟ انهم يصرخون علي – همس الرجل المتراخي ذو العين الحولاء بصورة خائرة مغمومة . – هذا التتري ، رسام متميز ، يعمل في مرسمه ، بناه له أقاربه . إنه جريء ، مقدام ، أترى ، فارس ، عربيد ، لم تمسه المدنية . في عروقه ودمائه تسري السماء والسهب والريح ، وتحت سرجه قطعة من اللحم النيىء – هذا هو غذاء موهبته . أما فسيفولد هذا ، ذو الحنجرة البيضاء والصوت العالي ،

فهو ممثل ، ابن الممثل الشهير من مسرح موسكو الفني الأكاديمي . . .
أتسمع كيف يصرخ ، صبي ، وهو بهذا الصوت القوي .

— أيها العم ، ذا القميص الداخلي البارز ، هلا انضممت إلى حلقتنا ، تبدو غريباً ، صمتاً ! كفاك حديثاً عن النساء ، كان الديات الكثيرات منهن . . . صمتاً ، هدوءاً ! إنني أقرأ الشعر ، سأقرأ عليكم أبياتاً للشاعر العظيم بلوك ! اصغوا جميعاً » وكل مساء في الموعد المحدد ، أو هكذا يتخيل لي ، يتحرك خصر الفتاة بثوبها الحريري على النافذة الضبابية . . . . » .

— أتسمع ؟ — همس الرجل ذو العين الحولاء بذهول . — انهم يريدون شيئاً ما . . .

— ماذا يريدون ؟ — سأل كريموف الذي أصمته الضجة والفوضى على المائدة .

— انهم عازمون على شيء ما — قال الرجل قلقاً — نحن ، أنت وأنا ، لا نعرف ماذا يريدون ؟ هل يريدون شيئاً ما ، أم أنهم يشبعون موهبتهم على هذا النحو ؟ انهم يبددون الحياة . أنا سأقول لهم الآن ، سأقول لهم كل شيء . . .

وقف الرجل ، يتمايل مخموراً ، وقد تغطى قميصه الصوفي الدافيء برماد السجاير ، وغطى العرق وجهه الرمادي الأزرق ، وبدت غرة شعره المشعثة ، التي خطها الشيب ، أشبه بغرة الأسد ، وقال :

— أيها الشباب ، نحن في وقتنا . . . كان لدينا هدف ثابت . كنا نتألم ، نعاني ، لكننا كنا نرى الهدف ، كنا نعرف . . . لقد كنا نرتدي لحاء الشجر على أقدامنا ، لكننا . . .

ـ أيها العم ، اجلس ! ـ قاطعه الشاب ذو الصوت الباريتوني ، الشبيه بصوت الممثل ، بوقار تراجيدي ـ أيها العم ، أنت ثمل ، لكنك نطقت بالحكمة ، قلت نخباً حكيماً ! أيها العم ، أنت عبقري ! سأقول كلمتين فقط : عب . . . قري . . . !

ـ أريد أن أتلو عليكم شعر غرمياليف ! فسيفولد ، افرض السكون والهدوء !

ـ دياس ، ضع الزجاجة ! من يشرب من فوهة الزجاجة ؟

ـ انهم فعلاً لطفاء محبوبون ، رغم كونهم أشقياء وقحين ، ـ همست إيرينا في أذن كريموف ـ اجلس الآن جانباً ، انظر واسمع كالفأر . هذا طريف حقاً . الآن سوف يتناقشون .

ـ حسناً ، سأجلس كالفأر في الزاوية .

ـ أنا لست شهيداً ، ولا بطلاً . . . كيف يمكن تسمية هذا ؟ قولوا ؟

ـ لا ، هذا جيد ، حسن أنه اعترف ، أنه أصبح كما لو كان على راحة الكف . لقد تعرى ، تعرى من ثيابه أمام الجميع . هذا « ستربتيز » !

ـ كوليا ، ما هو موقفك من اليهود والروس ؟

ـ أبحث عن الوسط .

ـ الحسودون ينشرون الأكاذيب .

ـ في كل حقارة ثمة سذاجة ، تماماً كما أنه في كل سذاجة سخيفة ثمة حقارة ! لكنك حسود .

ـ وهل في الخير حقارة أيضاً ؟

ـ أجل ، في الخير الخالي من الأسنان ، في الخير الألثغ ، في الخير الفارغ ، مفهوم ؟

ـ سكون كيميائي مطلق ! هدوء ! من أراد تلاوة شعر غوميليف ؟

ـ أنا اقترحت .

ـ هدوءاً يا فتاة ! أين مسدساتي ، ذات القبضات المرصعة ؟ غريشا ، اقرأ شعر غوميليف .

ـ أريد أن أقول لكم ، أيها الشباب ! غوميليف فيما بعد .

ـ أنت من جديد ، أيها العم ؟ هيا تفضل ، تفضل ، تكلم ! دعوه يتكلم ، يا أفراد العصابة ! اسمعوا نخب الرجل الذي عرف جميع آلام العالم ومعاناته .

بوجه عابس ، أحمر ـ أزرق ، ثمل ، وعين حولاء نهض من جديد ببطء ، الرجل الممتلىء ، الجالس بجوار كريموف . هنا تذكر كريموف فجأة : لقد تعرف عليه قبل عشر سنوات ، في إحدى الأمسيات في دار الممثلين ، باعتباره ابن كاتب معروف ، استشهد في الثلاثينات في الشمال .

وضع الرجل فمه على القدح ، وشرب بشراهة .

ـ يقول القدماء : استعجل ، لكن ببطء ! هذا ينسحب علينا جميعاً ! أما أنتم ؟ من أنتم ؟ ماذا تعرفون ؟ . . .

ـ فكرة الموت ـ الخوف من الموت .

ـ مستهتر الحياة . ماذا تعرفون أنتم ؟ حياة الإنسان الموهوب ، الشريف ، هي أقسى حياة في العالم .

ـ إن جميع كتابات الكلاسيكيين المحترمين هم كاذبون عاطفيون !

ـ راتان ، ما هو موقفك مني ؟

ـ أنا رومانسي ، وهذا ينقذني من تقدير الأشياء الواقعي . أنا رئيس ، أنت حمار ، أنت رئيس أنا حمار . الحق دوماً إلى جانب من يملك حقوقاً أكثر .

ـ ماجن ، مستهتر .

ـ افتحوا النافذة ، وليدخل الهواء المنعش إلى هذه الغرفة المشبعة بالدخان . توقفوا جميعاً عن التدخين !

ـ لقد باع دياس لوحة ، تمثل منظراً طبيعياً بخمسمائة روبل . ويقوم الآن برسم اللوحات التصويرية لمسرحية ستعرض في مسرح تاغانكا ، كما أعتقد .

ـ إذا كان العمل هو الحياة ، فهو مترع حتى الثمالة . ولا وقت يكفي .

ـ ما المقصود بذلك ، هذا يعني أن الكذب كبير ، غني ، قوي ، أما الحقيقة فهي ضئيلة ، تافهة حقيرة ؟

– هراء ! الفن دوماً مجاز ، استعارة للواقع .

– إن الكذب الأكثر كذباً يحمي ويدعم حياة جميع الحقائق الإنسانية .

– وانعدام الموهبة هو كذب دوماً .

– أليس عقيماً هذا التفكير الفارغ ، بلا طائل ؟

– لدينا ستة عشرة بالمائة من الاحتياطي العالمي من الغابات ، وعشرون بالمائة من احتياطي المياه في العالم ، ومع ذلك ثمة نقص دائم بالورق .

– وما هو الكذب – الدفاع عن الذات ؟

– وإذا كان الكذب هو حقيقة ؟ ، والحقيقة هي كذب ؟ لا تشنج وجهك ، أنا نفسي قادر على ذلك .

– بهدوء ، استمع إلي ! سألقي عليكم أشعار أخماتوفا . إنها أبيات إلهية !

– روزا ، ماذا بالنسبة لرقصة « التويست » ؟ لا تنسي ، أنا لست ماهراً . دياس ! أيها العبقري صور لنا ، بشفتيك شيئاً من رقصة التويست أو « الشياك » !

– أما فسيفولد ، فهو قادر على خشبة المسرح أن يمثل ويعبر بوجهه وبصوته . فهو يصرخ مثل بوق أريحا ! *

* يضرب المثل بأبواق أريحا لقوتها وشدتها . وقد جاء في التوراة أن جدران قلعة أريحا القديمة انهارت من شدة أصوات أبواق الغزاة اليهود – المترجم –

— أتعرف ما هو النقد ؟ إنه توقيع شخصي على الجهل الشخصي .

— أما أنت فتصفق بأذنيك ، كما تصفق الأبواب . اعطني الزجاجة ، يا شقيقي ! لقد تفلسف فجأة !

— عمن تتحدث ؟ من هو عديم الموهبة ؟ تنطلق بالسخافة والهراء ولا تخجل . يجب أن نحكم على الفنان من خلال أفضل أعماله ، وليس من خلال أسوأها . لقد أصبحنا شريرين ، حسودين إلى حد الحقد والكراهية .

— أنت من تقصد ؟ أم أنك فقدت رشدك ؟ عمن تتحدث ؟

— عنك أنت . أنت سَبَرَة .

— وما هو السَبَرَة ؟ هل جننت ؟

— إنه نوع من الطيور ، صغير جداً . يعيش بالقرب من التماسيح . يفتح التمساح حنكه ، فينظف له السَبَرَة أسنانه . ينقرها بمنقاره . بعد أن يكون قد التهم إحدى فرائسه .

— آه ، كم هذا طريف — الشر يتعايش مع الخير ؟

— بأي معنى يهمك هذا يا سفتلانا ؟ بالمعنى اليومي المبتذل أم بالمعنى الفلسفي ؟ عندما تقولين « لا » ، فهذا شر بالنسبة لي . لكنك تعتبرين هذا خيراً بالنسبة لك . أليس كذلك ؟ فالآن ، أود أن أذهب وإياك إلى الحمام . . .

— توقف عن السخافات ، ناتان . أنا أتحدث بجد .

– الشر ، أيتها الفتاة ، هو ما يفرق بين الناس ، مهما كان الأشرار متحدين . هذا بالمعنى الفاسفي .

– والإله ؟ وهل هناك إله إذن ؟ وإلى أين ينظر ؟

– إن أنظاره متجهة إلى الطريق الرئيسي ، وليس إلى تعرجات البشرية ومنحنياتها . هل تريدين أن تزيدي معارفي عمقاً يا فتاة ؟

– ولكن ربما يكون الحق في هذه التعرجات بالذات ؟ اسأل الله . يا ناتان ، أين أصبح الحب الآن ؟

– أتريدين بالمعنى الفاسفي ؟ حسناً . . .

– في أي معنى تريد . لقد جعلت كل شيء ضبابياً . تكلم على نحو بحيث يكون حديثك مفهوماً .

– اسمحي لي ، يا عزيزتي . أذكر رسماً كاريكاتورياً في مجلة « بليبوي » الأمريكية . أب مصعوق بالشهوة ، يجلس على الأريكة والسيجار بين أسنانه،وحوله ثلاث فتيات عاريات.والتوقيع: تقسيم العمل. فتاة تشعل له عود الثقاب ، وتقدمه له ليشعل السيجار ، وأخرى تثير هذا الخنزير السمين وتغريه ، أما الثالثة فمستلقية على الفراش بانتظاره . هنا ، أنا قادر على الفهم والحسد . قه ، قه ! أما بالنسبة الحقيقة أو الحق ، فالأفضل ، غالباً ، ألا يفهمك الناس . أنا أريدك – هل هذا مفهوم ؟ . . .

– أنت تسخر ؟

– سفيتا ، أرسلي هذا الماجن إلى الشيطان ! أنا مع حرية النقاش . لهذا ، لا تغضبي : لقد كدس أمامك أكواماً من الترهات ، لا يقدر

حصان على اجتيازها . على العكس : الإنسان يكون إنساناً فقط عندما يخاف الموت ، آنذاك فقط يعرف قيمته وقيمة الآخرين . وعظمة الإنسان في نقطة ضعفه هذه . لا يخاف الموت إلا الصفر ، الفراغ ، العدم !

ـ عاش الحكيم : عاش ، عاش ، عاش . . . .

ـ هدوءاً أيتها العصابة ! اسمعوا ، اصغوا عندما يتكلم الكبار ! من قال « قيمة الآخرين » ؟ هندسة العمارة ؟ عار العصر ! يا للخزي ! درب الحسير الوعرة ! سفينتكا ، لا تصغي إلى قول هذين الاثنين . الشيء الوحيد الذي لا يزال له قيمة ، الذي لا يزال يجمع بين الناس ، هو الحب . وكل ما عدا ذالك لا يساوي نصف قرش .

ـ أي حب هذا ؟ الحب هو قدرة ؟ هو موهبة . وأنا ، قد لا تتوفر لدي هذه الموهبة من هذه الناحية .

ـ أجل ، أيها السادة ، لا يمكن فصل السخافة عن صديقنا فسيفولد، تماماً كما لا يمكن فصل السبب عن النتيجة . غب ـ غب ، أنا أشرب نخب السبب والنتيجة .

ـ ارفع صوتك قليلاً ، يا دياس ، إنك تغمغم بشيء غير مسموع . . . .

ـ أنا أقول : كل شيء في فن الواقعية الاشتراكية ينطلق من الفكرة ، أيها الشيخ ، أما اللون فهو مجرد وسيلة . اعتبر ، أنني أرسم نفسي ، لأنني أحترم فكرة اللون .

ـ وماذا عن تفاعل الألوان ؟

ـ أنني أحترم تفاعل الألوان الفضي .

ـ من ـ فسيفولد موهوب ؟ أم ناتان ؟ لا ، انهما كوكبان وليسا نجمين . النجوم ، شيء نادر يا صديقي .

ـ ولماذا كوكبان ؟

ـ لأن الكوكب يعكس ضوء غيره . . . ان من كان باستطاعته أن يصبح نجماً من بيننا هي ايرينا . بيد أنها لم تصبح كذلك ، لم يسعفها الحظ . أتعرف كيف تجري الأمور في الحياة ـ كل شيء بمحض المصادفة ، بصورة مفاجئة . فجأة ، أصيبت بتمزق الأوتار ، ومنعها الأطباء من الرقص عاماً كاملاً . فسيفولد ، اعمل على تنظيم الوضع ! الجميع يصرخون كالمجانين ، لا يستطيع المرء أن ينطق بكلمة . . . .

ـ هدوءاً ، أيتها العصابة ، سوف أفجر الشمبانيا من زجاجاتها ! نخب ! سكون مطلق ، عندما يتحدث الصحفيون العظام ، ليس لصوص الكلمة ، بل المناضلون من أجل الحقيقة !

ـ عزيزتنا إيرينا ، أروع النساء في عصرنا وأكثرهن موهبة ، نحن جميعاً مولهون بك ، وأنا ، باسمنا جميعاً ، باسم أصدقائك ، أود أن أقول أنه يمكنك أن تصبحي ممثلة رائعة . . .

أما كريموف ، الذي لم يكن يعرف أحداً من الضيوف ، كريموف المذهول من الزحام حول المائدة ، ومن الصياح والقهقهة ، ومن مناقشات هذه المجموعة الشابة التي لا تعرف الخجل ، فقد كان يجلس على الأريكة في الظل ، لم يأكل شيئاً ، ولم يمس القدح الذي وضع أمامه ، مدركاً أنه هنا ، غريب . كان يدخن ، ويراقب خاصة إيرينا الواجمة . يراقب تبدلات وجهها الذي كان يغدو تبعاً لسير المناقشات . مرحاً

تارة ، ومغطى بسيماء الحيرة والذنب تارة أخرى . وعندما بدأ الشاب الطويل النحيل ، ذو النظارات ، « الصحفي العظيم وليس سارق الكلمة » ينطلق نخبه ، عبر وجهها عن الألم والمعاناة . سحبت إيرينا سيجارة من علبة سجاير كريموف ، وأشعلتها بقداحته ، ثم أطفأتها على الفور في صحن السيجارة ، ورفعت عينيها إلى الشاب ذي النظارات ، وهي تقول بحزن :

ــ عزيزي ، عم تتحدث ؟ كل هذا بعيد عن الحقيقة ، كل هذا كلمات ، كلمات تسبب لي الخجل . . . وستشعر بالخجل أنت أيضاً . ــ وانفرجت زاويتا شفتيها عن ابتسامة شبه حزينة ــ عموماً ، كل ما قلتموه بعيد جداً . . . وكله غير صحيح ، ولا لزوم له ، إنه كلام زائد . ونحن نكذب على أنفسنا . . . لقد نسينا من نحن على حقيقتنا . نحن أجزاء دقيقة من الأرض ، أجزاء صغيرة . . . لا أكثر . ولم نعد نحبها ، لأننا نحب أنفسنا . أصدقائي أنتم تحبون أنفسكم فقط . . . وأنا لست بأحسن منكم ، أنا مثلكم ، لكنني لا أريد الكذب ، لا أريد الخداع ، لا أريد الكلمات ، أريد أن أحب الأرض . . .

ــ من تحب ، هذه الشيطانة ؟ ــ هدر صوت الممثل الشبيه ببوق أريحا ــ إيرا ، أنت خنتنا ، لقد خدعتنا أيتها الكافرة !

قالت إيرينا بصوت مرتجف :

ــ لم أخدع أحداً ، أريد أن أحب السماء ، **الأرض** . . . وربما بعد ذلك ، أحبكم جميعاً . السماء ، الأرض ، والأفق بالطبع ، ــ كررت إيرينا بسذاجة حماسية ، جعلتها مستقلة أمامهم ، ومجردة من السلاح . ــ أجل ، أنا أحب الأفق .

— أين ترين الأفق ، ايرينشكا ؟ كلما اقتربنا أكثر من الأفق ، كلما أصبح أبعد عنا . وحتى في الحب لن تلحقي به . على أي نحو ، أيتها الشيطانة ، تريدين أن تحبي الأفق ؟ حالة غير طبيعية ! نزوات فتاة أمازونية ! حالة شاذة !

— فليكن كذلك . أنا أريد ، — أومأت برأسها بابتسامتها الصغيرة الغامضة التي لا تكاد ترى ، وارتقت الطاولة ، وقالت بوضوح وبصورة مستقلة كما في السابق : — إلى اللقاء ، لقد انتهى عيد ميلادي . لم أخن أحداً . بعد أسبوع ، يمكنكم أن تأتوا لعندي في أي ساعة من ساعات الليل والنهار .

بعد أن انسحب الضيوف ، وأغلق الباب من وراء آخرهم ، وسكنت الأصوات في الشارع ، بقيت تنتظر في المدخل ، غارقة في تأملاتها ، ثم أطفأت النور ، وتوقفت أمام النافذة وقد تراءى ظلها عاتماً قليلاً . وأزاحت الستارة — هناك خلف الزجاج ، في الظلمة العاصفة فوق زاموسكفوريتشي ، في البرد الجليدي ، كانت تسطع النجوم الشتوية .

— كم هم غرباء كلهم — قالت ايرينا — اقترب وانظر — أضافت هامسة — كيف تلمع النجوم بصورة بديعة !

اقترب كريموف منها ، ومع شعوره من جديد بضعفها ، وبنبض مقاومتها العنيد ، الذي لم يكن يتوقعه مسبقاً ، فكر بأنها قادرة على الصمود أمام الناس ، بصلابة مرنة ، وغير مزعجة في الوقت نفسه .

— لم أفهم ، يا إيرينا ، من هم الغرباء ؟ أصدقاؤك ؟

لم تجب إيرينا ، وارتسم على عينيها ضوء رطب سماوي ، منعكس من النجوم المتوهجة وسط الليل .

ـ هل من المعقول ، أننا جميعاً سنكون في الماضي ؟ كنا ، كنا نأمل ، كنا ننتظر . . . سقراط وتشيخوف أصبحا في الماضي . وكذلك سافو وآنا بافلوفنا . ومليارات من الناس الذين عاشوا . ونحن ، أنا وأنت سنصبح في الماضي . قل لي ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، لماذا يفعل الناس ما لايجب فعله ؟ ألا يشعرون بذلك ؟

ـ إيرينا ، متى سيسمح لك بالرقص ـ سألها غير راغب في تأييد مزاجها . ـ وهل باستطاعتي تقديم مساعدة ما ؟ اعذريني على هذا السؤال اللجوج ، لكن بودي أن . . .

ـ سأحتمل ـ قالت بصرامة ـ ليست هناك حاجة لأية مساعدة . وإذا ما تحدثت ثانية عن المساعدة ، فسأغضب . . . رغم أنني لا أريد أن أغضب منك .

ـ شكراً .

ـ هل تعرف ، أن زوجتك امرأة فاتنة ، لا يمكن للمرء ألا يحبها ، ولا أريد أن أقول لك كلمات زائفة . وأنا لن أستطيع أن أكون زوجة ، ولن أكون ، يوماً ما ، عشيقة لرجل ما . إنها كلمة شنيعة ، مقرفة . . . سنبقى أصدقاء طالما لم يمل أحدنا الآخر . موافق ؟

ـ أنا موافق ـ أجاب بخضوع مرح وسألها ـ ماذا يريد أصدقاؤك ، إن لم يكن سراً ؟ هل أوضاعهم جيدة ؟ أم كلها سيئة ؟

ـ أوضاعهم كلها جيدة ، كما أعتقد . ولكن ، ما معنى جيدة . إنهم يعملون ويكسبون المال . غير أنهم جميعاً ، يعتبرون أنفسهم غير موفقين ، غير محظوظين . كانوا يحلمون بالمجد ، المجد العالمي . ألا

تلاحظ أن عدد الفاشلين ، سيئي الحظ ، المتغطرسين أصبح كبيراً في السنوات الأخيرة ؟ يبدو وكأن كل شيء عندهم على ما يرام . ومع ذلك فهناك شيء من عدم التطابق ، من التنافر . . .

-. التنافر مع ماذا ؟

-. مع الحياة . . . على الأصح ، كيف يمكنني التعبير . . . عدم تطابق الرغبات مع الحياة . . . لقد كنا نتوقع أكثر مما يجب . . .

— وماذا بالنسبة لك ؟

— وهل قلت شيئاً ؟ وأنت أيضاً تريد أن تشفق علي ؟

وأدارت وجهها نحوه ، ولاح شيء من ضوء النجوم على شعرها ، كانت عيناها منكستين إلى الأسفل ، وفي ثنية فمها ، تراءى له شيء عنيد ، ارادي ، طفولي . ولتأنيبه لنفسه على التدخل المفرط ، ولشعوره بالخجل من فضوله نحو هذه الفتاة ذات العينين الخضراوين المتمردتين ، قال كريموف :

-. أعرف نقطة ضعفي -. أنا غير لبق ، وسمج ، كالميس .

— كل شيء له بداية ونهاية ، أليس كذلك ؟ قالت ايرينا - ولكن ، ليس هناك من يقدر على مساعدتي .

— لا أحد أبداً ؟

—. وأنت أيضاً غير قادر . أنا وحدي فقط . علي أن أخاطب نفسي : «لا بأس ، سنناضل من جديد . . . »

ابتعدت عن النافذة ، وجلست على الأريكة ، ولم يكن باستطاعته تمييزها في الظلمة الا بصعوبة ، وبصورة مبهمة .

هذه الكلمة « سنناضل » لم تكن تطابق ابتسامتها الضعيفة ، لم تطابق الرقة الذابلة ليديها ورقبتها ، الرقة التي كانت تثير في نفسه أحياناً الشعور بالخطر ، الذي بدا له أنه كان يتهددها في أمسيات موسكو المتأخرة ، عندما كانت تعود لوحدها مساء إلى أوردينكا . وصور له خياله مداخل قاتمة ، وأشخاصاً مجهولين ذوي نظرات قاسية ، كالمجرمين القتلة ، يتربصون بها الدوائر في الزوايا والمنعطفات ، ورسمت له مخيلته وجهها الميت ، المطروح إلى الخلف ، وجسدها المغطى بالدماء ، الملقى على الأرض الاسمنتية في قبو رطب أسود ، مليء بالدخان . كان يشعر بوضوح كبير بضعفها أمام القوة البهيمية ، لدرجة أن هذه المشاهد المسرحية«الكارتونية»المشؤومة للكارثة المحتملة كانت ترغمه أحياناً على أن يتصل بها ، هاتفياً ، في الأمسيات ، لاجئاً في الوقت نفسه ، إلى سخريته المألوفة : « أردت أن أتأكد ، فيما إذا كنت تراعين الحمية أم لا » .

— وماذا في الأمر ؟ سوف نناضل — قال كريموف وجلس بالقرب منها على الديوان — واذا كان الأمر كذلك ، يا ايرينا ، فانني أقدم لك عرضاً رسمياً : أود أن تمثلي في فيلمي السينمائي . التصوير سيبدأ في الصيف . وأعترف لك : قبل عام رأيتك في باليه « جيزيل » ، وأقدمت على اختيار يصعب التراجع عنه . تعالي لنجرب ، ما رأيك ؟

— لا — همست ايرينا — لا أبداً . لا أريد أن أنسى الرقص .

في أوائل الربيع وافقت على هذا العرض . وحدث هذا قبل شهرين من موتها .

# الفصـــل الــرابـع

أما ذلك اليوم الصيفي ، في ضواحي موسكو ، فلم يكشف س. ه كاملاً ، حتى بالنسبة له .

أمام الجسر الصغير ، القديم ، المصنوع من عيدان الخشب المتقلقلة ، وغير القادر على احتمال سيارة « الفولغا » ، أوقف السائق السيارة ، ومن هناك ، من الضفة كانت تطل من بعيد القباب المتخفضة والجدران البيضاء لدير « ستاري سباس » القديم . سارا في البداية على الطريق ، إلى جانب أحراش الجوز ، ثم مشيا عبر حقل أخضر من الذرة الصفراء ، حتى طرف الحوش ، حيث برزت على الرابية البلدة القديمة ، التي لا تزال عالقة بذاكرتها على الأغلب ، الأخفاف الليفية اللبية للمشاة العابرين ، والمشية المستكينة للرهبان الصامتين ، ووقع الأقدام العارية للمصلين البعيدين ، الذين يخلعون أحذيتهم على الطريق ، وآثار جزمات التجار ، ورقص جزمات فتيات القرى الجميلات ، والانهاك الوديع للآثمات ، القادمات إلى الدير من موسكو لتطهير نفوسهن . وعندما اقترب كريموف من الدير تصور يوماً حزيرانياً قائظاً ، والجباه الرائعة المتعرقة لآثمات العاصمة ، وجفونهن المنكسة المتواضعة ، وتنانيرهن المتغبرة بلون رمادي على طريق الاعتراف . لقد رأى كل هذا ، بصورة واقعية ،

وكأنه بالأمس كان يجلس هنا ، في ظل شجرة دردار على قارعة الطريق ، على الأرض التي تفوح بالرطوبة ، مصغياً إلى الخرير الناعس للساقية تحت الرابية .

كانت البلدة تؤدي ، عبر الحرش ، إلى هيكل غير مرتفع ، محاط بسور شبه مهدم . وفوق أشجار الزيزفون المتنامية ، كان يتوهج بسطوع صليب ذهبي في الزرقة العميقة ، ومع الهواء الدافيء ، المصبوغ بالحرارة المزهرة للأعشاب الجافة ، كانت تصل رائحة العفونة الرطبة ـ الرمادية لأشجار البتولا المقطوعة ، والمكومة على شكل أكداس في ساحة الدير .

أجل ، كان يظهر في كل شيء حر الصيف القائظ ، والسطوع ، وزرقة السماء ، والخضرة وكثافة الأوراق المبهجة. وشعر كريموف على نحو خاص ببريق عينيها الفتي ، وباستجابتها الحية غير العادية ، وفيما بعد ، عندما استعاد في ذاكرته ، أراد لسبب ما أن يتذكر بالتفصيل ، تلك الدقيقة ، بالقرب من الكنيسة ، عندما تأخرت قرب طنف الكنيسة ، حيث كانت تقف ، تحت ظل شجرة زيزفون ، عربة أطفال تركها أحدهم ، وقد رقد فيها توأمان رضيعان ، وقد تعرقا من شدة القيظ ( أظن أن ايرينا قالت آنذاك : « يا لأنفيهما الصغيرين البديعين ، يا لهذين الوجهين المضحكين ! » ) ، ونزل كريموف على الدرج من قيظ الظهيرة المبهر إلى ظلام الكنيسة الرطب ، حيث كانت امرأتان عجوزان ، وضعتا المنديل على رأسيهما ، تتساران ، وقد جلستا على مقعد قرب السور ، منحنيتي الرأس ، ترددان الصلاة ، وتمسحان أطراف شفاههما من فترة لأخرى على الطريقة القروية .

في كنيسة « ستاري سباس » كانت تفوح رطوبة الأرض الحجرية ، وتابع لوحات الفريسك بغباشة باهتة على الجدران وتحت القبة . وكان يسمع هديل الحمام في هدوء نعيم الصيف المنير ، وعلى ساحة الدير المغطى بالأعشاب . توقف كريموف أمام ايقونة العذراء ، التي تنظر في ضوء الشموع ، بعينين سماويتين إلى الأمور الدنيوية ، ولكنه استدار عندما سمع وقع الكعب العالي النسائي على الدرجات الحجرية الرنانة .
كانت فتحة المدخل مغطاة ، بسطوع ، بشمس النهار الحزيراني ، الذي كان يلحظ بصورة عذبة من قبو الكنيسة الحجرى . ورأى من خلال فتحة المدخل المغطاة بضوء الشمس القوي ، قوامها ، وتنورتها الخفيفة ، التي كان يخترقها من الخلف ضوء الشمس الذهبي ، ورأى درجات الغرانيت القديمة ، التي كانت تدوس عليها بمرونة ، متأرجحة بصورة خفيفة . لاحظ كريموف أن المرأتين العجوزين قد توقفتا عن الهمس وأدارتا رأسيهما بصورة مستنكرة تجاهها ، أما ايرينا فقد اقتربت من حائط الايقونات وحيتهما بنظرة بشوشة . وشعر كريموف بمرح وسرور ، لأن العجوزين قد استنكرتا شبابها ، وحريتها البريئة ، البشوشة التي اكتشفها هذا اليوم ، ونظرة القديسين والعذراء الحزينة ، وأضواء الشموع . لقد رأى عيني إيرينا المرفوعتين ، المنفصلتين عن وجهها ، في البريق الرطب العاتم ، وقمع في داخله رغبة طائشة بالابتسام لها ( تدنيس المقدسات في المعبد ) ، وقال مشيراً بايماءة إلى ايقونة على اليسار

— أنظري ، كيف رسم وجه القديس ألكسندر نيفسكي ، بطريقة عصرية

– أجل ، أجل ، بطريقة مدهشة – قالت إيرينا هامسة .

كان كل شيء ساكناً وهادئاً ، وفي الأعلى ، تحت القبة ، كانت طيور الحمام تئن في فتور عاشق ، وكانت تلمع في ضوء الشمس المروحي الأرض التي شطفت حديثاً ، المغطاة بالبلاط ( وقد وضع دلو في الزاوية ، وكانت تجفف فوقه ممسحة ) . ولم تكن وجوه القديسين المرسومة رسماً جيداً ، والبوابات القيصرية المفتوحة تحت القناطر المحلاة بالرسوم لتهدد بالتذكير بالإيمان المفقود ، بالآثام الغليظة ، باللغو الدنيوي ، ولم تثقل بالحزن . وكما في السابق ، شعر كريموف بالنقاء في روحه ، وكان من المستحسن جداً أن يشعر بشباب إيرينا الواضح في هذا الدير القديم ، المترع بهديل الحمام ، وهدوء الحقول .

بعد حوالي عشرين دقيقة ، خرجا من الكنيسة إلى الرابية الخضراء ( بقايا البلدة القديمة ) ، حيث كان يتلألأ ، في الأسفل ، في المنخفض الممتد ، نهر من المرايا المتكسرة ، مرغماً الزائر على تصور الشوارع والجدران لهذه البلدة الروسية التي كانت هنا ، على الجزيرة ، تحيطها المياه من جميع جهاتها ، بالقرب من الدير ، وعلى تصور الناس الذين كانوا يسيرون على هذه الطريق ، التي تمدها الشمس بالدفء والحرارة .

– انظر ، هذا هو القرنفل البري – قالت إيرينا واستلقت على الرابية ، وداعبت الأزهار على المرج براحة كفها بحنان ، ثم انقلبت على ظهرها ، وقالت بصوت ضعيف : – يا ليتني أستلقي هنا ، وأتأمل السماء طيلة الوقت . وهل كانت السماء هكذا دائماً يا ترى ؟ عندما لم نكن قد ظهرنا على هذا العالم ، وفي القرن الخامس ، وفي العاشر ؟ أية سعادة هذه : الشمس ، والسكينة ، والخطاطيف على قبة الأجراس . .

— قرأت ، لا أذكر أين ، أنه حيث يوجد القرنفل البري تتواجد الثمار البرية أيضاً . . . — قال كريموف ، وبعد أن ضحك ، أبعد نظره جانباً ، كي لا يرى ركبتيها .

خلع سترته ورماها على الأرض ، واستلقى على مقربة منها ، وعلى الفور ، دون أي عناء ، عثر إلى جانبه على توتة برية كبيرة ذابلة من أشعة الشمس ، فقطف ثمرتين منها مع الساق وقدمهما لإيرينا . فقالت : « أشكرك ، سنقتسمهما مناصفة » — وتابعت النظر إلى السماء ، وفصلت ثمرة بشفتيها بشرود ، وأعادت له الثمرة الثانية . كان يود لو يرى عصارة الثمرة على شفتيها ، لكنه لم يستطع أن يراها ، متذكراً من خلال قنوات الذاكرة اللاارادية ، حبيبة مارتن ايدن السامية ، البعيدة المنال ، والتي بدت له سهلة المنال في تلك اللحظة ، عندما لاحظ ، بنظرة أرضية ، دنيوية ، عصارة الكرز الحمراء على شفتيها . ابتسم ساخراً من نقيصته البريئة ، ومن عادته المهنية في المقابلة والمقارنة ، وشعر بحب غريب لكيفية فصلها الثمرة لنفسها بشفتيها ، تاركة الأخرى له ، وللرائحة البرية لهذه التوتة الذابلة .

— قل لي ، هل هناك في الدنيا إنسان حر مثل الهواء ؟ — سألته بصوت ناعم ، وكأنها تكرر كلمات من دور حفظته ، لكن هذه الكلمات لم تكن من دور البطلة .

— الإنسان يكون سعيداً ، عندما لا يعطي الوقت أية قيمة ، — أجاب كريموف بلهجة كسولة ، لهجة بطل معجب بذاته من سيناريو ، واتكأ على مرفقيه ، رانياً إلى وجهها المبتعد عن الأرض ، ورقبتها المقوسة الفتية ، ويديها الممدودتين على العشب .

— إذن ، إننا ، أنت وأنا ، لسنا سعداء — قالت إيرينا بيأس — في الماضي كان الناس يتوجهون إلى الأديرة والمنا لتطهير أنفسهم . انهم سعداء . . .

— لماذا لسنا سعداء ؟ ولماذا سعداء ؟

— لا أتحدث عن هذا ، — صححت إيرينا ، وقطبت حاجبيها — لن أستطيع تمثيل دور امرأة تلعن إنساناً ضعيفاً . يجب ألا تكون المسألة على هذا الشكل . إن زوجها جبان ، لقد خادعها ، لكنه لم يخنها وانفصل عنها . كان عليها أن تشفق عليه . على هذا الفاشل العصري ، الأناني ، المتمركز حول ذاته . لكن ، قل لي ، هل هناك إله ؟ أنا أسأل جادة . —

— يبدو أنه ثمة انسجام كوني عالمي .

— فلماذا اذن ، يوجد الشر ؟ اشرح لي .

— الشجرة تنمو ، ترتفع إلى الأعلى — ماذا تبغي ؟ البرق ؟

— طبعاً لا .

— فهي اذن ، تبغي الجمال — تابع كريموف حديثه باقناع مازح — الجمال يساعد على الارتقاء إلى السماء ، نحو مالا يدرك ، أو على الأصح — الجمال سلم يربط الأرض بالسماء . أما الشر فينبت في الأرض .

— لا

— لماذا ؟

— أنت تقول الجمال . فما هو الجمال في آخر الأمر ؟ هل هو جمال التماثيل الإغريقي الكامل — إنه ملل لا يحتمل ، إنه سآمة فظيعة ،

إنه كآبة . هل هو الكلاسيكية المثالية — يا إلهي ، أي موت هذا ! لا ، الجمال ليس انعدام العيوب ، لا — قالت بحماسة . الجمال في ليونة الحركة . أنظر . . . — وقامت بحركة مرنة بكفها وأسقطت يدها على العشب .

— الجمال هو مصيدة — قال متابعاً مزاحه — لمست فانصفقت وليس ثمة مخرج . .

— هذا هراء ، غير صحيح . ثمة مخرج دائماً .

— من هذه المصيدة ليس هناك من مخرج لأي كان . غير أنني أعمم بصورة خطيرة . هنا ، قد يكون الخلاص في الواقعية والسحرية الذاتية . والخوف من أن يكون المرء في وليمة غريبة . .

بعد أن أفاقت ، التفتت إليه ( وغرق كريموف في العمق الشفاف الأخضر المصوب إلى عينيه بتأمل وتفكير ) ، ولمست باصبعها حاجبيه وجفنيه ، وقالت غير فاهمة :

— إن وجهك قد لوحته الشمس ، وثمة تجاعيد شقراء حول عينيك . أنا بالمقارنة معك ، فتاة غبية ، أنت يمكنك حقاً أن تحوز على إعجاب النساء . ولكن لماذا تعتبرني فتاة غبية ، وتتحدث معي كما تتحدث مع تلميذة في الصف التاسع ؟ أظن أنك تدرسني ، منذ نصف عام من وجهة نظر المخرج السينمائي . قل لي صراحة ، هل أنا فعلاً عديمة الموهبة ؟

— إيرينا ، ماذا حل بك فجأة ؟

— إذن ، قل لي لماذا الناس قساة ولا يحبون الخير لبعضهم بعضاً ؟

— إيرينا ، ما الغرض من طرح هذه الأسئلة ؟

— ليس مهماً . لماذا أصبح التواضع الآن عيباً ونقيصة ؟

— ما هي المسألة ؟ إنني مرتبك وحائر . . .

— لماذا يثير الخير ، والطيبة والصراحة والصدق ابتسامة ساخرة ؟ وفي الوقت نفسه ، ينحني الناس إعجاباً أمام أنفه تقليعة دارجة ، أمام سراويل « الجينز » السخيفة ، أمام الموسيقى المربعة ، أمام نجمة أجنبية قصيرة الأمد . . .

— هل حدث لك شيء ما ؟

— أجبني ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، إذا كنت لا تعتبرني راقصة غبية . كثيرون يعتقدون أن راقصات الباليه ، أو الراقصات كلهن غبيات تقريباً . . .

— بديهي ، لسْنَ كلهن — قال كريموف ، منزعجاً من تبدل مزاجها . — أتودين أن تعرفي رأيي ؟ نحن ، يا إيرينا ، نجعل الإنسان مثلاً أعلى ، بيد أنه ، بوعيه ، لم يتَسَنَّمْ إلى مستوى أمور كثيرة . ذات يوم ، دهشت كثيراً عندما علمت أن دماغنا يضم فقط اثنين ونصف ميليمتر من مادة التفكير السنجابية . . . ميليمتران تافهان فقط . . . يفصلاننا عن الحيوان . أما كل ما تبقى ، خمسة ميليمترات ، فكلها غرائز ، غرائز .

— أنت تتحدث معي ، من جديد ، كما تتحدث مع طفلة ، وليس بطريقة جدية كما أريد .

ـ أما إذا أردت الحديث الجدي ، يا إيرينا ، فالإنسان المعاصر ، الكائن العاقل المعاصر ، كثيراً ما ينقصه الفعل ، لأن عمل الخير صعب ومجهد دائماً . فقول الناس الحقيقة ، أحدهم للآخر ، يبدو أحياناً ، قريباً من الغباء ، ولا يخلو أحياناً من الخطورة . لهذا اعتدنا نحن ، بدلاً من الفعل والعمل ، أن ندين الناس بسهولة كبيرة ، في حين علينا أن نكون قادرين على الصفح والتسامح . لسنا قادرين على أي شيء . . .

قطفت إيرينا حشيشة وعضت عليها بأسنانها .

ـ لقد تعرضت اليوم للإدانة . . . وبقسوة شديدة ـ قالت بهدوء ، وبصورة بدت وكأنها لامبالية ، بعد أن صمتت هنيهة . ـ اليوم ، صباحاً في الاستوديو ، سمعت حديثاً بالقرب من غرفة « المكياج » . كان هناك ممثلون ، وكانوا . . .

ـ من هم ؟

ـ إذا أخذت تسألني « من هم » ، فسأصمت ولن أنطق بكلمة .

ـ عفواً ، إيرينا ، ماذا حدث بالقرب من غرفة « المكياج » ؟

ـ لقد سمعت مصادفة : كانت ممثلة تقول ، وهي تتحدث عني : « لقد اختيرت لأداء الدور الرئيسي ، لأنها عشيقة كريموف . إنه ذو ذوق رفيع . ولكن هل ستصبح راقصة البالية الفاشلة ممثلة درامية ؟ » . لا أفهم ، علام يكرهونني إلى هذه الدرجة . وما هي الإساءة التي ارتكبتها بحقهم ؟ ومع ذلك ـ إنه شيء مقرف . . .

ـ أوف ، يا للنعامات الحسودات ! ـ شتم كريموف غير متمالك

نفسه . — انهن يمدحن ، بأكثر عبارات المديح فظاظة ، عديمة الموهبة فقط ، غير القادرة على منافستهن !

— أنت لا تحب الممثلين ؟

لقد اعتاد منذ زمن ، على المفاجآت في العلاقات بين أوساط الممثلين وعلى تبدل العواطف ، وعلى الاحترام البارد ، كما اعتاد على حسن نية المنافسين المفرطة ، وعلى المكر الدمث وابتسامة الارتياب اللاذعة . وألف صرخات السعادة المبالغة والزحام في العروض الأولى ، والابتهاج المؤثر ، الذي يعبرون عنه لزميل شهير أجاد عمله بصورة رائعة ، لمعبود الجماهير الحديث العهد ، فيسرعون لسبب غير مفهوم ، لتهنئته بجلبة ، متدافعين بمرافقهم في سرور وحبور (« موهوب ، عظيم ! ») . لقد تعود الحديث المتكلف للمشاهير المتبرمين ، والوقاحة المرحة المفرطة ، والمجاملة المتأنقة للممثل والممثلة ، اللذين يحتقر أحدهما الآخر ولا يكاد يطيقه ، والمضطرين رغم ذلك ، إلى الظهور على ساحة التصوير — بإرادة المخرج — بمظهر العاشقين المتحابين — تعود كل ما يشكل وجود الممثلين وعملهم وعلاقته بهم ، وهم ، عموماً ، أناس وديعون ، صبورون ، وأحياناً سريعو التصديق بسذاجة ، مستعدون ، في لحظات التصفيق في العرض الأول ، لسكب الدموع الغزيرة أمام الشاشة ، تأثراً بتمثيلهم وتمثيل الآخرين . كما كان يعرف كريموف كيف يصيبهم ، بصورة مميتة ، سم الشهرة المسبقة في الأروقة ، التي صنعتها ألسن حسودة للمعبودين المشهورين السابقين ، أو أصحاب المواهب غير المعتبرين . وكان يعرف أيضاً ، أن دعوة إيرينا لأداء الدور الرئيسي واعتمادها له سيثيران إشاعات قارصة ، لأنه كان يرى كيف كان

يراقبها بنظرة بالغة ، في أثناء التصوير السينمائي التجريبي ، المخرجون المعاونون ، وعاملوا الإضاءة ، والممثلون من مجموعات التصوير الأخرى ، الذين كانوا يدخلون إلى الجناح ، متظاهرين بأنهم يدخلون خطأ . وكان يستقبل وجهها الشاحب وابتسامتها شبه المذنبة والحزينة وخجلها في تلك الأثناء إما بسرور غير طبيعي . وإما بفتور لامبال مصطنع بصورة متقنة ، من جانب نجوم السينما . والممثلات المتطلعات باصرار إلى أداء الدور الرئيسي ( « خذني أنا ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، فدور البطلة يناسبني » ) . غير أن هذا كله ، الذي كان يلحظه كريموف دون عناء ، لم يكن يثير قلقه أبداً ، وهو العارف جيداً بهذا الوسط — وسط التنافس الذي لا يهدأ ، والصخب الدائم حول مجد عابر . لاسيما إذا كان منتظراً ومتوقعاً : فتلك هي ، حسب رأيه ، طبيعة عمل الممثل ، بيد أن ، هذه المهنة ، لم تكن لتسمح بتجاوز أطر وحدود معينة ، وإذ كانت متقلبة وغير ثابتة ، وكان سم الغيرة يتوقف عن الفيض حالما يتقرر الدور ، وهنا يبدأ صمت وانتظار وتوقع ، يدل على أن الزمن هو حكم نزيه وسوف يكشف الحقيقة ، ويبرز العالم كله الخطأ المشين للمخرج ، الذي قام باختيار مزاجي ، غير مدروس ، مهيئاً بذلك الفشل لفيلمه . كان كريموف يسخر عادة ، من هذا الحلم البريء بالانتقام ، الذي يجب أن يحل بالمخرج الضال ، لكن حديث الممثلات السام أمام غرفة المكياج ، الذي دار بصورة مغرضة ، بحضور إيرينا قد أدهشه وأغاظه بروح الانتقام الجامحة عند النساء .

— يبدو ، أنه كان عليك أن تعرفي أنه يسيطر على الفن في مرحلة معينة ملكتان — قال كريموف بأسف — الأولى هي الحسد لنجاح

الآخرين ، والثانية هي الغيرة من امكاناتهم وقدراتهم . ولا يمكن لأية ثورات أخلاقية أن تحرم هاتين الملكتين من عرشهما . وفي نهاية الأمر ، ينتصر القادر على العمل . هذا كل شيء .

ـ على العمل ؟ أنا موافقة . على العمل فقط . ولكن أنظر ، من فضلك ، كيف يعمل الناس الفظيعون . والجميع في وقت واحد . البارحة استلمت رسالة . في البداية ، لم أرغب أن أحدثك عنها . ولكن ، في الاستوديو ، هناك من يكرهني ، ولا يقدر على احتمالي . بينما أنا طيبة مع الجميع . إنني لا أعرف المشاحنة والعداء . فلماذا هم يعادونني . وهل نسوا أنني لم أفق من المصيبة التي حلت بي . انني لم أرقص منذ ثمانية أشهر . . .

جلست إيرينا ، وهي تعض الحشيشة بين أسنانها . وأحنت جبينها نحو ركبتيها ، وجلست هكذا ، غارقة في أفكارها ، ثم نظرت إلى كريموف نظرة استفهام ، وأخرجت من حقيبتها مغلفاً مكرمشاً ، وقالت بصوت هش ضعيف :

ـ هذه هي . انني لو لم أعرضها لكنت على غير حق . ومما يخجلني أن الرسالة تمسك أنت أيضاً .

كانت هناك ورقة ، في المغلف ، كتب عليها بالآلة الكاتبة بضعة أسطر غير مستوية وغير منتظمة ( يبدو أن كاتبتها لا تضرب على الآلة الكاتبة إلا نادراً ) . وقرأ كريموف ماجاء في الورقة :

« إيرينا المحترمة !

ـ أعتذر لعدم معرفتي اسمك الكامل .

فاعلة خير لك تريد تحذيرك من أنك تتصرفين بصورة متهورة ، غير حذرة ، بل ، وبغطرسة وصلف . وعلاوة على أن الاستوديو كله على علم بعلاقتك غير الشريفة مع المخرج كريموف ( انه ، بالنسبة لك ، أيتها العزيزة ، يصلح أن يكون أباً ) ، فقد قمت باستغلال سحر شبابك النسائي ، وأرغمتيه على أن يخصك بالدور الرئيسي في الفيلم ، وهو عمل ليست لديك أية قدرة أو موهبة نحوه . فقد سبق أن أظهرت عجزك في البالية . صدقيني ، ان الفن ليس رسالتك ، وأن مهمتك هي الزواج السعيد ، وأن تكوني جميلة فاتنة لزوجك .

إيرينا ، أرجوك ، كوني رحيمة وعاقلة ، ابعدي عن الرجل الذي يحترمه الجميع ، ولا تقتلي زوجته ، المرأة الجديرة بكل احترام ، والتي يمكنك أن تقوديها إلى التهلكة .

أرجوك ، أرجوك ، عودي إلى رشدك !

« فاعلة خير لك ، ومحبتك » .

ــ طبعاً ، بدون توقيع ، ــ قال كريموف بجفاء ــ تذكار متواضع للحسد بصيغة رسالة . أنقذني ، أيها الرب الرحيم ، من محبي الخير لي ، ومن فاعلي الخير ، أما بالنسبة للأعداء ، فأنا بنفسي قادر على مواجهتهم . انها رسالة من مراسلة محترمة ، أعلى من أي مديح أو ثناء ، وتقتضي جواباً صريحاً وصادقاً للغاية يتألف من كلمتين : إلى الجحيم !

مزق الرسالة بحزم ، ورمى قطع الورق الصغيرة جانباً ، بيد أن لهجة المشاركة المزيفة في المعاناة ، والعذاب الشديد ، الصادرة عن هذه العبارات التي ضربتها يد غير خبيرة على الآلة الكاتبة ، وهذا الدفاع المرائي عن شرف أسرته ، كل هذا قد ترك جرحاً أليماً في نفسه .

« من هم هؤلاء الأصدقاء الذين لا يعرفون الشفقة ، ولا يسامحون أبداً ، لا الشباب ، ولا فرحة الآخرين ؟ » — فكر كريموف ، وقد فارقه ذلك المزاج الحي ، الذي شعر به في معبد الدير ، عندما نزلت إيرينا على الدرجات وكأنها قادمة من شعاع الشمس المنسكب .

— كم يكرهونني بلا شفقة — قالت إيرينا — ويكرهونك بسببي .

— أنا مخرج وقد تعودت كل شيء .

— أما أنا فلا أريد أن تحل عليك المصائب بسببي

— في السينما ، كي ينتصر المرء ، عليه أن يجتاز تسع حلقات من جحيم دانتي — قال كريموف بصورة مبتذلة — تصوري أنني حبيبك فيرجيلي ، وأنني أقودك عبر هذه الحلقات والدوائر بصورة آمنة ، وأن أسوار أريحا ستسقط . إنني أثق بك ، بنجاحك . وأعترف بأنني فكرت طويلاً ، أنت ستكوني قادرة على كل شيء .

— لا — قالت إيرينا — لا ، لن تسقط أسوار أريحا .

— لماذا ؟

أحاطت إيرينا ركبتيها بيديها ، ووضعت ذقنها عليهما ، وهي تراقب غيمة تشبه الجبل ، ذات أطراف رمادية محروقة ، تحركت من وراء الغابة إلى الضفة الأخرى ، حيث كان كل شيء يلمع بقوة ، في كل مكان ، خلف ومضات النهر النارية ، ويتدفق كل شيء في الحر من تمازج الأعشاب الخضراء المبرقشة ، وبقع النور ، وظل شجرة الجوز الكثيف ، والهدوء الناعس للمراعي الدافئة .

— لا — قالت إيرينا وقد ظهر تجعيد صارم على جبينها — أنت لم تخبرني أبداً — هل تعلم زوجتك بوجودي في هذه الدنيا ؟

— عنك ، زوجتي لا تعلم شيئاً إطلاقاً .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، كل شيء مترابط في هذا العالم ، أليس كذلك ؟

— كل شيء ، أو تقريباً كل شيء .

— حسناً — مدت إيرينا يدها — ساعدني على النهوض .

« إنها تخشى أن تنهض بصورة غير مريحة ، هل تذكرت إصابة أنسجتها ، وهل الآن بالذات تذكرت إصابتها ؟ » .

وضغط على أصابعها الهشة قليلاً ، ورفعها برفق من الأرض ، فاستقامت ومست تنورتها قدميه ، ثم تراجعت بسرعة خطوة إلى الوراء ، وحاجباها يرتجفان بألم ، ثم أغلقت عينيها المبتسمتين بصورة غير مألوفة .

— إيرينا ، ماذا بك ؟

— اعذرني . . . لن أمثل في الفيلم ، — قالت إيرينا — سامحني لأنني أضعك في موقف حرج ، وأنسف خطتك . لقد كنت أعرف أن نهايتي ستكون وخيمة . أنا مذنبة ، مذنبة ، مذنبة . تجاه زوجتك الطاهرة ، تجاه هؤلاء الفتيات الممثلات ، تجاهك ، تجاه الفيلم . سأرحل إلى مدينة ريغا ، إلى عند والدي . ذلك أفضل للجميع . لا ، أرجوك ، لا تقل شيئاً — بادرته عندما شعرت بأنه يستعد لمقاطعتها ، وكررت بابتسامة غير مفهومة ، وهي تفتح عينيها الكبيرتين ، المليئتين بالدموع ،

بدلال : — أنا أعرف ما ستقوله ، لكنني لن أغير رأيي . هذا ما يجب . سامحني . . .

كانت الكلمات التي يرميها أحدهم أحياناً ، بصورة عرضية ، تجعله يتقلب في فراشه أرقاً ، وتجعله ينام نوماً سيئاً — وكان كريموف يدعو هذا وسوسة زائدة ، عصاب القرن العشرين . بيد أن ما قالته له إيرينا لم يكن من الممكن التخفيف من عبئه لا بالسخرية ، ولا بالمزاح — وهو السلاح المهديء الذي يطمئنه ويسهل عليه العيش . نظر كريموف إلى عينيها المتسعتين بدلال ( « لماذا ؟ » ) ، المغرورقتين بالدموع ، وسيطر عليه ارتباك لم يشعر بمثله منذ زمن طويل ، سيطر عليه ألم جديد أمام تراجعها الخنوع ، أمام سذاجتها الضعيفة ، التي لم يلقى مثلها في السنوات الأخيرة ، لدرجة أن دلالها القسري الآن ، والمؤسف ، ودموعها التي لم تسقط على خديها ، بدت له مؤلمة معذبة . وفارق كريموف المزاج الحسن في هذا اليوم الحزيراني الجميل ، نهائياً ، وأدرك أن جميع خططه للتصوير في شهر آب قد ذهبت أدراج الرياح . وتصور سفرها إلى مدينة ريغا ، من حيث أنها لا تزال حالة لا إرادية لفعل لم ينته ، ورغم أنه لم يكن هناك من مخرج آخر ، فقد قال أخيراً الجملة الوحيدة ، التي هيهات أن تنقذ شيئاً :

— لا تفعلي هذا ، يا إيرينا .

— شكراً . سأفعله . لقد قررت — قالت وهي تنظر عابسة بحذر مذنب ، وسارت إلى الأسفل على الممر الضيق نحو النهر ، متمايلة قليلاً عند خصرها ، إنها الإنسانة التي لم يكشف سرها ، ولم يعرفها .

فيما بعد ، عندما أخذ يتذكر ما حدث بعد ذلك ، كان يحاول التفكير

بعجز ، أنه كان في ذلك اليوم حذراً ، غبياً ، بليداً بصورة لا تغتفر وبأنانية ، وفي هذه الفترة خيم عليهما الجنون بجناحه الأسود ، على تلك الرابية بالقرب من دير « ستاري سباس » .

وخيل إليه ، أنه عندما نزلا إلى النهر الذي صهره القيظ ، كان ثمة جنون ما ، غير هادف ، في الشمس ذاتها ، التي كانت تضغط ، وترهق بصورة لافحة محرقة ، وهي ترتفع إلى قبة السماء ، أما الغيمة المتكاثفة إلى درجة السواد ، فقد كانت تتقدم ، وتتقدم من وراء الغابة ، وتتسع بجموح ، وتتصاعد من أطرافها ، وتمتد إلى السمت ، مغطية الشمس من الجانب بسواد قاتم ، ولهذا التمع دير العذارى في أعلى الرابية بلون أبيض بصورة مذهلة . وشعر كريموف بالاختناق ، وكان الجو على الضفة مفعماً بالحرارة والرطوبة ، ثم ركضت موجتان قاتمتان على ماء النهر ، وجرت معها رطوبة عذبة ، حتى أن كريموف لهث وتقطعت أنفاسه من صوت الرعد الشبيه بقصف المدفعية في السماء . ومن حبات المطر الكبيرة التي أخذت تضربه على وجهه ، ورأى بصورة ضبابية كيف اندمجت الضفة المقابلة والنهر والسماء في ظلام زمهريري متلألىء .

ـ آه ، المطر كيف ينقر ، كيف ينهمر ـ سمع كريموف صوتها من خلال صوت انهمار المطر ـ آه ، يا للروعة ، كم هو رائع الاستحمام الآن في النهر !

كانا يقفان تحت الجسر ، المحاط بسيلان المطر ، الذي كان يرن فوق رأسيهما ، وهو ينصب على الحديد بين القواطع ، وقد أدهشته عبارة « المطر ينقر ، ينهمر » ، التي حضرت إلى ذهنها في تلك اللحظة

من سنوات الطفولة ، بيد أن شيئاً آخر ، بلا معنى أيضاً ، شيئاً مجنوناً ، غير لازم ، أدهشه أكثر . كانت تتكلم بسرعة : « أدر ظهرك ، لا تنظر » — وخلعت على عجل « البلوزة » التي تبللت بالمطر ، والتنورة ، وأخرجت رجليها من الحذاء ، وركضت في « المايوه » إلى الجسر ، ناظرة إليه من خلال شعرها المسدل على وجنتيها ، وقالت ، وهي تستدعيه بحركة من يدها : « اتبعني ، اتبعني ، اتبعني ! . . . » .

لماذا لم يدرك كريموف ، لم يفهم آنذاك ، لماذا صعدت إلى الجسر ، ولماذا لم يوقفها ؟ ( « وهكذا لم يتمكن من تحذيرها وإيقافها . . . » ) . كان الندم متأخراً ، وكان يؤلمه في قلبه كالسم ، بيد أنه لم يكن هناك من يبرر موقفه أمامه ، وكان من غير الممكن تغيير أي شيء .

ومع ذلك ، لم يكن يتصور بوضوح في شعوره ، الدقائق الأخيرة من حياتها على الأرض ، دقائق يأسها وقنوطها أو فرحتها قبل ذلك المطر المجنون ، عندما صعدت إلى الجسر .

* * *

كان رأسها يرقد على كتفه ، وكان يلعن كل رجة من رجات السيارة ، عندما كان شعرها الرطب ، المتلاصق مثل شعر الأطفال ، يمس وجنتيه . كم كان وجهها قريباً منه ، وجهها ، الذي تفوح منه برودة الأرض ، وجهها الذي لم يعد دنيوياً ، حياً ، وقد سالت الأصباغ على رموشها شبه المغلقة ، شعر بوضوح كامل ، أنه لا مفر أمامه من هذا الرعب كله ، من هذا الذي لا يمكن تصوره وإدراكه ، من هذا الذي أصابها قبل ساعة ( هاهي الآن ترقد في ثوب السباحة المبلل ، ترقد بلا حول ولا قوة ، يهتز رأسها على كتفه من ارتجاج السيارة ، وهذا كان الشيء الأخير الذي جمع بينهما ) ، بحيث كان يبدو له ،

وكأنه في اللاوعي ، كان يرجو أحداً ما ، بأن يشفق عليها ، بأن ينقذها ، لكنه لم يذكر بعد ذلك كلمة واحدة ، لكنه يذكر بصورة غامضة ، مبهمة ، كيف استدار السائق نحوه – فجأة ظهرت أمامه عيناها ، وقد أضناهما الخوف ، وفمها المفتوح مثل فم السمكة ، وانبجاس الدم المتدفق من أنفها . . . وتلوح في ذاكرته ، كالظل ، تلك الدقائق الرهيبة المرعبة ، عندما أخرج إيرينا من الماء وتوجه بسرعة نحو السيارة التي كان قد تركها وراء الجسر ولم يعثر عليها . . . في حالة من اللاوعي كانت لا تزال تتنفس في تلك الثواني ، وكان هو يروح ويجيء على طول الضفة ، كان يصرخ ، ينادي ، يشتم بشتائم مجنونة على أمل واحد ، أن السائق لا يمكنه أن يتأخر طويلاً . لكن السيارة لم تعد إلا بعد أربعين دقيقة ، وكان مستعداً للاقدام على المستحيل ، عندما رأى فجأة وجه السائق الممتليء ، الناضح بالعرق ، فلم يتمالك نفسه ، ولم يكبح غيظه وحنقه .

كان المستشفى في بلدة ريفية ، وقد قطعت بهم السيارة خمسين كيلومتراً على السكة الزراعية السيئة ، في الهذيان الجحيمي السابق للموت : كانت العاصفة كما يبدو ، تمر فوق الطريق ، وقد التمع شيء ما أخضر اللون ، حار مبلل في وابل الأمطار ، في الضجة ، وفي الهدير خلف زجاج السيارة . كان يئن ، ويضغط بشدة على أسنانه ، وشعر من جديد بملمس رأسها المفارق الحياة ، الخائر على كتفه ، شعر من جديد بصمتها الذي فارق الأمل . . .

فتشا طويلاً في البلدة عن المستشفى ، وكانت الطرق في كل مكان محفورة بخنادق الغاز ، وأخيراً انتهى هذا العذاب كله . وتوقفا تحت

أشجار الحور في الحديقة عند مدخل المستشفى . كيف نزل من السيارة ، تاركاً إيرينا وحدها على المقعد الخلفي ، ودخل إلى بهو المستشفى ، إلى الغور المعتم ، حيث تراءت أمامه وجوه غريبة ، وكيف صعد إلى الطابق الثاني ، الذي تفوح منه روائح بشرية فاسدة ، حيث انتشرت أسرة المرضى في الممر بكامله ، وكيف فتح الباب إلى عيادة الجراح — كل هذا كان يذكره بصورة ضبابية ، مبهمة . في تلك الدقائق ، كان يتكرر أمام ناظريه مشهد واحد ، بقي راسخاً في شعوره إلى الأبد : هاهي قد نهضت إلى سور الجسر ، وكانت ترى من خلال المطر المنهمر ، وقد ظهرت في « المايوه » ، ووضعت يديها فوق رأسها ، وبعد أن صرخت داعية إياه ليتبعها ، التوت برشاقة وانسجام وقفزت إلى الماء .

ثم أخذ ينتظر أن يدعوه . كان يقف على عتبة الباب ، يدخن سيجارة إثر أخرى ، دون أن يكمل واحدة منها ، ويمسح حنجرته المنقبضة ، دون أن يفهم جيداً ، لماذا كانت الشمس ، بفرحتها الصيفية ، تلمع في البرك والغدران ، وتنعكس بصورة منعشة وبهيجة على الأوراق الثقيلة في الحديقة المبللة ، وعلى النباتات الطفيلية الرطبة ، وعلى العشب النظيف المغسول ، ولماذا كانت القطرات الثقيلة تتساقط ، بصورة مسموعة ، من السطح إلى الدلو المدهون ، الممتلىء بالماء ، ولماذا كانت البقع البللورية تهتز مترنحة ثم تقفز على عتبة الباب ، وكانت إيرينا هناك في الطابق الثاني ، ترقد على السرير المتحرك في « المايوه » ، وقد ألقت رأسها بشعرها الأشقر المبلل ، برموشها الجامدة شبه المغلقة ، التي لم يجف من تحتها الكحل والأصباغ ، كانت ترقد في غرفة بيضاء ، ظليفة ، معقمة ، حيث لم يعد هناك أي أمل .

# الفصل الخامس

كانت غرف مجموعة التصوير ، التي ألقى كريموف نظرة عليها ، خالية من الناس . وقد أحمت الشمس ، قبيل الظهيرة ، الأرضية الخشبية فيها ، وفاحت منها رائحة التنجيد المغبر للأرائك القديمة ، كما في المتحف . ووصلت إلى أذنيه من مكتب مدير الانتاج أصوات طرق سريعة ، وما كاد يفتح الباب حتى أصم أذنيه طرق الآلة الكاتبة ، وهب تيار من الهواء ، وتحركت الأوراق على الطاولة مقابل النافذة المفتوحة ، حيث كانت ضاربة الآلة الكاتبة ، الشابة ، تقلب بكفها حزم الورق ، ونظرت إلى كريموف بارتباك وذهول .

— لوحده ؟ — سأل كريموف ودفع الباب المؤدي إلى الغرفة الداخلية ، حيث سمع منها صوت خافت مثل صوت خرير الماء في الجدول .

مدير الإنتاج تيرنتي سيميونوفيتش مولوتشكوف ، رجل قصير القامة ، نحيف الجسم ، له وجه نشيط وديع ، ينشر الاهتمام والاحترام على الجميع ، كان ينهي حديثه على الهاتف ، وقال في الختام بلطف « التهاني متبادلة » — وبعد أن وضع السماعة ، نهض برشاقة ، وارتمى معانقاً كريموف ، معبراً عن اهتمامه ، واستعداده العاجل .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، كم أنا مسرور لرؤيتك ! أهنئوك بسلامة الوصول ، وبالفوز ، لقد كنا ننتظرك على أحر من الجمر ، نهنئوك ، من القلب ، من الأعماق ! . . .

وأثناء قوله هذا ، لمس بشفتيه مكاناً ما بالقرب من ذقن كريموف ، وتألقت عينا مولوتشكوف الشفافتان باخلاص وسعادة هاو سينمائي ومعجب ، أسعفه الحظ بالاقتراب من نجمه ، ومن معبوده .

— مرحباً تيرنتي ، — قال كريموف دون اهتمام ، مقترباً من المنضدة الصغيرة وساكباً من الزجاجة الشفاطة ماء غازياً ، طرطش في الكوب وقرقع . — أيها المتملق ، احفظ عن ظهر قلب ، أرجوك ، وهذه ليست المرة الأولى ، الرهيبون حقاً ليسوا أولئك الصقور الذين يلتهمون الجيفة ، بل هم أولئك الذين يأكلون الناس أحياء بتزلفهم وتملقهم . لن تأكلني يا تيرنتي ، ولن أقع في مصيدة صيحات تعجبك ، فليأخذك الشيطان ! مرحباً ، اطمئن ، وحدثني ، كيف تجري الأمور في مجموعة التصوير .

— يا إلهي ، ومن يقدر على أكلك ، فياتشيسلاف أندريفيتش ! — ورفع مولوتشكوف يديه إلى السقف بامتعاض شديد ، بحيث انحدر كما سترته الحريرية إلى المرفقين . — ومن يمكنه أن يزعجك ، أو يزعلك ، وأنت صامد كالطود ! آه ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنت تحب نفسك وتقدرها بصورة سيئة . . . !

— كن هادئاً ، ولا حاجة للكلام الفارغ — قاطعه كريموف ، ورشف قليلاً من الكوب ، الناضح بالفقاقيع التي تبرد الحنجرة وكأنها

إبر جليدية . ــ أعتقد ، أنك على علم بالأمور ، أليس كذلك ! يبدو أنني لن أصور هذا الفيلم . . . .

ــ كيف ؟ على أي أساس ؟ وكيف يمكن ذلك ؟ ــ صاح مولوتشكوف مذعوراً ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، هازاً أطراف سترته العريضة على كتفيه ، ومارآً بسرواله الضيق المكرمش . ــ من أين أتيت بهذا الخبر ؟ من باريس نفسها ؟ إنك تقتلني بدون سكين ، إنك تضعني في موقف حرج للغاية !

ــ اجلس ، تيرنتي ، وتوقف عن الركض مثل النعامة . إنه يثير الأعصاب . تعال نتحادث .

جلس مولوتشكوف على الأريكة بانتظار مذعن ، وشعر مسبقاً بالخوف ، فأخذ يرف بعينيه الصفراوين المدورتين .

ــ إنك تقتلني بدون سكين . إنك تصعقني حقاً .

ــ اسمع يا تيرنتي ــ قال كريموف وشرب ما في الكوب من ماء معدني بجرعات بطيئة . ــ لن أصور الفيلم . على أية حال ، سأقول لك بصراحة ، ــ أضاف كريموف بصوت مختنق من برودة الماء المعدني ــ كان علي ألا أضع يدي على هذا الفيلم . إنني ، ببساطة ، لا أفهم يا تيرنتي ، ماهي الشبيبة المعاصرة ، وما هو حبها العصري .

ــ ألا تخشى الحقيقة ــ الأم ، فياتشيسلاف أندريفيتش !

ــ أجل، أخشاها ، بيد أن هذا واقع . على كل امرىء أن يعرف قدراته .

وجلس على رف النافذة ، مديراً جنبه لمولوتشكوف - كانت تتدفق من النافذة حرارة أوراق أشجار الحور .

أمسك مولوتشكوف برأسه ، وصاح بصوت عال :

- أنا أحزر السبب الذي يدعوك إلى هذا القول ! في هذه المسألة ، ليس عليك أي ذنب ، وإذا كان هناك من لا يدرك ذلك ، فان هذه المسألة ستزول سريعاً ، فياتشيسلاف أندريفيتش . لقد استدعوني قبل أسبوع إلى الدائرة . . . أو دعيت للمحادثة . . . طرحوا علي أسئلة حول علاقتك بالممثلة ايرينا سكفورتسوفا . وهكذا ينتج ، أنه لن يمنعهم أحد من التنقيب عن بواطن الأمور ، طالما أن المسألة تتعلق بوفاة إنسان في ظروف غامضة . . .

- في ظروف غامضة ؟ - سأل كريموف مبتعداً عن رف النافذة ، وسار في أنحاء الغرفة - لمن هذه الظروف غامضة ؟ غامضة بالنسبة لك أم للمحقق ، الذي كان يسألك ؟ . بناء على طلب المحقق ، كنت قد عرضت ، قبل سفري إلى المهرجان ، جميع ظروف الحادث كتابياً . وأنا كنت الشاهد الوحيد . . . الوحيد ، ولا يمكن لأي كان أن يضيف أي شيء . لا بالابانوف ولا أنت . لم يكن هناك أي مغزى من استدعائك - أو كما يقال هناك - للدعوات للمحادثة .

- لم نستدعا نحن الاثنان فقط . أنا أعرف أن السائق غولين قد استدعي أيضاً . كان يجب ألا ترتبط معه ، إنه إنسان جاهل من رأسه حتى أخمص قدميه . - أضاف مولوتشكوف باستياء وسخط - إنني لا أفهم أبداً : هل من المعقول أنهم لا يثقون بك ؟

— في هذا العالم كل شيء محتمل .

— سيأتي لعندي الآن السائق غولين ، — قال مولوتشكوف ، ثم أضاف بصوت خافت — ألا تريد أن تتحدث معه ؟

— ليست لدي رغبة .

— إنه ذو اتجاه غبي للغاية ، عدواني ، ويمكن القول ، أنه ينوي رفع دعوى عليك إلى المحكمة . أوف ، كان لا حاجة لك إلى ذلك ، كان عليك ألا تصطدم مع هذا الغبي . ياإلهي ، لقد تذكرتك عندما كنت ضابطاً ، وشعرت برعب حقيقي . . . رغم أنه قد مر على ذلك خمسة وثلاثون عاماً . وهنا تخاطر ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، إنك تخاطر من جديد بجرأتك .

— ماذا كان علي ألا أفعل ، ماذا قلت ؟

— كان عليك ألا تضرب هذا الحثالة ، هذا السكير ، جامع الروبلات ، كما أصبح معروفاً . إنني قلق عليك ، فياتشيسلاف أندريفيتش . ربما تكون صحتك وأعصابك ، عندي أغلى شيء في الدنيا . فنحن هنا ، في مجموعة التصوير ، بدونك مثل الكلاب العمياء ، أو مثل الأيتام . وأنا بدونك — صفر ، لا أحد ، مخطط من فورونيج ، أرتدي مزالق الغير . لهذا ، أشعر في أعماق نفسي بالحزن والألم . فياتشيسلاف آندريفيتش ، أنا أتألم جداً ، عندما يمسك أحد بكتفه . . .

— لقد أردت أن أقول لك ، منذ مدة طويلة ، يا تيرنتي — قاطعه كريموف ساخطاً — كان عليك منذ زمن طويل ، أن تدع عواطف

الرجولة جانباً ، في شؤون العمل . قل لي ، أيها المدير ، لماذا ، ومن أجل أي شيء تتزلف إلي ؟

ــ إنك تسيء إلي . أنا احترمك جداً ، فياتشيسلاف أندريفيتش ــ قال مولوتشكوف غاضاً طرفه بهيام ، إنني لا أنسى حتى الموت ما فعلته من أجلي . أنا مدين لك بكل شيء ، وزوجتي ممتنة لك كثيراً . . .
ــ إنك تضعني في موقف حرج ــ قال كريموف متهيجاً ، مدركاً باشمئزاز ، أنه لا يتمالك نفسه ، سامحاً لنفسه باظهار نقطة ضعفه السابقة في سنوات شبابه ، التي يدينها هو نفسه ، وهي النزق وسرعة الغضب ــ إن دور المحسن والممتن ــ مفهوم عتيق في عصرنا ! ــ قال كريموف دون أن يقدر على كبت هياجه . ــ رغم أننا لم نكن أصدقاء في الحرب ، لكننا مع ذلك ، حاربنا معاً فترة من الوقت . وعلاقاتنا يجب أن تكون علاقات الند للند . اطمئن ، اهدأ ، يا تيرنتي ، أنت لست مديناً لي بشيء ! لاسيما أننا لن نكون أصدقاء في يوم من الأيام . . .

« لماذا أتحدث بهذه الفظاظة والصراحة ؟ وما الذي يدفعني إلى هذا القول ؟ » .

ــ كان بودي ذلك . . . كنت أحلم ، لولا أنك يا فياتشيسلاف أندريفيتش . . . بعيد ــ قال مولوتشكوف وحرك يديه بصورة دائرية ووضعهما على ركبتيه . ــ ولماذا أحلم ؟ لقد عملت الكثير من أجلي ، وأنا لا أطيق الخنازير الخسيسة ، ناكري المعروف والفضل . أنت طائر عالي التحليق ، أما أنا ، من أنا . . . أنا من قرية حقيرة ، من أوساخ المستنقعات برزت وأصبحت أميراً . تلقيت تعليمي في الدورات . وتعلمت الحساب جيداً . أما بالمقارنة معك ، فأنا بايد جاهل ــ وضرب

مولوتشكوف جبينه بقبضة يده ذات العروق البارزة . — رغم أنني أنهيت دورات الإداريين . في الحرب كنت غبياً ، وبقيت غبياً بعدها . إلى أن التقيتك ، يا فياتشيسلاف أندريفيتش . . .

— إن إهانة الذات أسوأ من الافتخار — قال كريموف — لقد فعلت من أجلك ليس أكثر مما يمكن أن يفعله إنسان آخر . حسناً ، يا تيرنتي ، اجعل نفسك دائماً ، عبداً ممتناً شاكراً ، وأنا سأقوم بدور المحسن ، وأتلذذ باهانتك الفخورة لذاتك .

« غير أنه يشبه الصرصور . هاهو جالس على الديوان ، ماداً رقبته ، متوتراً ، وقد وضع يديه على ركبتيه ؛ وعيناه طافحتان بالولاء المداهن المتملق ، هاهو ذا يستعد للقفز ومعانقتي ، بالرغم من صراحتي الفظة . . . » .

— أخشى يا تيرنتي ، أن تمل يوماً ما من كونك عبداً شكوراً . . .

« ما الذي يدفعني إلى قول مثل هذه السخافة ؟ »

— أبداً . أنت تسيء إليّ أشد الإساءة — اعترض مولوتشكوف باخلاص ، وضيق عينيه في ذهول للذيذ ، وقال متنهداً من حنجرته : — فلتحل علي لعنة سونيا آنذاك ، ولأموت .

« يموت من أجلي ؟ لعنة سونيا ؟ أم أنه مجنون ؟ » ، سأله كريموف :

— سونيا ؟

— زوجتي سونيا ، صوفيا بافلوفنا ، — أوضح مولوتشكوف بسرعة — إنها تعشقك ، إنها تعبدك . إنها تحفظ جميع أفلامك عن ظهر قلب .

آه ، أجل ، لقد أصبحت صوفيا بافاوفنا ، مؤخراً ، زوجة مولوتشكوف الذي عاش طويلاً في وحدته . وعشية الزواج قام مولوتشكوف ، الثمل من السعادة ، باصطحابها إلى منزل كريموف أولاً ، ثم إلى الاستوديو ، وقدم زوجته المقبلة بفخر واعتزاز إلى مجموعة التصوير . من حيث المهنة ، كانت صوفيا بافاوفنا ، معلمة الغناء ، وقد ذهل كريموف من رجليها القويتين السمينتين ( الدالتين على المنحى الاقتصادي لعقلها ) ، واتساع كتفيها الرجولي ، وامتلاء صدرها ، ومن صوتها الجهوري العميق ، عندما غنت ، دون حياء ، بناء على طلب الخطيب المغتبط ، وهي تضرب الأرض بقدميها ، أغنية سولفيج ، بمصاحبة مهندس التسجيل الصوتي ، الذي دعي إلى العزف على البيانو في غرفة الممثلين .

— آه ، أجل ، — قال كريموف متذكراً ارتباكه أثناء تعارفهما — أجل ، إنها امرأة فاتنة ، موهبة ، طبيعة غنائية ، لكن ليس هذا ما أردت قوله يا تيرنتي ، — قاطع نفسه كي لا يتحول إلى لهجته الساخرة المألوفة ، ويسخر ، دون داع ، في الواقع ، من زوجة مولوتشكوف ، التي لا يعرف عنها إلا القليل — هاك ما أردت قوله يا تيرنتي . وهذا شيء جدي — أضاف كريموف — لن أصور الفيلم . وقراري هذا لم أصرح به لبالابانوف . لذا ، ستضطر على الأغلب ، إلى العمل مع مخرج آخر . ليست هناك ممثلة ثانية مثل سكفورتسوفا . وأنا لست واثقاً من النجاح . على أية حال ، لم تعد هناك أهمية للنجاح أو الفشل . لذا ، سأبقى يا تيرنتي ، سنة كاملة على الأغلب ، دون عمل ، إذا لم أدخل السجن طبعاً . لأن كل شيء ممكن في أيامنا هذه ، المليئة بالأحداث الخلاقة المبدعة . . .

— أنت تمزح من جديد ؟ — اقشعر مولوتشكوف من البرد . — متى تتوقف عن السخرية من الجميع ؟

أجاب كريموف باهجة بين الجد والمزاح :

— ليس من الجميع ، بل من نفسي . وفي هذا شيء من الأمل ، طالما أننا لا نتردد إلى الكنيسة للاعتراف . إن الحكمة العليا تأتيك عندما تبدأ بادراك أن كل شيء ممكن .

— أوه — اهتز مولوتشكوف على الديوان ، وارتعبت عيناه الشفافتان ولمعتا . — إنني أخاف عليك من لسانك ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، لقد أصبح الناس حساسين جداً ، سريعي التأثر ، معتدين بأنفسهم ، وأخشى ألا يفهموك على النحو الصحيح ، ويكونون رأياً سيئاً عنك .

— آه ، عزيزي تيرنتي ! ثمة حولنا كثير من الشهرات المزيفة ، والفقاقيع والأوداج المنفوخة الكثيرة ، والمشهورين العرضيين ، والمشهورين غير المعروفين ، بحيث أن انتزاع مجدي بـ « الرأي السيء » لا يزيده ولا ينقص شيئاً من تفاصيل سيرتي الشخصية .

— هناك أناس شريرون . . . يسعون إلى التهام أحد ما . . .

— فلننظر إلى شهيتهم. أما أنا فسأذهب إلى بيتي الريفي. مع السلا . . .

قال عبارته الدالة «مع السلا . . . » ، وبنفور من هذه الكلمات السينمائية — البوهيمية ، توجه إلى الباب ، رابتاً ، بطريقه ، على كتف مولوتشكوف .

« لا ، إنه خداع ! بصرف النظر عن إرادتي ، فأنا لا أستطيع أن أعمل شيئاً مع نفسي ، ــ فكر كريموف في نفسه ، متألماً من سخط شنيع . ــ بالمشاكسة الوديعة أسايه وأسلي نفسي ؟ في حين أنني في الواقع ، مريض بعصاب القرن العشرين ، مثل كل شيء في الفن لا يمكن إشباعه لا بالغرور ، ولا بعشق المجد . إنني طموح ، محب للرفعة ، محب للذاتي ، كما كنت بالأمس ، قبل خمسة وثلاثين عاماً في الحرب . وأعترف أمام ضميري ووجداني ، أنني لست أبداً لا مبال بما يظنه الناس ، وبما يقولونه عني . . . اذن ، ربما أن حياتي كلها كانت جبناً ، إذا كنت أخاف على سمعتي ، وأردت أن أحوز على إعجاب الناس ؟ من أجل أي شيء ؟ في الحرب ــ من أجل الأوسمة ؟ وبعد الحرب ــ من أجل النجاح ؟ من أنا كاذب منافق ، أم متظاهر متصنع ؟ » .

توقف كريموف برهة ، أثناء خروجه إلى الغرفة ، حيث كانت تعمل ضاربة الآلة الكاتبة ، التي كانت تضرب بسرعة على مفاتيح الأحرف ، في مجرى التيار . وفجأة اصطدم بشيء ما غريب ، معرقل ، ولم يدرك على الفور ، أن هذا الإحساس ظهر لديه عند رؤيته الشاب ، الذي كان يجلس محدودب الظهر على المقعد ، إلى جانب الخزائن ، المملوءة بأضابير السيناريو . كان يجلس محني الرأس ، بشعره الأسود المتدلي وكان يضغط بين ركبتيه المتباعدتين قبعته ويدعكها بعصبية بيديه المشبوكتين . وقد أرغم شيء ملح ما كريموف على التطلع بانتباه إلى هذا الشاب الذي رفع رأسه دفعة واحدة . على الفور ، تعرف كريموف على هاتين الوجنتين القويتين والجبين الصلب والشفتين

الكبيرتين ، اللتين ظهر عليهما الدم ، في ذلك اليوم . في تلك الأثناء التفت هذا الشاب ، وهو يتنفس من رقبته الثخينة ، ولعق الدم بلسانه . . . لقد كان هذا الشاب السائق غولين . واتجهت بسرعة عينا الشاب الملتهبتان ببياضهما المحمر ، نحو كريموف ، وقد تثبتت الأورام البارزة على عظم وجنتيه . وتذكر كريموف ، ملتهباً ، عجزه وهو ينتظر عودة السيارة ، وهمهمة السائق المبررة ، وشخيره المجنون ، عندما دهن هذا الجبان أنفه بالدم ، دون مقاومة ، وابتعد جانباً نحو باب السيارة المفتوح ، حيث كانت تبرز من المنفضة عقب السجاير .

« إذن ، هو قادم لمقابلة مولوتشكوف ؟ » — قرر كريموف على الفور .

ودون أن يتمكن من مقاومة اغراء اللعبة الشيطانية ، التي تدفعه إليها قوة غامضة ، معروفة في شبابه في تلك الأثناء ، والتي كانت تفجر ، بصورة مفاجئة ، تحفظه واحتراسه الذي اكتسبه بعد الحرب ، أمسك غولين من ذقنه المبللة بالعرق ، وبعد أن رفعه ، سأله بصوت منخفض ، بهدوء جليدي ، كان يظهر عنده في لحظة العزيمة الخارقة :

— إذن ، أنت تكره المثقفين ، أيها الشاب ؟ لو كان باستطاعتك لقضيت عليهم ، لضربتهم ضربة قاضية ، هؤلاء الملايين ، الفاسقين ، العاطلين عن العمل . . .

— آه ! — سحب غولين ذقنه ، ورفع رأسه مثل حصان ماجوم ، وارتسمت تعابير الكراهية على حدقتيه ، وقال بصوت أجش : — لا تلمسني ، ثمة شهود عيان ! — وأشار باصبعه إلى ضاربة الآلة الكاتبة ، المصعوقة . — تريد أن تضربني من جديد ؟

– للأسف ، لا أسمح لنفسي بانتقام الأطفال المحظور ، – قال كريموف وخرج إلى الردهة ، خائفاً من ذلك الرضى الذي كان سيشعر به ، لو رأى آثار العقاب العادل على هذا الوجه ، ذي الوجنتين الصابتين .

خلف بوابة الاستوديو ، اقترب من السيارة ، مفكراً ، لسبب غير معروف ، بأنه ، بالرغم من جميع النقائص ، فقد كان ، بصورة عامة ، محظوظاً في الحياة ، رغم تأخره الطويل في تسليم كل فيلم جاهز ، وبعد حوار طويل في المكاتب ، مثيراً من فترة لأخرى جلبة وهوشة في لجنة شؤون السينما ، التي كانت تخشى استلام الفيلم بدون التعديلات المصححة . في الوقت نفسه ، كان يثيره صبية الاستوديو ، الذين يحملون الأنواط على صدورهم الشعراء ، ويدمدمون بمغزى وذكاء عن يساريته التجديدية المبدعة . وكان يثيره بالدرجة نفسها ، الهمس الزاحف ، بصورة سامة ، مثل ثعبان خشخاش حول تهوره وعدم اتزانه وعدم السيطرة عليه . أما هو الذي عرف الحماسة اليسارية واليمينية في تواصلاته وعلاقاته المتنوعة ، لم يرغب أن يذيع صيته ، لا يمينياً ولا يسارياً ، ولا متزناً خاضعاً ، محاولاً البقاء ، مفتوحاً بصورة مفرطة ، ربما ، وناعماً باعتدال ، وبخاصة في أفلامه الماضية حول شباب جيله ، وحول الحرب بشجنها العاري ، وخسائرها ، وعلى الأغلب ، في أفلامه الأخيرة حول الأعوام السبعينيات وجراثيمها الاستهلاكية ، ولا مبالاتها الأخلاقية الذاوية ، وهمومها الآنية اليومية ، وحب الأرض الخالي من أي حب .

ولكن ، والحمد لله ، عليه الآن أن يذهب إلى البيت الريفي ، فقد اشتاق خلال ستة أيام من وجوده في الخارج ، إلى طفليه ، إلى زوجته أولغا ، بنظرتها الهادئة من الأسفل إلى الأعلى ، وبصوتها الرتيب البطيء ، الذي كان يؤثر فيه أحياناً ، تأثيراً كبيراً للغاية ، اشتاق إلى

اقترابها الخجول منه ، وإلى سؤالها المازح ، المداعب ، بعد القبلة الأولى : « ألم تنساني كثيراً ، مع ذلك ؟ » ، وكان هو أيضاً يجيب بشيء من الدعابة ، بأنه كان يموت حنيناً وشوقاً . لقد اشتاق إلى ولديه وأسرته ، وبالدرجة الأولى إلى تانكا ، ابنته المضحكة ، المشاكسة ، الصغرى في الأسرة ، إلى محبوبته الصريحة . لقد كان هادئاً في مشاعره نحو ابنه فالنتين ، طالب السنة الثالثة في معهد السينما ، الذي أصغى إلى نصحه وسار على خطاه . غير أن فالنتين كان قليل الكلام ، منغلقاً على نفسه ، وأحياناً غير متسامح بالنسبة لحنين « الأجداد » وفنهم ، أي أنه كان متحرراً من ترهة عاطفية تقادمت واهترأت في عصر التقنية والذرائعية . إن الاغتراب الصامت لابنه وبعده عن الناس ، لم يقربا فيما بينهما ، ولم يخلقا وداً متبادلاً ، أما كريموف ، فبسبب ضغط عمله الدائم وانعدام القدرات التربوية لديه لم يكن يبحث عن نقاط التقاء قريبة خاصة ، واعتبر ابنه شاباً عصرياً إلى حد الافراط ، لكنه مدير تصوير مقبل عادي جداً ، خال من النزعة الفنية ، يدعو إلى الصيغة التي يقبلها العقل والجديرة بهذا العصر وهي : أمل العالم في المدنية التكنولوجية .

في طريقه إلى البيت الريفي ، عرج كريموف إلى شقته في موسكو ، وعندما دخل إلى السكون الخانق ورأى أعمدة الشمس عبر شقوق الستائر في هواء الغرفة الحبيس ، فاح إهمال الشقة الصيفي باليتم والوحدة ، ولم يعد يرغب بالبقاء هنا وحيداً ، كما رغب بالأمس . فشرب قدحاً صغيراً من الكونياك ، لوضع حد لوجع رأسه ، ووضع حبة ملبس من النعناع في فمه ، لإزالة رائحة الكونياك ( في حال لقاء مفاجيء مع شرطة المرور ) ، وأخذ حقيبة السفر مع الهدايا ، التي كان يشتريها دائماً ل « نسائه » من الخارج ، ونزل باتجاه السيارة .

# الفصل السادس

في الضاحية الريفية ، الدفينة في عربدة شمس تموز القائظة ، أوقف كريموف سيارته بالقرب من الخوخة ، المستظلة بأشجار الزيزفون ، ودخل من الباب ، وعلى الفور ، ومن خلال أخشاب السور رأى في الحديقة بين أشجار التفاح ثلاثة مقاعد خشبية طويلة ، ورأى ابنته المحبوبة تانيا * ، تلميذة الصف التاسع ، وقد قصت شعرها قصيراً على طريقة الصبية . كانت ترتدي قميصاً رياضياً يكشف عن كتفيها اللذين لوحتهما الشمس ، وكانت مستلقية بين الأعشاب فوق سجادة صغيرة ، وهي تقضم تفاحة ، وتقرأ وهي تحرك رجليها الحافيتين . التفتت تانيا بوجه مشرق ، عندما سمعت صرير الباب الخشبي ، وقفزت بمرونة ، ورمت بقراضة التفاحة بين الشجيرات ، وصاحت بفرح :

– بابا ، الحمد لله على السلامة ، أورا . . . ! تحية ومرحبا !

– مرحبا يا عزيزتي ، – قال كريموف وسار فوق الأعشاب التي كانت تصفعه على قدميه ، باتجاه ابنته التي ركضت نحوه – مرحبا ، يا شيطانة ، يا زقزاقتي – قال كريموف ، مقبلاً ابنته في شعرها ، الذي تفوح منه حرارة الشمس – اسمعي ، يا تاتيانا « خانم » ، كأنني لم

* تانيا ، تانكا ، تانيوشا ، كلها أسماء تصغير وتحبب للاسم الكامل تاتيانا –المترجم .

أرك منذ عام كامل ، لكن أنفك قد انسلخ من أشعة الشمس بشكل غير محتمل ، وأنت بكامل جسمك احترقت وأصبحت كالزنجية ! ماذا بك ، وهل تمضين النهار بكامله تحت أشعة الشمش ؟

– آه ، يا أبتي العزيز ، إنني مسرورة ، مسرورة ، لقد اشتقت إليك – قالت تانيا بمرح ، بما تميزت به علاقتهما من ثقة وصداقة ، كان يقدرها كريموف كثيراً – وأنت ، أصبحت نحيفاً في سفرك إلى الخارج ، وأصبحت رشيقاً وشاحباً . لقد قرأت وأمي في مجلة « الثقافة السوفييتية » أن فيلمك قد فاز بالجائزة ، وعرض في قاعة الاحتفالات . أليس كذلك ؟ أو لم يضف أصحاب القلم الكثير من خيالهم إلى هذا الخبر ؟ فهم يجيدون ذلك ، على نحو لا يصدق . . .

– إلى هذا الخبر ، لا – أجاب كريموف ، ولمس في قرارة نفسه خدمة ساخرة سعيدة ، تحت نظرة ابنته المرحة ، مستمتعاً بصوتها المشاكس ، ومشفقاً على أنفها المسلوخ من أشعة الشمس . – كانت القاعة غاصة بالجمهور ، وتحطمت شبابيك التذاكر ، وتكسرت أجهزة إطفاء الحريق ، والمتفرجون كانوا بين جالس ومستاق ، وواقف ، وهناك من تعلق بستائر النوافذ أما أكثرهم مهارة ، فقد تعلقوا بالثريات ، وكانوا يصرخون بملء حناجرهم « الكرة » تارة و « أبعدوا المخرج من الملعب » تارة أخرى .

– ها قد بدأت اللعبة – صاحت تانيا باعجاب شاجب لشريكة في الرأي ، أدركت بسرعة الأسلوب المعهود – من جديد يا بابا ؟ لا يفهم المرء أين المزاح وأين الجد . انتظر ، ماما ليست هنا : إنها تعمل في الحقل المشمس : اجلس على المقعد الطويل ، اجلس هنا !

وشدته من يده ، وأجلسته قبالة الشمس ، وجلست هي مقابله ، واتكأت بظهرها على المقعد الطويل المائل ، ناظرة نظرة خفية من تحت رموشها المبيضة من أشعة الشمس .

– بابا ، أريد أن أسألك – هل حقيقة أم لا ؟ رغم أنني لا أصدق منها شيئاً . . .

– ماذا تقصدين يا ابنتي ؟

غضنت تانيا أنفها ، وهي تقول :

– إشاعات سخيفة مرعبة ، يحمر الوجه خجلاً منها . البارحة في « البلاج » ، اقتربت مني تلك الفتاة السمينة سيمكا أنسيموفا ، ابنة مدير التصوير السابق عندك ، الذي اشترى الآن « فيللا » في بلدتنا ، وقالت بخبث واستهزاء : « أتعرفين ماذا حل بأبيك ؟ » – « لا ، وماذا تعرفين أنت ؟ » – « اذن ، أنت لا تعرفين ما يعرفه الجميع الآن ؟ » – « وماهي المسألة يا غبية ؟ » – أسألها فتجيب : « لاشيء ، ستعرفين كل شيء عندما سيلزم ذلك » . أتعرفين ، ألا تعرفين ، إنها تمساحة معروفة . – قالت تانيا ساخرة ، وكانت عيناها تلمعان مثل عيني ساحرة . – إنه أمر مذهل ! أنا ، طبعاً ، لقبتها بالشوبق المطبخي ، ولكن من يدفق هذه الإشاعات السخيفة ياترى . . .

– أية إشاعات يا ابنتي ؟ ، أنت لم تقولي بعد شيئاً .

– إشاعات تزعم أن ممثلة شابة من فرقة التمثيل في فيلمك قد ماتت ، وكأنك كنت تميل إليها ، – قالت تانيا واحمر وجهها ، وهزت رأسها بحرية واستقلال ، معترضة ورافضة . – معروف للجميع

أن الإشاعات ترددها وتنشرها الشوابق المطبخية . . . الواشيات اللقلاقات . . . .

ـ تانكا ، أنت ابنتي الحبيبة ـ قال كريموف وهو يرى على وجه ابنته الصدق ، وعدم القدرة على الكذب ، والقلق ، والاهتمام بالدفاع عن شرف الأسرة ، التي لايمكن لأبيها أن يدوسه أو يدنسه .

ـ هذا ما يدعى بأنني افتريت ! إنها إشاعات يا بابا ! ـ صاحت تانيا بقلق ، وضربت على ركبتيها بيديها . ـ أنت ، يا أبي ، لقد صرت حزيناً ! لا تصغ إلى هذه الإشاعات . أنا سأدخل الآن المرح إلى قلبك ، يا بابا ! إنه أمر مذهل ! هل تعرف ، سيكون عندنا زفاف عما قريب . ابنك ، أخي فالنتين فياتشيسلافوفيتش ، طالب السنة الثالثة ، أتعرف ماذا ؟ إنه سيتزوج . هذا لا يزال سراً تقريباً . لم تكتب الصحف بعد عن هذا الموضوع ، ولم تنشر أية مقابلة ، ولكن ، ولكن . . .

ـ ولكن ماذا ، يا تانيا ؟

ـ لكن كل شيء يسير بهذا الاتجاه . أمي مذعورة قلقة ، بصورة غير معقولة . ما إن يحضر الخطيب مع فتاته المختارة ، حتى تصاب بقلق شديد ، فتأخذ منصتها ، وتمضي اليوم كله وهي ترسم . ولا تحضر في موعد الغداء ، فهي تتغذى بالثمار البرية في الغابة على الأغلب . إنها تعاني كثيراً ، أما أنا فأشعر بالضحك رغم أنني لا أظهر شيئاً . لقد عثر لنفسه على « ألف ليلة وليلة » . . . على جولييت ، وحلّق معها باق ، باق ، باق .

لمح كريموف في صوتها غيرة لم تحسن اخفاءها ، بيد أنها سرعان ما ضحكت بصورة رنانة ، طبيعية ، لدرجة أنها كلها بجسدها الذي

كوته الشمس وشعرها الكتاني ، اشتعلت بالشباب والصحة والراحة ، أما هو فقد تملكه لهنيهة صغيرة ، شعور ثاقب ، غير مفهوم بالخشية عليها : فلو حدث شيء ما لتانيا ، لما أبقاه شيء على هذه الأرض .

— باق ؟ اسمها باق ؟ — سأل كريموف بصوت خافت ، رابطاً بصورة عفوية هذا الاحساس الذي تملكه لثانية واحدة بذلك اليوم الحزيراني الرهيب ، وبرودة الشعر المبتل الأشقر على خده .

— باق ، باق ، باق — كررت تانيا بصورة مضحكة ، وأرته بأصابعها المجرحة ، وكأنها تمط أنفها الذي تمزق جلده . غير مفهوم ؟ لدى خطيبتنا أنف كأنف البطة ، ذو رأس حاد مدبب . . . ويشبه القبقاب ، لدي رغبة شديدة بأن ألمسه ، حتى أنني لا أستطيع منع نفسي من لمسه إلا بصعوبة ، غير أنها ، أتعرف ؟ — ذات رأي مستقل ، ولها شخصيتها . ستراها . لقد اقتادها الطالب إلى « البلاج » منذ الصباح . سيأتيان عند الغداء .

— ألا تتعنّي كثيراً مع هذه البطة ؟

— لا أبداً . يروقني فقط أن أراقبها وأراقب فالنتين . إنه فقد عقله ببساطة ، يبدو وكأنه ديك حبش ، أما هي فكأنها طاووس ، حتى أن خنصرها يبرز عندما تمسك بالكأس وينتفخ : هذه البطة اسمها لودميلا : وهكذا العاشقان روسلان ولودميلا . إنه أمر ساخر إلى حد لا يطاق : كالسخر في أعمال أنطون تشيخوف الأدبية الباكرة . أما أمي ، فهي تعيش في ذعر حقيقي .

— لقد اشتقت إليك يا تانيا — قال كريموف ملاحظاً تانيا بدلال ، ونهض من على المقعد الطويل — واضح ، سأذهب إلى غرفتي : أما

انت فافتحي الحقيبة ، واختاري هدية . أظن أن الصندل ذا الأشرطة سيحوز على إعجابك .

* * *

في مكتبه ، كانت النوافذ مفتوحة على مصراعيها ، وكذلك الباب المؤدي إلى الشرفة ، وكان هواء الحديقة العليل يغمر الغرفة .

نظر كريموف إلى عليته ، ولاحظ على الفور أن أيدي غريبة قد لعبت بها . فعلى الديوان ، حيث كان يحب الاستلقاء أمام النافذة المفتوحة ، متأملاً غروب الشمس الذهبي على أشجار البتولا ، مستغرقاً وخاضعاً لسلطة أفكار المساء المتعبة ( حسب تعبير أولغا ) ، شاهد مخدة وشرشفاً يلمعان بلونهما الأبيض ، وقد غطيا إلى النصف بلحاف — فراش أصلح على عجل — وعلى ظهر الكرسي علق رداء نسائي باهمال . وقد رميت على السجادة الصغيرة بالقرب من المكتب حقيبة نسائية ذات زنار . ولم يكن مألوفاً له أن يكون جهاز الفونوغراف مكشوفاً ، والكتب قد مستها أيد غريبة . وعلى طرف طاولة المجلات ، كانت هناك مرآة مدورة لامعة . وإلى جانبها كانت هناك علبة أحمر شفاه وعلبة مسطحة لـ « البودرة » ومشط نسائي . وقد أزعجه أن خطيبة ابنه كانت تنام ، كما يبدو ، في غرفة مكتبه ، وقد أقلقت بتدخلها الفظ ممتلكاته الشخصية ، حيث كان يسود دوماً النظام الذي اختاره وحافظ عليه للعمل في مكتبه .

« اذن ، وصلت المسألة إلى هذا الحد ، طالما أنها تنام هنا في البيت الريفي ؟ » . خلع كريموف جاكيته ، وسار في أنحاء المكتب ، ملجأه المنير والهادىء دوماً ، ووقف أمام طاولة المجلات ، ونظر في المرآة المدورة الصغيرة ، التي كانت تنظر إليها ، في الصباح ، غالباً ، خطيبة

ابنه . لاحظ كريموف باستغراب ساخراً ، أن مرآتها قد وضعت فوق نماذج سيناريو الاخراج ، فقال بصوت مرتفع : « إن هذا مؤثر » — وخرج من مكتبه .

قبل أن ينزل إلى الأسفل ، ألقى كريموف نظرة إلى غرفة زوجته ، الغرفة الصغيرة ، المريحة ، التي كان يطيب له الدخول إليها ، إلى عالم الحنين إلى موسكو القديمة في العشرينات والأربعينات ، موسكو التي أصبحت الآن باردة ، شاهقة الأبنية ، وفقدت روحها السابقة .

هنا ، في حجرة أولغا ، كان يبدو كل ما كانت تحبه : انسجام الخطوط والثنايا ، الرشاقة والاستدارة في العمارة ، التي تنشر الدفء والاطمئنان ، وفرحة الخيال والظلال — رسوم وصور لبولفار بريشيستنينسكي ، وكاتدرائية المسيح المنقذ مع منظر لنهرزاموسكفوريتشي وبرج سوخاريف بزخارفه البيضاء ورواقه المكشوف ، ومنطقة زاريادبي الربيعية ، وأزقتها الصباحية وكنائسها الصغيرة الأبدية ، ولوحة موسكو ، بريشة أولغا ، في الفجر الصقيعي المورد ، في الندى المثلج الذي شكلته حافلة الترام الأولى في الشارع المقفر ، وعلى مقربة منه ، منظر طبيعي يمثل مشهداً ريفياً يظهر فيه الغسق الذي يبعث المزاج الحزين : خلف النافذة يغدو الهواء الشتوي أكثر زرقة ، وتظهر زرقة الثلج على الأسطح المائلة بين أشجار الشوح السوداء ، بينما أشعلت الأنوار في بعض المنازل .

في كل مرة ، كان كريموف يتنسم هنا نقاء طاهراً ، منبعثاً من الصور القديمة ، من المشاهد والصور المعلقة على الجدران ، من طاولة الرسم والمصباح ذي القاعدة المرنة المركب عليها ، من الستائر الشفافة المزخرفة ، الممتدة حتى أرض الغرفة ، تلك الستائر التي توحي حركاتها المتموجة بشيء ما نسائي أنيق ، كما يوحي به سرير أولغا المرتب بأناقة .

قبل خمسة عشر عاماً ، عندما شيدا هذا البيت الريفي ، كانت هذه الغرفة هي الغرفة الأولى التي تم انجازها واكمالها . وقد استقبلا العام الجديد هنا ، في البيت الريفي وليس في موسكو ، وكانا مشغولين بالأحاديث ذات الطابع العملي مع النجارين ، وكانا مفعمين بأجمل الآمال المستقبلية ، عازمين على العيش صيفاً هنا ، والعمل في الحديقة ، واستقبال الضيوف هنا فقط . بيد أن هذا الاستقبال الأول للعام الجديد في البيت الريفي كان مصادفة ، وخاصاً . فقد انقطعا ، بسبب العاصفة الثلجية الكبيرة التي غطت الطريق ، ولم يذهبا إلى موسكو ، وبقيا هنا ، في البيت الريفي الذي لم يكتمل بناؤه ، الذي كان يفوح منه زيت التربنتين ونشارة الخشب الباردة على الدرج وخشب الصنوبر البارد في غرفة أولغا غير المدفئة ، التي كانت تهزها العاصفة الثلجية طيلة الليلة . وكانت تقول أولغا بأن كل ما كانت تعمله ، في تلك الأثناء ، كان مفعماً بحبها له : فقد كانت ترتسم في عينيها المخمليتين البريئتين ، المصوبتين نحو عينيه ، ابتسامة تارة ، وحنان خفر تارة أخرى ، عندما كان يمسها ، يمس زوجته ، أم طفليه ، لكنها بقيت دائماً مرتبكة ، كما في مرحلة عزوبتها ، خجولة من عدم صبره .

قطع شجرة عيد الميلاد من الغابة ، وحملها مع روح الثلج الباردة التي عصفت بها ، وأخذت أولغا تزينها بضفائر من بقايا ورق الجدران ، لم يكن كريموف يعيقها في عملها ، فقد كان يقف من الخلف ، يمازحها وينصحها ، ويرى رأسها المنحني ، وشعرها الذي سرحته بنعومة ، وجمعته إلى الوراء في عقدة مشدودة ، وكان من حين لآخر يمسك بكتفيها ويديرها نحوه . أما هي فقد كانت تنظر بعينيها إلى وجهه ، وتقول مرتبكة :

ـــ هذا العام هو عام الحصان * ، لهذا عليك أن ترتدي بدلة بنية اللون .

ـــ هكذا اذن ، يا أولا ، بنية اللون حتماً ؟ للأسف ، لقد نسيت خزانة ملابسي المؤلفة من خمسين طقم « سموكنغ » في بوينس آيرس ، في أجنحة فندق هيلتون . لا عليك ، سأرسل برقية .

ـــ ماهذا الإهمال ! وما العمل ؟ إن عدة الحصان بنية ، بصورة عامة . أتعرف المراسيم في هذه المناسبة ؟ علينا أن نرتدي شيئاً مصنوعاً من الجلد . وأن يضع الرجل على رقبته سنسالاً ذهبياً . احن رأسك . سألبسك سنسالي . ـــ وخلعت من رقبتها سنسالاً صغيراً ، ألبسته لزوجها ، وقالت مهمومة : ـــ اعطني حزامك الجلدي لأرتديه أنا . علينا أن نضع على الطاولة لعبة على هيئة حصان . ويجب وضع الشوفان وقطعة من السكر في صحن أمامها . وماذا أيضاً ؟ في تمام الساعة الثانية عشر ليلاً لا يصح شرب الشمبانيا . على أية حال ليست لدينا شمبانيا . حسن جداً ! فقط الكونياك أو الفودكا . وهذا لدينا ، والحمد لله . قبل حلول منتصف الليل بدقيقة واحدة ، يجب فتح الباب وإخراج العام القديم . وفي الساعة الثانية عشرة تماماً ، يدخل العام الجديد . فنغلق الباب . وعندئذ علينا أن نشرب نخبه . تعال نستقبل العام الجديد على هذا النحو ، حسب التقويم القمري .

برغبة عظيمة ، وافق كريموف على مراسيم استقبال العام الجديد وفق التقويم القمري ، دون أن يعلم حتى الآن ، ما إذا كان هناك عام الحصان في هذا التقويم . أما أولغا ، التي كانت عيناها تضيئان على نحو خافت ، فقد كانت تجلس خلف المائدة ، وقد وضعت على خصرها

* حسب التقويم القمري الصيني القديم . ـــ المترجم ـــ

الحزام الجلدي الرجالي ، وعلق كريموف في رقبته سنسال أولغا ، الذي يحتفظ ، كما بدا له ، بدفء جسدها ، والذي كان يؤثر في خفة الوزن النسائية على كنزته الصوفية السميكة ، وفي منتصف الطاولة كانت هناك لعبة على هيئة حصان ، وبالقرب منها صحن فيه قطعة من السكر . قبل دقيقة واحدة تماماً من حلول منتصف الليل ، اقترح كريموف على أولغا قائلاً : « تعالي نستقبل الحصان ، لكن خذي معك قدحك » ـــ وخرج إلى الدرج الخشبي المظلم ، المشبع بالقار والنشارة ، حيث لم تمدد الإنارة الكهربائية بعد ( كما في البيت كله ) ، ونزل من العلية إلى المدخل ، وفتح الباب الخارجي للريح ، التي كانت تحمل ، بصورة مائلة ، اللبدات الثلجية الزرقاء ، وعويل العاصفة ، التي أحاطت بهما كليهما بالبرد القارس الأخرس لهذه الليلة الحالكة . وخيل إليهما أنهما يسبحان في الظلمات في نهاية الكون ، وأنهما منفصلان عن الأرض ، في عزلة سعيدة مشتركة ، تماماً كما في أيام الشباب ، حيث لم يكونا بحاجة لأكثر من ديوان قديم مثقوب في غرفة استأجراها بثلاثين روبلا ضمن شقة مشتركة مع الجيران في منطقة ياكيمنكا .

ـــ هاهو قادم ، أتسمع ؟ إنه يدبدب بحوافره بين ركام الثلوج ويهمهم بصوت مسموع ـــ قالت أولغا مازحة بصورة غير متقنة ، ومرتجفة ـــ أتسمع ؟ لقد أخرج السنة القديمة ودخل ، وأحضر البرد معه . أتشعر ؟

ـــ وحمل الثلج معه يا عجوزي .

أغلق كريموف الباب ( وقد تمكنت العاصفة من ادخال كومات بيضاء من الثلج إلى أرضية المنزل ) وعانق أولغا ، طلباً للدفء ، وقرع

قدحه بقدحها ، وقبلها من شفتيها الباردتين ، الحلوتين — المرتين من الكونياك ، وقال شبه جاد ، مخفياً القلق الذي سيطر عليه :

— أهنئوك بالسنة الجديدة ، يا زوجتي الحبيبة !

— لقد هنأتني ، وكأن لديك زوجات عديدات : زوجة حبيبة ، وزوجة غير حبيبة — أجابت أولغا ، وبعد أن تنفست الصعداء ، قبلته قبلة خفيفة .

وذهل من جديد ، من أنها قبلته بشفتين لم يدفئهما النبيذ البارد ، بسذاجة ، دون خبرة ،مثيرة لديه الظمأ السابق ، كما حدث في شبابه إثر الحرب ، حيث لم تتعلم ما تعلمه من لقاءاته السابقة مع الفتيات ، وقال متلذذاً بعدم معرفتها ونقائها الطاهر :

— أنت ، يا زوجتي الرائعة ، تقبلين من جديد كالغراب الصغير ، وفي كل مرة تغلقين عينيك وتتنهدين .

في الساعة الثانية ليلاً ، هدأت العاصفة ، وكانا محاطين بالصمت المطبق للصقيع المذهل ، فخرجا إلى الصحراء الغابية ، الريفية ، المثلجة . كان صرير الثلج تحت وطيء جزمات اللباد قوياً وحاداً كالجرس ، لدرجة أنهما احتبسا أنفاسهما . وكان القمر ينير ويلمع في دوائر صقيعية برتقالية ، وكان الصقيع يتراكم ، وكان كريموف يرى في دخان القمر انزلاق الظلال على الغطاء الثلجي الطري كانعكاس بقع شمسية على قعر رملي .

كانت أولغا تسير إلى جانبه ، وتتحدث عن شيء ما ( كان لا يصغي إليها جيداً ، مفكراً في أنه لم يتوقف أبداً عن حبها ) . وكانت تمس أحياناً كمه ، ناظرة إليه من الأسفل بابتسامة قصيرة ، أما هو فقد كان

مذهولاً قليلاً من هيامه المتكرر بها ، وينظر إلى وجهها الداعي إلى السرور الهادئ ، وابتسم أيضاً لنظرتها ، ولليلة السنة الجديدة هذه ، ولقرقعة الأشجار في الغابة ، حيث كانت تنهار طبقات الثلج بغبار ثلجي ممتد من على أغصان أشجار الشوح بطبقاتها الثلجية المتثاقلة .

غير أن كريموف كان يذكر أيضاً الصباح الفضي المشمس لليوم الأول من السنة الجديدة ، عندما استيقظ ، فرآها تنظر إليه ، واضعة كفيها على صدغيها ، دون حراك ، بتأمل واستغراق ، وكأنها أرادت أن تحفظ صورته ، قبل فراق طويل .

ــ ماذا بك ؟ ــ سألها قلقاً ، وعانقها ، محترقاً من جديد بالرغبة .

ــ لقد استيقظت ورأيت كيف تنام ، وفكرت بأن طفلينا لا يشبهانك . وهنا شعرت برعب كبير . وهل ياترى لن يرى أحدنا الآخر بعد عشرة أو خمسة عشر عاماً ؟ كم أشفق عليك وعلى الأطفال ، وعلى حياتنا القصيرة كلها على هذه الأرض ؟

ــ ولماذا الشفقة ، يا أولغا ؟

ــ لقد بدا لي أنني وأنت وحيدين في عالم كامل ، غير أنك لا تحبني . لا ، نحن وحيدان على أي حال . أنت وأنا . . . ــ وارتجفت عيناها الهادئتان المخمليتان ، فأدارت رأسها إلى الحائط لتخفي وجهها ؛ أما هو فأخذ ، بحزن يقطع القلب ، يقبل شفتيها الضعيفتين المتملصتين وهو يقول هامساً ، لاهثاً :

ــ عبثاً ، تقولين ذلك يا أولا . لقد كنا سعيدين في بعض الأحيان .

قال كريموف هذا ، خوفاً من أن تعترض أولغا وتحطم هيامه

الجديد ، الذي أصبح قبل بضعة ساعات من ابتعادهما عن موسكو مغزى لقربه منها ، ولهيامه وعشقه لامرأة قديسة ، أرسلها له القدر المبتسم له ، امرأة لم تخدعه أبداً في مشاعرها ، رغم أنه قد أذنب في حقها ، في شبابه ، أكثر من مرة .

— أي ظلم هذا — قالت بهمس ، واقتربت منه دافنة أنفها في صدره — إنني لا أريد فراقك .

— أنا أعرف ، أن الأحلام تخيفك — قال كريموف — انسي ما حلمت به .

* * *

أثناء هبوطه من العلية ، وخروجه إلى الجو الحار في الحديقة ، إلى الطريق المفروش بالرمل النهري ، والمخطط بالظلال ، رأى كريموف من جديد ، وسط النهار التموزي المشمس ، تلك الليلة الشتوية المقفرة ، والكثبان الثلجية المقمرة ، والصباح الصقيعي في غرفة أولغا بوحدتهما السعيدة .

— هل أساعدك بالعثور على أمي ؟ — صاحت تانيا من بعيد تاركة كتابها ، ومحركة قدميها الحافيتين — ماما تجلس على المرج المشمس . هل أقودك إليها ؟

— لاداع يا ابنتي ، سأعثر عليها .

« إنني لم أتوقف عن حبي لها — فكر كريموف وهو يسير على الممر في طرف الحديقة ، نحو الخوخة ، متوجهاً إلى الغابة — ولكن ، يبدو ، وكأن إخلاصي ينقصها » .

وجد كريموف أولغا تحت أشجار البتول في آخر الغابة . كانت تقف أمام منصة الرسم الغارقة في العشب ، وقد ابتعدت بشعور من التعب عن اللوحة ، واضعة قفا كفها على جبينها . كان كل شيء فيها قريب منه ، حبيب إلى قلبه : حركة التعب الخفيفة هذه بعد العمل الطويل ، وعقدة شعرها الأسود ، وخطوط ظهرها ، وكتفاها اللذان حافظا على فتوتهما وقوتهما ككتفي فتاة ، وذلك بفضل رياضة الجمباز واليوغا الصينية التي كانت تخصص لها مالا يقل عن ساعة يومياً ، معتقدة أن في هذه الرياضة « سراً » شرقياً للصحة والشباب الخالد .

شاهدته أولغا ، فأنزلت الريشة ، والتفتت صامتة ، ووقفت تنتظره ، إلى أن اقترب منها بخطوات سريعة .

— مرحبا يا زوجتي المحبوبة . . .

« من أين جاءني هذا الابتذال ؟ من يوجهني ؟ » .

وعانقها بقوة ، بصورة محرجة ، دون احتشام ، وكأنه لم يكن له الحق بهذا العناق ، فتجاوز هذا الحظر وتغلب عليه .

— مرحبا يا زوجي المحبوب . — لم تقدم له شفتيها ، بل وجنتها ، ونظرت إليه باهتمام ساخر من تحت حاجبيها المعقوفين . — وهل أنا عمود أو شجرة ؟ ألا تحسب حساب قوتك يا فياتشيسلاف أندريفيتش ؟

كان ينطلق من تحفظها هواء خريفي ، وقد خمن كريموف الأسباب المحتملة لهذا الفتور المزعج ، ومع ذلك عثر في نفسه على قدر كاف من الجرأة للتخفيف من فتورها قائلاً :

ـ أولا * ، يبدو أنني خلال الأسبوع الذي لم أرك فيه قد فقدت قدرتي على التعامل مع الأشياء الثمينة . إنني حمار هرم .

« ابتذال من جديد ! وماهذا الهذيان ؟ ــ بالفعل إنني غبي مطبق ! » .

ـ إذن ، دعني ، دع أشياءك الثمينة .

ولمعت عيناها بتلك الريبة الهادئة ذاتها ، وتحررت منه بحذر . فقال كريموف شاعراً بخطئه :

ـ لقد اشتقت إليك ، إذا كان باستطاعتك أن تصدقيني ولو قليلاً . . .

ـ لقد جئت في الوقت المناسب . نحن الآن سنذهب لتناول طعام الغداء . ساعدني في جمع منصة الرسم .

لم تطلب منه ، كعادتها ، أن ينظر إلى رسومها ، وأن ينتبه إلى الألوان المائية الرطبة ، التي لم تجف بعد ( « ما قولك ــ هل هذا يعجبك ؟» ، وهي الرسوم التي كان يقومها بتساهل كبير لأنه كان يرى في المنظر الطبيعي البحت مجرد انعكاس مرآتي للواقع المتغير ، مفضلاً عليه لوحة الطبيعة ــ اللوحة الفلسفية ذات الجمال العقلاني الطبيعي ، المعارض للقوة البشرية المخربة بقسوة ، هذا التعبير عن العالم المتمدن ، المعاصر ، الفاسد والمغري للكثيرين ، الذي يعشقه القادمون من الأرياف ، الذين يشكلون الآن غالبية سكان المدن الحالية ، والذي لا يحبه في الوقت نفسه . ولم تكن أولغا لتغضب أو تعترض ، أما كريموف فكان يختتم موعظته الانتقادية شبه الجدية بلطف وطيبة قلب ( « أنت عندي رسامة رائعة للمناظر الطبيعية ، رغم أنك مهندسة معمارية » ) . وكان يقبلها

---

* اولا ــ تصغير وتحبب للاسم الكامل اولغا          المترجم

من شفتيها ، الباردتين بصورة غامضة ، اللتين كانتا تجيبانه ولا تجيبانه على طريقة الصغار .

غير أنه عندما جمع طاولة الرسم ، ونظر إلى الأاوان المائية التي لم تنشف بعد ، حيث يظهر مرج تحت أشعة الشمس القائظة — قرر أن الاستخفاف أو المزاح الآن سيزعجان أولغا ويصدانها ، لذلك قال مسالماً :

— في المنظر الطبيعي الذي رسمتيه تبدو الشمس قائظة ، ويبدو وكأن روح التوت الأرضي الناضج ينهض من تحت الأعشاب . أنت قديرة حقاً .

— أخيراً ، سمعت مديحاك — قالت دون أن تعبر عن موافقتها — حسناً ، أشكرك لأنني أصبحت أحوز على إعجابك ولو قليلاً . . . ولكن ، لماذا تجانب الحقيقة في قولك فجأة ؟

— أولا ، هل يمكنني أن أعرف الذنب الذي ارتكبته ؟ ما هو ذنبي ؟ — سأل كريموف بصورة ودية كما في السابق ، خائفاً ألا يكون صادقاً معها — يبدو أنك لم تفرحي بقدومي ؟ — تابع حديثه ، ممسكاً بها من كتفيها المشربتين بأشعة الشمس . — أما أنا فقد اشتقت إليك حقاً ، وتعبت بصورة مضنية ، لقد اشتقت إليكم جميعاً وعدت من السفر قبل الموعد المحدد .

— ماذا جرى لك ؟ — تنهدت أولغا ، وكأنه مقضي عليها— . الآن ، سنغرق في محيط من العبارات الغنائية التافهة . لندع هذا جانباً . إنني أرجوك شيئاً واحداً : تكلم اليوم مع فالنتين ، إنه يقدم ، كما

أرى ، على خطوة غير مدروسة ، خطوة مجنونة . . . أتعرف أنه ينوي الزواج ؟ غريب ، صبي بلا خبرة . . . غير أنه لا يصغي إلي ، لأنه لا ينظر إلي نظرة جدية ، مثلك تماماً .

— يا للشيطان ! أتوريدين ، سأجثو على ركبتي ، وأبوح بحبي لك ؟

— كم رائع أنت ، يا فياتشيسلاف ، ودائماً لا يمكن صدك . شيطانك المفضل ، الشيطان والشيطان . لقد بقيت فيك نزعة الجندي وألفاظه . بودك أن تشتم ، فتستبدل تعابير الشتائم بالشيطان . إنك فارس ماهر حقاً !

سارت أمامه على الممشى ، وعندما رأى ظهرها القوي وفخذيها المحتفظتين بفتوتهما وصلابتهما في البنطال الذي ارتدته للعمل ، والملطخ بالألوان ، ويفوح منه أريج الأزهار وغبار الطلع — هذا كله أعاد إلى ذاكرته فجأة جنونهما المفرح الذي لا ينسى في أعوام الأمل التي لا تعوض بعد الحرب ، كما أعاد إلى ذاكرته تلك العاصفة الثلجية الكثيفة في ليلة عيد رأس السنة في البيت الريفي ، هذا الجنون الذي انطفأ فيما بعد ، بصورة مريعة ولم يعد يتكرر ، بسببها أم بسببه . وكاد كريموف أن يقول : « أولا ، حبيبتي ، من الذي يسبب لنا هذا كله ؟ » — غير أنه سار من ورائها باتجاه بلدة المنازل الريفية .

* * *

# الفصل السابع

— ما هو الجديد لدى الشبيبة ؟

اشتدت حرارة الشمس ، التي كانت تنعكس ، من خلال أوراق الشجر ، على الشرفة والطاولة ، على الكراسي الخيزرانية والأرضية الخشبية ، لكن أشجار البتولا كانت تحجب النوافذ المفتوحة ، ومع ذلك ، لم يكن الحر شديداً وقائظاً هنا ، كما في الحديقة ، في تلك الساعة .

أثناء تناول طعام الغداء ، أراد كريموف أن يشرب شيئاً من المشروبات ، بيد أنه كان من فترة لأخرى يملىء لنفسه من ماء البئر البارد ، القاسي ، الذي كان يتلألأ في الابريق . لم يأكل إلا قليلاً ، متمنياً بأن يقف وقفة ممتعة الآن تحت « الدوش » ، ومن ثم الاستلقاء وحيداً في سكون مكتبه ، بين رفوف الكتب ، ويقلب المجلات في تراخ دون تفكير .غير أنه كان يعد رب الأسرة ، لكنه لم يكن يتذكر ذلك أبداً لانشغاله وأعماله ، وكان عليه الآن ، بناء على طلب أولغا ، أن يراعي قواعد آداب رب الأسرة ، أثناء تعارفه مع خطيبة ابنه .

قدم فالنتين وخطيبته إلى الغداء من النهر فتيين ، لوحت الشمس بشرتيهما إلى حد السواد . كان فالنتين فارع الطول بشكل مفرط ،

وقد ارتدى بنطالاً قصيراً ، ولبس صندلاً على قدميه ، ورمى منشفة موبرة على رقبته ، أما خطيبته فكانت تسير حافية القدمين ، وقد ارتدت قميصاً أحمر اللون ، قصيراً يكشف عن بطن أملس رائع الجمال ، وبنطال « جينز » ، وكانت الخطيبة نحيلة دقيقة ، وقد وضعت على عينيها نظارتين شمسيتين بعدستين كبيرتين ، تغطيان نصف وجهها بغطاء قاتم . ولم ترفع النظارة عن عينيها حتى بعد أن قبل فالنتين والده على خده قبلة سريعة ، دون ابداء أية عواطف ، قائلاً : « تعارف ، أرجوك . هذه خطيبتي ليودميلا » . أما هي ، فقد انحنت قليلاً بمرونة ، ومدت كفاً قوياً ، وأنشدت بصوت أشبه بصوت الطيور : « ليوسا * » — ولاحظ كريموف أن وجه ابنه النحيف الجدي قد توتر وتشنج ، وكان ينتظر بوضوح جواب أبيه ، كي يدرك الانطباع الذي تركه اختياره عليه . ضغط كريموف بصورة خفيفة على أصابعها الرطبة ، بانحناءة بشوشة ، وقال إنه مسرور جداً من رؤية خطيبة ابنه في هذا البيت . قال ذلك مندهشاً من أولغا وتانيا ، ومن غيرتهما المحتملة ، وعدم تقبلهما لهذه الفتاة ، التي لم تكن تختلف بشيء عن الفتيات ، والطالبات العصريات .

« إن كل شيء عصري في هذه الفتاة . . . ولكن وجهك ، لو أريتنيه ، الدقيقة واحدة ، على الأقل ، أيتها الخطيبة . وهل بسبب الحياء لا ترفعين النظارة عن وجهك ؟ » — فكر كريموف في نفسه مراقباً ، بصورة خفية ، ليودميلا التي كانت تجلس قبالته إلى جانب فالنتين ، ومخمناً نظراتها الحذرة نحوه من تحت العدستين القاتمتين الزرقاوين .

— ما الجديد ، اذن ، لدى الشبيبة ؟ — كرر كريموف سؤاله .

---

* ليوسا ، ليودا — تصغير وتلطيف للاسم الكامل « ليودميلا » — المترجم —

طرح هذا السؤال ، من أجل قطع حبل الصمت الذي امتد وطال وأصبح قاسياً محرجاً ، فمنذ بداية الغداء لم تتفوه أولغا بكلمة واحدة ، وكانت تقوم بتحفظ مهذب بدور ربة المنزل ، حتى أنها ابتسمت ابتسامة خفيفة لليودميلا ، مقدمة طبق الخبز لها ، عندما مدت الأخيرة شوكتها نحو الخبز ، ونظرت إلى تانيا محذرة ، حيث كانت تانيا تنظر يمنة ويسرة وتنحني فوق الصحن ، متهيئة لإطلاق ضحكة ، وقد لمع في عينيها الرماديتين بريق الخبث والشيطنة .

ـــ بابا ، سؤال : هل تعتبرني من الشبيبة ؟ ـــ سألت تانيا متهللة بروح الشقاوة ـــ أم أنك تراني بين بين ـــ مراهقة سخيفة ؟

ـــ بلاشك ، أنت ممثلة رشيدة للشبيبة الطليعية ـــ أجاب كريموف مازحاً ـــ بدون أية خرافات باطلة .

حكت تانيا أنفها المتغضن وقالت :

ـــ اذن ، هذه هي الأخبار : في برج المذنبات الشمالي ، ونتيجة انفجار قوي ، تشكل نجم جديد ، لم يكن معروفاً من قبل . هذا النجم يبعد عن الأرض مائة وخمسين مليون سنة ضوئية . مثل هذه الظاهرة لوحظت في مجرتنا الشمسية في القرن الثاني الميلاد . تلك هي الحادثة الغريبة التي حصلت . إن المرء يكاد يفقد عقله . . .

ـــ طريف حقاً ـــ قال كريموف ـــ الحمد لله ، فقد ازداد عدد النجوم نجماً آخر .

ـــ هذا اضمحلال ـــ قال فالنتين بصوت صارم .

ـــ ماذا ؟ ماذا ؟ ـــ صاحت تانيا وهي تقفز على كرسيها ـــ اشرح

لنا من فضلك ، ما هو الاضمحلال ، فعلاً . أنت ، عندنا ، تعرف كل شيء ، ماذا ، وإلى أين ، ولماذا والخ . . .

— لا ، لا أعرف كل شيء — قال فالنتين مصححاً ، ونظر إلى ليودميلا ، التي كانت تقطع الخيارة قطعاً دائرية بعناية ، وتدهنها بالقشدة الرائبة ، وتأكل بأناقة ، موجهة أنفها الحاد نحو الصحن . — إنني أعرف ما أعرفه . لا يمكن المرء أن يعرف كل شيء ، يا أختي العزيزة . أما بالنسبة لحكاياتك حول ولادة نجم جديد ، فهو نتيجة الانهيار ، نتيجة تقلص المادة في الفضاء خلال التفاعلات الكيميائية الحرارية .

— آه ، ياله من شرح رائع ! مذهل ! — قالت تانيا موجهة نظرتها إلى ليودميلا أيضاً . وباندفاع صبياني ، عضت على نصف خيارة ، وقرضته بشهية وبصوت عال ، بحيث أن أولغا أوقفتها مؤنبة ، وهي تقول :

— تانيوشا ، أنت تصعقين الجميع بصوتك ، في النهاية ، أنت فتاة ولست حمالاً .

— ماما ، أنا أعيش في بلد ديموقراطي ، وأستطيع أن أقول ما أريد ! عاشت الحرية ! عاشت ، عاشت ، الخ .

«إن ليوسا الصامتة هذه لم ترق لا لتانيا الساخرة ولا لأولغا المتحفظة » — قرر كريموف ، مشفقاً لسبب ما على هذه الفتاة الغريبة ، ذات الأنف الحاد ، والنظارات المريخية ، التي ظهرت في أسرتهم ، ومن أجل تخفيف الجو المتوتر على المائدة ، قال كريموف :

— أتعرفين ، يا ابنتي ، ثمة مقطع ، في مسرحية تشيخوف الرائعة

« السهب» ، حيث يأكل ، دينيسكا ، أحد شخوص المسرحية ، الخيار . وقد جاء في هذا المقطع مايلي بصورة تقريبية : ابتعد دينيسكا جانباً ، وأخذ يقضم الخيارة ، بشكل أخذت الخيول تنظر إليه .

— ياله من شاب شجاع ، ماهر ! — صاحت تانيا ، وهي تضرب كفاً بكف . — هكذا الرجال وإلا فلا — لقد أدخل الرعب إلى قلوب الجياد . غير أنني لم أقرأ « السهب » . لم ندرسها في المدرسة . لكنني رأيتها فيلماً سينمائياً . أما مادرسناه في الأدب فهو الآتي : فانكا جوكوف ، صبي في الخمسين من عمره ، يتدرب عند الحذاء آليخين ، وفي عشية عيد الميلاد ، لم يدخل النوم إلى جفونه ، والخ . . .

— صبي في الخمسين ؟ — هز فالنتين كتفيه . — ماهذه السخافة ! ماهذه الترهات !

— لأنني سئمت إلى حد شنيع مما يقال لنا في درس الأدب حول تشيخوف — فانكا ، فانكا ، بائس ، مهمل ، بلاطفولة ذهبية . وأيضاً ، الأطفال في عهد القياصرة كانوا يعيشون في ظروف لا تطاق . كانوا يرتدون أخفافاً من ألياف الشجر ، ويعملون أربعة عشر ساعة في اليوم ، ويأكلون سمك الرنكة . ثم أيضاً : غسق الحياة البشرية ، انغمس الجميع في الدناءة والبذاءة ، في البحث عن عنب الثعالب ، ولا يحلمون إلا بشيء واحد : بالسماء الممتلئة بالماس والحدائق الغناء بعد مائتي عام . لا أستطيع احتمال مدرسة الأدب ماريغيتريخوفنا . . . إنها عمود خشبي ، خبزة مقددة في تنورة ، عانس عجوز ، شفتاها مدهونتان بحمرة شاحبة . تتكلم من أنفها : غو — غو — غو . . .

وقلدت تانيا ، وهي تتابع قرض الخيارة ، بتعابير وجهها الصبياني .

مدرستها ماريغينريخوفنا « الخبزة المقددة في تنورة » ، وهديرها من أنفها ، ثم لوت وجهها بتحد نحو فالنتين ، الذي نظر إليها نظرة عابسة قاسية ، وقالت بحيوية وحماسة :

ـ إنها تدفعني إلى الجنون ! ذات يوم ، استدعت إلى السبورة كودينوف . وهو طالب أخرق ، ذو صوت عريض يشبه صوت الجاموس ، عندنا في الصف . طلبت منه أن يتلو قصيدة ماياكوفسكي « جواز السفر » . خرج كودينوف ، وأزاح قدمه جانباً ، وأخذ يصرخ بملء حنجرته : « لو كنت ذئباً لنهشت البيروقراطية ! » ـ أما المعلمة ماريغينريخوفنا ، فقد نهضت فجأة ، وسارت من ورائه وسدت أذنيها ، وأخذت تزعق : « ماهذه الفظاعة ! » ، فتسمر كودينوف مكانه ، ولم يحرك ساكناً ، مثل بقرة أمام آلة تصوير ، ولم يستطع لذهوله أن يغلق فمه بشكل من الأشكال ، ثم تحرك ومشى ، كالجمل فوق المقلاة ، والتفت إلى ماريغينريخوفنا ، أما نحن فقد كدنا نموت من الضحك وقام أحد رفاقنا ، من أصحاب النكتة ، وشبك بدبوس على ظهره ورقة كتب عليها بأحرف كبيرة : « لا أريد أن أتعلم ، أريد أن أتزوج ! » ، أتعرف يا بابا ، كم كان الموقف مضحكاً . . .

قهقهت تانيا بصورة جامحة ، ناظرة بخبث إلى الجميع ، وقد لمعت أسنانها ببريق النظافة الفتية ، كما لمع شعرها الكتاني المكتوي بأشعة الشمس ، ولم يستطع كريموف أن يصمد أمام مرأى مرح ابنته المحبوبة . فغطى جبينه بكفه ، وشرع يضحك بصمت ، وبدا وكأن ضحكه غير مناسب ، وهنا سمع صوت أولغا المؤنب :

ـ تانيوشا ، أية فتاة أنت ؟ ، فعلاً ، لا تسمحي لأحد بأن يقول كلمة واحدة . وتنطلقين بكلمات غير محتملة من اللغة المبتذلة المدرسية .

— هراء — قال فالنتين متذمراً — كلام غامض .

— ليس هراء ، وإنما روعة وبهجة . — قالت تانيا معترضة . وبالتحدي الخبيث نفسه ، لمعت عيناها المصوبتان نحو لوسيا الصامتة ، وسألت بصوت جدي فجأة : — وأنت ، يا ليودميلا فاسيليفنا ، تعتقدين أيضاً أن هذا هراء ؟ أجل ؟ صحيح ؟

رفعت ليودميلا نظارتها المريخية عن الصحن ، ومسحت شفتيها بعناية وأناقة بمنديل ورقي ، واعتدلت في جلستها أمام الطاولة ، بحيث ارتسم ثدياها الصغيران ، غير الملحوظين ، من تحت القميص الداخلي مثل أكمتين متشامختين ، وقالت بصوت ناعم ، وكأنه صوت فتاة صغيرة ذات ضمير حي :

— إنهم وقحون . لايصح أن يسخروا هكذا من المعلمة . يجب طردهم من المدرسة .

— ليسوا وقحين ، بل فتيان جيدون — اعترضت تانيا بحيوية — وليس من الواجب طردهم ، بل طرد ماريغينريخوفنا . لأنها خنقتنا بالملل والسأم والسخافة المبتذلة .

— إنها امرأة بائسة . . .

— الأغبياء وحدهم هم السعداء .

— هذا يعني أنهم ليسوا أغبياء يا ابنتي .

— لا أفهم يا بابا . . .

تدخل كريموف في الحديث ، بحذر كان يبديه دائماً ، عندما تحتد تانيا غيظاً ، مثبتة صحة رأيها ، محطمة كل شيء على طريق حقيقتها .

وعندما لاحظ الحمرة الحمرية على وجنتي ابنته ، وهي العلامة الأولى على عدم موافقتها ، التي تهدد بالانتقال إلى اندفاع لا طائل منه البحث عن الحقيقة ، تابع حديثه مسترضياً ، مهادناً :

— ليسوا أغبياء يا ابنتي ، لأنهم سعداء . — وبعد أن هدّأ بنظرته تانيا التي ضحكت ، توجه إلى ليودميلا بلهجة البساطة المحترمة التي أتقنها ، والتي كان يستخدمها في حديثه مع الممثلات الناشئات ، المدعوات إلى « البروفات » السينمائية : — وأنت ، يا ليوسا ، تدرسين مع فالنتين في السنة الدراسية ذاتها ؟

— كلا .

— ماذا تعملين اذن ؟ ، أين تدرسين ؟

— إنني أعمل .

— أين ؟

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، إن مهنتي لن تحوز على إعجابك .

— اكشفي لنا هذا السر ، إن كان ذلك ممكناً .

— أبي — تدخل فالنتين ، وقد قطب حاجبيه القاتمين — إنك تطرح الأسئلة على ليودميلا ، كما في الامتحان . أليس الأمر سيان ، أين تعمل ، وماذا تدرس خطيبة ابنك — نحب الإنسان وليس مهنته .

— أنت على حق — قال كريموف — غير أن المهنة نصف الإنسان .

— والنصف الآخر ؟

ـ النصف الآخر هو عدم تحقق الحلم ، عدم إرضائه ، والاتكال على السعادة والحظ والوهم .

ـ نحن جميعاً ، يا أبي ، نعيش حياة مصطنعة . جميع الكناسين ، وجميع الوزراء ، وجميع العظماء النابليونيين من الدوغمائية .

ـ نحن نعيش في عالم مشؤوم . هكذا أصح ـ صحح كريموف ، مشفقاً على عناد فالنتين ، المعروف به منذ الطفولة ، واتجه من جديد إلى ليودميلا بروح ودية : ـ ومع ذلك ، أنا فضولي ، ماهو عملك يا ليوسا ؟

« في الواقع ، من أين لي الحق بأن أطرح عليها هذه الأسئلة ؟ إنني أسألها باصرار مدير الذاتية ، هذا تطفل ، وبذاءة ، في أي معنى كان . . . » .

ـ إنني أعمل ، فياتشيسلاف أندريفيتش .

ـ يبدو أنك تعملين في مخبر إحدى مراكز البحوث العلمية ؟ ترتدين الرداء الأبيض ، وتسمين رئيسك معلماً ؟ هل حزرت ؟

ـ لم تحزر . إنني أعمل مفصلة ثياب في محل خياطة للسيدات .

ـ هكذا إذن ؟ أمر طريف .

« وما الداعي إلى دهشتي هذه ؟ أردت لابني خطيبة من مهنة أخرى ؟ هل انتظرت شيئاً آخر ؟ وماذا أردت تحديداً ؟ »

ـ فياتشيسلاف أندريفيتش ، لقد نظرت إلي نظرة غريبة ، غير مفهومة . . .

تردد صوتها الناعم بامتعاض مغناج ، لكن ما صدمه ليس صوتها ، بل تلك الغرابة ، غير الطبيعية ، التي تمثلت في الارتباط المرتقب بين فالنتين « المتفاسف » ، البعيد الغور ، العميق ، طالب معهد السينما ، وبين هذه الفتاة الناعمة ، مفصلة الثياب ، ذات النظارة الشمسية ، بقطرات العرق التي تلوح على أنفها الأخنس الحاد . كانت أولغا تجلس صامتة ، واجمة كئيبة ، دون أن تشارك في الحديث ، وكانت ترسم بملعقتها طغريات على السماط .

– نظرت نظرة غريبة ؟ عذراً يا ليوسا . وتقبلي ذلك على أنه مجرد فضول – قال كريموف باحترام – إنني ، ببساطة ، أهتم بمهنتك . ماذا تفعلين على وجه التحديد ، في مشغل الخياطة ؟ كيف تفصلين طرازاً أو نموذجاً من النماذج ، إن لم يكن سراً ؟ أنا أعرف ، كم يصعب أحياناً إرضاء كهنة « الموضة » .

– هذا غير ممتع أبداً ، فياتشيسلاف أندريفيتش – قالت ليودميلا – مهنتي عادية الغاية . غير أنني أحب أفلامك . هؤلاء الأشخاص الأقوياء ، الطيبون ، لماذا يموتون جميعاً تقريباً ، عندك ، في الحرب ؟ كم أشفق عليهم . كم كانوا جيدين هؤلاء الفتيان . وفيلمك الأخير ، الذي حصل على الجائزة في باريس . . . ما اسمه ؟ « الحرب غير المعلنة » . . . إنك تريد أن تقول ، أن الناس يدمرون الطبيعة ، يدمرون الأرض ويدمرون أنفسهم ؟ لقد بقي في ذاكرتي هذا المقطع من فيلمك ، حيث يقول بطل الفيلم ، وهو عالم ، حزين جداً ، لصديقه : « مع ذلك ، فالإنسان لا يعيش من أجل أن يتحول إلى لقمة سائغة لستة أنواع من ديدان القبور . إن العثور على معنى الحياة هو السعادة ، أما السعادة ، فهي الشيء الذي لم نشعر به نحن . . . » .

— ذاكرتك جيدة ، ياليوسا . . .

— إن ليودميلا تعشق السينما ، إنها هاوية الأفلام السينمائية يا أبي — قال فالنتين برفق ودود — إنها لم تدع فيلماً يفوتها .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، لقد قرأت في مقابلة صحفية ، أنك اخترت لدور سينمائي ممثلة شابة من مسرح البولشوي ، وكان من المفروض أن تشارك في التصوير — قالت ليودميلا بصوت ناعم متاعشم — لقد سمعت ، أنه قد حصل لها حادث أليم ، وقد أسفت عليها كثيراً وأشفقت . . . في تلك المقابلة الصحفية ، كانت صورتها منشورة — إنها رائعة الجمال .

— أنت تتحدثين عن الفنانة التي توفيت منذ فترة قصيرة ؟ — سأل فالنتين ، ناظرا بعبوس إلى نظارة ليودميلا الشمسية .

— لقد حفظت اسمها — ايرينا سكفورتسوفا . وسمعت أنها كانت قد تعرضت لإصابة ، وقد منعت من الرقص ، وأنت اخترتها لأداء دور سينمائي . فياتشيسلاف أندريفيتش ، كم أنت إنسان طيب . . .

— كانت ممثلة موهوبة .

« كيف يمكن الجمع بينهم ؟ على أي نحو ؟ أولغا ، ليوسا ، فالنتين . . . أين الصلة ، أين الرابطة ؟ أين الخيط المنطقي ؟ أولغا المحافظة ، المرأة القديسة ، وإلى جنبها ليوسا ذات الأنف الحاد ، الفتاة المحدودة ذات الجرأة السخيفة . وماذا يجمع بينها وبين فالنتين الجدي بصورة مفرطة ، والمنغلق على نفسه ؟ الشهوة الجسدية ؟ » .

— إنني أشفق عليها كثيراً — كررت ليوسا بهمس ، وقد أحنت رأسها — كما أنني آسفة عليها ، فياتشيسلاف أندريفيتش . . .

قال فالنتين مكفهراً :

ـ ليوسا ، ماهذه العواطف ! استهلاك فارغ للخلايا العصبية . وقع حادث أليم ، ومثله تقع مئات الحوادث كل يوم في موسكو وحدها .

ـ لا تصدر الأوامر أيها الخطيب ، أنت لم تصبح زوجاً بعد ! ـ تدخلت تانيا بمشاكسة ـ ليودميلا فاسيلفنا نفسها تعرف متى عليها أن تستهلك خلاياها العصبية ، ومتى لا تستهلك . أي قائد عسكري ظهر !

ـ كم هذا غامض ، كم هذا وحشي ، كم هذا سخيف . . . ـ قالت أولغا بحركة من شفتيها ، وضعت الملعقة على السماط بصمت ، وشعر كريموف بألم في قلبه من معاناتها الخفية الصامتة .

ـ أختي العزيزة ! أنا منذ طفولتي ، أقف ضد المواعظ والتعليمات السخيفة ، وهذا أمر عليك أن تعرفيه جيداً . إنني أؤيد الحرية الكاملة للشخصية ـ اعترض فالنتين ، ثم قال ، مخاطباً ليودميلا ، وقد بدا أخرقاً ، طويل الرقبة ، مهموم الوجه ـ اخلعي النظارة ، إنها تضايقك .

فخلعت النظارة ، باذعان وطاعة ، أما هو فقد مسح لها جبينها وخديها بعناية ، دون أن يستحي من أحد ، وأعاد المنديل إلى جيبه ، وقال ببرودة ، وهو ينظر إلى أغصان أشجار البتولا ، المتكسرة أمام النوافذ المفتوحة على الشرفة :

ـ لقد تذكرت ليوسا فيلماك الأخير ، يا أبي . وأنا أيضاً كنت أفكر به . هل تريد في عصرنا الذرائعي هذا ، أن يفكر الناس ، وهم كالنمل الضعيف العاجز ، بمعنى الحياة ، بالجمال ، وبنفوس بعضهم

بعضاً . هل تؤمن بفكرتاك إلى النهاية ياأبي ؟ وهل تعتقد جاداً ، أن التقدم الأخلاقي أقوى. من التقدم التقني ؟

– آه ، لقد بدأت الفلسفة اللعينة ! – قالت تانيا ، وضربت كفاً بكف بامتعاض – كان صامتاً دون همسة ، فأصبح ثرثاراً لا يحتمل ، مناقش ومجادل ، لا يسمح لأحد بقول كلمة ! فاق رؤوس الجميع بثرثرته !

– تانيا . لا تزعجينا . مادخل الفلسفة اللعينة هنا ؟ إنني لم أر أبي منذ فترة طويلة .

– لم تعط لأحد معرفة الحقيقة الكاملة عن نفسه – قال كريموف والتقت نظرته بعيني أولغا المتوسلتين – والإنسان ليس إنساناً إلا لأنه يعيش بين الناس .

سأل فالنتين بعناد :

– لكن ، ماذا يكمن في نفوس الناس وأعماقهم : الخير أم الشر ؟

– لا تنتظر فرحاً مبتذلاً : الخير والشر معاً . الوقت لا يرحم الناس . تصور حواراً ذاتياً ، بين المرء ونفسه : « لقد أصبحت إنساناً آخراً ؟ » – « لا ، لقد بقيت كما كنت سابقاً . العصر تبدل – وأنا أصبحت إنساناً آخراً » . الناس يغيرون العصر ، والعصر يغير الناس .

– لهذا ، يا أبي ، أنا مقتنع بأن التقدم الروحي عاجز وضعيف أمام التقدم التقني . وجميع محاولات المفكرين المتشنجة لإدخال عاطفية الماضي الأخلاقية إلى القرن العشرين التكنولوجي هي محاولات عابثة . إن هذا ليس استهتاراً ولا مجوناً يا أبي . على المرء أن يجتاز إمتحان الشبع

والرفاهية ، وهذا لا يمكن اقترانه بالحياة الروحية . السيارات والآليات بحاجة إلى بنزين ، وهناك حاجة عامة إلى الوقود — هذا يعني أنه يجب استخراج النفط من باطن الأرض . أعمال البناء بحاجة إلى أخشاب ، إذن من الضروري قطع الأشجار والغابات . لا يمكنك خياطة جاكيت وبنطال من روح ... !!

— إن جرأتك ، يابني ، هي مثل من يريد أن يرى الملك العاري لابساً .

— أتقصد التقدم التكنولوجي ؟

— وثمة ناحية أخرى هي معنى الحياة البشرية ، التي لا نود أن نراها ملكاً عارياً .

— لو كان الإنسان خالداً ، لما فكر بمعنى الحياة ، يا أبي . والخلود لا يقدمه للإنسان إلا التقدم التكنولوجي ، التكنولوجيا ونشرها ، وليس إنجيل الأخلاق ، أو ما يدعى بالروح .

— أنت لا تزال فتياً ، يافالنتين . والإنسان أحياناً يحتاج إلى حياة كاملة ، كي يدرك ، أنه عاش حياته بلا معنى .

— مفارقة ، مفارقة .

— المفارقة أحد أشكال الحتمية . لاأود أبداً ، يا فالنتين ، أن تعيش حياتك تحت شعار التقنية التي تقرر كل شيء ، كما يُزعم . بهذا الصدد ، إن التقنية ، « كاميرتك » السينمائية ، لا تقرر شيئاً ، إذا لم تخدمها ، ولم تخدمك بصورة رشيدة .

– أبي ، لن أعيش حياتي بلا معنى .

– كم هذا الحديث غامض، كم هو سخيف ! – كررت أولغا بذهول ، والتقت نظرتها بنظرة فالنتين ، فسألته بصوت خافت : – الأفضل ، أن تحدثنا ، كيف ستعيش أنت وليودميلا . من أية موارد ، من أية أموال ؟ أنت لم تنهي دراستك الجامعية في المعهد ، وعليك أن تدرس عامين آخرين . . .

صمت فالنتين بانطواء ، وسكتت أولغا .

– أولغا يفغينيفنا – راتبي الشهري مائة وأربعون روبلاً – قالت فجأة لودميلا بصوت مستاء – ثم أنني أستطيع أن أمارس الخياطة في البيت . وأستطيع أن أحقق دخلاً أكبر بكثير . وهذا يكفينا الآن . سوف نعيش عند والدتي . . . لثلاثتنا غرفة مساحتها ثمانية عشر متراً مربعاً . صحيح ، أن الشقة مشتركة مع جيران . أنت لا تعارض ، أليس كذلك ؟ أنا أعرف أنك لا تمانع .

وربتت بصورة خفيفة على يد فالنتين ، وقد عرف كريموف من ايماءة رأس ابنه بالموافقة ، أن الإرادة غير الملحوظة لهذه الفتاة ذات الأنف الحاد قد سيطرت على ابنه بسلطة واضحة ، مخففة من عناده ، ومخضعة إياه ، وممسكة بقدرته على المعارضة الدائمة .

– ألستما مبكرين في تقرير مصيركما ؟ – سألت أولغا بعتاب هادىء . – لماذا تسرعان ؟ أرجوكما ، فكرا جيداً ، أنتما الاثنان . فالنتين ، أنت إنسان عاقل ، وأعتقد أن المستقبل ليس عندك سيان .

– ماما ، علينا أن نعيش حاضرنا أيضاً ، – اعترض فالنتين – المستقبل غامض ومجهول . إنه خلف سبعة أقفال .

— لكن هذه الأقفال ، عليك أن تكسرها أنت يا بني — قال كريموف .

— سأكسرها في الوقت المناسب .

كان الجو الحار ، الخالي من أية نسمة هواء ، مسيطراً على الشرفة المحاطة بالارتخاء بعد الغداء في الحديقة ، وبصوت رتيب ناعس طنت زرقطتان حول صحن توت العليق الحامض المهروس ، والتصق القميص الرطب من العرق بظهر كريموف ، وكانت تخطر بذهنه من حين لآخر ، فكرة غبطة « الدوش » الماطر ، الذي يغسل ذبوله ، وهذه الوعكة التي سيطرت عليه طيلة اليوم .

— أستميحكم المعذرة — قال أخيراً كريموف ووضع المنديل الورقي على المائدة — أولا ، أتعرفين ، لازلت أشعر بتعب السفر ، لذلك ، إنني أتمنى الدوش ، والمخدة الرطبة تحت رأسي .

وقبلها على صدغها ، شاعراً بذنبه ، وخرج متنهداً .

* * *

بعد أخذ الدوش المنعش في الحديقة ، وبعد طعم الماء الحديدي المطري الدافيء ، والرطوبة النهرية الدافئة ، والقضبان الخشبية الرطبة لقمرة الدوش ، بعد هذه الغبطة كلها ، استلقى كريموف على السرير في مكتبه . كان الهواء المنعش يتسلل من الحديقة ، حيث خفت حدة القيظ ، واقترب الوقت من المساء ، وهنا ، في العلية المفتوحة للهواء ، سمع في عزلته المتأملة صفيراً خفياً لصفارية خلف باب الشرفة .

ـ أبي ، ألست نائماً ؟ سامحني ، إن أيقظتك . نحن سنغادر البيت . . .

ـ هذا أنت يا فالنتين ؟ وعلام أسامحك يابني ؟

ـ لا ، أردت أن أقول لك . . .

وعاد كريموف على الفور إلى الواقع ، من حالة الاستراحة والاسترخاء تلك ، حيث كان من الممكن أن يستعرض ، كما في صالة سينمائية فارغة ، الشريط السينمائي لهذا اليوم ، ونهض من السرير وقال بصوت عادي :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟ قل ، يافالنتين ، أنا لم أنم ، وأنت لم توقظني ، ولا حاجة للاعتذار .

كان المكتب كله ممتلئاً بدخان ذهبي ، عسلي ، من الشمس قبيل الغروب ، وكان زجاج رفوف الكتب يلمع كالكهرمان ، وكان الهدوء ينبعث من النوافذ . وفي هذا الدخان المشرق كان يقف فالنتين قبالة السرير ، ممسكاً بيده رداء ليودميلا وصندلها ( يبدو أنه دخل من أجلهما ) ، وقال بصوت جهوري ، بشيء من الارتباك :

ـ نحن سنسافر ، حان الوقت . موعد الحافلة الكهربائية المسائية بعد عشرين دقيقة . ليوسا تستحي منك ، وقد أرسلتني لأحضر لها حوائجها .

« عجباً يا ترى ، هل كان لدى فالنتين شعور مشابه لما شعرت به في أعوامه ، عندما استيقظت بعد الاستطلاع فوق عنبر الحشائش المجففة ؟ في تلك الأثناء ، رأيت نجماً خريفياً أزرق اللون فوقي ،

وأذكر ، أنني فكرت ، أنه في ذلك العالم البعيد ، تنتظرني المرأة ، الإنسانة التي سوف أحبها طيلة حياتي » .

— مفهوم — قال كريموف ، وهو يتأمل وجه ابنه النحيل ، محاولاً العثور على ملامح تشبهه ، تشبه كريموف الشاب ، وطلب منه قائلاً : — اجلس دقيقة . ماذا أردت أن تقول لي ؟

جلس فالنتين بشيء من التردد على حافة السرير ، وقد كوم الرداء فوق ركبتيه ، دون أن يترك الصندل ، ونظر نظرة جانبية ، بعينيه اللتين كانتا تخشيان الإلتقاء بنظرة والده ، باتجاه المكتب ، حيث كان يرقد شعاع الشمس الدخاني ، كالذهب الهادىء ، ثم قال متعثراً :

— أتعرف ، يا أبي ، لقد ذاع عندنا في المعهد خبر ورطتك في الاستوديو . أجل ، بصورة عامة . . . وكذلك موت الممثلة التراجيدي . . أنا أفهم أن لك أعداء ، وأشخاص لا يريدون الخير لك . — وتجهم فالنتين ، ممسكاً الصندل بيد ومتابعاً تكويم رداء خطيبته فوق ركبتيه بيده الأخرى دون أية ضرورة . — كل ما أرجوه ، ألا تصل الشائعات والنمائم إلى أمي . . .

— الشائعات والنمائم ؟ لقد حدثتني تانيا عن الشائعات التي سمعتها . فماذا تقصد أنت ؟

— هراء كامل — قال فالنتين بغضب — هرطقة ودناءة في غلاف ملون من الابتهاج الشرير المبتذل . إن ضيقي الأفق من السينما « الوطنية » يثرثرون عن علاقتك الخاصة المتميزة بالممثلة المتوفاة . ضجيج فارغ لا يساوي قرشاً واحداً . الحقيقة ، بالنسبة لي ، أنك لست دونجواناً ، وتحب أمي . لكنها سوف تتألم إذا ما سمعت بالشائعات الشامتة .

ومن خلال إنارة المكتب الصفراء ، رأى كريموف على مقربة منه يد ابنه الكبيرة ، الخشنة بفتوة ، الشبيهة إلى حد مريع بيد أخرى ، وكأنه حلم بها ، إنها يد والد كريموف ، عندما وصل إلى البيت صباح يوم ضبابي ، تفوح منه رائحة فحم القواطر البخارية ، من أيام شهر شباط . إنها اليد التي ربتت على كتف أمه السعيدة ، لكن هذه اليد ، الآن ، تكوم هذا الرداء النايلوني الدارج . ذهل كريموف من قوة مورثات الجد ، وشعر بفضول نادر نحو فالنتين ، الذي كان يتميز عن الجميع في الأسرة بعناد « العقارب » ، وقال بصوت هامس :

ـ شكراً يابني . أنت على حق . ولكن ، كيف أحوالك أنت ؟ قل لي برجولة : هل كان اختيارك صحيحاً ؟ ألن تفترقا بعد عام ، حيث لن يكون بينكما أي شيء مشترك ؟

ـ وهل المسألة متوقفة على ذلك يا أبي ؟ . . . حسناً ، أنا ذاهب ، إلى اللقاء ، اعذرني ، إن كنت . . .

ـ بالنسبة للاعتذار ، لا لزوم له ، يابني . قليل من الناس يعرف من يجب أن يعتذر من الآخر . . . ومن أجل أي شيء ، ولماذا .

ـ أنا أعرف أن المصادفة هي التي تسيطر .

أحنى فالنتين رأسه لأبيه مودعاً ، بتكلف ، ( لم يجرأ على تقبيله ) ، واتجه نحو الباب بصورة منحرفة ، حاملاً الرداء والصندل بخنوع . وبكتفيه الضيقين ، ومشيته ، وببنطال « الجينز » المهترىء الذي يرتديه ، انه كله قريب وغريب ، وفجأة شعر كريموف بروحه تتمزق شفقة عليه . « انني لا أعرف ابني ، فلذة كبدي . فهل يحق لي أن أسدي النصح له ؟ » .

غرق ثانية في وحدته ، في صالته السينمائية الفارغة ، ورأى في الأعلى وادياً ، ودخان الحدائق الشمسي ، والكروم ، وسقوف البلدة القرميدية ، وهب نسيم دافيء من الوادي الصباحي ، نسيم خفيف عذب . . . » وأين كان هذا ؟ في العام الخامس والأربعين ، في النمسا ؟ ».

ثم سمعت أصوات من الحديقة ، فخرج إلى الشرفة بصعوبة . كانت الشمس تميل إلى المغيب ، خلف أشجار الصنوبر . وكان يسيطر ، في كل مكان من الحديقة ، السكون ، والكسل المخدر ، كان كل شيء عبقاً ، ذكي الرائحة ، منهكاً ، وقد أخلدت الطيور المتعبة طيلة اليوم ، إلى السكينة وامتدت الظلال على العشب تحت أشجار التفاح . وفي هذا الهدوء الصيفي الساكن ، قبيل حلول البرودة والشفق ، كان يقف فالنتين أمام الخوخة ، وهو يكاد لايرى بين أزهار البنفسج الطويلة ، ماسكاً بيده حقيبة سفر صغيرة ، تخص خطيبته على الأغلب . أما هي ، فكانت تخطو برشاقة ، بقدميها الرفيعتين ، منتصبة القامة ، كانت تقترب منه ، وترافقها أولغا ، التي تصغي إليها ، وتبعد شعرها البني الطويل عن خديها إلى الخلف .

ــ إلى اللقاء ياأبي ــ صاح فالنتين ، ملوحاً دون اهتمام بيده الكبيرة ( « يد جده » ) ، وهنا نظرت إليه ليودميلا ، وتهللت للحظة تعابير وجهها ، ذي الأنف الحاد ، ولوحت بيدها أيضاً باتجاه الشرفة ، متناسية أولغا ، ناظرة إلى العلية بقلق .

« إن أولغا لم تقبل بها . إنها خائفة ، متكدرة من قرار فالنتين » ــ فكر كريموف ، ولسبب ما ، قارن ليودميلا الدقيقة الصغيرة ، الشبيهة بالدمية ، بقوام أولغا الفتي ، الممشوق المتزن ، بتقشف ممارسي اليوغا ،

إنها أكبر من الخطيبة بمرتين ، وبتسريحتها الأنيقة المتميزة ، التي أخذت تسرح بها شعرها في السنوات الأخيرة . وبعد مقارنته هذه ، شعر كيف تقطع الشفقة روحه بصورة حادة ، على أولغا ، على ليودميلا ، على فالنتين ، وهو ماشعر به قبل بضعة دقائق ، عندما خرج ابنه من مكتبه ، إنها شفقة ممتزجة بالحب ، بالخوف والهاجس ، تشبه الحنين ، تشبه الشعور بالذنب بحقهم جميعاً ، لأنه لم يعرف أحد منهم نفسه، ولم يعرف أحدهم الآخر .

شاهد كريموف من الشرفة ، أولغا ، وقد ودعت فالنتين وخطيبته ، وعادت إلى البيت بخطوات سريعة ، وهي تشد تنورتها . كانت تسير ، خافضة رأسها إلى الأسفل ، فناداها مأخوذاً بنفسه من المشاركة في المعاناة .

ـ أولا !

وركض على الدرج ، متجهاً إلى الشرفة التي وصلت إليها أولغا من الحديقة ، فعانقها ، ودفنت أولا وجهها بخضوع إلى كتفه ، كما لو أنها تطلب الحماية .

ـ أولا ، نحن هنا ، غير قادرين على عمل أي شيء . لقد قررا بنفسيهما ، كما فعلنا نحن ، في ذلك الحين .

ـ أخشى أن أبقى وحيدة ، عندما تسافر . ـ همست أولغا ونظرت بعينين مخمليتين سوداوين . ـ انني أخاف عندما أكون وحيدة في البيت ، وأطفالي بعيدون عني . وأشعر بقلق كبير ، عندما ينقضي النهار ويحل الظلام . لاأريد أن ترحل إلى أي مكان . . .

أجاب وهو يقبلها من طرف أنفها :

— ياغبيي ، الناس الموسوسون يخافون الظلام لأن الخوف من الظلمة كامن في دمائهم ، لكنك امرأة مثقفة .

— هذا شيء آخر ، فياتشيسلاف — اعترضت أولغا — نحن نعيش في رفاهية مقلقة . شيء ما قد يحدث .

— لماذا تحدثت فجأة عن الخوف ؟

— إن هذا شيء أكبر من الخوف وأعظم ، إنه الرعب والذعر عشية ما قد يحدث . . .

— لا أفهم شيئاً .

— انني خائفة .

— حبيبتي أولا ، مم أنت خائفة ؟

— انني أخاف من كل شيء : من هذا الحر الغريب ، الذي لم يحدث مثله منذ مائة عام ، من ظلمة الليل المرعبة ، من الهدوء والسكينة في مكتبك . يحل هدوء مريع هنا ، عند الفجر . نحن نعيش في توقع رديء ، سيء . أعرف أن لديك ورطة ومشاكل . وفالنتين يدفعني إلى اليأس والقنوط . أوه ، ياإلهي ! وأية أقاويل لا يطلقونها عليك . وكم إخترعت من أعذار ومبررات . أخشى أن ينهار فجأة كل شيء . لم أعد أعرف ماذا علي أن أفعل ، هل أحبك أم أتوقف عن حبك ، — قالت بشيء من المزاح المرير ، ومرت باصبعها على شفتيه ، — ربما يكون كل شيء قد انتهى بيننا ؟

« لا ، لم تكن هناك رفاهية متألقة في حياتنا المشتركة . انها لم تكن واثقة بي . وكان هناك دائماً أثر لا ينطفأ ولا يخمد للقلق والخوف » .

— أولا ، أحبك الآن ، كما أحببتك في العام السادس والأربعين — قال كريموف بصوت أجش — هل تصدقين هذا ؟

— بصعوبة كبيرة .

— عبثاً يا أولا .

* * *

# الفصل الثامن

غفا كريموف في وقت متأخر .

فمنذ المساء وحتى ساعة متأخرة من الليل ، كان يقرأ يوميات ليف تولستوي ، التي كانت متنفسه الوحيد وهاجسه ، والتي اكتشفها قبل عشر سنوات ، عندما كان ساذجاً ، جريئاً ، سريع التصديق وخالداً ، لأنه لم يكن يتوقع في تلك الأثناء كثيراً مما عرفه وأدركه بعد بلوغه الخمسين عاماً . إنه لم يكن يفكر بصورة جدية ، أنه في الموعد المحدد ، سوف يكون عليه الخروج في المحطة الأخيرة ، وأن يترك إلى الأبد ، في عربة القطار الشتوية المريحة والحزينة ، حقيبته كلها ، التي تعب من أجلها طيلة حياته ، والتي ستكون غير لازمة ، كما يبدو ، للمستقبل القاسي الذي لايرحم ، بعقلانيته وعصره التكنولوجي والآلي لاسيما وأن ذاكرة الناس هي بعد غير ثابت ، متحول .

غير أنه كان يعثر في كل مرة ، في اليوميات ، على ماكان يطمئن تولستوي من قناعات ، ويثير في نفسه إيماناً راسخاً بكمال العالم وسيره نحو الأحسن عن طريق التوجه إلى الذات ، الاستبطان ، من أجل ازدياد حب الإنسان لأخيه الإنسان ، ليس الحب الحسي ، البدني ، بل الحب الروحي . وكان يرى في عقلانية هذا الحب العارية ، بل

القاهرة ، مفتاحاً إلى الحياة الأخلاقية كلها للإنسان العظيم في أعوامه الأخيرة . وعند قراءته في الصفحة التالية العبارة المتعاطفة مع البشرية كلها : « كيف يمكننا أن لا نحب إنساناً آخر ، مع أننا نعلم أننا جميعاً محكومون » ، كان يعود من جديد إلى اليوميات حول العلم والفن ، اللذين « لا يمكنهما أن يصبحا شيئاً آخر إلا في حال الحياة الأخوية » .

« ماذا كان باستطاعته القول ؟ — فكر كريموف ، واضعاً الكتاب على صدره ، متأملاً في السقف الدائرة الخضراء المنعكسة من مصباح الطاولة المنار على طرف السرير . — للأسف ، لم يحدث ازدياد الحب ، ولم تحصل الحياة الأخوية ، رغم أننا كنا ننتظرها بجنون بعد الحرب . فالشبع وإغراء الخيرات المادية لم يجعلا الكثيرين منا أحسن مما كانوا . فمن المذنب ؟ نحن جميعاً . لقد وجهنا عنايتنا أكثر مما يجب نحو الحياة السهلة وتناسينا الرئيسي : في سبيل أي شيء أعطيت الحياة . أجل ، هنا ، في الصفحة الثلاثين . . . يالها من كلمات دقيقة ، معاصرة : « إن الخير الذي يظهر الناس في شرهم ، يعدونه شراً بصدق . وهكذا حتى أن الرحمة ، والاستكانة والحب — كل هذا يبدو لهم شيئاً مقرفاً ، مكروهاً ، شائناً ، مثيراً للاستياء » . ولماذا لم يحدث الكمال ، والتحسن المنشود ؟ هل بسبب الحرب ؟ الحرب التي أسقطت الجزء الأفضل من الأمة ؟ إن الأصح هو أننا حتى الآن لم نسد الثلمة . أين اختفت القواعد الأخلاقية الأخرى ، التي لا يمكن تصور روسيا بدونها ؟ وهاهي كلمات القلق وعدم الاطمئنان التي يكتبها : « إن مايدعونه بالمدنية هو نمو البشرية . النمو ضروري ، لايصح أن نقول عنه جيداً أم سيئاً . ففيه الحياة ذاتها ، مثله مثل نمو الشجرة . بيد أن غصن الحياة أو قواها النامية في الغصن ، ليست محقة ، إنها ضارة ، إذا كانت تبتلع قوة النمو كلها » . وبعد

ذلك ترد عبارة أشد يأساً : « متى سيكون في الناس نفس ماهو في الطبيعة ؟ في الطبيعة صراع ، لكنه صراع شريف ، بسيط ، جميل . أما هنا ، فهو صراع دنيء . إنني أعرفه ، وأكرهه ، لأنني أنا إنسان » . أما في يوم السادس والعشرين من تموز عام ألف وثمانمائة وست وتسعين فثمة عبارة أشد يأساً ومرارة : « ومن جديد ، أصلي ، وأصرخ من الألم . لقد التبس علي الأمر ، وتعقد ، أنا نفسي لا أستطيع ، لكنني أكره نفسي ، وأكره حياتي . . . » .

هذه الكراهية نحو ذاته ، والتعرية الحادة ، وعدم القبول بالرديء والمزيف ، حيث « يتأنق الجميع ، ويأكلون ويشربون ، ويطالبون » دون أن يعرفوا ضحايا الشعب في سبيل ذلك ، والأسى على ضياع أفراح الشباب ، ومرح الشباب ، والخوف من « الإنقلاب » ، والإنتظار الهاديء للموت ، وعدم الإستقرار اليومي في الأسرة ( « . . . لا كرامة لنبي في بلده . . . » ) ، الذي نشأ نتيجة عدم التفاهم بينه وبين الأبناء ، الإستكانة ، ثم فجأة البهجة أمام الوجود ( « الحياة ، مهما كانت ، هي خير ، لاأسمى منه » ) — إن هذا كله لم يكن بالنسبة لكريموف مجرد قراءة . بل كان لذة خاصة ، كان ألماً ، ومشاركة في تلك المأثرة المؤلمة ، والصادقة إلى أقصى حد ، المأثرة الأرضية والسماوية في الوقت نفسه ، حيث أراد المعذب العظيم المتطوع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية جميع النقائص المشتركة والشهوات والطرق المزيفة والمصائب البشرية ، وأن يسامح غير محبيه ، مفكراً بهم بمحبة ، وأن ينقذ العالم . . .

بألم ولذة معاً ، مرتوياً بالتعرية الروحية لفكرة غيره ، ومناقشاً عقيدة النبي الجامحة والمتناقضة ، وأحياناً بالوقاحة المعاصرة المدعية بمعرفة كل شيء

( التي كانت تعيش فيه بخجل في تلك اللحظات ) ، بدأ كريموف يكره طموحه الذاتي وعدم صدقه ، ويصفح عنهما من بعض الجوانب . كان يكره الزيف المتبادل للرفاقية المرغمة ، إعجاب الزملاء المتبادل ، الذي كان يشبه عيداً مزيفاً للنجاح الدائم لدى كل واحد ، تقريباً ، كان يقوم باخراج فيلم صغير مقبول ( « آه ، ياعزيزي ، لقد شاهدته ، شاهدته ، إنني عاجز عن الكلام ، أنا نفسي أخرجت منديلي ، عندما ظهر في فيلمك مشهد الهجوم غير الناجح . . . ياله من انجاز ، يالها من قوة ! اسمح لي ، يا صديقي ، أن أعانقك وأقبلك من أعماق روحي ! »). ولكراهيته محبة الخير المتكلفة هذه ، التي كانت تمثل بصورة متقنة أحياناً وبصورة مفضوحة أحياناً أخرى ، ولكراهيته هذا الشكل المشروع للتزلف المأمون ، الذي لايعبر عن حب لموهبة الزميل ، بل عن عنجهية مقنعة وحسد ولا مبالاة ، أدرك كريموف أنه قد حدث للكثيرين شيء ما قبل خمسة عشر عاماً أو عشرين عاماً ، حدث لهم شيء مهدم ومدمر لأهم ماعنده ، لأهم ماعند كريموف ( « الحالم ، المثالي » ) ، — شيء دمر الأمل بالأخوة ، الأمل الضروري للجميع ، الذي ولد بعد الحرب واستبدل بصورة تدريجية ، غير ملحوظة بالإهتمام والتطلع إلى الخيرات المادية .

« لقد بلغت المدنية ازدهاراً لاسابق له في النصف الثاني من القرن العشرين . . . » ، « لقد ألبس الإنسان الطبيعة لجاماً . . . » ، « نحن نعيش في عصر عقلاني ، عصر تقدم تقني لم يسبق له مثيل » — تذكر كريموف ، متغضناً ، كلمات المناقشين والمشاركين في ندوة باريس حول فيلمه ، وأثناء تذكره تصور البعثة السينمائية التي قادها في العام الماضي إلى نهاية

العالم، إلى الشمال ، إلى بيتشورا ، حيث كان يصور اللقطات الأخيرة من فيلمه « الحرب غير المعلنة » . . .

* * *

اقترب المركب ، هادراً بمحركه من حين لآخر ، من الأطواق المثبتة ، الموزعة على عرض نهر بيتشورا ، حيث كانت أربعة زوارق تتمايل على الموجة القائمة ، وقد أخرجت الشبكة الثقيلة المبللة وانتشلتها . كانت ألبسة الصيادين المطاطية الصفراء تلمع بصورة دسمة ، لزجة ، وكانت قلانسهم مائلة على الجوانب ، وقد ارتدى الصيادون القفازات المطاطية على أيديهم . كانوا يعملون بسرعة ، مطوقين ومضيقين الدائرة حول كائن ما ، غير مرئي بعد ، في الماء الهاديء ، القاتم . وفجأة اندفعت نار بيضاء قوية بين الزوارق — ولمعت فوق الشبكة عدة شرارات من البرق . أدى انفجار الماء المفاجيء هذا إلى إحداث نوافير من الرذاذ في المسافة المتوسطة المحاطة بالزوارق . كان هذا الإنفجار بمثابة إشارة ملتقطة ، حدثت إثرها موجة ثانية من شرارات البرق ، وفجأة أخذ الماء كله عند الأطواق يضج ويهدر ، وظهرت خطوط متعرجة فضية من الأسماك الهائجة الكبيرة ، التي سيطر عليها الذعر .

كانت الأسماك تضرب بأذيالها وتندفع ، وقد وقعت في الشباك ، كانت تسعى باضطراب إلى الإفلات من الشباك والقفز إلى الحرية من الأسر ، من الدائرة التي كانت تضيق باستمرار . هذه الإناث الجميلة والذكور القوية من الأسماك ، التي أبدعتها يد الطبيعة ذاتها من الفضة الخالصة ، المشبعة بغريزة الحياة الأساسية — ألا وهي استمرار النوع ، والتي أوقفتها قوة لاترحم على الطريق نحو تجديد الحياة : كانت الشباك

تغطي نهر بيتشورا على عرضه من الضفة إلى الضفة المقابلة . آنذاك ، كان يبدو لكريموف ، وكأنه يسمع نداء واستغاثة ، طلباً للعون ، وكأنه يسمع نواحاً وبكاء وأنيناً ، وتضرعاً ، طلباً للرحمة . وهذا ما كان يسمع غالباً ، بالقرب من غرف الغاز في معسكرات الإعتقال النازية ، التي اقتيدت إليها النساء العاريات والأطفال ، وكان معروفاً لماذا ، وإلى أين . . .

ـ نحن نقتلها بالتيار الكهربائي في الشباك ـ قال لكريموف رئيس فرقة الصيادين ، وهو شاب أسمر اللون ، نحيف ، يضع حزاماً في وسطه ، ذو عينين زرقاوين ضبابيتين ، يشبه زير نساء . ـ انظر كيف ، مأخذان كهربائيان وانتهى الأمر . هكذا ، أكثر إنسانية . أما في السابق ، فكنا ننهي الأمر بالعصي ، بيد أنه كانت تسيل دماء كثيرة !

ـ تعال ، هيا ! ـ صاح أحدهم بالقرب من أذن كريموف .

ومن فوق رأسه ، قفز إلى الماء المكتظ جسمان مرنان قويان لفرخين من سمك السلمون ، وظهر صندوقان معدنيان من الأسلاك . نظر عامل المحرك ، وهو شاب ضخم الوجه ،نظرة لامبالية إلى السماء الغائمة ، وأدار المحرك ، فسكن كل شيء على الفور في الماء الذي تحيط به المراكب ، ولم يعد هناك طرطشة ولا ضجيج ولا بريق . رقدت الأسماك الميتة دون حراك ، وأخذت تتأرجح على الشباك سبائك فضية ، تنظر بعيون سوداء مدورة إلى السماء المنخفضة فوق نهر بيتشورا ، التي كانت تزحف عليها غيوم سوداء ، نظر إليها عامل المحرك الذي لا يعرف الإبتسام ، والذي لم يرتكب أي ذنب سوى أنه قتل الأسماك .

وصلت إلى أنف كريموف رائحة الموت الحديدية من السكون المميت لجثث الأسماك بين الزوارق ، وشعر بتشنج مؤلم دفع به إلى الغثيان عندما فكر ، بأنه في الصباح أكل لحم السلمون المقتول بالكهرباء ، تماماً كما أن شيئاً ما متوقعاً سوف يأكل بنهم لحوم جميع هؤلاء القتلة من الذين كانوا الآن في الزوارق ( سوف يأكل لحمه أيضاً ) ـ لأن قانون المراحل للسلمون والديدان والإنسان هو قانون واحد في الطبيعة ، وليس هناك من اختلاف سوى في مراحل السلم البيولوجي ، مع التساوي التام للجميع أمام الخلود . بيد أن الاستهتار الواهي ، والمنقذ أحياناً ، الذي لجأ إليه طلباً للعون ، لم يقدم له تفسيراً معقولاً لهذا التطرف من جانب الإنسان .

لقد جاءت سمكات السلمون الجميلة هذه من المحيط الأطلسي ، مارة بالقرب من شبه جزيرة كول ، واخترقت حصار الشباك الأول الذي نصبه النرويجيون ، وسارت إلى نهر بيتشورا ، باتجاه منابعه ، إلى الأنهار الصغيرة ، حيث كان على الذكور أن تحفر بأنوفها في الأماكن الضحلة حفراً في الحصى النهري ، وتلقح فيها البيوض التي وضعتها إناثها ، ومن ثم تغلق هذه الحفر ، وبعد أن تخور قواها تموت ، أو أن تنحدر من جديد إلى البحر ما إن تدب في أبدانها الحركة . أما الأسماك الصغيرة التي تخرج من البيوض ، فقد كان عليها بعد ثلاثة أعوام أن تتجه إثرها ، كي تعود بعد ستة أعوام ، متشوقة إلى الحب ، وتقع في الأسر ، ومن ثم على « الكرسي الكهربائي » ، الذي اخترعه الإنسان المتفنن في أساليب القتل ، لا من أجل إنقاذ الناس من المجاعة ، بل من أجل تزيين « الموائد الرفيعة » في مطاعم المدن الراقية والمآدب الخاصة .

« عبثاً أتذكر كل هذا ، فليس هناك من جواب على اللاعقلانية المبرمجة ، التي سوف تبيد كل ماهو حي ، بعد عشرين عاماً ، حتى في أقصى الشمال . لقد قال رئيس فرقة الصيادين ذو العينين ، الشبيهتين بعيني زير النساء : « بعد عشرات السنين لن نعثر على أصغر سمكة ، مهما حاولنا . . . إننا نصطاد الأسماك بطريقة متقدمة . كما هو الأمر بالنسبة للغابات : نقطع ونقطع » .

بيد أن ما أذهل كريموف أكثر من أي شيء آخر ، صفرة الموت ، وريح المقابر التي هبت على تلك الأراضي ، حيث كانت الملاذ الأخير لحبقوق * الذي لا يجاري .

لقد رأى هذا بعد ساعة من نهر بيتشورا .

ـ انظر إلى الأسفل ! هناك مدينة بوستوزيرسك * * .

ـ أين ؟ ، إنني لاأرى شيئاً !

ـ في الأسفل ، في الأسفل ، مدينة بوستوزيرسك

تعلقت الطائرة العمودية في الجو فوق الأرض ، باحثة عن نقطة الإرتفاع المطلوب ، ولكن ، هناك ، في الأسفل ، في الهوة المشمسة ، لم يكن هناك أي أثر لمدينة ـ هناك ، وسط المنظر الكئيب للسهوب ذات الشكل الواحد ، كانت تلمع وتتفجر مياه البحيرات الشبيهة بالمرآة ،

---

* حبقوق : القمس حبقوق ( ١٦٢١ ـ ١٦٨٢ ) أحد كبار رجال الكنيسة الأرثوذكسية . تزعم حركة الانقسام فيها . ولوقوفه ضد البدعة الكنسية للبطريرك نيكون نفي إلى سيبيريا عام ١٦٥٣ ، ولم يسمح له بمغادرة منفاه إلا في عام ١٦٦٣ ، بعد سقوط البطريرك نيكون .

* * بوستوزيرسك ـ وتعني بالروسية البحيرات الخاوية . ـ المترجم ـ

في لعبة عابثة ، وكانت ترقد حولها أعشاب التوندرا الميتة ، السمراء الداكنة ، التي تقبض النفس بقنوط مسافة وحشية خارج الزمن .

وبعد أن أصبحت الطائرة معلقة بين الشمس والأرض زأر المحرك بأنين ، وبدأت الطائرة تنخفض بسرعة ، وتهبط باتجاه الأرض ، وظهرت من النافذة الأعشاب الجافة وقد تمايلت بصورة حادة ، واستسلمت تحت رياح المروحة ، وسارت الأمواج بغتة فوق البحيرة القريبة . وصمت المحرك . وفي السكون البدائي الذي يصم الأذن ، أفاق الجميع وخلعوا الأحزمة ، ونهضوا من أماكنهم ، وبصورة مترددة ، غير واثقة ، بدأوا ينزلون على السلم الحديدي ، الذي نصبه الملاحون من على ظهر الطائرة العمودية إلى الأرض ، ذات النتوءات البارزة . أخذ ينظر كريموف ، الذي بهرته الشمس الساطعة ، واحتضنه السكون المتدفق من جميع الجهات ، والهواء اللذيذ المنعش من الأفق اللامحدود ، باحثاً عن علائم حياة الإنسان ، غير مصدق أن هذا المكان هو مدينة بوستوزيرسك .

ــ وأين المنازل والبيوت ؟ أين كان الناس يعيشون هنا ؟ ــ سأل كريموف مدير التصوير بذهول ــ يالها من كآبة . . . أليس كذلك ؟

قفر يباب ، يوم شمالي مشمس ، ريح فوق البحيرات المسطحة ، فوق هذا المتسع الرحب البدائي ، الذي نسيه الإله وأبقاه على بساطته البدائية وقدمه . وفي هذا المكان ، حيث كانت تقوم ، في وقت من الأوقات ، منازل وأبنية وطيدة بظلالها الفسيحة ، وآبار ومخازن ، ومحلات تجارية ومستودعات ، ومدرسة ــ حل التدمير القاسي الرهيب ، فلم يبق أية علائم تدل على الحياة . وكان من المحزن للمرء أن يرى

الأكمات المعشوشبة للقبور القديمة ، ورفات الصلبان شبه البالية ، وكان يبرز بصورة غريبة صليبان جديدان ثابتان ، دهنا باللون الأزرق الفاتح حديثاً . من دفن هنا ياترى ؟ وكيف نقل إلى هذا المكان جثمانا الميتين على بعد مئات الكيلومترات من توندرا الشمال ؟ وماهو الهدف من دفنهما ، هنا ، حيث لاوجود لأي مسكن ، ولا لصوت إنسان ؟ ماعدا الشمس والبحيرات ، والأجمات والرياح . . .

اقترب كريموف إثر مدير التصوير ، وقد تعثرت قدماه بعظم بين الأعشاب ، من حجر رمادي مرتفع على رابية مقبرة ، وقال :

— صور هنا كل شيء .

— اذن ، هو ؟ هذا هو المحروق بالنار ؟ — سأل مدير التصوير ؟

— أجل ، هو .

— كان هذا نصباً للقمس حبقوق ، محب الحقيقة المتحمس ، الذي أحرق في بوستوزيرسك بأمر القيصر في القرن السابع عشر،ومات حرقاً بالنار ، متألماً ، متعذباً لتمرده العنيف على البطريرك نيكون الجبار .

بالقرب من حجر حبقوق ، وعلى مقعد صغير ، جففته الشمس ، وضعه أحدهم منذ فترة طويلة ، وقد تشقق بفعل المطر والريح ، كانت تلوح جمجمتان صغيرتان ، بلونهما الأبيض ، لطفلين ، كما يبدو ، كما كان يظهر عظمان من عظام القصبة لطفلين ، وضعا هنا لسبب ما ، وربما من القبور المهدمة ، وقد غسلهما الزمن إلى حد البياض .

— هكذا نحن هنا ، نبدو تافهين حقيرين — قال مدير التصوير

وأنزل بوهن آلة التصوير السينمائية ، ولمس بكفه الحجر الخشن . — ياله من معذب . ويالها من قوة وإيمان وقناعة كان يتحلى بها !

— للأسف ، نحن جميعاً ، تنقصنا القناعة ، — قال كريموف .

— نحن ببساطة ، لا نعرف أين الحقيقة — قال مدير التصوير ساخراً — لقد قايضناها بربطة عنق دارجة ، وبتنورة دارجة ، ذات علامة أجنبية ملصقة على المؤخرة .

وقفا أمام الحجر ،يقرآن عليه كلمات القمس الصبور ، الثابت ، غير الراضخ ، الذي لم تمنح له السلطة ، لكنه سمى بنفسه إلى الأعلى ، في سبيل حقيقته وعقيدته ، ضد ألكسي ميخائيلوفيتش ، قيصر عموم روسيا ، وضد البطريرك المتسلط نيكون، يقرآن عليه كلمات القمس الذي لم يخضعه العذاب ولم يثنه الموت . وتخيل كريموف ، كما لو أنه كان مقيداً ، يحترق هنا في عزبة أحرقها السفاحون من جهاتها الأربع ، وهو يلعن الغادرين وخونة العقيدة ، وأخيراً أصبح واهناً خائر القوى ، لكن قوته الروحية لم تنفذ ، — وخلع قبعته المصنوعة من الفراء ، ناظراً إلى الحجر ، يطلب منه في ذهنه ، القوة والنصر في عمله في الإخراج السينمائي ، عارفاً أن المساعدة ويد العون لن تأتيه من أية قوى ، سوى قواه الذاتية .

كانت شمس الشمال تبعث الدفء ، وكانت الريح تنعش رأس كريموف على هذه الأرض الشمالية المهملة،حيث حلت مقبرة مهملة ، وسط البحيرات ، مرصعة بالعظام المرمية على التراب ، محل البلدة الروسية القديمة ،والشوارع الخشبية والأصوات البشرية،والشباك المعلقة على الأعمدة .

إلى جانب كريموف ، كان يقف الطياران ، الشابان الجديان ، بصمت ، وقد رفعا قبعتيهما الزرقاوين عن رأسيهما . ثم اقترب عامل اللاسلكي القصير الأشقر ، وقال بحيوية ، أنه على مقربة من هنا ، عثر على قبرين منبوشين ، إما من قبل بشر أو من قبل وحوش . كان القبر الأول مليئاً بالجماجم ، بينما وضعت في الثاني أيدي وأرجل—وكأنهم قطعوا أطراف ورؤوس بعض الأشخاص ، ودعوا الناس لرؤية ذلك.

— لا ، رفض كريموف — هذا يكفي .

مضى الطياران وعامل اللاسلكي ، أما كريموف فقد جلس على المقعد بالقرب من قبر حبقوق ، حيث كانت ترقد على مقربة منه جماجم أطفال ، ابيضت من الشمس ، محاولاً أن يفهم سبب وضعها هنا ، على مقربة منه ، من نصير العقيدة ، المتحمس لها .

عندما أخذت الحوامة ترتفع عمودياً عن أرض بوستوزيرسك ، وهي تهدر بمحركها القوي ، سطعت ، كما في السابق ، الشمس القصديرية القطبية ، وتلألأت البحيرات الفارغة ، الميتة ، التي لا يستفيد أحد منها الآن ولا ينتفع ، بلون القصدير ، يحرسها حشد تافه من الصلبان والقبور المنبوشة في هذه المقبرة المهجورة . وكما في السابق ، كان القفر صامتاً بصورة خرساء ، أما الطائرة العمودية فقد اندفعت إلى الأعلى ، بعيداً عن الأرض المعدمة ، المحروقة ، الخالية من أي كائن حي . وعلى رابية شمعة رمادية بلا نار ، كان يقف وحيداً حجر حبقوق ، مذكراً بقناعة الصبور المتحمس المقدسة القوية ، وبقسوة السلطة التي لا تعرف الحدود ، وبتفاهة الجميع ومساواتهم أمام السماء الواحدة والشمس الواحدة . وعندها تخيل كريموف بأنه إذا ما خلت الأرض ،

ولم يعد هناك تحت قبة السماء ، مثل هذه الطاقة ، ولم تعد هناك روح شبيهة بروح القمس حبقوق ، الذي صمد ولم يعرف الإنهيار ، فستنتهي المدنية وتؤول إلى أن يحلق أحدهم فوق أرض مدمرة ، فوق صحراء دائرية ، لايرى سوى بقعاً سوداء من رفات الحياة البشرية .

لكن ، ماهو الشيء المشترك بين « الكرسي الكهربائي » على نهر بيتشورا ، المغطى بالشباك وبين مدينة بوستوزيرسك؟ولماذا عاد من الشمال مكتئباً ، رغم أن تياراً رفيعاً من الوعي كان يقاوم في نفسه ، وقد شق طريقه بمرح وبلاهموم ، أملاً بشيء آخر لانهاية له ، شيء منقذ ما . . .

« الأمل ؟ ماهو — أهو زيف أم حقيقة ؟ بماذا نأمل ؟ تنقصنا الثقة بأنفسنا » — فكر كريموف وأدار رأسه نحو النافذة المفتوحة فوق السرير ، حيث كان يفوح أريج ذكي طازج من الحديقة في الليل . ومن طرف النافذة ، كان يظهر خيال العلية ، أسود اللون من ثلاث زوايا ، في السماء الخافتة فوق أشجار البتولا الجامدة ، حيث كانت النجوم تضيء بنور هادىء خافت ، أما تحت القمر المنخفض فقد استدارت أدغال الحديقة ، التي كان يصمها نقيق الضفادع السعيد من النهر القريب .

* * *

# الفصل التاسع

في الساعة العاشرة صباحاً ، وصل على سيارة الاستوديو المنتج مولوتشكوف ، ومعه المخرج أناتولي بترونيتش ستيشوف . والمخرج ستيشوف صديق قديم لكريموف ، وهو رجل ذو نمط مريح ومحافظ . إنه رجل متأدب ، لبق على الطريقة القديمة ، إنه المعبود الدائم للممثلين الشباب الذين يشاركون في أفلامه ، ويأخذون بمعاملته الطيبة وملامح وجهه الدقيقة ، الشبيهة بملامح نبلاء الرومان ، وبحياته الغامضة كأرمل . ما إن رأى كريموف ستيشوف الطويل القامة ، الأنيق ببزته القاتمة الملتصقة بقامته النحيفة يدخل إلى الخوخة ، حتى هب فرحاً بلقائه ، وعانقه ، فاشتم رائحة الكولونيا العطرة الأجنبية ، التي تعطر بها بعد حلاقته الأنيقة ، وقال له باضطراب :

ــ حسناً فعلت يا توليا ، شكراً لقدومك . كنت مشتاقاً إليك كثيراً ياصديقي . . .

ــ شيء شبيه بالمديح التافه ، لاأعره أي إهتمام ــ قال ستيشوف برصانة ، ثم سأله بلهجة مغايرة ، تسحر بجمالها : ــ وأين نساؤك الرائعات ؟ كان بودي رؤيتهن ولو للحظة . هل هذا ممكن في هذا العالم ؟

ــ أوه ، أنا أيضاً بودي رؤية جميلاتك ! ــ صاح مولوتشكوف

وهو يقلب عينيه بفرح وإعجاب ، ضاغطاً بيديه الاثنتين على يد كريموف ، وهو يقول : ــ آه ، كم أنا مسرور ! . . .

ــ أنت مداهن جامح ، يا تيترنتي ، وهو أمر معروف عنك ــ قال كريموف وأمسك بستيشوف من مرفقه ــ المرأة الرائعة الأولى تقوم بالتمارين الرياضية قبل الذهاب إلى الشاطيء ، أما الثانية ، فهي للأسف قد ذهبت إلى معهدها ، معهد الهندسة المعمارية .

أجاب كريموف ستيشوف باللهجة نفسها ، عارفاً طريقة صديقه في الكلام ، وكان مذهولاً ، صراحة ، في الوقت نفسه ، من هذه الزيارة المشتركة ( كان ستيشوف يزوره عادة بسيارته الخاصة ) ، دون اتصال هاتفي مسبق ، بيد أنه لم يطرح أي سؤال ، واقتاد أناتولي بتروفيتش على الممشى إلى طرف الحديقة ، في الظلال الصباحية لأشجار الصنوبر التي دفئت أغصانها فوق المرآب ، حيث كانت تتنقل حول السيارة ، تانيا النعسة قليلاً ، الشبيهة بفتى ريفي ، بقميصها الذي شمرته حتى كوعيها ، وبسروالها المقلوب المهترىء ، وكانت تضرب بخرطوم الماء قوس قزح مرن ، متغير بأشعة الشمس ، تشكل من تيار الماء المنساب على زجاج السيارة كالجداول ، مما كان يجلب لها السرور ، وقد تضيقت قليلاً عيناها المتنفختان من النوم .

ــ ابنتي ، عندنا ضيوف ــ قال كريموف ، بيد أن ستيشوف سبقه على الفور ، وقال بصوت مليء بلباقة كبيرة :

ــ عزيزتي تانيا ، رغم أنني أدرك أن حمل الأزهار من موسكو إلى الطبيعة لا معنى له ، ومع ذلك لم أستطع ألا أتذكر ، قرب مخزن الزهور ، أنك وأولغا يفغينيفنا ، تحبان أزهار القرنفل .

— حسن جداً أنك أتيت ، أحييك ، منذ فترة طويلة لم تأت لعندنا ، يا أناتولي بتروفيتش ، شكراً !

وتألقت أسنان تانيا ، وتهللت فرحاً ، بشبابها وصحتها ومشاكستها الدائمة ، فرمت خرطوم الماء على العشب ، وأزاحت شعرها إلى الوراء بغنج فتاة ناضجة ، أدهشت كريموف بغيرة ، وأخذت باصبعين مبللين بالماء ، باقة أزهار القرنفل ، التي قدمها ستيشوف ، محيياً بانحناءة من رأسه .

— تانيا ، من الذي يستغلك ؟ أبوك ؟ وهل تعرفين ماهي القيمة الفائضة ؟

— أنا البطل الايجابي لواقعنا . لذا أنصحك وأنصح والدي بأداء التمارين الرياضية كل صباح ، — قالت تانيا ، وهي تشم أزهار القرنفل — واضح أنك لا تمارس الرياضة ، يا أناتولي بتروفيتش ؟

— آه ، يا تانيا — صاح مولوتشكوف وهو يضرب كفاً بكف — ان أناتولي بتروفيتش لاعب تنس ، انظري ، أية قامة رياضية ممشوقة لديه !

— افتراء ، وشاية — اعترض ستيشوف . — تصوري ، يا تانيا ، ان قلب الإنسان قد بُرمج ، بحيث يقوم خلال حياته بسبعين مليون نبضة . فما الداعي إلى إرغامه على بذل جهد فوق البرنامج المعد ؟ أليس جهداً بلا طائل ؟ على أية حال ، أنا أكذب عليك ، فهذه فلسفة الكسالى . أنني أقوم ببعض الحركات ، بالطبع ، من أجل المحافظة على اللياقة والمزاج الرومانسي . فمن الضرورة بمكان ، أن يستيقظ المرء صباحاً ، وينظر نظرة متفائلة إلى العالم الأمثل .

ــ أجل ، بالضبط : المزاج الرومانسي ــ قال كريموف مؤكداً ، واقتاد ستيشوف إلى داخل الحديقة ، إلى الطاولة ، تحت أشجار التفاح ، ناظراً إليه بشيء من التفكير . ــ أما بالنسبة لي ، فان مزاجي صباحاً ، كما في أيام الشباب . . . اجلس ، سوف نشرب القهوة . سوف تشعر بلذتها في الهواء الطلق . تيرتني ! أنت تعرف أين نحضر القهوة . اعمل معروفاً ، إن لم يكن صعباً . . .

أحس كريموف في لهجته الآمرة بمسحة من الزعل والضجر ، تماماً بعد حديثه بالأمس في الاستوديو ، وكأن المنتج كان الآن ، مزعجاً له ولستيشوف ، لكن مولوتشكوف تظاهر ، بهيئته الجافة ، باستعداد سعيد : « ثانية واحدة ، لحظة واحدة ! » ــ وبحركة تمثيلية ، مثل نادل في فيلم بوليسي ، أمسك بابريق القهوة من على الطاولة ، وسار بخفة على الممشى باتجاه الشرفة ، هازاً بسترته الحريرية على الأرض .

جلسا خلف الطاولة ، تحت أغصان شجرة التفاح التي تفوح منها ، بصورة عذبة ، رائحة أوراق الشجر ، المزينة بقطرات الندى . وهنا ، في الهواء الطلق فاحت رائحة الخبز اللذيذة ، الذي قطعته أولغا بعناية في السلة ، كما فاحت الرائحة الزكية الزبدة التي ابيضت حوافها في العلبة الخضراء ، والقطع الطازجة الجبن القشقوان على الصحن ــ وقد استقبل ستيشوف هذه الروائح كلها ، وأشعة الشمس المتموجة على غطاء الطاولة المشمعي وصوت الزرقطة على صحن المربى برضى إنسان يعرف معنى الحياة وجمالها .

ــ منذ مدة طويلة لم أستنشم رائحة الخبز في الهواء الطلق .

وأحنى ظهره بارتياح على الكرسي القماشي القلاب ، وفك أزرار

الحاكيتة ، وقرب إلى وجهه الغصن المثقل بالتفاح الذي بدأ بالاحمرار ، ومد آنفه وهو يقول :

ـ روعة ، أسطورة . المربى ، الزراقط ، الزبدة ، التفاحات اليانعات . . . سوف آتي لعندك لتناول طعام الفطور ، وسأتحول إلى متطفل . وعند اقترابي من المائدة ، سوف أدندن بيني وبين نفسي ، وأنا أنحني حتى منتصفي : « صحة جيدة . . . هنيئاً مريئاً ! » ـ وبعد أن ترك الغصن ، وضع رجلاً على رجل ، ونظر بعينيه الزرقاوين إلى كريموف وهو يقول : ـ أما إذا ما أردت الجد ، فبالرغم من كل هذه الروعة ، ليس شكلك على ما يرام ، يافياتشيسلاف . . . ألن تعترض إذا ما طرحت عليك سؤالين ؟

ـ لا ، موافق ـ قال كريموف ـ لكن قل لي في البداية ، ماالذي جمعك مع مولوتشكوف في هذه السفرة ؟ كنت في البداية سأعبر عن دهشتي . . . على أية حال ، أستطيع أن أحزر . تقترح عليك إدارة الاستوديو ، على مايبدو ، أن تقوم باخراج فيلمي ، الذي أوقف العمل فيه كما هو معروف .

ـ أعوذ بالله ! ـ قال ستيشوف معترضاً ـ هذا أمر لا يمكن أن أوافق عليه ، بشكل من الأشكال ، مهما كانت الظروف . حتى إذا ما وعدوني بمائة ألف لقاء كل ساعة تصوير ، وبجواري حريم السلطان كل يوم أحد . أنا ، كما تعرف ، لم أصبح حتى الآن كاسر الاضراب ، منتهز الفرص .

ـ أما أنا ، فسأكون مسروراً بترشيحك ، أنت بالذات . بيد أنهم ، من أجل الأمانة ، سوف يبحثون عن حرفي . فالفيلم المتوسط ، كما

تعلم ، لا يثير سخط الإدارة ، والمثلث المتساوي الأضلاع من النوع الوسط ، يناسب كثيرين .

— فياتشيسلاف ، كل شيء سينتهي ويزول . وأحجار إدارة الاستوديو ستبقى في مكانها على رقعة الشطرنج بانتظار تحريكها ، وسوف تصور فيلمك أنت بنفسك — قال ستيشوف ، وهو يدخن مستمتعاً ، مطفئاً عود الثقاب بتحريكه بمرونة ، وأطلق الدخان من فمه متلذذاً ، فابتسم كريموف شاكراً له قدرته المهذبة على التخفيف مما كاد يعجز اتزانه الصبور عن ضبطه . — والآن ، السؤال الأول : لماذا لم تتصل بي هاتفياً فور قدومك من باريس ، أنت رجل طائش ؟

— أردت أن أتمالك نفسي . كما أنني كنت منحرف الصحة بعض الشيء هناك .

— وماذا جرى لك ؟

— كيف يمكنني أن أقول لك باختصار . . . — وصمت كريموف برهة ، وهو يمسح وجنته غير الحليقة — إنني أغوص في أعماق نفسي طيلة شهرين . إن الاكتئاب هو شيء ساحر فتان . وماذا ، وهل هناك من شيء آخر لدى الرجل المثقف الروسي المعاصر ، عندما يبدو له أنه مذنب ، ومسؤول أمام العالم كله .

— إذن ، تبحث عن الخلاص على هذا النحو . لست أول من يتبع هذا الطريق . نحن جميعاً ، يافياتشيسلاف ، قضينا حياتنا لا كما نريد . أين هي تلك الحقيقة التي بحثنا عنها طويلاً ، والتي توفق بين الجميع ؟ ما ان بدأ الإنسان التفكير بنفسه وبأخوته ، حتى ذهل من نقائص الواقع ، والمقربين إليه .

ـ لا تستغرب ، ياتوليا ، اليوم ليلاً ، كنت أفكر بالقمس حبقوق ، وبخداع الذات الكبير ، الذي نتعرض له جميعاً ـ قال كريموف ، وهو يهرس سيجارته عابساً . ـ المسألة على الأغلب ، ياتوليا ، أن كل واحد منا ، خلال حياته ، تنقصه الإرادة الكافية لكي يكون هو ذاته ، كما هي على حقيقتها . نحن نؤدي دوراً معطى لنا ، ولا نعيش بصورة طبيعية . أتعرف ، ما هو ذنب المثقفين في العالم ، بمن فيهم مثقفينا ؟ إنه الحلم ، وعفوية الذهن ، والخضوع للظروف . نحن جميعاً عبيد الظروف . . . .

ـ أما أنا ، فأرى أن اعتزازك المفرط بنفسك يخلق لك أعداء ، ويثير دهشة المسؤولين الساخطة .

ـ لو كان الأمر مسألة اعتزاز بالنفس ، لكانت بسيطة ، تافهة . إنني أفكر دوماً بايرينا سكفورتسوفا . إنها فتاة عزيزة ، طاهرة ، موهوبة . وهي بالذات ، لم تحتمل القذارة والكذب . وهذا هو الخنوع والخضوع .

ـ ربما العكس . ـ قال ستيشوف ، وبوجه مستغرق في التفكير وضع يده على ركبة كريموف ـ غير أنني لست واثقاً من هذا أيضاً . يصعب على المرء أن يتصور ، أن تقدم هذه الفتاة الرائعة ، بعد أن حصلت على الدور السينمائي ، فجأة على . . . إنه ، على الأغلب ، حادث مؤسف ، مأساوي .

ـ إن موتها بالنسبة لي أحجية ، سر ، لغز خفي ، ياتوليا .

تريث ستيشوف قليلاً ، وخلص الزرقطة بملعقة الشاي من صحن مربى التوت الأفرنجي ، ثم قال :

– هل سمعت ، ياصديقي ، أنه هناك دواء للأرق والتهدئة العامة ؟ ڤاليوم ، لقد جربته على نفسي . صدقني ، إنني أنام نوماً عميقاً ، مثل الديك الرومي ، دون أية أسئلة أبدية مستعصية ، وكأنني في ذهول كامل. أستريح ، وأحلم بدجاجات روميات صغيرات ، يرتدين مآزر قصيرة . لقد حدث اتجاه لعوب العقل عندي .

– هذه هي بالذات عفوية الذهن ، ياعزيزي توليا .

– الآن ، سوف تشتمني أنت بصورة أشد وأقوى – قال ستيشوف بحزن . اشتم هذا الحيوان الماكر . أرجوك ، اشتمني .

– سأشتمك ، لكن ، علام ؟

– بعقلي الضعيف ، أنا أدرك أنه ، في جميع الحماقات ، علينا أن نضع الذنب على أنفسنا . اسمح لي أن أسأل : ممن ينتقم الفاشل ، التعيس الحظ ؟ من نفسه . إن الفاشل ، المتعثر الحظ ، هو مضجر ، أناني . أود أن أبدو . أمام نفسي على الأقل ، أكثر ذكاء . ان هذا الفاشل ، التعيس الحظ هو أنا . لأنني بهيمة ، ضعيف الإرادة . لم أستطع أن أرفض . ان أحمقنا التركي دعاني اليوم في الثامنة صباحاً ، وقد احمر طيلة نصف ساعة ، بحيث كان من الممكن إشعال سيجارة من احمراره الشديد ، وكان يستميلني ويقنعني ، وهو يشمر عن ساعديه ، وأخذ يشخر ، حتى كاد أن يبكي وينوح . . .

– عم تتحدث ، ماذا في الأمر ؟

– كي أكون أكثر ذكاء ، أجب في البداية ، عن سؤالي الثاني ، ومن ثم أمسكني من رقبتي ، واطردني كالكلب . . . فياتشيسلاف ،

قل لي ، هل لديك رغبة بلقاء جون غريتشمار ؟ هذا الاسم ، بالطبع معروف لديك . . .

ـ ماذا يعني « رغبة بلقائه » ؟ ـ هز كريموف كتفيه بضجر ، دون أن يدرك السبب الذي دفع ستيشوف لهذا السؤال ، ولماذا ظهر اسم المخرج والمنتج الأمريكي جون غريتشمار ـ لقد التقيته مراراً في باريس ، وشربنا في الخمارات كثيراً من الويسكي . وهل هو في موسكو ؟

ـ لقد وصل أمس ، في طريق عودته من باريس إلى أمريكا . وهو مشتاق لك ، يريد أن يلتقيك أنت وحدك . ولا يعترف بأحد غيرك . قيل له في البداية ، أنك مريض ، وأعلن غريتشمار أنه سيبقى في موسكو إلى أن يلقاك . وعموماً ، الأحمق في ذعر هادىء ، وقد وصل إلى درجة الاحمرار الكامل ، ولمعرفته بعلاقتي الجيدة بك ، كاد أن يجثو على ركبتيه ، متضرعاً أن أقنعك بلقاء غريتشمار . بالمناسبة ، الاستوديو كله يتحدث عن الحوار الكبير الذي دار بينك وبين الأحمق . ياإلهي ، لقد التقى القطبان المتنافران . أتصور ، كيف كان يصرخ أحدكما على الآخر ، وكيف حطمتما المقاعد في المكتب .

ـ دار حديث شبه متأدب ، لبق ، لكن المقاعد لم يحطمها أحد . رغم أنه قد آن أوان تحطيمها ، ـ قال كريموف . ـ أتعرف ، أين تكمن السفالة ؟ يروق لبعض العاملين في الاستوديو ، لسبب ما ، وقوع أحد المشهورين في وضع معقد أو مربك . قل لي ، من أين تأتي الشماتة ؟ ربما تكون الشماتة حسداً مفرغاً ، مخففاً ، أصبح أقوى من الكراهية ؟ أنظر ، أترى هذا الرجل المشهور ، الممتليء بالمال ، كل يوم يتحمم

بالشمبانيا . ومن هو هذا المشهور ، لقد تبين أنه منحل ، عربيد ، لئيم قاتل ، فليذهب إلى الشيطان ، وليقضى على هذا الوغد ، كالديك المشوي ، حتى يعرف القوانين ، ويعرف كيف يتسلق على أجساد الناس ، حتى يعرف ذلك . . .

ـ أنه أمر يدعو للحسرة والأسف ـ قال ستيشوف ، مراقباً كيف كانت تتفرق الغيوم المدورة بين أغصان أشجار التفاح في زرقة عالية ، وتتلاشى كالدخان ـ للأسف ، أن الحالة الوسط كانت ، منذ أقدم العصور مناسبة ، سلسة ، منقادة ، ومأمونة . أما الموهبة ، فالقسم الأكبر من الناس يحسدون صاحبها ، غير أنهم يخشونها ويحبونها رغماً عنهم . يحبونها حاقدين . . . هل ستلتقيه يا فياتشيسلاف أم ؟ . . . بماذا تأمرني أن أكذب على الأحمق ؟ ـ سأل ستيشوف ، واستلقى قليلاً على المقعد ، وكأنه يتلذذ ، مصوباً وجهه نحو الهواء وأشعة الشمس التي تمر عبر الأغصان . كان شعره الأبيض الفضي ووضعيته الاتكالية يوحيان بالرفاهية ، بالاتزان الروحي الهادىء ، غير أن صوته كان يسمع هادئاً بصورة غير طبيعية . ـ يمكنني أن أنصحك بألا تزيد من حدة التوتر في علاقتك بيالابانوف . إنه موظف ، بيروقراطي ، خطير ، وأحمق خبيث ، زد على ذلك أنه يحب الانتقام وهذا أسوأ شيء فيه . أنا لا أريدك أن تكتسب في الاستوديو عدواً رقم واحد . وماحاجتك إلى هذه المسرات ؟

ـ فليذهب ، فليذهب بعيداً ، ثم أبعد ، كما في النادرة المعروفة ، ـ قال كريموف غاضباً ، وعندما رأى في الممشى مولوتشكوف يطير طيراناً من الشرفة على قدميه الخفيفتين ، حاملاً إبريق القهوة ، قال

مادحاً بصورة متصنعة ، حتى أنه طقطق أصابعه : ــ ياللهذا المنتج المهذب لدي ، إنه يظهر عند الضرورة . ياله من حدس مذهل .

ــ لاتغضب منه ، ــ قال ستيشوف بصورة وديعة ــ إنه رجل مأمور من جميع النواحي .

كان مولونشكوف يتألق نشاطاً وطاقة واستعداداً للخدمة ، ووضع إبريق القهوة دون أي صوت على الركيزة ، وقرب أنفه من إبريق القهوة ، ثم قال بسعادة العاشق :

ــ آه ، ياللهذه الرائحة العبقة الفراحة ، إنها تدير الرأس ، ويحلو الموت فيها : الآن ، سنشرب القهوة في هواء الحديقة الطلق ، كما قال فياتشيسلاف أندريفيتش آنفاً ، وكل شيء سيكون رائعاً وساحراً ــ وغض طرفه عن عيني كريموف المنفعلتين ، الثائرتين ، وهو يسكب القهوة ، التي ينبعث منها البخار ، في الفناجين ، ثم قال بصوت خافت بعد أن استرد أنفاسه : ــ فياتشيسلاف أندريفيتش ، لاتقتل الأمريكي غريتشمار ، إنه يطلبك أنت وحدك ، حتى أن بالابانوف لم يجرأ على القدوم إليك . . . وقد ضغط علي ، من أجل أن أعثر عليك ، بحيث أنني لا أعرف كيف أستطيع العودة إلى الاستوديو . إنني أتضرع إليك . . . تحدث إلى الرأسمالي . . . إن بالابانوف سيطردني إذا لم تلتقي الأمريكي . إنه مليونير على أية حال ، وهو يود إنتاج فيلم مشترك معنا . . .

ــ يكفي ، يكفي ، يا تيرنتي ، تظاهراً بمظهر البائس ! ــ قاطعه كريموف ــ إن رؤيتك متضرعاً تسرني إلى حد لايوصف . وتراودني شكوك ، بأنك ستبدأ قريباً بكتابة سيناريوهات مأساوية عاطفية عن حياة المنتجين . . . .

# الفصل العاشر

اسمع يا جون ، لن نتحدث الآن عن السينما العالمية . أعتقد ، أننا اغتبنا معاً ، في باريس ، جميع المخرجين في العالم . والأفضل ، قل لي ، كيف تعيش أمريكا . وتكلم بالروسية ، كما تقدر ، فستكون ممارسة عملية لك . وما هو صعب عليك ، سيترجمه أناتولي بتروفيتش ستيشوف ، صديقي . موافق ؟ هل لديك اقتراح آخر ؟

ـ أوه ، حسناً ، أستطيع التحدث قليلاً بالروسية . بالنسبة لأمريكا ، كل شيء على مايرام . أي ليس هناك من شيء على مايرام ، ومع ذلك فهو على مايرام. نيويورك لاتزال على ماهي عليه ، في مكانها ، وكذلك واشنطن . وأرى أن موسكو تقف بصورة مدوية . . . لا ، لا . . . كيف أقول ، تقف بصورة راسخة ، ثابتة . هل صحيح ما قلته يافياتشيسلاف ؟

ـ أعتقد أنه صحيح .

كانوا يجلسون في الهواء الطلق ، في مطعم الطابق الأخير من فندق « موسكفا » الشهير ، حيث كان الهواء يهب رطباً منعشاً حينا ، ودافئاً حينا آخر ، وكانت الشمس قد كوت قماش المظلات ، فغدت قبابها فوق الطاولات أكثر شفافية ورقة . ولكن هنا ، بالقرب من السماء ،

كان الجو أكثر انعاشاً منه في الشوارع ، الملأى بالضجيج البعيد ، المنبعث من الأسفل . فهناك ، في الضباب الشمسي ، في التألق القائظ ، كانت السيارات تتزحلق وتزحف وفق الخطوط المنقطة المدهونة ، فتتفرق حول الساحة الدائرية ، لتلتقي من جديد أمام ساحة مانييج ، أمام حديقة ألكسندروفسكي . وهناك ، بعيداً في الأسفل ، الممتلىء بالغبار ، كانت تتساقط شرارات سيارات الترولي والغاز الكثيف المنفوث ، وكان الحر لايطاق غالباً ، هناك على الأرض الأسفلتية ، حيث كانت حشود الناس تتحرك بكثافة النمل .

وكان جون غريتشمار ، وهو رجل كهل ، كبير الجثة ، عريض المنكبين ، كبير الصدر مثل رافعي الأثقال ، الذين هجروا الرياضة ( رغم أنه لم يمارس الرياضة مطلقاً ) ، كان يمسح وجهه السمين المغبر بمنديله ، بنظافة ، ويشرق قليلاً من الكونياك ، ويدخن سيجارة إثر أخرى ، مضيقاً عينيه بسبب الدخان ، وبسبب قطرات العرق المنحدرة على صدغيه . أما عيناه الصغيرتان الذكيتان ، الشبيهتان بكرزتين يانعتين فكانتا تنظران بحدة واستطلاع . لم يكن يلحظ على هيأته البدينة أثر كبير لإرهاق الصيف ، ولا لذبوله وكسله ، وهذا لم يدهش كريموف ، فقد عرف ، بعد لقاءاته معه في باريس ، قدرة غريتشمار الكبيرة على الجلد وتحمل المشروبات والأحاديث ، والجلوس خلف المنصة في البار ، وعرف قدرته على البقاء يقظاً طيلة الليل ، والظهور في الصباح منتعشاً ، نشيطاً ، وكأنه أخذ قسطاً كافياً من النوم والراحة ، مستعداً لمشاهدة عروض الأفلام ، والمناقشات ولتناول المشروبات الكحولية القوية .

ــ مثل هذا الحر الشيطاني . . . صحيح ما أقول ؟ ــ الخيالي في

موسكو ، — قال غريتشماو وهو يحرك منديله ، وضحك فبرزت أسنانه البيضاء الفتية المتناظرة بصورة مريبة . — مثل هذا الجو وانحباس الهواء يحدث في نيويورك . . . إنه جهنم « مع تجاوز الخطة الإنتاجية » . هكذا يقال عندكم ؟ نهاراً وليلاً ، إنه أشبه بيوم القيامة . . . إنها نهاية العالم تزحف علينا وعليكم . أليس كذلك ؟ سوف نراها يافياتشيسلاف . انجيل يوحنا .

— محتمل جداً — أجاب كريموف دون أن يكون متهيأً بشكل كاف للمزاح ، متذكراً في الوقت نفسه ، أن غريتشمار خال من الحساسية النزقة وسرعة الغضب ، ذلك الدفاع السطحي الذاتي عن الأنفة وعزة النفس ، التي اضطر كريموف للاصطدام بها ، أثناء مخالطته الأمريكيين . —أنا أعرف ،ياجون ، قدرتك على التلاعب بالألفاظ . لذلك أرجوك رجاءً حاراً : الفكاهة الشريرة أكثر دقة . في هذه الحالة تحدث بالانكليزية أين أنت أيها الإله ، وليس بالروسية ، حيث تنسى بعض الألوان . وإلا ، فكيف سأتبادل الشتائم معك ؟

— أوه ، بدأنا نتشاتم في باريس ، وأين النهاية ؟

— نكمل مشاتمتنا هنا ، في موسكو ، إذا ما سنحت الفرصة .

— الشتائم المقذعة ؟

— وهذه أيضاً .

وهنا ، أنزل ستيشوف رأسه إلى الأسفل ، مراقباً بانتباه متحفظ ، ومديناً بوضوح ، فظاظة عبارات الاثنين . كان يتأمل ، صامتاً ، راحة يده البيضاء الرقيقة الأنيقة التي أبدعت تكوينها الطبيعة ذاتها ، وكان

الزر على كم قميصه الأبيض يلمع مثل عين القطة ، ثم مد يده نحو قدح ماء بورجوم المعدني ، معبراً بوجهه النبيل ، الذي لايمكن النفاذ إلى غوره ، عن توتر لم يفهمه كريموف . أما مولوتشكوف ، الذي عاد لتوه من عند رئيس الخدم في الفندق ، فقد امتص بسرور ، بشامونته ، الشراب غير الكحولي مع البوذالة الذائبة فيه ( « أنا أعتذر ، أقوم بتنفيذ عملي . كما أنه محظور علي تناول المشروبات الروحية » ) ، وبمظهره المتواضع كله ، نشر وداعة مطمئنة لإنسان صغير ، يعي مكانه المناسب ، ويعرف أنه ليس من مرتبته التدخل في أحاديث الكبار . كان يعرف ، أن مهام كل إداري يحترم نفسه ، تكون محدودة في مثل هذه المواقف : العمل على تنشيط قوى المطعم الخفية ، من أجل توفير النظام الكامل والخدمة الممتازة على الطاولة من أجل ضيف أجنبي رفيع ، كما هو متعارف عليه عادة في روسيا .

« من أجل أي شيطان ، يجلس معي مولوتشكوف ؟ ـ لمعت هذه الفكرة فجأة ، في رأس كريموف ـ على الأغلب ، من أجل أن يخبر بالابانوف عن كيفية اللقاء ، وماذا حدث فيه » .

ـ تيرنتي ـ قال كريموف ساخطاً ، عازماً على القول بأنه ليس هنا ، وإنما في مجموعة التصوير ، قد اشتاقوا إلى قيادته الدقيقة ، ولكن على الفور ، أبعدته عن ذلك ، فكرة الوضع المتقاقل ، الذي نشأ في الاستوديو حول فيلمه ، وعندما رأى وجه مولوتشكوف المستكين ، الخنوع ، المستعد لتلبية أية رغبة يبديها كريموف حرفياً ، لم يقل شيئاً ، وتوجه نحو غريتشمار ، بلهجة أقرب إلى المزاح ، قائلاً : ـ قبل أن نبتعد عن المسألة الرئيسية ، ياجون ، هيا بنا نحدد حقيقة التاريخ المعاصر ،

رغم أنني أعرف ، أن التاريخ ليس ترجمة الحقيقة ولا سيرة له . . .
أم أن الحقيقة في الخمرة ؟ في صحتك . . .

رفع غريتشمار اصبعه ، تعبيراً عن فهمه ، وشرب جرعة من الكونياك ، ثم مسح العرق من على خديه السميكين دون أن يأكل شيئاً ، وسحب دخان سيجارته ونفثه ، وقد امتزج الدخان بضحكة لطيفة .

ــ الكونياك هو أيضاً حقيقة . ولكن . . . التاريخ من جديد ؟ هل أتحدث بالروسية ؟ لا ، سيكون حديثاً سيئاً . ليست لدي كلمات كافية . سأتكلم بالانكليزية . مستر ستيشوف ، ترجم من فضلك . ( هز ستيشوف رأسه باحترام ) التاريخ ليس سيرة الحقيقة ، بل سيرة الكذب ، أليس كذلك ؟ لا ؟ إن تاريخ أمريكا هو مأساة من الجرائم الإجبارية أو الجرائم فحسب ــ لافرق . كما هو تاريخ جميع البلدان : كثيراً ما أفكر ، ياصديقي فيانشيسلاف ، بأنه لن يجيبني أحد في العالم المعاصر ، فيما إذا كان هناك سجل تأريخي للأيام ، أم أن هذا كله خداع . وهل يعقل ، أن الله خدع الإنسان ، عندما منحه الحياة ؟ يصعب قول هذا باللغة الروسية ــ أضاف غريتشمار ، وصور صعوبة اللغة بحركة دائرية من سيجارته ــ عندما أتحدث بالروسية ، قد لا أصدق في التعبير عن المعنى . . . وما قولك أنت عن أمريكا ؟

ــ أجل ، لقد حولت الحديث بسرعة إلي . حسناً . ألايبدو لك ياجون أن الإنسان قد خدع الله الذي تؤمن به ؟ ــ قال كريموف وقد أخذته موجة من المقاومة ، واحتد بنار النقاش الذي كان يجلب له رضى الحماسة وراحتها ــ لاأريد الإساءة إلى مشاعرك الدينية ، ياجون ، ولكن هل الله ، الفاقد العقل ، قد ابتدع الإنسان ؟ ومنحه قدراً قليلاً من

الأخلاق والروح إلى درجة البخل ، وكثيراً من الجشع والغباء . وفي نهاية الأمر ، ففي عصرنا هذا ، سخر الشيطان من الله وخدعه ، كما سخر من الإنسان ، الكائن العاقل : لقد استل منه الروح ، وربما اشتراه ، واستبدله ، أنفهم ياجون ؟ ووضع له ، بدلاً من الروح ، أفخم جهاز تلفزيون ، وحبوب منع الحمل ، التي تضمن الحرية للفتيات والشباب الطيبين . . .

– وبعد ، تابع حديثك .

– أتابع . ان الحسد والكذب ، العبدين الحقيرين ، قد أصبحا سيدين ، حاكمين مسيطرين . والعالم كله تقريباً ، يسيره قدر ، قضاء مجهول : المصارف ، المافيا ، الساسة الدمى . أتعرف ، ماهو الرهيب في الأمر ؟ لقد أصبح الجهل الأمريكي وسلطة المال مشرِّعين منيعين لايقهران لـ « الموضة » والتقاليعات المختلفة ، وحدث انحطاط في الذوق العالمي . فمن المنتصر ؟ وماالذي انتصر ؟ البريق الرخيص والمواهب الغثة في سوق البيع . وارتقت إلى المنصة العليا البهرجة والبلادة والاباحية . الشيطان وحده يعرف ماذا يجري ، الفيلم الذي يصور كهنة الحب الشاذ ، من أفراد الجنس الواحد ، يشاهده ملايين الناس ، أما المثقفون فيبتهجون ويفرحون بجرأة الاباحية . فلتعش سودوم وغومور —* ، وليعش السيدان مازوخ ودوساد ** . أتذكر حفلة الرقص في باريس ،

* سودوم وغومور : مدينتان يهوديتان في فلسطين ، دمرتا بسبب فسق أهلهما ، كما جاء في التوراة – المترجم –

** مازوخ ( أو ماسوش ) ( ١٨٣٦ – ١٨٩٥ ) : كاتب نمساوي ، كان أول من وصف الانحراف الجنسي الذي يتلذذ فيه الفرد بما ينزل به من آلام ، وعرف هذا الانحراف فيما بعد بـ « المازوخية » أو الماسوكية – نسبة له .

دوساد : المركيز دوساد : كاتب فرنسي عاش في القرن الثامن عشر ، وكان أول من وصف جنون القسوة الجنسي ، والتلذذ بالقسوة ، وهو الانحراف الذي عرف فيما بعد بالسادية ، نسبة له . – المترجم –

حيث كانت الفتيات الفرنسيات يظهرن في فساتين من زي مارلين مونرو ، والشباب في قمصان قصيرة الأكمام ، رسم عليها وجه ألفيس بريسلي ، وكيف كانوا يرقصون كالأبالسة ، كالشياطين ، على أنغام الروك الأمريكية ذاتها ؟ إن نصف فتيات العالم كله ، يرتدي سراويل «الجينز» المضرة بالصحة من جميع النواحي ، عاقرات بذلك ، مؤخراتهن وأماكن الجلد الحساسة . انها «الموضة» العالمية ! انها لا تلقي بالاً إلى أطباء الأمراض البولية والنسائية .

— ليس بهذه الجلافة يا فياتشيسلاف - قال سيشوف هامساً . انك تستثير غضباً .

— وماذا علي أن أفعل -. أن ألثغ ، حسب ما يقتضيه البروتوكول ؟ إن ما يهمني هو رأي جون بهذا الخصوص ، وليس مااذا كان يريحه أن يصغي إلى ما أقوله .

— تكلم ، تابع . كلي إهتمام . لقد نكست أذني . هكذا يقولون ؟

— نعم يا جون . بعد الحرب ، فرضت أمريكا على العالم كله إيقاعها المالي المجنون ، وتفرض الآن جميع أعاجيب مدنيتها الأمريكية — الحساسة الوقحة ، الدعاية ، الإعلان ، البطاقات والملصقات الجميلة ، والجمالية الجذابة للقنابل الذرية . أولم تفكر أنت ، أن أمريكا تعلم الإنسان المادي العالمي ، الضيق التفكير ، على تقبل الحرب وكأنها خاصية ملازمة للحياة المعاصرة ؟ أتعرف لماذا ؟ لأنكم لم تمروا عبر أية معاناة ، ولا بقرش واحد . . . أناتولي ، ترجم إلى الانكليزية ، ولا بقرش واحد . . .

-- لا ، لاحاجة — صاح غريتشمار رافعاً يديه الكبيرتين — أبي كان تاجراً روسياً ، أنا أفهم . تكلم ! . . .

— كانت الحرب العالمية الثانية ، بالنسبة لأمريكا ، « أوبريت » مرحة ، عرضاً عسكرياً ، ولكن دون فتيات عاريات . والحق يقال . آنذاك ، كنتم أكثر تواضعاً . جئتم ، في نهاية المعارك ، على أصوات « المارش العسكري » . قتلاكم كانوا ثلاثمائة ألف وليس عشرين مليوناً . في حوادث الطرق والسيارات قتل عندكم أكثر مما قتل في الحرب . والشيء الخطير ياجون ، أن أمريكا تحمل الآن العالم دعارة الروح والكذب الكبير الذي يدعى بالمدنية العليا والحقيقة . أتفهم ماذا أقول ؟ أم نترجم إلى الانكليزية ؟ كثيرون ، ياجون ، يعيشون تحت شعار كارثة الإنسان التي تحملها هذه المدنية المزيفة ، أنت تفهمني ؟ لقد انحدر عصرنا وتهافت من لا أخلاقية غالبية العلماء . كل شيء يغدو بلامعنى ، يا جون ، عندما يصبح التقدم التقني لا أخلاقياً . إنه يخلق ويبدع من أجل أن يهدم ويدمر . . . إنه ضد الإنسان ، ويحول الروح الإنسانية إلى صحراء ، إلى قفر . أتريد أن أعبر بصورة أشد قهراً ؟ ان جميع الأزياء والصرعات الأمريكية في العمارة ، والموسيقا ، وفي الألبسة . . . وفي كل شيء ، حتى في الكوكاكولا — هي معسكر اعتقال يومي وعقلي ينتشر على العالم كله . على أية حال ، كثيرون يرغبون بمعسكر الاعتقال الأمريكي هذا . إن الإنسان المادي ، الضيق الأفق ، تغريه البهرجة ، والغلاف الجميل ، والمشابك والأزرار ، إنه إنسان يسهل خداعه . . أرأيت ، يا جون ، كيف تحدثت بنزق وغضب عن بلادك . ولكن ، ليذهب كل شيء إلى الشيطان ، فنحن ، أنا وأنت ، لسنا

دبلوماسيين ، ملزمين بأن نقول «أبداً» ، «مطلقاً» . ويهمني جداً ، أخيراً ، أن أعرف فكرتك عني . فهذا أمر يقلقني ، منذ خمسة عشر عاماً ، على الأقل . هيا ، اعترض ، أنا مستعد للإصغاء إليك . . .

واتكأ كريموف بمرفقيه على الطاولة ، متهيأ للإصغاء بانتباه ، وهو يبتسم بابتسامة ساخرة ودية ، وأسند ذقنه براحة كفه ، ثم تذكر فجأة على طريقة صاحب البيت المضيف وقال : « ولماذا نحن صاحين بصورة مخجلة ؟ وأين الضيافة الروسية ؟ » — وملأ الأقداح ، وبحركة مضيافة مازحة ، أشار إلى المائدة المفروشة بالمقبلات ، والمغطاة بظل خفيف من المظلة الشمسية .

بيد أن غريتشمار ، رجل يتقن تعاطي المشروبات الروحية ، وربما لهذا السبب ، أو بسبب الحر ، نكش مرة واحدة ، بالشوكة ودون شهية ، قطع سمك السلمون ، وأبعد الصحن ، وضيق ، بصمت ، عينيه الكرزيتين اللاذعتين بين جفنيه المنتفخين ، دون أن يترك قدح الكونياك من كفه الكبير المغطى بالشعر ، وابتسم كريموف ابتسامة ساخرة ، ملاحظاً ستيشوف الذي كان يمسح العرق عن جبينه ، وهو يراقب ، من بين أصابع يده ، غريتشمار ، بتوثب حساس . وكان يتراءى في نظرته اعتذار وحيرة على تلك الحدة المفرطة في الحديث ، التي اتبعها كريموف دون داع .

« كم نخشى نحن الإساءة إلى الضيف ، وبخاصة الأجنبي . أجل ، ياعزيزي توليا ، لا حدود لتهذيبنا وثقافتنا . ولكن ، هل هذا تهذيب ، وهل هذه ثقافة ، أم أننا لم نُخرِج العبد من أنفسنا ومن أعماقنا ؟ . . . » — فكر كريموف غاضباً ، ونظر إلى مولوتشكوف ( وهاهوذا خجول

آخر ! » ) ، الذي كان يحرك بتواضع كأس المرطبات بالقشة ، وقد احمر عظما وجنتيه ، واستدار طرفا فمه الضيق بابتسامة اعتذار .

احتسى غريتشمار جرعة من القدح ، وأخذ نفساً من السيجارة بصوت مسموع ، ثم قال بالانكليزية ببطيء وبصوت أجش :

— إن المدنية كلها — مؤامرة ضد الإنسان . ولكن ، لا يرتعش أحد من الناس أبداً ، عندما يفكر بمئات الألوف من العبيد الذين كان عليهم أن يهلكوا في الصحارى من أجل تشييد الأهرامات الملعونة . وما الغرض منها ؟ قبور للفراعنة ؟ إنه جنون مطبق . الإنسان دائماً رخيص الثمن . كيف يسمى هذا بالروسية ؟ . . . وحرك غريتشمار بتركيز حاجبيه الكثيفين ، متذكراً — ثمن قليل . . . قليل من المال . . . هكذا ؟ — ثم تابع بالانكليزية ببطيء وثبات : — ثمة بعض من أصحاب سلطة المالكين يريد أن تكون غرفة العمليات مكاناً وقدراً لجميع الشعوب . عملية صغيرة في المخ أو حقنة . وللمثقفين باديء ذي بدء . بعضهم يريد تحويل البشرية إلى أغبياء وربوتات . الإنسان في العالم المعاصر — لاشيء ، مجرد طنين متشامخ . وهذا الطنين المتشامخ يحتاج إليه الأقوياء في العالم ، من أجل استغفال ملايين البسطاء . لهذا ، يسيطر الكذب في العالم اليوم أكثر من أي وقت مضى . ولهذا كانت السياسة كذب باسم الحرية . وكانت الأزياء و « الموضة » كذب باسم الجمال . والفن ، في ثلثيه ، قذارة مسلية ، فلسفة فارغة وجنس . إن الحقيقة هي خادمة الأقوياء . اذن ، هي زيف ، يفتح أمامه جميع الأبواب دون طرق ، ويتحدث دون انقطاع عن الحرية ، وهذا ما تتوق إليه المواهب الضعيفة السطحية . هل حديثي مفهوم ، . . . مستر . . . مستر ستيشوف ؟

— تماماً . لقد ترجمت حديثك حرفاً بحرف تقريباً ، مستر غريتشمار — أجاب ستيشوف بانحناءة مهذبة من رأسه ذي الشعر الأشيب ، المفروق ، والمسرح أحسن تسريحة ، وتردد بوضوح ، ثم أضاف مصححاً : — بيد أنني شخصياً ، لم أفهم جيداً جملتك حول الحرية التي تتوق إليها المواهب السطحية . ماذا تعني ؟

طرق غريتشمار راحة كفه على جبينه ، بصورة مستوحية ، وقال :

— الإنسان الذكي حر دائماً . حتى عندما يكون وراء القضبان . الفكر ، الفكر . . . لكن الحرية تجعل السطحي والحكيم متساويين ، وينشأ الحسد والظلم في العلاقات . والحسد ينتج الحقد ، ولهذا ، فالحرية مزيفة . هذه مسلمة من كتاب العهد القديم ، مستر ستيشوف . بالنسبة لي . لقد أدركت ذلك قبل ثلاثين عاماً .

— ممكن جداً — تدخل كريموف . — لكن الحرية ضرورية لشيء أساس — لحالة الإنسان الطبيعية ، كي يجد الطريق نحو أخيه الإنسان . إن الطائر لايقدر على الطيران دون هواء .

— أوه ، فياتشيسلاف ، سنبدأ المشاتمة الآن بقوة . لقد تحدثت كما لو أنك شاعر . ليس بمقدور أية حرية أن تحطم جدران العزلة ، إنها عاجزة تماماً . فهي غير قادرة على وقف طاعون المدنية الزاحف على العالم كله . هناك الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . ولا وجود لليونان القديمة ولا وجود حتى لعيسى المسيح .

— ألم يخطر في ذهنك ، ياجون ، أن عيسى المسيح قد استنفذ ذاته ، خلال ألفي عام ؟ قد يكون هناك من ينتظر ملاكاً جديداً برمحه

الناري ؟ ويتوق لعقاب التوراة للإنسانية على جميع ذنوبها ؟ بهذه المناسبة ، سمعت بهذا العقاب في أمريكا عام ست وستين وتسعمائة وألف ، على لسان أستاذ الفلسفة في جامعة بيركلي .

— لاخير في الولايات المتحدة — قال غريتشمار متجهماً — ولا خير في روسيا ، لأنه ليس هناك تكفير بعد . إن تاريخ روسيا هو مأساة . فقد قضت الأقلية على العقل والموهبة . وخربت المعابد . كان الأب يقتل ابنه ، والابن أباه ، والزوجة تسلم زوجها إلى أيدي أعدائه ، والأخت تحقد على أختها ، والأخ على أخيه . لقد قضي . . . قضي تقريباً على روح الشعب الروسي . أصبح بلا دين . أنت تعرف ، يا فياتشيسلاف ، أنا أرثوذكسي . أبي كان تاجراً من المرتبة الأولى ، غريتشماروف ، روسي الأصل ، كان ملك الشاي في بطرسبورغ . انه رأسمالي وليس بروليتارياً بدون وسائل الانتاج . وقد غادر روسيا أثناء الثورة . وأمي ايرلندية . أما أنا ، فأعتبر نفسي أمريكي المولد ، روسي القومية . مفارقة ؟ لا ! وقد سيطرت الروح الروسية في أسرتنا حتى وفاة أبي . أنا حافظ سيء للتقاليد ، ولكن ، بالإضافة إلى عيسى المسيح ، كان هناك في طفولتي إلهان آخران — غوغول ودوستويفسكي . إنني أحب روسيا القديمة . أبحث فيها عن الحضارة الروسية ، غير أنني ، ألقى ، أكثر ما ألقاه ، الحضارة الأوروبية . ألقى حضارة ليست جيدة جداً ، ليست من النوع الأول . أنتم تقلدون أمريكا ، إلى حد كبير في الركض وراء الثروة . وسيظهر عندكم قريباً ، شعار « النجاح بأي ثمن » . بيد أن هذه ستكون محاولة لتكرار نجاح الغير . وهذا ، كمثل من يطير بأجنحة الغير ، أجنحة غريبة ، لايثق بها كل الثقة . ويتناقص العنصر الروسي بالتدريج عندكم يافياتشيسلاف .

— ماذا تقصد ؟

— الانكلوسكسونيون يعتنقون الفلسفة الكلوينية ، فلسفة النجاح والتوفيق الأرضية . أما روسيا ، فقد كانت قوية بحياتها الروحية . . .

— وأنت تعتقد ، أنه لا وجود لها ؟

— مازلت أنت موجوداً حتى الآن ، — قال غريتشمار وقهقه بصوت عال ، ثم رفع قدحه ومسه بشفتيه ، ثم أضاف قائلاً : وقليل من أمثالك ، الذين يتألمون لكل شيء . بيد أن الروح أخذت تستبدل بالنزعة العملية . إن الإنسان مهما كان جاهلاً ، فهو يعرف جيداً أن حذاءه ضيق على قدميه . إن أحذيتكم العصرية التي تعرضونها ، تضيق على أقدام الكثيرين ، لأن قياسها هجين ، مختلط : روسي — أوروبي — أمريكي . وهناك أيضاً نزعة عملية من إنتاج سوفييتي . . .

— أما أنا ، ياجون ، فأفكر بطريقة معاكسة : إن أحذية من صنع أمريكي تضيق على أقدام العالم كله . إنها أحذية ذات مظهر خارجي رائع ، لكنها من الداخل صنعت من جلد قاس لا تحتمله القدم . الأمريكي مائة بالمائة ، كما عرفت ذلك في الولايات المتحدة ، يعتبر نفسه نصير الديموقراطية وشهيدها : فهو مستعد لمساعدة الجميع في التخلص من الشيوعية . بيد أن هؤلاء الشهداء سرعان ما يغدون سفاحين . واعذرني لهذه اللهجة الحادة . . .

— فييتنام ؟ فييتنام الملعونة ! . . .

— ليست فييتنام وحدها . حسناً ، ليس هذا ما كنت أريد قوله . . . ليست هناك حقيقة شاملة وأبدية . فالعقل والمعرفة نسبيان . وسيأتي

حين ، ونتخلى عن كثير من الأشياء ، ونغير الكثير منها . هذا إذا ما استمرت الحياة على الأرض بالطبع . . . لكنني لا أريد تبرير أي شيء . فكل شيء يمكن تبريره . يمكن تبرير جميع أخطائنا . ومن الممكن إيجاد آلاف البراهين من أجل تبريرها . هذا أعرفه جيداً .

— انني على شك ، يافياتشيسلاف ، أن الحياة ستستمر . ولكن هل سيكون بعث ، كما قال عيسى المسيح ؟

— مايزال بالامكان وقف الكارثة ؟ ياجون . مايزال ذلك ممكناً . . . وقد آن لنا جميعاً ، أن نقدس الطبيعة التي شوهناها ، وزيفناها ، واغتصبناها من أجل منافع آنية . وانقاذ الطبيعة يعني انقاذ أنفسنا وضميرنا .

— كيف ؟ كيف يمكن إيقاف العصر التكنولوجي ؟ وهل تتوقف أمريكا ؟ وهل يتوقف الاتحاد السوفييتي ؟ واليابان ؟ والألمان الغربيون ؟ هذا مستحيل ، يافياتشيسلاف ، أنت تتخيل .لقد بلغ القطار السريع سرعته القصوى ، والناس في عرباته يمرحون ، يشربون الكونياك ، كما نفعل أنا وأنت ، أما قائد القطار فقد فقد عقله ، لاوجود للمكابح ، ليست هناك فرامل ، ونحن نشرب ونعرف أن أمامنا الهلاك ، الهاوية . . .

— لاأود أن يحل الهلاك بهذه الأرض الرائعة . على أية حال ، أنت إنسان متوقد الذهن ، مرهف العقل ، ياجون . وحدة ذهنك الشرير هي انجيل الحقد والكراهية لهذه المدنية الخاطئة . ولكن ، لايحق لنا ، أنا وأنت ، أن نحقد ، ولو كان حقدنا مقدساً . أتعرف على وجه الدقة ، هل يحق للفنان أن يطرح تقديرات مؤكدة لاجدال فيها . . . وأن يحكم على الحياة ؟ على الأرجح ، علينا نحن أن ندرك ، ونتأسف . الناس جميعاً ينتظرون شيئاً ما ، وفي الوقت نفسه ، هم مصابون بعدم

القدرة على الإنتظار . علينا أن نبحث في العالم عن الروح التي فقدها الإنسان ، في سعيه إلى العيش حياة سهلة . وبالتحديد ، لقد فقد الإنسان الروح . بيد أنه ليست هناك حياة سهلة ، ثمة فقط موت سهل . . .

— فياتشيسلاف ، لنسترح قليلاً ، لقد سئمت الترجمة . اسمح لي . . . وأنت أيضاً تعبت .

« نعم ، لقد تعبت . عم كنا نتحدث ؟ وماذا يعطينا هذا التفلسف العقيم ؟ إنه تفلسف فارغ لمخرجين ، جمع بينهما رفض جنون المدنية وخداعها ، — قرر كريموف ملاحظاً بصورة خاطفة عيني ستيشوف الزرقاوين القلقتين المصوبتين نحو وجهه . — ثانية عن معنى الحياة ؟ أمر سخيف ! غالبية الناس تعيش ، دون تقرير هذه المسائل . ليس ثمة معنى واحداً للحياة : فالناس ليسوا متكافئين من حيث العقل والعاطفة . ووحدة الفكر مستحيلة . بيد أنه ثمة ذهان السخافة والقسوة . فأي كائن رهيب ، هذا الإنسان ، إذا كان يعذب أمثاله واخوته ؟ هل قلت — الشفقة ؟ أن ندرك ونتأسف ؟ أن لانحكم على الحياة ؟ ان هذا أشبه بالخيانة ، أيها المحترم فياتشيسلاف أندريفيتش . وهل أناقض نفسي بنفسي ؟ أين الحقيقة — في الوسط ؟ لا . أبداً . أظن أن ستيشوف قال ذات مرة في المجلس الفني : « أتريدون وحدة فكر المخرجين ؟ تفضلوا . إنها في أروقة الاستوديو شيء ، بينما هي على المنبر شيء آخر تماماً . نحن مربون جداً ، ومهذبون أكثر من اللازم ، كي يقول أحدنا الحقيقة للآخر في عينيه » . ولكن ، لماذا ينظر عزيزي ستيشوف ، الإنسان المهذب ، هذه النظرة إلي ، ولماذا أنا متكدر إلى هذه الدرجة ؟ عزيزي أناتولي ، أنت تخشى صراحتي وصدقي أمام الأجنبي ؟ وماهو

الشيء المثير ، فيما قلته ؟ أجل ، نحن حذرون أكثر مما ينبغي . . . إلى حد القرف . ولكن ، لماذا أشعر بهذا الذهول والغرابة والحرج ؟ . . . » .

على شرفة المطعم المكشوفة ، حمي كل شيء إلى درجة الاحتراق ، وكان يفوح من كل شيء فتور يوم تموزي قائظ ، حتى أن الحر كان شديداً تحت ظل المظلات الشمسية الواقية . وكانت تفوح من قماش المظلة الساخن فوق رؤوسهم ، بتأثير الشمس ، رائحة جافة مزعجة . كان يشعر كريموف بالاختناق والحر ، رغم أنه خلع سترته ، وفك ياقة قميصه ، وأرخى ربطة عنقه ، دون أن يفهم أبداً لماذا ارتدى ربطة العنق اليوم . وكان يتذكر ، في حفلات الاستقبال في باريس ، أن غريتشمار كان لايحب التأنق في اللباس ، ويتردد إلى حفلات الكوكتيل بالاستخفاف البوهيمي لشخصية شهيرة ، مرتدياً قمصاناً خفيفة ، غير رسمية ، مفكوكة الأزرار عند رقبته السمينة .

أما غريتشمار ، فقد كان يصغي إليه بانتباه ، وقد تحرك حاجباه العريضان بصورة مشعثة ، معبرين عن الموافقة أو عدمها ، وكانت عيناه البنيتان تضيقان في كل لحظة ، مشعتين بسخرية قاتلة لعقل خبيث ، منبسطتين تارة ، كانتا تضيئان ، بشيء من الرقة ، عندما كانت فكرة كريموف تطابق فكرته . وكلما زاد حديثهما حدة ، وكلما ابتعدا أكثر عن المسائل البسيطة إلى القضايا المعقدة ، كلما زاد إحساس كريموف بالألم — وضغط الضجر الحزين على عنقه . كان يخشى أن يسأل نفسه بثبات : ماذا حصل له ، وماهذا الذي أخذ يتكرر عنده ، بعد تلك الأزمة النفسية التي أصابته في الفندق الباريسي ؟ — كان يخشى أن يعرف عن حالته أكثر مما يجب ، لأنه لم يصب بأي مرض جدي

خلال السنوات الأخيرة . وظهر من جديد ، قلق وقشعريرة من اليأس والقنوط ( « الأعصاب ارتعشت ، وقاومت ثم استسلمت » ) عندما تذكر ذلك الرجل الذي يعرفه عن قرب في آخر ردهة الفندق ، وقد كان الوحيد بين جميع الذين ارتدوا ثياباً رسمية ، وحلقوا ذقونهم بعناية ، وكانوا يدخنون ، ويتحدثون بلا اكتراث ولا مبالاة قبل مشاهدة أفلام المشاهير — هو وحده كان يذكر ويشعر على صدغيه ، ببرودة الشعر الملتصق الذي تفوح منه رائحة الطمي النهري ، المختلطة برائحة الموت اللوزية ، ورأى الرموش الرطبة نصف الملتصقة ، التي كانت تسمح بمرور بريق العينين الخافت . لقد أراد أن يمسح — ولم يمسح — الصبغة التي سالت على وجنتيها من رموشها ، والتي كانت شبيهة بآثار الدموع السوداء ، التي أذهلته بضعف طفولي غريب . .

حاول ألا يتذكر تفاصيل ذلك اليوم ، بيد أن ما حدث بالأمس القريب قد انغرز ألماً متكرراً في قلبه ، وعجزاً آثماً ، وشفقة — وهذا الاختناق المفاجيء للدموع العاجزة عن الانسكاب قد حبس أنفاسه . وعندها بدت له الكلمات الرنانة والأفلام والأحاديث عن الجمال ثرثرة فارغة بلامعنى ، وبدا له ، أن العالم لم يكن عادلاً تجاه تلك الفتاة الطاهرة الموهوبة . « اسمع ، يافياتشيسلاف أندريفيتش ، أية كلمات رائعة هذه : « الفرح هو قضية الحياة وغرضها » ، — كان صوتها الممدود يتردد على مسامعه ، صوتها الذي كرر هذه العبارة في إحدى الأمسيات عندما قدم إليها في حي أوردينكا . ولسبب ما ، كان كريموف واثقاً في تلك اللحظات من أن الشقاء ليس عارضاً ، بيد أنه لم يستطع أن يصدق ، بأنها خرجت من « قصد الفرح » ، بمحض إرادتها .

وعندما قال لغريتشمار عبارة « لاوجود للحياة السهلة ، بل هناك موت سهل » ، لاحظ كريموف نظرة ستيشوف القلقة المحذرة . ولقلق صديقه الصامت ، البارد بصورة أريستوقراطية ، والشديد الاحترام نحو الجميع ، والذي لم يصطدم أبداً مع أي إنسان ، شعر كريموف بانزعاج منه ، بلاسبب .

« ياملاكي الحارس ، ذا العينين الزرقاوين ! لماذا تنظر إلي بهذا القلق الحزين ؟ » — أراد كريموف أن يقول ساخراً ، متنبئاً بما أقلق أناتولي بتروفيتش ، بيد أنه خاف فجأة ، على نحو غير رجولي ، من ألم في قلبه ، ومن دموع ارتفعت إلى حنجرته وتوقفت ( وهذا لم يحدث له من قبل أبداً ) ، بحيث أنه قال بصعوبة ، أخيراً ، بصوت مزيف :

— يكفي ، انتهت المناظرة الدولية ، وقيلت كلمات ذكية حكيمة . جميع الحقائق المنشودة أصبحت في متناول أيدينا . لهذا ننهي شرب الكونياك في هذا المكان ، ونتناول قهوة مركزة للخاتمة السعيدة . ونبدأ بالتفكير بكيفية العيش لاحقاً ، في ظل هذه المدنية الفاخرة ، وماذا علينا أن نفعل . . .

ترددت جملته الأخيرة بجشة مبهمة ، بصوت متقطع . وبعد أن بلع ريقه ، سعل بمرح ومسح صدره من العرق ، ورفع قدحاً ، متجهاً إلى غريتشمار ، وأكمل حديثه بصوت عال ، شديد الارتفاع :

— نخبك يا جون . بالمناسبة ، مارأيك أن تذهب اليوم إلى مسرح البولشوي ؟ مارأيك ؟

أخذ غريتشمار يتنفس مخرخراً بضجيج ، طارحاً الدخان من منخري أنفه الكبير ، وبدا وكأنه ينظر بريبة متسائلة إلى عيني كريموف ،

وإلى يده التي تمسح العرق من صدره ، وبعد فترة من الصمت ، سأله بالروسية :

ـ أنت منحرف الصحة قليلاً ؟ . . . أنت متعب ؟ قلبك يوجعك ؟ أذكر أنك كنت تبتلع الحبوب في باريس . . .

ـ الحياة صراع مع حتمية الموت . وقد جاء في التوراة ، أن الإنسان يولد للمعاناة . أنا في حالة صحية ممتازة . ومارأيك أنت بالذهاب إلى مسرح البولشوي ؟

ـ لماذا تمزح هذا المزاح ؟ ـ قال ستيشوف بتأنيب حزين ، متضرعاً بنظرته إلى كريموف ، ومفرقشاً بأصابعه ـ أنت لم تشرب كثيراً إلى هذا الحد ، غير أن الارهاق باد عليك بوضوح . . . لست على ما يرام أبداً . . .

ـ سامحني أرجوك ، يا أناتولي ، لقد مزحت بصورة غير موفقة ، فأنا مازلت خاضعاً لتأثير العبارات الفخمة والسامية ، ـ قال كريموف منتعشاً ، وغمز بعينه على الفور ، وشرب مابقي في قدحه من الكونياك ، ثم حث غريتشمار على الاسراع بود وخشونة : ـ هات ماعندك ، اقترح البرنامج الذي تريده ، أنا اليوم دليلك .

تأوه غريتشمار ، وأشار باصبعه الكبير ، الذي يشبه المقانق الغليظ ، طالباً الانتباه ، ثم كرع مافي قدحه حتى الثمالة ، وقلبه رأساً على عقب ، وهزه فوق الطاولة ، مبيناً أنه أصبح خالياً من أي قطرة ، وقال بتؤدة وتأن :

ـ قدحي . . . العزيز . . . أشكركم على حسن الضيافة . هكذا يقال بالروسية ؟

— تماماً ، ياجون . إن لفظك رائع باللغة الروسية . كم أتمنى أن أنطق الانكليزية على هذا النحو .

وبعد أن ضحك ضحكة صامتة ، حرك غريتشمار اصبعه — وكانت هذه عادة عنده كما يبدو — وتحدث بصورة مؤتمنة ، بحيرة إنسان لم برغب بالحياء والخجل وسط هذه الجماعة .

— يقال عندكم ، اذهب إلى مسرح البولشوي ، ويقولون في باريس ، اذهب إلى فولي بيرجي ، إلى ليدو . صحيح أنه يمكن هناك تناول قدح من المشروبات على نحو رائع . لكنني لاأحب مسرح الأوبرا . لايمكن للأفكار أن تغني وترقص . إنني أجلس ، أشاهد ، ويسيطر علي ضحك سخيف ، عندما يعانون ويتألمون على خشبة المسرح . بيد أنه من غير اللائق أن يقهقه الأجنبي في المسرح . وهل تحب مسرح الأوبرا أنت يا فياتشيسلاف ؟

— لست مغرماً به إلى هذا الحد ، ولا أكرهه إلى تلك الدرجة . إن همي هو تأمين بطاقة لك ، ولكن لن أذهب معك إلى المسرح ، وأنت تفهمني . انني أشعر بانزعاج شديد ، عندما تتمايل الديكورات وتتراقص ، وينفتح شارب أمام الدون بازيليو في لحظة البطولة .

« علام ، لماذا أتحدث على هذا النحو ؟ أجل ، أجل ، سينتهي الآن كل شيء ، وأشعر بتحسن . أي حنين هذا ! . . . هل أشرب الكونياك ثانية ؟ وأتذكر طرفة من الطرائف ؟ إنه أمر غريب — ليست لدي ذاكرة لحفظ الطرائف والنوادر . أجل إنه رجل مثير غريتشمار هذا ، غريتشمار . . . ولكن لماذا ينظر إلي على هذا النحو ، بجد وإصرار ؟

— فياتشيسلاف ، أنا لم آت إلى موسكو من أجل المسرح ، ولم أفد سائحاً . لدي موضوع هام بالنسبة لك . يجب أن أناقش فكرة معك . لدي هدف . . . أريد أن أدعوك . . . باللغة الروسية أدعوك ، أليس كذلك ؟ . . . أدعوك لتقوم بالاخراج . . . لا ، أدعوك لاخراج فيلم . لدي سيناريو جيد ، ويلزمني ذهنك .

— هكذا اذن ، ياجون ! . . . — صاح كريموف بدهشة مغالية . — أنت تدعوني إلى هوليود ؟ لماذا لم تحدثني عن هذا الأمر في باريس ؟ هناك كان من الأسهل معالجة هذه المسألة في مزاج غير مكترث .

— أنا منتج ، ولا يمكنني رمي عدة ملايين في المرحاض . لقد جئت إلى موسكو بصورة رسمية .

« آه ، أية أعاجيب تحدث في هذا العالم ! هذا طبعاً ، أمر لم أتوقعه . لقد شاهد جون فيلمي « الحرب غير المعلنة » ، وبعد أن فكر في الأمر ، وضع عينه علي ، كما يقول الأمريكيون » .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنت موهبة رائعة — قال مولوتشكوف باستعطاف وهو يمضغ « السندويش » بهدوء ، وقد برزت بقع بنفسجية على عظمي وجنتيه — كم هذا رائع ، أن تخرج فيلماً في أمريكا . هناك ستحظى بالشهرة العالمية . . .

— فلتذهب إلى الشيطان أنت والشهرة العالمية — قال كريموف بفظاظة ، وفجأة ابتهج وسيطر عليه المرح — أنا أحب الحكايات والأساطير لكنني لاأؤمن بها .

—إن هوليود لاتحوي الأشياء السيئة والحكايات والخرافات فحسب. لقد صورت أربعة أفلام هناك . وأنا لست أسوأ مخرج .

— وهذا ما أردت قوله ، لديكم فائض من مخرجينكم الأمريكيين ، الذين سيلتهمونني بأحشائي ، باعتباري منافساً ، حالما أظهر هناك ، بقواعدي وأنظمي في دير غريب .

—هذا الفيلم يحتاج إلى مخرج روسي ، إليك أنت ، أنت ياكريموف ، كرر غريتشمار باصرار — يجب أن أتحدث إليك بالروسية ،« رأساً لرأس » . تعال نخرج من هذا المطعم اللذيذ جداً . لنتمشى سيراً على الأقدام ، هكذا يقال ، أجل ؟ ونتحدث عن السيناريو . ولن نتعب معنا مستر ستيشوف . سوف أتعب نفسي أنا وأتحدث بالروسية . شكراً جزيلاً . هكذا ، اتفقنا ؟ .

— الشكر متبادل — أجاب ستيشوف وشكره بابتسامة .

— ماذا ، لننهض — قال كريموف ، وقدم نقوداً لمولوتشكوف ، لسبب ما ، بصورة مهذبة وماهرة ، مغطياً إياها براحة كفه على الطاولة ، وكأنها بطاقة مخجلة . — ادفع الحساب من فضلك ، ياتيرنتي . ماذا بك ، تريد الإمساك بسيارة أجرة ؟ — قال متهكماً — دع السيارة لنا . أما أناتولي بتروفيتش ، فأوصله إلى بيته بسيارة أجرة .

نهضوا وساروا باتجاه المصعد الكهربائي ، أمام مظلات المطعم الذي خلا تماماً من الزبائن ، بين خطوط أشعة الشمس القائظة بين الطاولات ، التي كان بعضها مغطى بأغطية بيضاء ناصعة ، وعليها أطقم الملاعق والشوك الفضية . وسمع من الأسفل صوت الضجة الكبيرة

المنبعثة من الشوارع . وقد انزعج كريموف الآن من رؤية زرقة السماء فوق سطوح المنازل ، المعكرة بأبخرة المدينة الكبيرة ، ومن رؤية البزة السوداء الصارمة لكبير الندل في الفندق ، ومن رؤية مجموعة من الندل الشباب ، الذين مشطوا شعورهم بأناقة ، وتجمعوا أمام البار ، وهم يودعون بأعينهم باحترام ، الضيف الأجنبي الكبير الجثة ، الذي يشبه صخرة جامدة .

* * *

# الفصل الحادي عشر

كانت الشمس لاتزال في قبة السماء ، لكنها بدأت تميل إلى الغروب ، عندما خرجا من السيارة ، بعد تنقلات طويلة في موسكو ، وبعد تناول كوكتيل خفيف في دار السينما ، وتناول المرطبات في شارع غوركي . خرجا من السيارة عند هضاب لينين « لينينسكيي غوري » ، واقتربا من ساحة الشرفة المطلة ، التي طلب منه غريتشمار أن يقوده إليها .

هنا ، كان سياح أجانب ، بسراويلهم القصيرة ، يقفون ويجلسون على الحاجز الحجري الغرانيتي ، مثل جماعة صاخبة ، وقد رموا تحت أقدامهم حقائب السفر . وبالقرب منهم ، كان عروسان يلتقطان الصور التذكارية ، وقد أحاط بهما الأصدقاء ، الذين كانوا يترجلون من السيارات . ضحك العروسان وتسمرا بأمل خالد ، مغرور ، بأن تبقى إلى الأبد هذه اللحظة المنقضية على الصورة اللامعة . كانت العروس ترتب على عجل ثنايا ثوبها على خصرها المكتنز ، ناظرة إلى طرفي حذائها اللذين كانا يبرزان قليلاً من تحت فستانها الأبيض الطويل ، وهي ترفع بايعاز من المصور ، وجهها البسيط الذي شوهته ضحكة لالزوم لها ، مدخلة يدها تحت كوع عريسها الشاب الأسمر ، ذي الشاربين المتغندرين

القصيرين . وتساءل كريموف في نفسه ، كم هما بعيدان ، هذان العروسان ، اللذان ينتظران أعجوبة جمالهما على الصورة ، وكم بعيدون ، هؤلاء السياح القادمون إلى بلد غريب، ببطاقات اشتروها ، بحثاً عن ملذات البصر — كم هم بعيدون، هؤلاء جميعاً عن كل ماكان يتناقش حوله مع غريتشمار ، وهو الذي ليس له أدنى أهمية بالنسبة للآخرين ، بالنسبة لغالبية الناس الذين يعملون ببساطة ، بعرق جبينهم ، ويعيشون حياة بسيطة ، دون أية أفكار أو آلام زائدة ، يعيشون بسعادة، ربما ، مثل نبات معافى تحت قبة السماء .

« حقاً ، يمكن العيش باطمئنان ، دون طرح أية أسئلة ، والإهتمام بالقوت الضروري فقط . مثلما تعيش مئات الملايين من الناس » — أخذ يوحي كريموف لنفسه ، ولحزنه على نفسه ، قال لغريتشمار الذي كان ينظر شزراً ، بفضول ، إلى العروسين :

— عندما عدت من أمريكا ، كان يطرح علي دائماً هذا السؤال : ماالذي أعجبك هناك أكثر من أي شيء آخر ؟ وكنت أغمغم مفكراً ، ماهو الذي أعجبني فعلاً . أما الصحفيون الشباب الأذكياء ، العارفون ماهو المطلوب ، فكانوا هم أنفسهم يوحون إلي : الشعب ، كما يجيب الجميع إطلاقاً ، عند عودتهم من رحلاتهم إلى الخارج . لا ، ياجون ، أنا لم أشعر بالشعب الأمريكي ، رغم أنني حاولت التحدث إلى كل عابر سبيل ألقاه ، ماعدا سمة واحدة من سماته ، وهي السذاجة . . .

اقترب غريتشمار الذي كان يجر قدميه بتثاقل على الاسفلت ، من الحجر الغرانيتي ، وهو يتنفس بصعوبة ، واتكأ بمرفقيه على الحجر ، ثم أخرج من جيب سترته علبة السجاير ، ثم تمتم بصوت مبحوح :

ـ وأنت ، هل تعرف الروس . . . هل تعرف الشعب الروسي ؟

ـ أعرفه قليلاً ، لأنني حاربت . لكن هذا كان في الأربعينات . لا أحد يعرف شعبه حتى النهاية ، معرفة كاملة . ولم يعرفه سقراط ولا تولستوي ، تماماً كالكون الذي لا يمكننا معرفته . بيد أن السذاجه ليست من سمات الروس . الثقة ، وسرعة التصديق – نعم هي سمة مميزة لهم . ولكن ليس السذاجة . أنا أتحدث عنك ياجون ، وعن السيناريو الذي حدثتني عنه . لن أستطيع إخراج فيلمك .

ـ لماذا ، قل لي ؟

ـ أنت لم تختر المخرج المطلوب . أتريد مني أن أخرج فيلماً عن يوم القيامة ؟ لن أتمكن من ذلك .

لاك غريُتشمار السيجارة في فمه ، وكانت نظرته تنزلق بكآبة ونهم على الظلال المتكسرة لموسكو القابعة في الأسفل ، في ضباب ما قبل الغروب ، على رؤوس الأبنية الشاهقة البعيدة ، التي تشبه رؤوس المعابد ، والتي كانت تحمل شيئاً متخلفاً ، قوطياً ، على الدبوس الرمادي لبرج « أستانكينو » والأسطح الواقعة خلف الأفق ، على البقع الصفراء الباهتة لناطحات السحاب ، ذات الزوايا القائمة الرتيبة ، وعلى زجاج النوافذ الساطعة المتلألئة المواجهة للشمس ، وعلى القباب المذهبة لدير العذارى « نوفوديفيتشي » بأبراجه الصغيرة ، التي تشبه الدمى ، على ذلك الجانب من المنعطف المنحدر لنهر موسكو ، الذي أظلم ببرودة قبيل المساء المقترب ، حيث كانت تزحف ، بالقرب من دائرة الملعب الرياضي الكبير ، عربة الترام المائية مثل عجل أبيض ، مُنزلاً شاربيه في الماء ، نحو قنطرة الجسر الحديدية . ومن السطوح المتراكمة . من المدير المرتجف

لجسر المترو ، الذي كان يصل إلى الأذنين . والذي كان يخترقه القطار . من الضباب العاتم الكدر ، الذي ارتفع فوق الاسفلت المتسخن خلال النهار . من كثافة الغازات المنفوثة ، وبدا لكريموف وكأنه تدفقت من الأسفل ، من هذا الجسم الكبير ، الحي ، رائحة زيت دافئة من عرق الآليات ، كما تدفق إرهاق وضيق المدينة الكثيفة السكان ، التي أحبها منذ صغره ، ولم يعد يتعرفها في السنوات الأخيرة .

— كان والدي يقول : في موسكو أربعون أربعينات كنيسة — تمتم غريتشمار ، وحرك بتجهم حاجبيه الكثيفين — أين هذه الأعداد الهائلة من كنائس موسكو ؟ ناطحات سحاب . . . قداحات مؤلفة من عشرين طابقاً ، كما في فيلاديلفيا . لماذا هدم الروس المعابد ؟ لا يصح أن تضحك ، حيث ثمة سر . . . لا تفعل هكذا ، يافياتشيسلاف — قال بسخط ، منتقياً الكلمات ، وضارباً الحجر الغرانيتي بكفه — عليك أن تنتج الفيلم . عليك أن ترفع صوتك أمام العالم كله ، وتقول كلمتك المنتحرين الأغبياء ، الحمير المتغطرسين . الموضوع — هلاك الكوكب الأرضي . أناس تافهون حقراء أشعلوا الحرب النووية . الأرض كلها تحترق . النار ، النار في كل مكان ، ثم تصبح الأرض كلها حجراً متفحماً . ولم يبق من الأحياء سوى سلحفاة واحدة . سلحفاة وحيدة ، بائسة ، تزحف وحيدة نحو شاطيء المحيط . فترى الشمس الحمراء الكبيرة . . . في الأمام ، في الدخان . الشمس كأنها بقة منتفخة ، متورمة . والسلحفاة تزحف . تقترب من المحيط ، فاذا هو جاف ، فارغ . إنه ميت . . . هكذا يقال بالروسية ؟ حفرة هائلة ، عظيمة ، وعظام الأسماك . تنظر السلحفاة ، تنظر إلى المحيط الميت ، تنظر إلى الشمس . وتموت على حافة الحفرة . تتجمد عيناها والشمس تنطفيء .

— شيء لايدعو للمرح — قال كريموف مفكراً ، متصوراً بوضوح نهاية الفيلم هذه : شاطيء متفحم ، بصورة حزينة ، لمحيط جفت مياهه بتأثير النار النووية ، عين السلحفاة الجامدة ، الكامدة ، المغطاة بطبقة رقيقة ، مع نقطة حمراء ، في قرص الشمس ، تنطفيء تدريجياً . إنه مرعب ، مرعب . إنه مصير أسود لامخرج منه .

— الفيلم يجب أن يدعى « السلحفاة الأخيرة » . — قال غريتشمار متأوهاً ، ومسح بمنديله حاجبيه المقطبين وعينيه الرطبتين ، ثم وجنتيه المرتعشتين بألم ، ثم مخط بصورة دائرية وقال : — إنها القيامة . . . إنه يوم الحساب الرهيب بدون يسوع . هذا الفيلم يجب أن يكون . . . مثل صرخة أخيرة قبيل الموت . إنه عقاب الكذب والزيف والنقائص . عقاب البشرية الطائشة الرعناء . إن فيلمك « الحرب غير المعلنة » كان فيلماً مقلقاً جداً . إنه يعالج مشكلة البيئة الرهيبة . أما « السلحفاة » ، فهو فيلم يجب أن يصور رعب جهنم . يجب أن تسقط قلوب الجميع ، إنه الصدمة ، الموت ، هلاك المدنية والأرض البائسة ، وهلاك السياسة القذرة السيئة كلها . . . .

لفظ غريتشمار ، بعدة توقفات ، وبصوت متقطع ، الكلمات التي عثر عليها ، وتابع مسح وجهه ، دون عجل ، بمنديله ، وكأنه بهذه الحركة يكسب حديثه أهمية والحاحاً ثابتين . بيد أن كريموف رأى اضطرابه الأخرق ، وشاهد العرق على جفنيه المتورمين — فتذكر بوضوح فيلمه الأخير ، الذي عرض في مهرجان باريس . لقد هز هذا الفيلم كريموف بالمصير البائس التراجيدي للشخصية الإنسانية في نظام العالم الحالي ، الذي أدركه بطل الفيلم إدراكاً كاملاً ، بعد حادثة

السيارة ، حيث وقع بخطأ في مستشفى المجانين ، ووجد نفسه في هذا المستشفى ، الذي يديره أصحاب الأموال ، وجراحون لطفاء بزيف ورياء ، حيث يجعلون، في قاعات وغرف عمليات مريحة، من الناس المصابين باصابات بسيطة مرضى بأمراض مميتة ، لاأمل من شفائهم ، ومن المواهب الفائقة أشلاء بلا إرادة ، ومن الحقراء حكاماً وسلاطين . وينتهي الفيلم بوضع البطل على طاولة العمليات تحت همهمات جراح مجنون ، كاهن الزيف والرياء : « من يسامح ، من ينقذ ، من يشفي المدنية ! نحن . . . . » .

ــ أشكرك على هذا العرض يا جون ، ــ قال كريموف ، مرتجفاً من آثار وبقايا العالم المدمر ، المريعة المعروضة ، التي تمثل أقسى عقاب للبشرية الحية . ــ لقد ابتكرت فيلماً مروعاً ، بلا أفق ، ودون أي أمل . وأنا ، مع ذلك ، أحب الأرض ، لهذا لن أستطيع أن أكون جبريلاً ، يحمل سيفاً نارياً .

ــ شيء رهيب ، يا فياتشيسلاف ، أمر فظيع . ان الشر يبقى . . . بدون عقاب . . . ــ قال غريتشمار بصوت خافت وآسف ، وعقد جبينه ، باحثاً عن الكلمات اللازمة ــ وهل أنت واثق كل الثقة أنه يمكن تحقيق . . . لا . . . هكذا ؟ أجل ؟ ــ يمكن بلوغ المثل الأعلى للأخوة الإنسانية ؟ لا . بل وأسوأ .

ــ أجل ، انه أسوأ ــ أكد كريموف ــ غير أنني واثق بما يلي : يلزمنا الآن ، بطل ، يطرح على الناس المسائل والقضايا الأبدية حول كل داع أو سبب . كثيرون سوف يعتبرونه أبلهاً ، في البداية ، بيد أن هذه ليست مصيبة . ان دون كيشوت شخصية خالدة . لقد تزايد

واستشرى ، إلى حد مفرط ، عدد الأغبياء والمخادعين والمخربين ، والناس الصغار البيروقراطيين — من رئيس لجنة البناء وحتى الوزير ، الذين يسترشدون بمبدأ واحد : عش حياة سعيدة اليوم ، ولتغرق الدنيا من بعدنا . فيقطعون الغابات دون رحمة ، ويحولون الأنهار إلى ميازيب ، والسماء إلى ملقى للقاذورات . إنهم قتلة الأرض ، وقتلة كل كائن حي . هل لاحظت ، ياجون ، أنه لدى جميع هؤلاء الأشخاص ضيقي العقول ، في العالم ، عندنا وعندكم ، تعبير واحد في عيونهم ؟ اللامبالاة ، وعدم الاكتراث بكل شيء على وجه الأرض ، ماعدا الراحة والرفاهية لمؤخراتهم . ومن أجل هذه الغاية ، فهم مستعدون لبيع أراضيهم وبلادهم ، وأمتهم ، وخيانتها ، بل وبيع العالم كله وخيانته .

— دون كيشوت . . . أجل ، أنت . . . أنت تحلم بأنه يمكن تبديل الطبيعة البشرية .

— سأخذلك ، أنا لست دون كيشوتياً . أنا أعرف المسائل التي تقلقني . ولكن لاأعرف أجوبة دقيقة لها ، يا جون . أتفهم ؟ لهذا ، فأنا أشعر بالكآبة .

— وماهي الكآبة ؟

— الكآبة ؟ إنها الألم الذي ليس له موضع معين . أتفهم ؟

— أنا أعرف هذا . . . أعرفه جيداً .

وقفا على الساحة المطلة حوالي نصف ساعة ، بعيداً قليلاً عن السياح الذين كانوا يتوافدون ، ويغادرون من فترة لأخرى على سيارات الباص ، التي كانت تملأ الاسفلت بالغبار ، ثم هبطا على الدرج الحجري

الغرانيتي نحو كنيسة ترويتسكايا ، وسارا باتجاه الطرق الجديدة التي تقوم على طرفيها أشجار الزيزفون . وهنا ، على مقربة من الكنيسة ، خلف أسوار المقبرة القديمة المغلقة ، رأى كريموف بدهشة ، بين شواهد القبور التي نمت الأعشاب من حولها ، رجلاً ملتحياً ، يرتدي قميصاً مسبلاً فوق البنطال ، حافي القدمين ، كان يمشي على الممر الذي كانت تقطعه أشعة الشمس الساقطة من الأشجار ، مترنحاً ، ثملاً في تثاؤب مديد ، وخلفه ، وبتثاؤب متشنج ، كانت تنتقل بتراخ امرأة مكتنزة القدمين ، حاملة مخدة تحت ابطها ، وقد ارتدت ثوباً من القطن ، ورسمت بسرعة شارة الصليب أمام فمها * . انهما ، على الأغلب ( كما تصور كريموف ) حارس الكنيسة وزوجته . كانا يتنزهان في مكان ما تحت الأشجار . وشعر مباشرة ببرودة المخدة ، ودفء العشب النضر ، وحسد كريموف ، دون قصد ، غبطة الآخرين البريئة هذه ، وقال :

— أتعرف ، يا جون ، أي لذة ، أن يستلقي المرء على العشب وينام ؟ ألم تجربها ولا مرة ؟

— روس ، أجل ؟ إنها روس ** — قال غريتشمار ،وتوقف أمام السور محدقاً بعينيه الكرزيتين الحادتين بالرجل الملتحي ، الرازح تحت وطأة تشنجات التثاؤب . — كان أبي يقص علي . . . كان لديه عقار كبير . . في الأورال — قال غريتشمار ببطء — بالقرب من مدينة

* عادة يتبعها المتدينون ، وكبار السن في روسيا ، عند التثاؤب — المترجم —

** روس — الاسم القديم لأول دولة روسية للسلافيين الشرقيين ، تأسست على ضفاف نهر الدنيبر في القرن التاسع . — المترجم —

يكاتيرنبورغ ، تسمى عندكم الآن سفردلوفسك ، أجل ؟ هناك كان عنده عقار . حديقة واسعة كبيرة . كان هو ، أبي ، وجدي . . . يحبان النوم على الدريس . كان يقول ، بأنهم كانوا ينامون هناك في روسيا ، تحت أعين الله . وكان يقول . . . عندما كانت تطل نجمة الليل من النافذة، في البيت ، كانت تغدو روحي أكثر ثراء — وضرب غريتشمار صدره باصبعه — انه كان يعرف روسيا ، كثيراً ، معرفة مثالية . . .

— عفواً ، يا جون — قال كريموف بحزم جامح — لم يعرف أحد ولا يعرف روس ولا روسيا بصورة مثالية . حتى ليف تولستوي . لا وجود لروس الآن . أما روسيا فهي بلاد المفاجآت . وليس هناك من بلد آخر مثلها في الطبيعة . وإذا كان هناك من سينقذ المدنية الضالة ، التائهة ، فهي أيضاً روسيا . كما حصل في الحرب العالمية الثانية . كيف ؟ لا أدري . وبعد كم من السنين — لاأدري . وبأية تضحيات — لاأعرف . ولكن ، ربما ، قد يتمثل فيها ضمير العالم كله . ربما ، لم تُعطَ أمريكا مثل هذه الميزة . فقد فسدت روحها تماماً ، ووقعت حلفاً كاملاً مع الشيطان . . .

وصمت كريموف ، ثم قال بضجر «آه» — وتأبط ذراع غريتشمار ، داعياً إياه بهذه الآهة ، إلى السير بصمت على هذا الطريق المشجر ، واستنشاق الهواء العذب .

غير أن غريتشمار كان يقف بحيرة وارتباك أمام سور المقبرة ، ناظراً إلى القباب الخضراء المترائية بين الأشجار لكنيسة قريبة ، حيث

كانت تزقزق العصافير على امتداد قبة الأجراس ، وكانت الحمائم تمشي على الافريز الحديدي ، وهي تطرق بمخالبها .

— أريد أن أذهب إلى هناك — قال غريتشمار .

دخلا إلى الكنيسة الصغيرة ، الهادئة ، التي تفوح بالشموع الدافئة ، والتي تضيئها من الأعلى أعمدة الشمس المائلة . لهذا كانت نيران الشموع المشعلة أمام الايقونات القائمة تحترق على شكل جزيرات باهتة . ما إن دخلا ، حتى رفع غريتشمار نظره بخفر إلى القبة ، ورسم شارة الصليب بغيرة وحرارة ، وقد دهش كريموف من التبدل الخاطف المفاجىء ، الذي حدث على وجه غريتشمار المكتنز ،وفي كتفيه الثقيلين المحدودبين . كان هذا تعبيراً غير مألوف ، تعبيراً جديداً عن الخطيئة المستسلمة الخاضعة ، تشبه الخطيئة المتعمدة المصطنعة ، في هيئة غريتشمار الشبيهة بالصخرة الجامدة . أما هو ، فقد أمسك أنفاسه ، وتحرك دون ضجة إلى مكان ما ، في الزاوية ، إلى اليسار من المذبح ، في الظلام الذي تبدده الشموع . وهناك وقف بصورة خرقاء ، على طريقة الثور ، وقف أمام الأيقونة على ركبة واحدة ، ثم على الركبة الأخرى ، وتحركت يده اليمنى ، لترسم صليباً واسعاً كبيراً على صدره ، وكان رأسه يرتفع وينخفض في الركوع والسجود . أما كريموف ، الذي لم ينتظر هذا من غريتشمار القاسي ، الذي لا يعرف التسامح في أفلامه القاسية ، فقد أشاح بوجهه عنه ، مصدوماً من التصنع واللاطبيعية ، وكأنه كان مرغماً على مشاهدة إنسان يعرفه معرفة قريبة ، ويعرف أنه يخدعه على مرأى منه .

« وماذا أفعل أنا ؟ — امتعض كريموف من مشاعره الجارحة —

ولماذا أشك بصدق إيمانه ؟ ومن أعطاني هذا الحق ؟ لأنه لاينسجم مع أفلامه ؟ مع آرائه ؟ وأين على وجه التحديد ، أين أرى الخداع والتناقض ؟ وأين هو حقي السامي بأن أدينه وأحكم عليه ؟ كم ألفنا نحن ، أن نعتبر أنفسنا مثاليين أمام العالم كله ، متميزين خالين من العيوب ! أما هو ، فقد أخرج فيلمين من أقوى الأفلام ، برز فيهما ذلك الألم الإنساني الكبير . من المستبعد جداً أن يستطيع مخرج آخر التعبير عنه بمثل هذه القوة . . . » .

ولنفوره من إنسان ثان متكبر في ذاته ، تربى منذ طفولته على وعي التفوق الأخلاقي الواثق ، والذي عاش في بعد ملائكي كامل عن الخطيئة ، يعرف كل شيء ويدركه إدراكاً دقيقاً ، ارتجف كريموف من الخجل ، ونظر من بعد إلى غريتشمار ، الذي كان واقفاً بخشوع على ركبتيه ، وخرج بسرعة من الكنيسة ، هارباً من هذا الإنسان الثاني الحقير الكامن في نفسه .

توقف أمام المَخْرج ، حيث كان يتقد مصباح في هالة برتقالية ، وكان وجه العجوز ، بائعة الشموع ، المضيء المتجعد ، الملثم بمنديل أسود ، مائلاً إلى الطاولة ، بصورة بدت له حزينة وقانطة . وبإحساسه الثاقب المعروف ، ولابعاد الخناق عن عنقه ، تلمس كريموف في جيب بنطاله ، بقلق واضطراب ، ورقة مالية كبيرة ، وبفكرة سرية للتخلص المحتمل من الكآبة ، وبأمل التفريج عن نفسه ، دون اقتناع بهذا التفريج ، رمى كريموف الورقة المالية على الطاولة ، وخرج إلى الهواء الطلق .

كان يمشي ، بانتظار غريتشمار ، جيئةً وذهاباً على الرصيف ،

أمام طنف الكنيسة ، وهو يدخن ، مكرراً الفكرة ذاتها التي تطمئنه دائماً : « الآن ستمر وتنتهي ، كما ينتهي كل شيء » . وبالتدريج تخلص من هذا الاختناق الشديد ، وظهر العرق على جبينه ، وأحس فعلاً بشيء من الراحة . وعندما ظهر غريتشمار المقطب الجبين ، بعينيه الملتهبتين ، وقال له : « . . . هذه كنيسة روسية حقيقية » ، اقتصر كريموف على سؤاله بصوت عادي :

— من أجل ماذا صليت ، إن لم يكن سراً ؟

— لاداعي للحديث .

— اعذرني ، إذا كان الأمر كذلك .

— سأقول لك . ابتهلت وصليت من أجل إنقاذ العالم . . . — خفف غريتشمار من سرعة تنفسه ، وهو يفتش بأصابعه في علبة السجاير ، وهنا عاد وجهه كما كان عليه سابقاً ، وكأن حديثهما لم ينقطع ، ولا لثانية واحدة . — أريد أن أسلمك العقد . انني أريد هذا الفيلم يافياتشيسلاف . أنت قادر على إخراجه . . . وتعال نشرب ثانية . .

— آه ، ياعزيزي جون . هذا ليس فيلمي — قال كريموف بحزم غير مزعج . — إن عرضك مغر ، لكن هذا ليس فيلمي . . . وكما يقال ، الأمل آخر ما يموت . من الشاعر القائل : إن القبرة على الحبل تحتفظ بأغنيتها طيلة فصل الشتاء ؟ أم أن هذا القول من عندياتي ؟

— هذه عواطف . . . . رومانسيتكم السوفييتية السابقة .

— لا ، الحبل هو الأمل .

— أريد أن أشرب مشروباً روحياً من جديد ، يافياتشيسلاف ، وأريد أن أتحدث إليك .

## الفصل الثاني عشر

في الرابع من تموز استدعي كريموف إلى المحقق ، ولم يذهب إلى البيت الريفي ، بل أمضى ليلته في المدينة .

عند الفجر ، سمع ، بوضوح في منامه ، شخصاً ، كان يحاول تكسير باب شقته من بهو الدرج — بحدة وقساوة ، كان حديد الأقفال المنتزعة يصرّ ، وكانت ألواح الخشب تطقطق وتتداعى . وسقط الباب تحت الضربات وتقوس . واندس شيء خطير ، لاشكل له ، من الطرف إلى غرفة مكتبه ، وأخذ يراقبه بلاعين ، وقد تجمد راقداً على الأريكة ، وأخذ هذا الشيء يمسه مهدداً ، أما هو ، فلعجزه وضعفه ، لم يستطع حتى أن يدير رأسه ، ويصرخ بحنجرة جافة : « من هنا ؟ » .

لقد رأى كل هذا بوضوح وواقعية ، لدرجة أنه أفاق من نومه والعرق يبلله ، ونظر طويلاً بريبة ، دون أن يصدق ، إلى الباب الذي يلمع بهدوء على ضوء الفجر ، من مكتبه الذي لم يمس . كان يرقد ويفكر بحديثه المقبل مع المحقق ، الذي حدد في الدعوة ، في الساعة الثانية عشر ظهراً ، وكانت ضربات قلبه العميقة تصم أذنيه ، وكان يشعر بعبء ثقيل وصعوبة ، نتيجة عجزه الكريه السابق في الحلم .

كانت هذه الدعوة الثانية إلى المحقق ، أما لقاؤهما الأول فقد جرى

عشية سفره إلى باريس ، وفي تلك الأثناء ، كان كريموف على قناعة تامة ، بأن كل شيء يجب أن يتضح حتى النهاية . لكن دعوته من جديد إلى بتروفكا * ، وواقع أن التحقيق ، كما هو مفترض ، لم ينته ، شكّلا ظلاً من التراق المبهم والغموض المريب . لم يتوقف خفقان قلبه ، ولم ينس ذلك الشيء الأبيض ، العديم العينين ، الذي دخل إلى مكتبه . ومن أجل أن يتنشط وينفض عن نفسه تخدير النوم ، أخذ « دوشاً » بارداً ، وفرك جسمه بمنشفة ذات وبر ، إلى أن سمع صوت التيار المخشخش في عضلاته . وعندما بدأ يحلق ذقنه ، لاحظ شعاعاً رفيعاً آتياً من النافذة عبر الغابة ، قد أصبح فضي اللون في المرآة . وبينما كان يرغي رغوة الحلاقة المعطرة ، التي تدفىء الجلد برقة ، على ذقنه ، شعر كريموف فجأة بتدفق رشاقة روحية إلى نفسه ، كالتي كانت تحدث له أحياناً في الصباح الباكر . وعندما ارتدى قميصاً نظيفاً يجلب له الرطوبة ، ورأى عينيه البارقتين بالابتسام ، غمز بعينه بود وصداقة ، وكأنه يتابع حديثه الذي لم ينته مع غريتشمار : « سوف نعيش . . . حتى يوم القيامة ! » .

شرب كريموف كأساً من الشاي الثقيل ، ومشى في مكتبه باتجاه الهاتف ، عازماً على الاتصال بالبيت الريفي . اسودّ جهاز الهاتف على الطاولة مثل وحش صغير غريب ساكن ، ووقف كريموف أمام الهاتف غارقاً في أفكاره ، لكنه لم يهتف به ، لعدم رغبته بأن يكذب على أولغا ، ويفسر لها مالا يستحق الحديث عنه الآن . فحسبما استقبلته أولغا في

---

* بتروفكا – اسم الشارع الذي يقع فيه بناء الإدارة الداخلية في موسكو . وقد أصبح هذا الشارع رمزاً لهذه الإدارة المختصة بالتحقيقات الجنائية وملاحقة المجرمين – المترجم –

البيت الريفي ، حزر كريموف أن الشائعات قد وصلت إليها ولم تستثنيها ، بيد أن أي تفسير كان أشبه بالتبرير ، أشبه بالاعتراف الحزين .

« المهم ألا تتورط أولغا – فكر كريموف ، وهو يتمشى في شقته بين غرفها اليتيمة ، الناضحة بالغبار والفراغ المشمس . – علي أن أواجه هذه المسألة لوحدي » .

* * *

عندما وصل بسيارة الأجرة إلى بوليفار تسفيتنوي ، ومن هناك سار مشياً على قدميه باتجاه شارع بتروفكا ، كان الوقت وقت عمل ، قبيل الظهيرة ، وكانت الشوارع غاصة بالناس المتزاحمين ، الفوضويين العابثين ، مع حفيف مستمر لاينقطع ، ومع هدير وانخطاف السيارات الصغيرة التي تنطلق نحو غاية ما ، باتجاه ما ، ومع قرقعة وضجيج وصلصلة من السيل المتدفق بلامعنى ، كما بدا له ، من الشاحنات على محلق « سادوفوي » الدائري ، ومع سيارات الترولي باص ، المحشورة حشراً بالركاب ، بزجاج نوافذها السميك اللامع ، ومع الضيق والهواء المحبوس في عربات الترام ، ومع الطوابير التي تحجب الأرصفة لشراء المياه المعدنية والمرطبات ، مع الوجوه المتعبة من الحر في الحشد المزدحم – ان لوحة المدينة هذه كلها ، الدائرة في القيظ الخانق كانت تلمع أمامه تحت أشعة الشمس الجهنمية الثقيلة ، المشبعة برائحة الاسفلت المدخنة . ولم تبق رطوبة الصباح الدافئة ، ورطوبة سيارات الرش التي صبت الماء البارد على الأشجار في الصباح الباكر ، الا في البوليفار ، تحت أغصان أشجار الزيزفون .

« حسناً ، سنعيش الآن . . . حتى نهاية العالم ، – فكر كريموف

ثانية ، محاولاً الاحتفاظ باتزانه النفسي عن طريق السخرية . — ولكن لماذا ، وعلام هذا كله ؟ — وهل عدم الثقة والريبة تعد ذنباً . . . ماذا حل بي ، كنت لاأرغب ، والآن أريد التعجيل بالحديث مع المحقق . ولماذا العجلة ؟ من أجل إزالة شكوك غير معقولة ؟ من أجل اثبات الحقيقة ؟ في هذه العجلة ثمة سخافة مماثلة لما في التأخير والتأجيل » .

بعد التحقق من الوثائق الشخصية في الممر ( شاب برتبة ملازم بعد أن تعرف على كريموف ، نظر إلى البطاقة الشخصية ، ثم إلى وجهه ، وابتسم خلسة ) ، صعد كريموف إلى الطابق الثاني واتجه في دهليز طويل إلى نهايته ، حيث كانت الغرفة رقم /٢٠٠/ ، كما يذكر ، إلى اليسار من النافذة ، بالقرب من منبسط الدرج . ووصل إلى نهاية الممر ، ذي السقف العالي ، الخالي من الناس ، بأبوابه الكبيرة ( في مكان ما ، في الداخل ، كانت تسمع بصورة بعيدة ومنعزلة ضربات آلة كاتبة ) ، ووجد رقم الغرفة المطلوب دون عناء ، وهنا وجد زائراً آخر ، يقف أمام النافذة ، عاقداً يديه خلف ظهره .

— أنت أيضاً إلى هذه الغرفة ؟

لم يتحرك الرجل الواقف أمام النافذة ، وطرق كريموف باب الغرفة . لم يسمع أي رد من داخل الغرفة . ضغط كريموف على الباب ، باصرار غير مقبول ، في مثل هذه الدائرة الحكومية ، لكن الباب كان موصداً ، فتمتم بارتباك : « لاأحد . . . » — وبعد أن أخرج سيجارة ، اقترب من المخرّج المؤدي إلى منبسط الدرج .

— أنت كريموف ؟ — سمع صوتاً خفراً باحثاً . — أنت المخرج كريموف ؟

التفت إلى الوراء ، فرأى الرجل الواقف أمام النافذة ينظر إليه بعينين فاتحتين ، محاطتين بجفنين أحمرين . كانت عينا الرجل معروفتين جيداً بالنسبة لكريموف ، وقد ذكرتاه بصورة مؤلمة ، بشيء ما ، وخفق قلب كريموف بحرارة . فتذكر على الفور ذلك الشيب الناعم ، النبيل الشعر الطويل ، الذي يوجد عادة لدى الممثلين المتقدمين في السن ، وتذكر الحاجبين الجميلين اللذين خطهما الشيب ، والجلد القاتم اللون ، وأناقة الملبس ، وربطة العنق السوداء ، علامة الحداد ، وتذكر كيف كان يقف هذا الرجل في المقبرة ، وقد وضع قدميه تحته بصورة جامدة ، وكيف كان ينوح باختناق ، عندما انتهى توديع الجثمان ، وهو ينحني على التابوت بوجه مائل .

ـ أنت والد ايرينا ـ قال كريموف ، متغلباً على الموقف الحرج ـ اعذرني ، أنا أعرف اسمك الأول من اسم ايرينا الثاني ، لكن اسمك الثاني * قد انمحى من ذاكرتي . لقد تعارفنا في المقبرة في ذلك اليوم . . .

ـ للأسف ـ قال والد ايرينا بصوت جامد وغطى عينيه بحزن ـ إسمي فنيامين فلاديميروفيتش ، أعمل في إدارة التخطيط في جمهورية لاتفيا ، أقيم في مدينة ريغا . أما أنت ، فأذكرك جيداً . وأعرفك من خلال أعمالك ، يافياتشيسلاف أندريفيتش . . . هل أناديك بالاسم الصحيح ؟

ـ اذن ، أنت تقصد هذه الغرفة أيضاً ، قال كريموف بصورة شبه متسائلة ، لاعناً سخافة كلامه ، وعدم ضرورة اللقاء في مكان ،

---

* الاسم الكامل بالروسية ثلاثي : الاسم الأول واسم الأب ( الثاني ) والكنية (الثالث) ، وصيغة النداء الرسمية : الاسم الأول واسم الأب — المترجم —

كان يجب ألا يحدث فيه . — لقد استدعوك من ريغا ؟ أمر غريب ، في الوقت نفسه . . . كم هو غامض وأخرق كل شيء . . . — ولم يكمل كلامه ، ورمى سيجارته التي لم يدخنها حتى النهاية في سلة المهملات.

— أجل ، أنا أقصد هذه الغرفة ، قدمت إلى هنا — قال فينيامين فلاديميروفيتش مشيراً إلى الباب ، وبصورة مسرحية غطى وجهه المشوه بيديه الصفراوين بعروقهما الزرقاء ، وقال بصوت مختنق : — صدقني ، أنني أفقد عقلي . . . علام عاقبني المصير بمثل هذا العقاب ؟ من يستطيع الآن الإجابة ؟ من يافياتشيسلاف أندريفيتش ؟ من يعيد إليّ ايرينا ، ابنتي ؟ ابنتي الوحيدة ، الرقيقة الناعمة ، الذكية . . . أنا أعرف كم كانت إيرينا موهوبة — تابع حديثه ، ساحباً يديه من على وجهه ، واستدار جانباً إلى كريموف ، ووضع لسبب ما ، كفيه على الزجاج ، وسالت الدموع على خده المرتجف — أنا أعرف كم كانت تعاني إيرينا ، وكم كانت تتألم ، عندما حدثت لها تلك الإصابة في مسرح البولشوي . كانت لديها آمال وتوقعات كبيرة . . . كانت ستصبح راقصة بالية عظيمة . . . لقد شعرت بموهبتها هذه منذ طفولتها ، منذ مراهقتها . . . الليونة ، المرونة ، الرقصات ، حركاتها الرقيقة الناعمة ، ثم مدرسة البالية ، واعجاب الأساتذة والمدربين . . . علام ، علام يعاقبني القدر بهذه القسوة ؟ علام اختطف مني ابنتي الوحيدة ؟ . . .

واستنشق الهواء بفمه ، ثم نشج وتساقطت دموعه ، واهتزت كتفاه ، كما حدث أثناء الوداع الأخير في المقبرة ، وقال كريموف متجهماً :

— أرجوك ، اهدأ

— طبعاً ، طبعاً — قال فينيامين فلاديميروفيتش ، ماسحاً دموعه بتحريك جفنيه — متى سيبرأ هذا الجرح ؟ لن يبرأ ، أبداً ، أبداً !

ايرينا ، ابنتي ايرينا ، كانت فتاة غير عادية . . . يالها من فتاة مأساوية...
أية زهرة رائعة ضعيفة هي ، محكوم عليها بأن تداس ، بأن تدوس عليها
الحياة بقسوة ! . . . .

« أنا أفهمه ، لكنني لا أستطيع مساعدته ، مبعداً نظره بانقباض
كئيب عن وجه سكفور تسوف الجميل ، الطيب ، المغطى بالعرق . —
انه صادق ، انه يعاني ويتألم . . . ولكن ، لم هذه الكلمات والايماءات
الفظيعة عن ايرينا ؟ » .

— كانت تعرف ، لقد كان لديها شعور مسبق بأن شبح القدر
يحوم حولها ، — قال فينيامين فلاديميروفيتش ، وهو ينظر إلى الدخان
المشبع بالرطوبة في سماء موسكو من خلف النافذة . — أذكر ، أنها
جاءت إلى ريغا ، بعد تخرجها بدرجة شرف من مدرسة البالية . وكان
قد عرض عليها تمثيل دور . . . وجاءت لعندي لمدة يومين من أجل
أن تراني . لم ترغب في قضاء اليومين في البيت ، ونزلت في فندق .
كان الوقت مساء ، وقت الغروب ، وكانت تشعر بالبرد ، متدثرة
بشال . كانت تقف أمام النافذة ، مستغرقة في التفكير ، كانت حزينة
رغم أنه كان من المفروض أن تكون فرحة مسرورة . سألتها : « هل
حدث لك شيء يا ايرينا ؟ » فاستدارت نحوي ، وابتسمت لي بحزن
كبير ، وهي تقول : « أبي ، عزيزي ، ستكون نهايتي سيئة . . . » .
ابنتي البائسة ، بماذا كانت تفكر في تلك الأمسية ؟ . . .

— هل كانت تزورك كثيراً ؟ — سأل كريموف بصوت خافت ،
متذكراً لحظات استغراق ايرينا في التفكير .

— لا ، ليس كثيراً ، وأنا لاأستطيع أن أسامحها — اعترض
فينيامين فلاديميروفيتش ، متنفساً من منخريه . — بعد موت زوجتي

الأولى ، انتقلنا إلى ريغا ، لكن ايرينا لم تعد تقطن معنا . . . أعني — التقيت بامرأة وتزوجتها ، فلم تستطع العيش معنا . كانت تحب أمها المتوفاة حباً جماً ، إلى حد المرض . وعاشت في موسكو ، في البناء السكني للمدرسة البالية أولاً ، ثم سكنت في بيت عمتها . أما أنا ، فكنت أشتاق كثيراً إليها بصورة لاتحتمل . كنت مستعداً لعمل أي شيء من أجلها ، كل ماتريده . لكن ايرينا لم تكن تتقبل المساعدة دائماً . أنت لاتستطيع أن تتصور ، كم كانت تحبني في طفولتها . أما في السنوات الأخيرة ، فأصبحت تشفق علي ، كما بدا لي . . .

— كانت تشفق عليك ؟

— أترى ماهي المسألة ، يافياتشيسلاف أندريفيتش . . .

« ماذا به يكلمني « أترى ماهي المسألة » ؟ من أين لهذا المثقف الكهل هذه الأناقة في الكلام ؟ انه ، لسبب ما ، يثير أعصابي ، وهذا يهيننا نحن الاثنين » .

— لقد قلت ، إيرينا كانت تشفق عليك ؟ اعذرني ، لم يكن بودي طرح أسئلة تسبب لك الألم .

— الألم ؟ الألم . . . انه أشد من الألم وأقوى ، يافياتشيسلاف أندريفيتش . لاأدري متى بدأت الحياة تنهار نهائياً . كانت ترى أنني غير سعيد في حياتي الجديدة . والحقيقة ، أن الحياة لم تلتئم بيننا فعلاً . . . غير أن ايرينا لم توجه لي أي لوم ، ولا كلمة واحدة . وكنت أنا أرى من خلال عينيها — كانت تعاني ، كانت تشفق علي . . . يالاكي الحبيب ! أية عزة لك ، أي نقاء ، أية رقة طاهرة ، وأي ضعف غير عصري ، أتدرك ذلك ؟ وكأنها هبطت من كوكب آخر إلى هذه الأرض . . . من أجل أن تزين الحياة . وقتلوها هنا ، قتلوها لطهارتها

وبراءتها . ؟ أي مرت غريب هذا كان مصيرها - ماتت لانكسار فقرات رقبتها ! وأنت ، أنت تدرك ، باعتبارك مخرجاً ، أراد العمل مع ابنتي ، باعتبارك عارفاً بالنفس البشرية ، هل تدرك ماذا حصل ؟ أجبني ، أتضرع إليك ! أرجوك ، أطلب منك . أجل ، أطالبك بأن تشرح لي أسباب هلاك ابنتي ! أنا لاأصدق أنها كسرت عظام رقبتها وغرقت ! لاأستطيع تصديق ذلك ! . . . .

« ماهذا ، جنون ؟ التقينا في الممر ، أمام باب المحقق ، وهو ، والد ايرينا ، هذا الرجل ذو المظهر النبيل ، ينطق بكلمات لايمكن تصورها ، ويطالبني بالمستحيل ! إنه أمر لايمكن احتماله . . . » .

— لاأستطيع الإجابة عن سؤالك ، فينيامين فلاديميروفيتش — قال كريموف بمرارة — لو كنت أعرف . . . ثمة شيء واحد واضح : حدث شيء لايمكن رده ، لايمكن دفعه ، ونحن كلانا عاجزان .

— كلانا ؟ عاجزان ؟ — كرر فينيامين فلاديميروفيتش بصوت خرج من حنجرته وهز رأسه قليلاً ، وكأنه في حالة من الغثيان — أنا ، لا ، أنا لست عاجزاً ! عزيزي ، ملاكي الحبيب ، ايرينا ، يا طفلتي الطاهرة البريئة ! أنا أعرف ايرينا أكثر منك ! كانت فتاة متطرفة ، مغالية . أنا نفسي ، كنت أحلم في وقت من الأوقات بالتمثيل والظهور على خشبة المسرح . انني أهوى المسرح طيلة حياتي وأفهم قليلاً في الفن . كان روح عصر النهضة في ايرينا ، كانت فيها رشاقة إلهية لراقصة بالية رائعة ، وكان فيها روح الفن الشعبي الروسي الرائع ( البوب — آرت ) ، والفن ( المودرن ) الأكثر حداثة ، كانت أعجوبة !

— وما علاقة « البوب — آرت » و « المودرن » هنا ؟ هذا كله هراء ! — لم يصبر كريموف ولم يحتمل ، خائفاً من اندفاعه الذي لم يستطع مقاومته ، ومن الانفجار الصاعق المفاجيء ، وبعد أن صمت

قليلاً ، وهو يضغط على أسنانه ، تابع حديثه بألم : جاء متأخراً :
— يبدو أنك لم تكن تعرف ابنتك جيداً .

— أنا لم أعرفها ؟ وأنت ؟ كنت تعرفها جيداً ؟

ارتفع كتفاه المحدودبان وارتجفا ، وكأن ذلك نتيجة نحيب داخلي ، وخطا على مقربة من النافذة ، وتقدم بكامل جسمه نحو كريموف ، موسعاً بصورة كبيرة عينيه الكبيرتين الفاتحتين ، وقال هامساً :

— ماالذي كنت ترمي إليه من اعطائك الدور لإيرينا؟لقد أغريتها بالأمل ! وليس بالأمل وحده . . . أنت ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنت مذنب ، ويجب أن تعاقب . عليك أن تنال عقابك ! لقد جئت من أجل أن أطلب . . . أطلب محاكمتك ، لقد كنت شيطاناً — مغرياً ، أنت مشهور . . . ولهذا ، كنت لاأخلاقياً بالنسبة لابنتي ! — وشهق مبتلعاً الهواء بجشع ، كما لو كان يعاني من سكتة قلبية . — كان عليها أن تهجر الفن إلى الأبد ، إلى الأبد ! فبعد إصابتها تلك ، كان عليها ألا تعود إلى البالية من جديد . . . وبعد تلك الآمال الرائعة ، لم يعد بامكانها أداء الأدوار الصامتة والصغيرة الثانوية ! أما أنت ، فقد رشحتها لدور في السينما . . . ، أوه ، لقد أفسدتك الشهرة وشوهتك ، أفسدتك النساء ! لقد كنت أسأل ، وأستعلم ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، عن سلوكك الأخلاقي عندكم في الاستوديو . لقد كنت هناك ، اليوم صباحاً ، لاتؤاخذني ، كنت هناك . . . وحتى مدير الاستوديو ، مدير ، وعضو اللجنة الحزبية ، الرجل المحترم ، لايستبعد . . . حتى هو قال لي : لاأستبعد . . . أجل ، أجل ، إنه لايستبعد علاقتك المجرمة بايرينا . . .

وتشبث سكفورتسوف بيديه الاثنتين بكم كريموف — ، وبكى بكاء مراً وأسقط رأسه الذي كان يفوح برائحة شعره وماء الكولونيا .

اصفر كريموف ، وشعر بقشعريرة حادة تسري في وجهه ، وقاطعه قائلاً :

ــ عم تتحدث ؟ ماهذه الترهات التي افتراها ولفقها بالابانوف ؟ وماهذا الحديث الغريب الذي يدور بيننا ! لم أرد ذلك ، فهذا مهين لنا نحن الاثنين ! هذا عيب ، ياللشيطان ! ــ ولم يعد باستطاعته أن يمسك بزمام نفسه ، وأن يهدىء نفسه بالبصيرة الناضجة ، السليمة ، المهدئة ، التي تحضره فيما بعد ، عندما يتذكر فترة حدته الجامحة ــ علي أن أقول لك شيئاً واحداً ، فينيامين فلاديميروفيتش : لاقدر لك الله أن تكون في موضعي في ذلك اليوم الرهيب ! . . . أتمنى لك أجمل الأمنيات ! تصرف كما تريد ، أنا مستعد لتقبل كل شيء ! . . .

كان مذهولاً من سخافة هذا اللقاء ( « من أجل ماذا استدعينا نحن الاثنين في ساعة واحدة ، أم أنه مجرد تزامن عرضي ؟ » ) ، ومع ذلك ، أمكن كريموف توديعه ببرودة أعصاب ، واحترام ، مدركاً التعبير الزائغ المحطم ، وغير المصدق لأي شيء ، في الوقت نفسه ، في عيني بنيامين فلاديميروفيتش ، ومشى بسرعة في الممر ، مقتنعاً بفكرة يائسة ــ فكرة ألا يحضر إلى هنا ، إلى أن يستدعى من جديد بصرامة كاملة .

ركض على الدرج الواسع في البهو ، متلمساً على عجل بطاقته الشخصية التي وضعها إلى جانب الدعوة في جيبه .

كان يدخل إلى البهو ضباط الشرطة ، جماعات ، وهم يتحدثون بلهجة صارمة ، مبرزين ، الواحد تلو الآخر ، بطاقة الدخول للملازم الشاب ، متبادلين الانحناءات برؤوسهم على عجل . توجه بعضهم إلى المصعد الكهربائي ، وتوجه بعضهم الآخر إلى الدرج ، وألقى آخرون

نظرة عاجلة إلى كريموف الذي كان ينتظر جانباً . وهنا ، وقبل خروجه إلى الشارع ، شعر بحدس سيء ، وكأنه سيحدث الآن شيء ما ، لاداع له أبداً ، شيء سخيف بلا معنى ، ينطلق بطرق لاواقعية وغير لازمة . وما إن فكر بهذا حتى برز من بين حشد الضباط نقيب يبتسم بفتوة ، أحمر الوجنتين ، متوسط العمر ، ذو شاربين (« توكاريف ، المحقق توكاريف ، لقد التقيته قبل سفري إلى باريس » ) ، وقد غمره صوته المخملي الجميل بالدفء :

ـــ فياتشيسلاف أندريفيتش ، مرحباً ، وعذراً ألف مرة ، لقد أذنبت بحقك ، اجتماع مفاجىء على أعلى المستويات ، لقد تأخرت أربعين دقيقة . اني مذنب . أدرك كم أنت مشغول ، لذا ، فقد أذنبت بحقك ، واني أعترف بذنبي . . .

ـــ ماذا يعني انشغالي النفيس بالنسبة للعدالة ، وما علاقة ذنبك الأسطوري هنا ؟ ـــ قال كريموف ، خائفاً ، أكثر من أي شيء آخر ، ألا يفلت الكلام من بين شفتيه ، بعد عبارات توكاريف المصطنعة ، بعد هذه الاعتذارات ذات الطابع اليومي المبتذل ، التي تخلو من أية أهمية . ـــ عفواً ، أوليغ غريغوريفيتش ، أنا اليوم لست قادراً على التشرف بالإجابة ، بصورة معقولة ومنطقية ، على أسئلتك . فاذا كان من الممكن طبعاً ، سأودعك الآن ، لاسيما وأنه ثمة زائر بانتظارك ، يعرف أشياء كثيرة ، بما في ذلك عني . . .

محى توكاريف الابتسامة من على وجهه المتورد ، ونظر بعينين ثابتتين ، مختبرتين .

ـــ اعطني دعوتك للتأشير عليها . وإلا ، فلن يسمح لك بالخروج

يا فياتشيسلاف أندريفيتش ، رغم أنك مخرج سينمائي شهير . سأستدعيك خلال أيام .

— شكراً . سأكون مسروراً للغاية .

في ميدان تياترالنايا ، أوقف كريموف سيارة أجرة ، وانطلق باتجاه الاستوديو .

* * *

عندما دفع الأجرة لسيارة التكسي ، ودخل عبر كشك الاستعلامات إلى بوابة الاستوديو المشبعة بأبخرة الاسمنت ، المغطاة بوبر أشجار الحور المبعثر ، الطائر الذي يلتصق صيفاً بالوجه ( لهذا كان يبدو القيظ أشد ، ولايطاق أبداً ) ، وعندما اجتاز الردهة الرطبة الجنائزية المظلمة ، الداوية ، صعد إلى الطابق السادس ، ودخل إلى غرفة استقبال المدير . وهنا ، في هدوء قطني معتم ، وبين جدران مكسوة بخشب البلوط ظهر عدد من وجوه المخرجين والممثلين المألوفة ، وارتفع وجه السكرتيرة الأفطس ، المنكمش ، بشعرها المعلق على وجنتيها ، للقائه بخوف وذعر . كان يدرك تماماً أنه غير قادر على تغيير الطبيعة البشرية ، التي تذوقت حلاوة السلطة ، أية سلطة كانت ، وأنه لن يتمكن من هز شيء وزعزعته ، دون أن يلقى العقاب ، بيد أنه فتح بحزم الباب المغطى بالجلد السميك ، ودخل ، وقد أوقفه صراخ السكرتيرة المذعور :

— ممنوع ، فياتشيسلاف أندريفيتش . إنه مشغول !

— مسموح — قال كريموف — لن يسبب له دخولي كارثة ، حسب اطلاعي .

خلافاً لعادته ، لم يجلس بالابانوف وراء مكتبه الضخم ، المطمور من أطرافه بالأوراق ، ومخطوطات السيناريو المغلفة والأضابير ، بل كان يجلس خلف « الطربيزة » مقابل الباب المفتوح ، كان أحمر الوجه ، دون سترة ، يحرك كأس الشاي ، عاصراً قطعة الليمون فيها ، وكان يصغي بانتباه وتركيز ، إلى رجل نحيف ، يرتدي بذة لاتشوبها شائبة ، بوجهه العريض العظام ، الواسع الجبين . كان هذا الرجل يمسك الكوب بيده الشاحبة الرفيعة ، ضاغطاً الملعقة بين السبابة والوسطى ، فبدت وكأنها بين غصنين هشين ، وكان يرتشف الشاي بجرعات صغيرة . كان هذا الرجل نائب رئيس لجنة السينما بيسكاريف ، شاباً ، يسير على عكازين بسبب مرض ، لايقبل العلاج ، أصيبت به رجلاه منذ طفولته ، لكنه رغم ذلك ، كان خفيف الحركة إلى حد كبير ، وافر النشاط ، يتنقل بين الاستوديوهات السينمائية داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه ، وهو رجل قارص ، لاذع ، صريح في أحكامه وآرائه المسموعة من جانب الكثيرين في المجالس الفنية واللجان .

ــ ماهذا ؟ ماذا ؟ ولماذا تندفع على هذا النحو ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟

قطع الاثنان حديثهما وأدارا رأسيهما إلى كريموف ، وأخذ ينمو بسرعة على وجه بالابانوف تعبير الامتعاض والسخط . فنهض وهو يتنفس ، كالمصاب بالربو ، رافعاً على عادته ، بصورة عدوانية ، أكمام قميصه المنحدرة على مرفقيه ، وكأنه يستعد للدفاع عن كرامته الشخصية ، وعن سمعة بيسكاريف ، وعن حرمة مكتبه .

ــ اسمح لي ، ولماذا ، على هذا النحو ؟ أنا مشغول ، مشغول .

عندما رأى كريموف احمرار الشمندري وقامته القصيرة برقبته الصغيرة ، ومرفقيه المبعدين ، الموضوعين على خصره ، وشعره الساقط على جبينه مثل شعر القنفذ ، قال بشيء من المرح :

— اجلس ، ولا تخوفني ، من أجل كل القديسين ، ايفان كسينوفونتوفيتش ! حسن جداً ، أننا ثلاثة . انني طيب الحظ . لأن الرفيق بيسكاريف عندك ، وهو ممثل القيادة السينمائية العليا ، إن صح التعبير ، كم أنا سعيد الحظ . أتعرف ، أنني بحاجة إلى شاهد وقور . في هذا الجانب أو ذاك .

— أولاً ، مرحباً فياتشيسلاف أندريفيتش ، — قال بيسكاريف ببرود — ، ثانياً ، اجلس انت — وأشار إلى مقعد بالقرب من «الطربيزة» — وثالثاً ، بينك وبين المدير حديث ودي خاص ، على الأغلب ، وبالتالي يمكنني الخروج ، كي لأضايقكما ، ونظر إلى عكازيه المسندين إلى الديوان .

— أوه ، لقد أخطأت ، ليس هناك أي حديث ودي خاص ليس هناك أي بروتوكول — صاح كريموف وهو يجلس على «الطربيزة» — أكرر : أنني بحاجة لشاهد ، أرجو ألا ترفض أن تكون شاهدي .

— ماذا تقصد .

— أقصد ثلاثة أسئلة ، أريد طرحها على ايفان كسينوفونتوفيتش بحضورك . أولاً ، ثانياً ، ثالثاً . . . أولاً . . . — وتناول كريموف قطعة بسكويت من الإناء الزجاجي ، وقرط حافتها ولاكها ، ثم كرش وجهه — ياللعار ! ديسأ تأكل ياإيفان كسينوفونتوفيتش ! — قال

متلذذاً بالتلاعب بالوقاحة وبعيني بالابانوف المحتنقتين بالدم ، وبالخوف المريب الظاهر على جبينه – قل لي ، ايفان كسينوفونتوفيتش – سأل كريموف بوداعة – هل تم ايقاف فيلمي رسمياً من قبلك ، أم من قبل جهة عليا ؟

– هذا سؤال صعب ، – هدر بالابانوف ، ناظراً بوجل إلى بيسكاريف ، الذي كان يضغط على شفتيه الرماديتين بشدة . – إنه سؤال صعب ، فأنت نفسك تعرف كيف سارت الأحداث والوقائع . ثم هناك قوانين القضاء والتحقيق ، كما تدرك ذلك . . .

– أدرك ذلك – قال كريموف ، – ثم قضم بقرف طرف قطعة البسكويت ، متوجهاً بالحديث إلى بيسكاريف الصامت – لاأستطيع أن أفهم ، كيف يمكنك تناول هذا الشيء المفرط الحلاوة . إنه أقصر طريق إلى مرض السكر . . . وأنت ترى ذلك أيضاً ، يارفيق بيسكاريف ؟ التحقيق ، وقوانين القضاء ، واحتمال الجريمة ؟

ألقى بيسكاريف بغطرسة نظرة سافرة ، وانضغطت شفتاه بقوة ثم انفرجتا ، كاشفتين عن ظل ابتسامة ، أو عن تصعيرة صفراء .

– أنت تعرف ، أنني لاأتقن المواربة والخداع ؟

– أجل ، بالطبع .

– أنا شخصياً ، لم يرقني يوماً ما السيناريو الذي تكتبه – قال بيسكاريف بصوت بارز – فالسيناريو الذي تكتبه عن الشبيبة المعاصرة مفرط في التأملات ، والأسئلة الذاتية التي يطرحها المرء على نفسه ، والتنقيبات والبحث والاستغراق . وهذا ، أولاً : لايطابق الواقع الحقيقي ، وثانياً ، لن يذهب ، بعده ، أي شاب ، إلى أي مكان . . .

— إلى أين ؟ ومن سيذهب ؟

— الشبيبة . لن تذهب إلى الأعمال الانشائية في سيبيريا ، على سبيل المثال . فالسيناريو الذي كتبته لاأثر فيه لحماسة الشبيبة ، ولا للنهوض بالعمل ، ولا للتطبيق العملي للخطط التاريخية العظيمة ليومنا المعاصر المعقد هذا . الجميع عندك يتعذبون ، ويعانون من أسئلة خالدة أبدية : كيف أحيا ؟ ماهو الضمير ؟ ماهي الحقيقة ، في حين أن . . .

— آه ، أجل ، الأسئلة الأبدية الخالدة ، تعرقل بلاشك . إنني لم آخذ هذا في اعتباري . عقل ضعيف ضيق لم يصل إلى الحقيقة .

— في حين أن الموقف اللاطبقي ، من مواقع النزعة الإنسانية التجريدية ، من هذه المفاهيم كالانسانية ، والضمير ، والعار ، والخير ، إن هذا الموقف مفعم بمختلف أنواع الأخطاء والتشويهات .

— أجل ، أجل ، إنه مفعم بمختلف أشكال الأخطاء والتشويهات . كم هي بائسة هذه السينما !

لمس بيسكاريف ، وهو يصعر خده بكآبة ، الملعقة في الكأس بأصابعه النحيفة ( كانت أظافره زرقاء اللون ، مستديرة ، مقصوصة بصورة منتظمة ) ، وسأل مستفهماً بحذلقة :

— لقد قلت ساخراً . السينما بائسة ؟ لماذا ؟

وتابع كريموف لعبته اليائسة ، قافزاً فوق الهوة ، ومتلذذاً بالمخاطرة دون تراجع :

— لقد صليت من أجلك وأضفت : السينما بائسة ، هل ستتمكن من تجاوز لحظات تحليقها ومجدها ؟ لقد تخلفنا عن أنفسنا مدة خمسين

عاماً . وذلك بسبب بعض الجماليين المدافعين عن سلامتهم الشخصية ، والمهتمين بالمجد العالمي لفننا السينمائي .

— ماذا تقصد ؟ أنت معروف برهافة ذهنك وفكاهتك ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، ومع ذلك ، اشرح لي قصدك !

— سأشرح . هاهوذا أنت ، أبونا ومعلمنا ورب نعمتنا ، ليونيد فيكتوروفيتش ، أنهيت بامتياز كلية التاريخ في جامعة موسكو الموقرة ، هذا أنت ، خلال هذه الدقائق لم تقل الحقيقة ، ولا نصفها ولا ربعها . على أية حال ، أنت حارس — وأكسب صوته لهجة الامتنان اللبق — أنت حامي حياة خيالية مجهولة في الفن ، ممتلئة بالمشاعر الوهمية ، التي اخترعتموها ، أنت وغيرك ، بصورة موفقة ، من أجل راحتكم النفسية . اعذر جهلي البهيمي المطبق ، لم يكن في نيتي أبداً الإساءة إليك ، خرجتْ بصورة عفوية ، — تابع كريموف ، ونهض قليلاً ، وكأنه يطلب بصورة ذليلة ، الصفح والعفو من بيسكاريف ، أما عينا بيسكاريف ( عينا طفل يعرف كل شيء ، طفل كبير منذ طفولته ، طفل مثقف قرأ الكثير ) فقد جمدتا على نحو ميت ، وتثبتتا على قصبة أنف كريموف ، ممتلئتين بلمعان الجليد الأزرق . — كل هذا جاء بالمناسبة . لكنني لم أرد أن أطرح عليك الأسئلة . أعتذر ثانية ، بل أردت طرحها على مديرنا المحترم ايفان كسينوفونتوفيتش ، مشعلنا ومنارنا إلى ذرى السينما الوطنية . . . — . وانحنى كريموف باحترام وتملق ساخرين باتجاه بالابانوف ، وبعد أن رفع بنطاله على ركبتيه ، وضع رجلاً على رجل ، وكأنه يتهيأ بهدوء لحديث عائلي مريح حول مسألة قريبة ، عزيزة . — إذا كنت أنا متوقد الذهن ، محباً للفكاهة ، كما وصفني ليونيد

فيكتوروفيتش بصورة ليست دقيقة تماماً ، فأنت ، إيفان كسينوفونتوفيتش معروف للعالم الشريف كله بأنك راية الفكر الفخورة ، وفارس شريف ، وأخيراً ، نصير العقل وكادحه . لهذا ، علينا أن نأمل ، بأن عليك أن ترفع سيف الروح وليس السيف الصديء ، سيف جميع البيروقراطيين في العالم . هل لديك اعتراضات على هذه الصيغة ؟

— ماهذا الذي أراه ؟ ماهي المسألة ؟ — صاح بالابانوف بصوت جهير مكتوم ، جاذباً كمي قميصه إلى يديه القصيرتين المغطيتين بالشعر ، ورفع إلى الوراء شعره ، الشبيه بشعر القنفذ ، الساقط على جبينه المتعرق — الديموقراطية شيء وهذا شيء آخر ، انني لاأسمح لك ، رغم أنك مخرج تحمل لقب الجدارة ! فموهبتك لاتعطيك الحق . . . أنت لاتتمالك نفسك حتى بحضور ليونيد فيكتوروفيتش ، أنت تتصرف بصورة غير لائقة . . .

قفز كريموف من فوق « الطربيزة » ، وداعب بنعومة قبضة بالابانوف الضاغطة بقوة على يد المقعد .

— أنت لم تسمح لي بانهاء حديثي ، إيفان كسينوفونتوفيتش — قال كريموف بهدوء أرعبه نفسه ، هدوء الحنق وسورة الغضب ، كالهدوء قبيل القفز إلى الهاوية ، إلى أوقات الشباب في الحرب ، تلك الأوقات شبه المنسية ، التي تحجبها سنوات طويلة — أنت اليوم اقترفت كذبة ، وهي مرادفة للافتراء . في سبيل أي غرض قمت بتضليل والد إيرينا سكفورتسوفا ؟ من أجل أي غرض قلت له عن احتمال وجود علاقة بينها وبيني ؟ انني أرجع هذا إلى أنك لم تتمكن بعد من التفكير ، كما يحدث معك غالباً . . . أيها المثقف الكبير ، يامحرك الروح الأسمى ،

لقد صوبت سهامك نحوي ، لكنك أصبت روح الوالد الجريحة . إنني أقدر وعيك الحر ، ولكن هل يمكن اقتراف ذلك في الظلام ، وحتى العمل الشيطاني ؟ كم هو حقير الإنسان ، الخالي من الطيبة ، أليس كذلك يا إيفان كسينوفونتوفيتش .

— كيف . . . كيف تجرؤ ؟ — صاح بالابانوف ملتقطاً أنفاسه ، وضرب بقبضته يد المقعد ، وقد احمرت وجنتاه وأصبحتا بلون أرجواني ليلكي — جئت تسخر مني وتعلمني العقل والمنطق ؟ أما بالنسبة لعلاقاتك ، فلاحاجة للبحث بعيداً عن الاثبات والدليل — اتجه ، باديء ذي بدء ، إلى مواوتشكوف ، مدير إنتاج فيلمك ! هو سيحدثك عن الهدف من ذهابك من الاستوديو إلى أوردينكا ، إذا كنت قد نسيت ! يجب الافتراض ، أنك لم تذهب لمشاهدة الصور في كتاب تعليم القراءة ! كيف تتحدث معي على هذا النحو ؟ لا معارفك ، ولا خدماتك وفضائلك لا تعطيك الحق بالتصرف كما تريد . . . كما لو أنك مخرج أمريكي مثلاً ، مثل صديقك غريتشمار !

— أرأيت ، ليونيد فيكتوروفيتش ، مهما كان الأمر محزناً ، فالمسألة تدور من جديد حول الضمير ، الذي يزعجك ويكدرك — وهنا أشاركك تماماً مخاوفك — بتجريديته . . . — قال كريموف بالهدوء نفسه ، هدوء سورة الغضب المكبوتة — الحديث لا يدور حول اهتزاز دعائم الأرض . إنه يدور ببساطة حول الحياة . . . بهذا الصدد ، أشير ، يا ليونيد فيكتوروفيتش ، إلى أن المخرج الأمريكي جون غريتشمار ، من حيث صدقه وإخلاصه ، أقرب إليَّ بكثير من مديري العزيز ، مدير الاستوديو . إنها مفارقة ، يا للشيطان ، ولكن لامفر منها .

هذا التوجه إلى بيسكاريف ، جاء غالباً ، لأن كريموف كان يشعر على وجهه بالتماس المادي تقريباً ، الجليد القارص ، المنبعث من عيني بيسكاريف الطفوليتين ، عيني رجل عازم على الشر ، رجل كان يلتقط كلماته بصمت ، كي يرفضها فيما بعد . تماماً كما كان يرفض في المجالس الفنية آراء المخرجين ، المتمسكين بمواقفهم بعناد . ولكن ، ومن خلال إحساسه شبه المنسي ، المحجوب بحياة كاملة ، كان يعرف كريموف ، أنه لن يتمكن أي شيء الآن من إيقاف تحليقه الذي بدأه فوق الهاوية ، هذا التحليق الانتحاري ، السار ، اللذيذ ، وكأن المسرة العادلة كانت في الهلاك والسقوط في قاع الهاوية . ولنشوته وتلذذه بقوة التحدي التي أدارت له رأسه ، ولإدراكه بحقد وسعادة أن إحساس الشباب القديم اليائس ، لم يمت بعد في التعقل والحكمة ، في الخبرة المكتسبة ، قال كريموف باتزان وهدوء ، مبتسماً إبتسامة جذابة ، إبتسامة معبود الحظ والتوفيق :

— الرهيب في الأمر ، أننا نعيش في عصر المدنية المادية المدبرة . إن زيف العلاقات يطمئن الغباء ويحل النزاعات . أليس صحيحاً ، يا ايفان كسينوفونتوفيتش وليونيد فيكتوروفيتش ؟ لكن ، ياإلهي ، إنني مستعد للتخلي عن جميع معارفي ، وما يدعى بفضائلي ، التي نوه بها ايفان كسينوفونتوفيتش بصورة مؤثرة ، مستعد أن أصبح معدماً ، ويتيماً بائساً ، وأن يذاع صيتي على أي شكل ، واو أبلهاً ومجذوباً ، يا إيفان كسينوفونتوفيتش ، على أن . . . نعم ، نعم ، وعفواً ، على أن . . . أسمك بعلامة ، يا إيفان كسينوفونتوفيتش ، على بصمات أصابعك ، كما كانوا يسمون الحمراء والسفهاء في القرن التاسع عشر

الطبيب الذكر . وهنا . أقصد الفئة الثانية ... إنك جدير بأن توسم . بأن تكون موسوماً ، كي لايجد الآخرون ذريعة لتقليدك ...

ونهض كريموف ، وفي اللحظة ذاتها ، ارتد بالابانوف بصرخة مبحوحة ، بقامته القصيرة إلى المقعد ، وكأنه ضُرِب من الأسفل على وجهه ، ورفع ذقنه ، وبدأ بتحريك رجليه على الأرض على عجل ، محاولاً إبعاد المقعد ، وهو جالس عليه ، بعيداً عن « الطربيزة » التي تحميه . أما كريموف فقد وقف صامتاً ، ناظراً باشمئزاز إلى رقبة بالابانوف المنتفخة كالضفدع ، وسيطر عليه قرف شديد من جبن بالابانوف الدنيء ، المكشوف ، ومن هذه الحنجرة المنتفخة المتورمة ، وتعاظم نفوره من وجه بيسكاريف الجامد المتصنع ، ومن النظرة الطفولية لعينيه الجليديتين الجامدتين .

كل شيء كان تافهاً ، شريراً : لقد أُطبِق على كريموف في حلقة غير ودية ، غير أنهم كانوا لايزالون يخشون مسه ، أما هو ، ولعدم تمالكه زمام نفسه ، وبكراهيته لعدم تمالكه هذا ، لم يستطع الآن أن يصفح عن نفسه وعن الآخرين . كما لم يستطع أن يعدل أو يبدل من اللهجة المازحة التي بدأها في اللعبة الكريهة ، إلى حد الغثيان ( لم يكن لديه مايكفي من القوة لبدء هذا الحديث وانهائه بصورة جدية ) ، وقال باحترام متأدب ، مخاطباً بيسكاريف :

— لي رجاء صادق عندك ، ليونيد فيكتوروفيتش ، أن تحفظ بعض تفاصيل هذا المشهد الغنائي ، الذي رأيته بأم عينيك . لقد كنت أخشى ، أن يقوم إيفان كسينوفونتوفيتش ، بدون شهود عيان ، بخلع حذائه من قدمه وإدماء بوزه ، عفواً ، أعتذر أشد الاعتذار ، بادماء وجهه ،

ومن ثم يتقدم بشكوى إلى اللجنة الحزبية ، بأنه قد ضُرب ضرباً مبرحاً من قبل الفاسق الوقح كريموف . وهكذا ، فقد كنت سعيد الحظ . وأرجوك يا ليونيد فيكتوروفيتش ، أن تبلغ الرئيس أن الفيلم سوف أخرجه وأصوره أنا ، على الرغم من حالة الطقس السيئة . كان لي الشرف . اسمحوا لي بأن أودعكم .

طقطق كريموف بكعبي حذائه ، وأحنى رأسه انحناءة أكبر ، وباحترام أكبر ، وعلى هيئة الموظف الذي يؤدي خدمته الوظيفية باتقان ، توجه إلى الباب . ولكن ، هنا ، شاهد بصورة عارضة ، سترة بالابانوف ، معلقة على ظهر المقعد ، خلف الطاولة الكبيرة المعدة للاجتماعات ، فانتزع بسرعة السترة ، ومثل خياط خبير ماهر ، رماها بحركة رشيقة على المشجب الموجود إلى جانب الباب ، وقال بكدر :

— الشيطان وحده يعرف ماهذا الإهمال . — وعند العتبة تماماً التفت إلى بالابانوف ، الذي كان يجلس صامتاً ، وكرر في صوت غنائي : — لي الشرف ، لي الشرف ! . . .

« جنون ! خساسة ! أنا قرفٌ من نفسي ! وهل من الممكن أن أهين نفسي في هذه اللعبة بالتهريج والاستهزاء ؟ على أية حال ، هل كان من الممكن الحديث بصورة جدية ؟ كان ممكناً فقط ، الضحك ، الضحك بسخرية ! » .

* * *

— لي الشرف ، لي الشرف — قال كريموف متهكماً بهمس وفتح عينيه ، ناظراً ، دون أن يفهم ، إلى غرفة مألوفة .

ـ ماذا بك ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟ إنني أطرش قليلاً في الأذن اليمنى ، لم أفهم . لقد استغرقت في التفكير قليلاً .

ـ على الأغلب .

نظر كريموف نظرة مبهمة إلى مولوتشكوف ، الذي حول إليه بترقب وجهاً مبتسماً ، مخمناً كعادته مزاجه . تمالك كريموف نفسه على الفور ، فارتمى على المقعد بأنين ، متذكراً المشهد بكامله في غرفة الاستوديو بصورة مفصلة وساطعة ، لدرجة أنه توهم ، أن هذا المشهد قد تراءى له في سورة الغضب والنزق ـ وما يزال في نفسه باقياً حتى الآن ، الشعور بالارتياح المزدري ، والشفقة المتقززة نحو حنجرة بالابانوف المتورمة والمنتفخة ، أثناء التنفس ، نحو بالأبانوف الذي كان يضرب الأرض بقدميه ، بجلبة وهرج .

في الوقت نفسه ، عندما قدم كريموف إلى الاستوديو ، تصور االقاء والحديث مع بالابانوف .. بعد المشهد الذي عاشه في خياله في طريق عودته من بتروفكا ـ انتقاماً مهيناً وفارغاً ، خالياً من أي معنى ، وغير قادر على تصحيح أي شيء ، لدرجة أنه شعر بالبرد ، وبالإرهاق فوراً ، فصعد بالمصعد الكهربائي إلى مجموعة التصوير ، وجلس هناك على المقعد في غرفته ، وطلب من مولوتشكوف إحضار ألبوم صور اللقطات السينمائية المقررة وغير المقررة .

« هل حدث هذا أم لم يحدث ؟ وهل كان هناك صبي ياترى ؟ »

ـ هل قلت شيئاً ، فياتشيسلاف أندريفيتش ـ كرر مولوتشكوف بقلق ، وهو يضع الألبوم على الطاولة ـ أحضرت لك الألبوم بنفسي . أما جينيا* نيتشوزالوف فهو في الجناح .

---

* جينيا : صيغة تصغير وتحبب للاسم الكامل يفغيني ـ المترجم ـ

ـ ادعه إلى مكتبي إذا كان في منطقة قريبة . أرسل أحداً إلى الجناح ليدعوه .

ـ إن يفغيني بافلوفيتش مع الممثلة . إنه يجري إختباراً مكرراً ، معتمداً على نفسه فقط . مايزال يبحث عن بطلة رئيسية . في حين أن الفيلم قد توقف عملياً ، فياتشيسلاف أندريفيتش . آه ، سوف يعاقبوني ، باعتباري منتجاً . المهم ـ الأموال . حيث أنني أخاطر احتراماً الخ . . .

ـ لابأس ، ستتحمل ـ قال كريموف بجفاء ـ لاسيما وأن علاقتك جيدة بيالانوف . بل إن علاقاتك به مؤتمنة ، موثوقة .

ـ لاأفهم ، فياتشيسلاف أندريفيتش . علام هذا ؟

ـ حسناً ، لابأس ، اذهب ياتيرنتي ، دعني أجلس وأفكر .

بانتظار قدوم ميتشورالوف ، أخذ كريموف يدخن ، ويقلب الألبوم ، متصفحاً صور الممثلين المعتمدين لأداء الأدوار ، وكان ينظر بريبة مكفهرة إلى أعين الممثلات المرشحات الدور الرئيسي ، وشفاههن وحواجبهن . وبين الوجوه الفتية التي أصبحت مسطحة ، جميلة مملة ، نظرت إليه فجأة ، في بؤبؤي عينيه ، عينا إيرينا الشفافتان ، الضعيفتان بطفولة ، اللتان اخترقتهما أشعة الشمس ، وقد ارتسم عليهما ظل خفيف لابتسامة حزينة . في اللحظة ذاتها ، رأى وجهاً آخر ـ . أبيض اللون ، مثل الجبس ، رأى رمشين شبه مغلقين ، يخترقهما ضوء العينين الأخضر الرطب ، والكحل الذي سال على وجنتها بضعف ، في هذه القذارة المتناهية القصوى ، غير المكترثة بالموت ـ ومن جديد ضربات المطر المتدفق على زجاج نافذة السيارة ، وهدير المحرك ، وبرودة شعرها المبلل اللوزية التي كانت تلاحقه منذ تلك اللحظات

الرهيبة في السيارة . ثم بدت له نافذة في نهاية ممر طويل ، ورائحة جسدية لتواليت الحلاقة أو ماء الكولونيا ، ورأس فينيامين فلاديميروفيتش الواضح البارز الملحوظ من كثرة الشيب في شعره — وهل يعقل أنه لاوجود في مكان ما من العالم لتعويذة منقذة ، لابتهال وصلاة للنسيان ، لتسامح الذاكرة ؟

« لو أنني استطعت ، بمعجزة خيرة ألا أتذكر ، لسهل وخف علي كثير من أمور حياتي . انه ، والد إيرينا ، كان محقاً ، ولم يكن الحق إلى جانبي ، كنت متهيجاً . ففي وحدته ، مع زوجته الجديدة ، كان يعيش من أجل ابنته فقط ، وأراد أن يعرف المذنب ، وصدّق كل ما قيل ضدي . وما العجب في ذلك ، فرهافة الألم ، والذنب والاتهامات — كلها أشياء معروفة ! أليست هذه كلها وليدة قرننا المتحضر العزيز ؟ » .

أغلق كريموف ألبوم الصور ، ماسحاً بتأمل مرهق جبينه وقصبة أنفه ، ثم فتحه من جديد ، ومن جديد ، ابتسمت له العينان الممتلئتان بضوء الشمس ، والمظللتان قليلاً بتيقظ ناء ، عندما واجهته الصورة المصقولة اللامعة . « إن المسرة هي قضية الحياة وغرضها » . تذكّر كيف كانت تنزل على الدرجات الحجرية ، وهي مضاءة من الخلف بشلال الشمس الأبيض ، النافذ من باحة الدير ، متمايلة قليلاً في ظلام الكنيسة الرطب الخفيف ، في ذلك اليوم الحزيراني . وكان قد قرر على نحو واع وبصورة حازمة ، أن من المستبعد جداً العثور على إيرينا ثانية للدور الرئيسي ، لذا فان الفيلم لن ينجح على النحو الذي رسمه ، وأن طعم الفشل المرير ، الذي لم يشعر به بشكله العاري أبداً من قبل ، ينتظره مستقبلاً .

ــ أتسمح لي ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟

دخل لاهثاً ، جينيا نيتشورالوف ــ المخرج الثاني ، ببنطاله المخملي المهتريء ، وسترته « الجينز » ، وهو شاب ذو عينين بنيتين مرحتين ، يخفي بلحيته فتوة سنه وحيائه لتخضب وجهه بلون أحمر مسمر . كان المخرج الثاني في مجموعة تصوير كريموف عاشقاً للسينما باخلاص ، وبصورة لاتنضب ، كان مولهاً بأفلام العالم العظيمة ، بالممثلين العظماء ، بالحركة التنظيمية للمرحلة التحضيرية ، بالاتصالات الهاتفية ، بالرحلات والتنقلات من أجل اختيار المناظر الطبيعية ، بالروح البنائية لألواح الخشب والغراء والورنيش والديكورات الحديثة للأجنحة ، كان مولهاً بالضوء المنطفيء بصورة سرية في صالة العرض أمام السحْر المنتظر للمادة السينمائية المصورة ، كان مولهاً بكل ما كان يشكل أمارات السينما الجادة . هذا الوله ، هذا العشق ، من النظرة الأولى شعر به كريموف ، قبل عامين ، وأخذه معه للعمل في فيلم « الحرب غير المعلنة » ، وفيما بعد في الفيلم الجديد .

ــ كيف تسير الأمور ياجينيا ؟ ــ وأبعد كريموف ناظريه عن الألبوم ، مشيراً له بسيجارته باتجاه المقعد مقابل الطاولة .

ــ مازالت على قيد الحياة ، رغم جميع التدابير المتخذة .فياتشيسلاف أندريفيتش ، لايمكنك أن تتصور ، كم أنا سعيد الحظ اليوم ، لم أفكر أنك ستحضر ! ــ قال جينيا بنشاط وحركة ، حاطاً جسمه على حافة المقعد ، وناظراً باهتمام شديد إلى الصورة الظاهرة في الألبوم . ــ أتعرف ، أنني قمت قبل عشر دقائق ، باجراء التصوير التجريبي للممثلة

شاتروفا . . . انها من مسرح « المالي تياتر » * ، وأقسم لك أنها فريدة من نوعها : شابة ، رائعة القوام ، عيناها عميقتا القرار — يمكن الغرق فيهما وعدم الظهور على السطح . تتحرك بجمال رائع ، ابتسامتها ساحرة . قبل أسبوع انتهت من التصوير عند المخرج بوليشوك . كم هو رائع لو تشاهدها . انها لاتزال هنا ، الق عليها نظرة سريعة ، وقل نعم أو لا . سوف تقتنع أن فيها شيئاً ما يستحق ! هل أدعوها ؟

— شيء ما فيها — كرر كريموف دون اهتمام ، مغلقاً الألبوم — شيء ما — ليس كل شيء . إنه شيء ما .

— إذا أمكن ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، طالما أنك جئت ، أنظر إلى شاتروفا ، إلى ماشا ! — توسل جينيا ، وأخذ جبينه يكتسب لوناً زهرياً تشوبه السمرة . — انها لاتزال هنا . سأحضرها الآن ، وستقتنع بنفسك ، كم هي قريبة من سكفورتسوفا .

« هذا شيء غير ممكن ، — فكر كريموف معارضاً ، وهو لايزال يشعر بلمعان العينين اللتين تنظران إليه في بؤبؤي عينيه — ماالذي جذبني إلى هذه الفتاة الضعيفة ، القوية ، ذات المصير الأليم ؟ المشاركة ؟ الشفقة ؟ أم الميل إلى موهبة أنوثتها غير العادية ، النادرة ؟ » .

— حسناً ، أحضرها ، لنرى ، ادع شاتروفا — قال كريموف متذمراً ، وسار في أنحاء الغرفة ، على مقربة من مجرى الهواء القادم من النوافذ ، المفتوحة على ضجيج فناء الاستوديو . ولسبب ما ، رغب بأن يسافر بعيداً إلى مكان ما . رغب بأن يجلس وحيداً في مقصورة

* هو المسرح الصغير بالمقارنة مع البولشوي — المسرح الكبير — المترجم —

قطار ، وأن يستلقي في استراحة دون تفكير ، في الأسفل على الفراش النظيف الذي يقرقع لنظافته في عربة منامة تئن وتندفع إلى الأمام ، قبيل الغسق ، وكأنها ممتلئة بغبار ذهبي اللون ، بزجاجها المزدوج المغبر ، الذي ينزلق عليه طويلاً غروب الشمس المتأخر ، متحولاً بصورة تدريجية إلى أشعة على لمعان البلاستيك ، منيراً بصورة متلألئة كهرمانية حافة السرير العلوي ، وأزرار الجاكتة على المشجب ، التي تترنح وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، مذكرة بالعزلة اللذيذة في مقصورة قطار مغلقة ، ملاذك الوحيد ، حيث لااستوديو ولا اتصالات هاتفية ، وحيث يمكنك التلذذ بالأفكار البسيطة والسامية ، التي تخطر في ذهنك في القطار ، حيث تعرف أنه يحق لك ، دون أن تقول كلمة واحدة لأي إنسان ، أن تخرج من القطار في الساعة الخامسة صباحاً إلى محطة عرضية ، غير معروفة ، مثل رايكا ، وتستنشق رطوبة الندى الكثيف على الرصيف المنسي ، وأن ترى كيف يسبح قرص الشمس التوتي في الضباب ، وكيف تتبخر أطياف أشجار الصفصاف وأسطح القرية فوق الأرض في رجرجة بيضاء . . .

ــ فياتشيسلاف أندريفيتش ، أتسمح لي ؟

ــ تفضل يا جينيا ! ــ أجاب كريموف بصوت عال ، قاصداً إبعاد وسوسة الرحلة والطريق : فالحلم بالطريق كان علامة الإرهاق الشديد .

كان جينيا نيتشورالوف يقود شاتروفا إلى مكتب كريموف ، وقدمها إليه دون أن يخفي إعجابه المدلل بها . وقفت شاتروفا بخفر إلى جانب كريموف ، مضطربة ، ناظرة بحوّل ، بعينيها الزرقاوين الملائكيتين ، وقدمت له أصابع يدها الرطبة بخجل .

ـ أرجوك ، تفضلي ، ـ قال كريموف

جلست على « الديوان » وجمدت كلها ، بظهرها المستقيم ورقبتها المرنة المشدودة . أما وجهها الأصفر ، البيضوي ، الذي غسلته لتوها من الماكياج ، فقد كان متوتراً بصورة ملحوظة ، خوفاً من القرار القريب . فكر كريموف بألم كيف سيصعب عليها قراره بالرفض ، وكيف سيثبط هذا الرفض عزيمة جينيا المثابر ، السريع التأثر ، بيد أنه لم يكن قد استطاع أن يحدد بدقة ، ماسبب حذره من هيأة شاتروفا ، وماهو الذي لم يناسبه وأزعجه بصورة مثيرة ـ أوليس هذا الجمال النموذجي الصارم ، دون أي غموض أو ألغاز ؟

ـ هل تعرفين موضوع السيناريو ـ سألها برقة بالغة .

ـ حدثني عنه يفغيني بافلوفيتش ، عندما كنا نعد اللقطات التجريبية .

ـ وحسبما فهمت ، حول أي موضوع يدور ؟

ـ حول الشبيبة . عن الآباء والأبناء ـ وابتسمت بصورة خفيفة ، ثم طردت بخوف ، ابتسامتها من شفتيها المنفوختين ـ عن معنى الحياة . . .

ـ وهل تريدين أن تمثلي في هذا الفيلم ؟

ـ جداً .

ـ ولماذا ابتسمت عندما قلت عن معنى الحياة ؟

حركت كتفيها قليلاً ، ثم قالت :

ـ أعتقد أن غالبية الناس الآن تعيش يومها وحده ، فياتشيسلاف أندريفيتش .

ـ ربما لهذا السبب ، يجدر بنا أن نقرع الأجراس ؟

ـ لاأدري ، فياتشيسلاف أندرييفيتش . انني أعيش ، آملة تمثيل دور ليزا كاليتينا * المعاصرة ، ولايحالفني الحظ

ـ أتظنين ، أنهن موجودات في الحياة الواقعية فتيات تورغينيف ؟ ألم يزلن بزوال الضياع والدساكر الخاصة ؟

ـ ثمة عدد قليل منهن . . .

ـ حسناً ، لن أزعجك أكثر من ذلك . شكراً ، سنشاهد اللقطات التجريبية ، ونرى كيف تبدين على الشاشة .

ـ انني لم أحز على إعجابك . « لم أع » ، كما يقولون عندنا في المسرح

وفتحت قفل حقيبتها ، وهي تحرك رموشها الطويلة ، وأخرجت منها علبة السجاير ، بيد أنها غيرت رأيها على الفور ، وأعادت السجاير من جديد إلى الحقيبة ، وقالت بحزن مجريب ، أدهشه فيه عدم تطابقه مع مظهرها الخارجي الظافر :

ـ إن الشيء الذي لايحتمل ، والأكثر إهانة في مهنتنا ، اللحظة التي يختارونك فيها : شفتاك ليستا كما يجب ، قوامك غير مناسب ، صوتك لايصلح . إلى اللقاء فياتشيسلاف أندريفتش . كم أنت سعيد — فأنت من يختار .

ـ أنت مخطئة على الأغلب . لاأحد يدري ، هل نحن نختار القدر

---

* ليزا كاليتينا — بطلة رواية تورغينيف « عش النبلاء » ، تميزت بالرومانسية المفرطة . — المترجم —

أم القدر يختارنا ــ أجاب كريموف دون رغبة ــ سعيد بخطئه ذلك الذي يعتبر الآخرين سعداء . كلا ، لقد حزت على إعجابي ، رغم أنني لاأفهم شيئاً في فن هاتين العبارتين «أعْ» و «لم أعْ» . والضرورة هي التي تقرر ، كما تعرفين . غير أنني لاأريد أن أزرع في نفسك أملاً كبيراً خاصاً

ــ أنا أفهم ذلك . أتمنى النجاح لفيلمكم . إنني أحبك كمخرج . .

ــ أشكرك . ــ وصافح يدها المضطربة في راحة كفه ، دون أن يضغط بقوة .

فتح جينيا الباب مسبقاً وخرج لمرافقة شاتروفا إلى المصعد،وعاد بعد خمس دقائق مكتئباً . اتكأ بمرفقيه من الخلف على ظهر المقعد ، غارزاً قبضتيه في لحيته ، وقال بارتباك وحيرة :

ــ لماذا لم تعجبك ؟ أية عينان ، أي قوام ! تقف إلى جانبها ، ويسري جمالها في جسمك كالكهرباء !

ــ جينيا ، إن أفضل مافي الفن ، قد صنع على ضوء الشموع . يلزمنا في البطلة «القليل» وليس «كل شيء» . وإلا لن نتحرك من مكاننا . تعال نبحث عن النور الداخلي . على أية حال ، أنت تعرف هذا .شاتروفا ، رغم كل معطياتها ، لاتصلح . معطيات رائعة ، بيد أن هناك شيئاً خشناً ، قاسياً ، في وجهها ، في استقامة أنفها . . . لكن ، يا جينيا ، بدا لي أن . . .

ــ ماذا تقول ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، ليس لدي أي شيء . . .

وقال جينيا متألماً ، وهو يضغط بقبضتيه على لحيته ، وظهر ما يشبه الغضون على جبينه الفتي :

فعلاً ، يجب أن يكون شعور الممثلين شنيعاً للغاية في اللقطات التجريبية . فنحن نختارهم ، كما يختارون الجياد في المعرض . أما النساء فنفحص أسنانهن ، أرجلهن ، مشيتهن . إن هذا مهين ومجوني ، فياتشيسلاف أندريفيتش ! قل لي ، ألم تخطيء ، ألم تندم ، لأنك رفضتها ؟

— ندمت وأخطأت . لكن الفيلم الجاهز لايمكن تصليحه بمقص أعوج . ولتكن عبقرياً ، بل وأعظم عبقري ، فلاوجود لأي فيلم بدون بطل أو بطلة . إن الفيلم السيء هو بعينه الوقاحة والمجون والاستهزاء ، أمام أعين الملايين . لذا ، جينيا ، علينا أن نكون صارمين ، قاسين ، شديدين ، لانعرف الرحمة ، في اختيارنا للممثلين . على أية حال ، أنت شاب ذكي ، موهوب ، وهذه الحكمة العميقة كلها تدركها جيداً .

— ليس كلها .

— وماذا بالذات ؟

— أنت ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، هل بحثت طويلاً ، أثناء اختيارك لإيرينا سكفورتسوفا ؟

— رأيتها مرتين في المسرح قبل عامين ، حيث كانت لاتزال فكرة الفيلم غامضة ضبابية . لم تكن هناك حاجة لاجراء لقطات سينمائية تجريبية . كان كل شيء واضحاً : النظرة ، الايماءة ، الحركات ،

الرشاقة الداخلية . . . ابتسامتها وحدها ، محطئة تارة ، وحزينة تارة أخرى ، كانت سيناريو كاملاً إن صح التعبير . كان يمكن تصور حبها ، ضعفها ، زواجها غير الموفق ، يأسها ، استسلامها ، أملها . . . إن مثيلات سكفورتسوفا نادرات جداً ، وبخاصة بين الممثلات .

قال جينيا بحرج :

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، انني أكن لك احتراماً عميقاً . بيد أن الأمر ليس كذلك . . .

— أي أمر ليس كذلك ؟ أكمل حديثك إلى النهاية ، طالما بدأته . ليس عن احترامك لي ، بل عما فكرت به .

أمسك جينيا لحيته الكستنائية بيديه الاثنتين ، ونظر إلى الأرض ، غير عازم على الإجابة ، متأسفاً لأنه لايحق له أن يصحح لأستاذه الموقر ، واثبات عدم صدقه . ورأى كريموف هذا التردد المؤلم ، والتوقف الوجل على وجهه ، فحثه بخشونة :

— هيا ، قل ، اقتحم ، اخترق ، قل الحقيقة كلها مرة واحدة ، لاتخجل !

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، لايسرني ابداً أن أحدثك حديثاً مسيئاً . . . — قال جينيا بحيرة — ولكن ، قل لي ، ألم ترفض سكفورتسوفا عندما اتجهت وإياها في المرة الأخيرة لاكتشاف الطبيعة؟

— في أي شيء رفضتها ؟

— رفضت إعطاء الدور لها . . .

— و ؟ . . . قل ، اندفع هيا إلى الأمام ، حطم جميع الأسوار والحواجز .

— انني أشعر بالحرج ، فياتشيسلاف أندريفيتش .

— وعلام الحرج ؟ تكلم بصراحة ، سيكون الأمر أوضح لنا نحن الاثنين .

— يقال أنها كانت مغرمة بك وأنت مغرم بها . وأنها طالبت بأن تطلق زوجتك وتتزوجها . ولم يكن باستطاعتك ذلك . . . وفي ذلك اليوم ، عندما انطلقتما إلى الطبيعة ، قطعت علاقتك بها ، فأرادت هي الإنتقام منك . . . بهذا الإنتحار الرهيب . . . .

قال جينيا ذلك ، بسرعة وتلعثم ، ثم صمت ، ناظراً إلى كريموف بعينين ممتلئتين خوفاً ، ثم أطرق وكأنه ضُرِب على رأسه ، معبراً عن ذنبه برأسه المطأطأ ، وبرقبته المنحنية ، التي تشبه رقبة صبي ، وحتى بطوق سترته « الجينز » البارز ، الدالي .

— وهل تصدق ، أنت يا جينيا ، هذا التلفيق الهجين الجائر وهذا الهراء الوقح ؟ هل من المعقول أنك تصدق ؟ لقد سألتني ، وكأنك تؤنبني ، ثم خفت — قال كريموف كابتاً في نفسه نار التهيج المشتعلة — وهل تصدق الشائعات ؟ أم أنك تريد تصديقها ، لأنك ضعيف ، مثل جميع الناس ؟

— لا أريد ، لا . . . — أجاب جينيا بصوت مكبوت ، وكأنه يستعد لتحمل الجزاء . — ولكن ، لماذا ينسج حولك كثيرون

يا «فياتشيسلاف أندريفيتش ، السخافات ، ويحيكون أحازير قذرة متنوعة ؟ لماذا ؟ . . .

— لأن كثيرين لم ينموا بعد ولم يصلوا إلى الكثير و — إذا أردت ، وبعبارة مخففة — لأنهم لايتعاملون بخير ومحبة نحو بعضهم بعضاً . نحن نتحايل ونخدع أنفسنا ، عندما نتحدث عن إنسان جديد كلياً ، في عصرنا هذا . ولكن ، يا جينيا ، وما الحاجة إلى فننا ، إذا كان الناس جميعاً ملائكة ؟ هذا ما أقصده . تصور ، لو أنك ، وأنت الشاب اللائق المناسب من جميع الجوانب ، جئت فتاة لاتقل عنك لياقة ، لكنها وحيدة . ومكثت عندها ساعة ، بصورة عفوية أم مقصودة ، ولحظك الجيران ، اليقظون ، ثاقبوا النظر . فماذا سيقول عنك الرأي العام في الغد ؟ سيكون رأياً مديناً ، وحيد الجانب — لقد ارتكبت خطيئة . ومن المستبعد أن يعترض أحد ، ويقول بأنك كنت تقلب الكتب عندها ، وتتناقش حول المخرج فيلليني . المحزن في الأمر ، أننا نقع في أسر تصورات كاذبة ، حسودة ، حقودة عن بعضنا بعضاً . أتفهم ياجينيا ؟ واحد من الذرائعيين يستبدل بمهارة ، أو ربما بسخافة كبيرة ، روح الإنسان بالحساسة والابتذال ؟ أما ضميره ، فقد كان غافلاً بمتعة ولذة أمام شاشة جهاز التلفزيون . على أية حال ، إن الضمير الحي شيء خطر على النفس وعلى الآخرين . إن الحياة تغدو غير محتملة ، في حين أنه يجب العيش وفق القوانين الأخلاقية ، لا من أجل الملذات والمسرات الآنية . هذا صحيح ، ياجينيا ، أم لا ؟

— فياتشيسلاف أندريفيتش — قال جينيا مقشعراً — بأي حزن كبير تنظر إلى الناس

– ليس بحزن بل بأسف عظيم – أجاب كريموف . – لأن هذا العصر هو عصري أكثر مما هو عصرك . عصرك سيأتي . بالمناسبة ، أنت أمام منعطف ، على الأغلب . . .

– أنا ؟ أمام منعطف ؟ إلى أين ؟

– أقصد من حيث منصبك . – قال كريموف بعدم اكتراث بالغ – فاذا ما انهارت سمعتي بصورة نهائية و. . . . غيره . . . وغيره ، فأنت ستشغل مكاني ، يا جينيا ، وسوف تقوم بتصوير فيلمي .

فارتعش جينيا ، وحرك رأسه إلى الأعلى حركة حادة ، وتشوه وجهه بصورة بائسة من الماكياج ببقع لامعة حمراء ، بحيث بدا : وكأن ألماً مفاجئاً اخترقه !

– لا ، أبداً ، أبداً . .

– اشرح ، ماذا تقصد .

– لن أشغل مكانك أبداً ! – قال جينيا لاهثاً بصورة محتدمة – إن من يريد أن يشغل مكانك هو غبي ، أبله مطلق ! من خطرت له هذه الفكرة في رأسه ؟

– لقد خطرت لأبله ، هو أنا . لقد كنت سأرضى بذلك .

– فياتشيسلاف أندريفيتش ، انني أنحني إجلالاً واحتراماً لموهبتك ، لهذا لن أتمكن من إخراج هذا الفيلم . إنني عاجز عن ذلك . لقد تعلمت منك ، وأنا أذكر ، أن على كل امرء أن يغرف من قصعته ، هو ، عليه أن يرتدي حذاءه ، هو

— يغرف من قصعته، يرتدي حذاءه — هذا صحيح — قال كريموف ، وضحك مستغرقاً في التفكير ، ومع ذلك ، ففي الحياة الأرضية كل شيء ممكن .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ! أنا لست خائناً ! — قال جينيا محتداً بغيظ — لن أوافق أبداً ، في يوم من الأيام .

ولاضطرابه وعجلته ، أخذ يسحب بصورة طائشة ، غير رشيقة ، علبة من السجاير الرخيصة من جيب سترته الصدري ، وبعد أن أشعل سيجارة وسحب منها نفساً ، وسعل ، طارداً الدخان ، قال :

— لن أوافق أبداً ، أبداً — كرر جينيا بسرعة ، باستياء — أنا أعرف ، لماذا لا يحبك بعضهم في لجنة الدولة للسينما ، بل وحتى بعض الرؤساء في الاستوديو ! انهم لا يحبونك ويخشونك ! لأنك تغرف من قصعتك ، وتسير وفق رأيك ، وحسب طريقك الذي اخترته . وهذا أمر لا يقدرونه . إن عقولهم انتهازية جبانة . كما أنهم لا يريدون أن يفقدوا مراكزهم . لقد سمعت غبياً منهم ، ممتليء الجيوب بالأموال ، يقول ذات يوم في مكتبه لأحد الأشخاص : « إنها مذهلة ، قدرة كريموف على اكتساب المقرظين المادحين ، بتعبير مخفف وماالذي ينقصه ؟ الشهرة ؟ المال ؟ إنه مرتش وأناني ! » . لقد انتشر هؤلاء المقرظون المادحون في المكاتب بأعداد كبيرة ، وكل منهم يتشبث بمقعده بيديه ، وبطاولته بأسنانه ، وكلهم تقريباً ، بلا معرفة ولا قدرة

ضحك كريموف من جديد وقال :

— كفانا حديثاً عن موظفي السينما البيروقراطيين . تعال ، يا جينيا ، نفكر معاً ، كيف سنعيش في المستقبل ، كيف سنعمل . هل سنقاتل

حتى آخر طلقة ، أم سوف نستسلم ونضع أنفسنا تحت رحمة المادحين المقرظين ؟

وأمسك جينيا من مرفقه بود ، مواجهاً عينيه الداكنتين المشرقتين بابتسامة خافتة ، وتابع حديثه بثقته المازحة العادية :

ـ سوف نقاتل ونرد على النار حتى آخر طلقة ، يا جينيا . تابع بحثك عن البطلة . وعندما يصبح العبء ثقيلاً مرهقاً لايطاق . سأعطيك إشارة . وتخرج أنت من الحصار . وسأنهي إطلاق النار لوحدي .

ـ فياتشيسلاف أندريفيتش ! لماذا تقول ؟

ـ عزيزي جينيا ، أنت لاتزال شاباً ، ولاتعرف أنه قد تكون الظروف أقوى منا . شكراً لمشاركتك .

ـ فياتشيسلاف أندريفيتش !

ـ ألاتريد أن تتقبل مني عبارة شكر ؟

* * *

# الفصل الثالث عشر

بعد نصف ساعة ، قاد مولوتشكوف بالسيارة كريموف إلى بيته الريفي . وفي الطريق أسند كريموف رقبته بتعب واعياء إلى ظهر المقعد ، وأغمض عينيه ، وأخذ يسترجع في ذهنه بألم وحزن ، الممر الفارغ في بناء بتروفكا ، حيث التقى ، دون أن يتوقع ، فينيامين فلاديميروفيتش بحركاته المسرحية التي لا تطاق ، ولا يستطيع السيطرة عليها ، كما بدا له ، والناشئة عن فجيعته الحقيقية الصادقة . وبعد هذا الجنون ، رأى ، إما في الواقع ، أو في مخيلته ، بالايانوف الأحمر اللون ، الذي شمر أكمامه ، كالمحارب ، عن يديه القصيرتين ، وبيسكاريف بوجهه المحطم النحيف ، وبقدميه المعقوفتين تحت المقعد ، وهما يشربان الشاي ، واسترجع في أذنه خطابه التهريجي البهلواني المتأنق ، المعد لكليهما ، وتأسف ولم يتأسف ، في آن واحد ، على السخرية المتدفقة في لعبته الوقحة التهريجية معهما . ولكن هل حدث هذا ، أم لم يحدث ؟ وكان يزعجه شيء ما ، ويثيره بقلق جديد غير مفهوم ، لم يستطع تحديد أسبابه ، تماماً ، كما يحدث أحياناً ، عندما يحاول تذكر كنية شخص ما ، ولا يستطيع تذكرها ، وكأنها ظل متسلل ، تعجز الذاكرة عن الإمساك به .

ما إن غادرا الاستوديو بالسيارة إلى المركز المزدحم الشوارع موسكو ، ولبقائهما طويلاً ، أخذا يرزحان تحت نتن الغازات المنفوثة على تقاطعات الطرق المكتظة بالسيارات ، وحاول مولوتشكوف الإجتماعي بطبعه ، أن يقول شيئاً ما (« أوه ، يمكن المرء أن يموت ، صحراء حقيقية ») ، وتأوه بلطف ماسحاً من لحظة لأخرى بحرقة ، يديه المتعرقتين الممسكتين بمقود السيارة ، غير أن كريموف قال بتثاقل : « تيرنتي ، لنأخذ نفساً ونسكت ، إن كنت لا تعارض ؟ » — وصمت غير مكترث بالقيظ الاسفلتي ، وجحيم الشوارع المغبر ، وبجهود مولوتشكوف لأن يكون سباقاً ، مرحاً ، كما يتوقع له أن يكون ، على الأغلب ، مالك الأفلام المالي في جميع الظروف الحياتية .

« إذن ، أنا ذاهب إلى البيت الريفي ؟ — كان يفكر كريموف ، متكيفاً مع الجو المنزلي . — أجل ، « دوش » تحت أشجار التفاح ، ابنتي الحبيبة تانيا ، عيدي الدائم ، وأولغا ، بعينيها المخمليتين الوديعتين ، القادرة على الصمت الطويل عندما لا تكون راضية عني . . . الكائنان المحبوبان على نحو خاص على سطح الأرض ، وبدونهما لما كانت لي حياة . نعم ، نعم ، الرقة والنعومة . . . وفالنتين الجدي بافراط ، الغامض في جانب ما ، الذي يرغب ، بصورة مكتومة بأن يأخذ دوره ، وخطيبته لوسيا ، ليودميلا ، المنطوية على نفسها ، ذات الأنف الحاد الأرنبة ، والراغبة أيضاً بأخذ حصتها . . . ماذا بي ؟ في السابق ، كنت أتوجه إلى البيت الريفي بفرح ، أما الآن ؟ هناك ، مكتبي في العلية ، كتبي ، وسريري تحت النافذة المفتوحة ، والاطمئنان والهدوء ، حيث يمكن للإنسان أن يفكر ويستغرق . . . غريب ، لقد جئت من الخارج ، وحتى الآن لم أتحادث مع أولغا . . . » .

من جديد ، ما كاد يبدأ التفكير بأولغا ، مشتاقاً إليها ، حتى أخذ يشعر بتعب ، بالربيع الباكر ، والبرودة الجبلية في الهواء ( كانت جبال الآلب على مقربة منه ) ، وبحشود العيد المارة أمام الواجهات الحارة المحلات التجارية ، ورأى بعيداً في الأسفل ، خلف الحاجز الحجري الذي كان يفوح منه الدفء ، ويفوح منه شهر نيسان ، رأى ساحة محجوبة بالسيارات ، غطيت بكاملها بالخضرة الناعمة لأشجار الدلب ، في الشبكة الربيعية الممتدة على المسطحات الخضراء من الظلال والشمس — في تلك الفترة من رحلاته الأولى إلى الخارج ، كان يشعر بالفرحة القريبة ، بالحب ، والشباب المتواكل . هذه الساحة المريحة الأنيقة ، كان يبحث عنها على عجل في زياراته اللاحقة للنمسا ، ولم يستطع العثور عليها ؛ لا في فيينا ولا في زالسبورغ . وكان يتصور أحياناً ، أنه لم يستطع العثور ، لا على تلك الساحة التي يدفئها النهار النيساني ؛ بل ولا على ذلك الربيع ، الشباب ، ذلك الأمل السعيد للسنوات الخمسينيات الذي لم يتحقق . . . » ومع ذلك ، أحقاً أن هذه الساحة يربطها بأولغا خيط من الماضي ؟ كنت في الخارج لوحدي ، أما هي فبقيت بعيداً في موسكو . . . كنت أشتاق ، أحلم بلقائها على تلك الساحة ، لكي يحس كلانا بهواء اللامبالاة الفتي هذا . . . » .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنت تغفو ، أليس كذلك ؟ — من خلال هدير المحرك ، برز صوت مستعطف ، بابتذال ، ولهذا بازعاج ، مطفئاً بذلك الربيع وخضرة أشجار الدلب على الساحة ، وكرر ثانية : — ألم تغفو ، من ضجيج المحرك ، أليس كذلك ؟

— إنني يقظ .

— إن يفغيني بافلوفيتش رجل جدي ، ولديه إهتمام بالعمل .

« ثانية ، تيرتني بطبعه الإجتماعي الذي لا يفارقه وعنايته بأمور العمل ، اصبر قليلاً ، يا عزيزي » .

— تتحدث عن نيتشوراليف ؟ — سأله كريموف دون أن يفتح عينيه .

— عنه ، فياتشيسلاف أندريفيتش

فتح كريموف جفنيه المثقلين بالنسيان . عبرت السيارة الأبراج الرمادية في ضواحي موسكو ، منطلقة على الاسفلت المحروق إلى حد البياض في الطريق المحلق الدائري ، وكانت تلوح من اليسار ، من خلال رؤوس الأسيجة ، أشجار الشوح ، وبينها كانت تتراءى السهول المصفرة ، في الشلال الضوئي الريفي ، كان يرتجف فم مولوتشكوف الضيق الذي انفرج عن ابتسامة مترقبة .

« أمر طريف — وجهه حليق بنعومة بالغة ، وكأن الشعر لاينمو عليه ، أما رقبته فكلها تجاعيد كبيرة — لاحظ كريموف — يبدو أنه قوي وصحته جيدة ، رغم نحافته وهزاله » .

— إنه إيجابي ، يفغيني بافلوفيتش . ألا توافقني ؟

— أوافقك . أنت انظر إلى الطريق ، ليس ضرورياً أن تنظر إلي ..

— لا تقلق ، أعرف أنا من أقود — قال مولوتشكوف مطمئناً ، على طريقة النساء ، بصوت أقرب إلى الغناء ، — اعتبر أنني أقودك إلى الجبهة : في مكان ما ، قرب نهر الدنيبر مثلاً : لو قدمت في تلك الأثناء فحص السواقة ، لما كنت معك في وحدة الاستطلاع .

– ولماذا تذكرت وحدة الاستطلاع ، يا تيرينتي ؟

– لقد نسيت كل شيء تماماً . ولا أريد أن أتذكر شيئاً . غير أنني أذكرك أنت وحدك ، ولهذا أحبك .

إن رقة صوته المتموجة ، ولباقته المفرطة في المعاملة ، ورشاقة حركات قامته القصيرة ، واحترامه الدائم الزائد الذي يبديه نحو كريموف ، ومخاطبته له بلغة الجمع ولهجة الاحترام ، كما يخاطب الجندي قائده – إن سمات مولوتشكوف هذه كلها ، التي لم تنكشف حتى القاع في الحرب ، قد اكتشفها كريموف باهتمام لدى لقائهما الأول قبل ستة أعوام . ونسب كريموف هذه السمات الجديدة ، التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من مولوتشكوف إلى شكل الدفاع عن الذات ، الذي تكون مرة واحدة وإلى الأبد ، لدى تيرنتي ، الكشاف السابق الفاشل ، الذي صدمته الحياة بقوة في السنوات اللاحقة بعد الحرب أيضاً .

التقيا بصورة مفاجئة ، غير متوقعة في ساحة كالوجسكايا بالقرب من العلب الآلية للمياه المعدنية في يوم أحد من أيام حزيران ، كان يدور فيه زغب أشجار الحور وكأنه في عاصفة . ولولا زغابة التصقت في قعر كأس كريموف ، لما انتبه أحدهما للآخر . « أنظر ، أين حطت ، إنها تطير إلى فمك مباشرة ، الملعونة » – قال شخص اقترب منه ، من الجانب ، وبعد أن أطلق قهقهة لامبالية ، مد يداً سمراء متشبثة ، كيد القرود ، إلى كأس في العلبة الآلية المجاورة . نظر كريموف ولم يصدق في البداية : « هذا مستحيل ! » .

من فصيلة استطلاع الفوج التي وصلت إلى ألمانيا لم يبق جندياً واحداً في عداد الأحياء . لم يعد يذكر وجوههم بوضوح ، بيد أن هذه اليد

المعروقة المتشبثة رسخت في ذاكرته مدى الحياة ، حتى أنه رآها في منامه ، وهي تخدش باضطراب في الثلج المسود كالبارود في منحدر الحفرة . . . نعم ، كان هذا مولوتشكوف ، جندي من فصيلـــة الاستطلاع ، وكان آنذاك نحيفاً جداً ، شبيهاً بالمراهق الشرير ، ذا عينين صفراوين وقحتين ، سليط اللسان ، يحمل نطاقاً مغتنماً عليه مسدس « بارابلاو » ، وهو مسدس يطلق بدقة وصلابة ورنين ، حسب رأي أصحاب الخبرة من رجال الاستطلاع ، وكان يلبس جزمة ضباط ألمانية ، جمع أطرافها من فوق على شكل أوكورديون على رجليه الرفيعتين . غير أن مولوتشكوف ، الذي تعرفه كريموف في يوم زغب الحور من خلال يده ، التي أمسكت الكأس باندفاع ، لم يكن ذلك الشاب الماهر الهاوي للفكاهات والأغاني الروسية الشعبية الريفية ، ذلك الشاب الطائش ، المرتعد خوفاً من نيران الرشاشات على خط المنطقة المحايدة ، الذي كان يفقد إرادته خلال ساعات ، بل كان رجلاً متغضناً ، مكرمشاً ، قصير القامة ، يرتدي بزة رثة مبتذلة ، وقميصاً غُسل حتى اهترأ ، مع ربطة عنق مربوطة بلادراية ، أما عيناه فقد أجهدتا من اللمعان بخفة ، لكنهما كانتا مثل قنديلين ماحوسين ، وكشف شحوبه المرضي عن شعر كثيف رمادي على خديه . ورأى كريموف نظرته الكلبية ، المداهنة ، المتزلفة ، عندما سأله بعد أن أجلسه في سيارته ، إلى أين يذهبان لتناول قدح من المشروب من أجل اللقاء – إلى البيت أم إلى المطعم . وأجاب مولوتشكوف ، دون أن يجرأ على الجلوس براحة أو على إسناد ظهره إلى ظهر المقعد ، أن من الأفضل إلى البيت ، ان أمكن ، ليتعرف على زوجته ، ونظر بوجل إلى صالون السيارة ، إلى أغطية المقاعد ، إلى اللعبة المشعثة الشعر التي علقتها تانيا على المرآة ، على شكل تعويذة .

في منزل كريموف ، سرعان ما ثمل مولوتشكوف وانتشى ، وانتعش . كان يمسك بالسكين والشوكة بأصابعه ، مزيحاً خنصره ، وروى ، متلعثماً ، بحضور أولغا المضيافة المتحفظة ، قصته الكئيبة بعد الحرب : في عام ألف وتسعمائة وخمس وأربعين ، عاد إلى الكولخوز ، بالقرب من مدينة فورونيج . كان عدد الرجال رجل ونصف ، والباقي نساء . لهذا ، ودون أي تفكير ، وبسبب من جرحه ، عثر لنفسه على عمل ، أميناً لمستودع . غير أن حياته سارت على الفشل الماكر الخبيث ، مثل ميزان حرارة وسط عاصفة : لم يتمكن من الزواج ، فالنساء الجميلات لم يسمحن له باختيار امرأة لوحدها ، وأسقينه الساماغون * ، كالثور ، وبعد ذاك انقلب كل شيء على عقب وانتكس . فقد سرق لصوص المدينة المستودع وأحرقوه ، واضطر لتحمل المسؤولية ، حسب قوانين بعد الحرب الصارمة ، وفي العام التاسع والأربعين أصدرت المحكمة حكمها الصارم عليه وفق نص القانون ، ولهذا أخذ يقطع أخشاب الغابات في أنهار الشمال ، متحملاً الجوع والبرد . وبعد أن أمضى فترة حكمه ، لم يعد إلى القرية ، فقد قرر جمع مبلغ كبير من الروبلات بالعمل الحر في سيبيريا ، وذلك بقطع الأشجار بالمنشار الكهربائي والفأس ، لكنه لم يستطع تجميع مبلغ كبير من المال في غابات التايغا ، فقد تزوج ، وأخذت تخور قواه ، وبدأ يتطلع إلى عمل في القطاع الإقتصادي . وسنحت له فرصة العمل في وظيفة جيدة : في تموين بعثة جيولوجية على نهر نيجنايا تونغوسكا ، (حيث تتنزه الدببة معانقة نوافذ البيوت) . غير أن البعثة الجيولوجية أنهت أعمالها خلال ثلاث سنوات ،

* الساماغون : مشروب كحولي بيتي قوي مصنوع من الفواكه المخمرة — المترجم —

ورماه القدر بعد ذلك في مدينة كيرنساك ، الواقعة في غابات التايغا ، أولاً ، ثم في مدينة ايركوتساك ، حيث عمل أمين مستودع لمؤسسة الخضار ، ثم مدير مرآب ، ثم مدير مطعم عمالي ، إلى أن أصيب صدفة في كليتيه بالمرض ( « فقد شرب كثيراً من مياه المستنقعات أثناء الصيد ، حيث تقفته جرثومة ما » ) . مرض مولوتشكوف وهجرته زوجته ، هجرت مريضاً ، وليس زوجاً أو عاملاً ، أما هو فبعد مرضه ، وبعد علاج طويل ، تحقق حلمه في سنوات الكهولة بالاقتراب من موسكو ، وقدم إلى منطقة خيميكي ، إلى أخته ، الأرملة ، التي كانت تعيش وحيدة . وهنا أراد العثور على عمل باختصاصه ، في التموين في مصنع بناء القاطرات الحديدية ، بيد أنه لم يستطع حتى الآن الحصول على أي شيء جيد ، على وظيفة لائقة . « يعدونني باستمرار : تردد إلينا ، تردد ، وليس في الجيب شروى نقير ، ولا يسمح لي ضميري بالعيش عالة على كتف أختي براتبها التقاعدي ، وحالتي يرثى لها ، أعيش على الكعك وحده ، ولا أتناول طعام الغداء عند أختي . أشتري الكعك في مكان ما في البولفار ، وأقضمه ، وأشعر كأنني شتبيع على طريقة الجنود ! » .

خلال حديثه ، كان ثملاً بصورة قوية ، وبكى فعلاً بكاء خافتاً من أنفه ، فشعر كريموف بالألم والشفقة من رؤية سترة مولوتشكوف المجعدة الملطخة ، وشفتيه الممدودتين بسبب البكاء ، ومن كيفية غرزه الشوكة في طبق الخبز ، ممسكاً بكسرات الخبز الصغيرة ، ومن نظرته إلى اللوحات الفنية المعلقة على جدران غرفة الطعام ، وإلى المزهريات وإلى الثريا ، معتبراً هذا ، كما يبدو ، بمثابة ثراء كبير وبذخ وترف ، استحقه قائد الفصيلة السابق ، وهو الآن إنسان واسع الشهرة . وانطبع

في ذاكرة كريموف الاحمرار الشمل لوجنتيه ، اللتين أصبحتا على الفور كالحوّار المتقع بسبب إثارته وانفعاله — وبرز عليهما شعر ذقنه بلون أغمق ، وأشد وخزاً ، وكأنه انتطال فجأة . وعندما مسح الدموع بقبضته المعروقة ، قال مولوتشكوف بصوت متقطع : « أنا عبدك يا فياتشيسلاف أندرييفيتش . وسوف أخدمك بإخلاص . فنحن مرتبطان معاً بخيط واحد — لقد حاربنا معاً . أنا مدين لك بحياتي . خذني العمل عندك . أنا أعرف أنك قادر على عمل الكثير » .

لا ، لم يكونا صديقين في الجبهة ، كان كل شيء أكثر بساطة ، وبالتالي أكثر وضوحاً . وربما كان الخيط الوحيد الذي يربطهما هو العملية الاستطلاعية غير الموفقة التي اشتركا فيها في شتاء عام أربع وأربعين . لم ينس كريموف تلك العملية الاستطلاعية الفاشلة ، وربما لشفقته على مولوتشكوف ، أو لشعوره بذنبه الشخصي ، ساعده في إيجاد عمل له بصفة مدير إداري في إحدى مجموعات التصوير في الاستوديو ، ثم مساعداً لمدير الإنتاج ، ثم مدير إنتاج في مجموعته ، وكان راضياً عن نشاطه وسعيه الحثيث . وإن الخفة الشديدة الدائمة والنشاط المستمر وطاقة مولوتشكوف التي لاتنضب ، وعلاقاته المريحة للغاية مع إداريي الاستوديو ، وقدرته البشوشة على عقد أطيب العلاقات والروابط مع المؤسسات والهيئات المختلفة ، التي يمكن أن يتوقف عليها تنظيم اللقطات على الطبيعة ، واستعداده المسبق لتنفيذ أي طلب يبديه كريموف ، وابتسامة شكره الخنوعة الرقيقة على ماضيه وحاضره ، وتقديس المخرج في المجموعة — كل هذا ، غير المتوقع من مولوتشكوف قبل سنوات عديدة ، أكد لكريموف شيئاً واحداً : أنه في المراحل المختلفة من حياة الإنسان يكمن فيه شيطان أو ملاك . « كان فيه شيطان

هناك ، وملاك هنا . أم العكس؟ » . بالنسبة لدقة مولوتشكوف التنفيذية التبجيلية المخلصة ، المزعجة أحياناً ، كالتملق ، كان يقف كريموف منها موقفه الساخر المألوف ، لكن المهم ، أن الأمور المالية والإدارية والتنظيمية ، تحت سلطة المدير اليقظة الساهرة ، كانت خالية من أية عيوب أو شوائب ذات شأن . وخلال ست سنوات من العمل شغل مولوتشكوف في الاستوديو مكانة مرموقة بين مدراء مجموعات التصوير ، وحصل بمساعدة كريموف على شقة ، وأخذ يرتدي البزات الأنيقة النظيفة ، وأصبح نظيفاً وأنيقاً لدرجة يصعب معها التعرف عليه ، أخذ يحلق ذقنه بعناية بالغة ، ويعقد ربطة عنقه بمهارة ، واشترى سيارة « موسكوفيتش » بعد حصوله على حوافز إنتاجية من ثلاثة أفلام ، وأخيراً تزوج في العام الماضي . والأمر العجيب ، أن مولوتشكوف في يوم تسجيل عقد الزواج قدم إلى بيت كريموف لنصف ساعة ، من أجل أمر هام — « من أجل عرض عروستي ، إذا ما سمحت » — جاء إلى بيته مع امرأة ممتلئة الجسم ، طويلة القامة ، مستديرة الوجه ، وسيمة القسمات ، غارقة في فستان فاخر ، فاتح اللون ، ذي حواشي متماوجة وثنيات مروحية ، مثل الريش الأبيض . وفجأة امتلأت الشقة برائحة عطر قوية ، وبجسم دافيء وصوت رنان غليظ ، كانت تخفضه إلى حد التذبذب الغنائي ، ودون خجل أو حياء ، أخذت تتحدث عن أنها تعشق الأفلام التاريخية ، حيث الأزياء الأنيقة والبزات الفاخرة ، والعربات المترفة ، وحفلات الرقص ، حيث يستمتع المرء روحياً . أما كريموف فكان يبتسم ، شاكراً الله لأن أولغا لم تكن في البيت ( كانت أولغا لاتطيق الإبتهاج المفرط ورائحة العطر القوية ) ، وأصيب بيأس كئيب ، دون أن يتوقف عن الابتسام بجمود ، عندما جلست بدهشة جذلة ( «آه ،

يا للروعة ، يا للأعجوبة » ) أمام البيانو ، وبحركة منسجمة متأنقة سوت حول وركيها الثنيات المتماوجة لفستانها ، وجربت بأصابعها المتورمة مفاتيح البيانو . أما مولوتشكوف ، الذي كان يتبعها بعشق وهيام ، فقد أصبح كله كأنه وتر مشدود ، في بزته الجديدة المزينة بقرنفلة وضعها في عروة « الجاكتة » ، ولمع أمام مرآها بخضوع ، بعيني عريس سعيدتين ، وأومأ برأسه راجياً : « غني ، يا سونتشكا ، من فضلك ، ليصغ فياتشيسلاف أندرييفيتش إلى صوتك » — وهمس في أذن كريموف بأهمية ، وكأنه يفشي سراً هاماً « سونتشكا تعلم الغناء في المدرسة » .

وغنت بصوت رنان منخفض ، عن شمعة كانت تحترق قرب شرفة ؛ غنت أغنية سولفيج . أما كريموف ، الذي لم يكن يحب غناء الحجرة ، الذي يولد دائماً التجمد والتقيد ، فكان يلاحظ مولوتشكوف ، الذي يتأمل عروسه ، وينظر باعجاب إلى شفتيها الممطوطتين ، المستديرتين ، القرمزيتين من أحمر الشفاه ، كان مولوتشكوف متأثراً للغاية ، مذهولاً من قوة صوتها المرتجفة ، ولاحظ كريموف كيف صفق مولوتشكوف باعجاب ، أما هي فقد نهضت ، مسندة أطراف أصابعها باهمال إلى غطاء البيانو ، وكأنها تستعد للانحناء . « سوف يخدمها ، هذا واضح » . وبعد ساعة ذهبا ، بعد أن باركهما كريموف ، الذي اضطر أن يقول لمولوتشكوف ، على انفراد ، دون احتفاء ، غير ما أراد سماعه الأخير ( « فياتشيسلاف أندرييفيتش ، ما قولك ؟ ماتقوله سأنفذه : أتزوجها أم لا . إنني أحبها ، وأطلب النصح منك لأنك بمنزلة والدي » ) . أجاب كريموف ، أنه في مثل هذه الأمور لايحق لأي إنسان تقديم النصح . فالناس ، منذ عهد آدم وحواء ، يخضعون لتأثير العاطفة ، التي يمكنها أن تجعل من كل امريء سعيداً وبائساً ، ولكن كما ظهر ، كان قد

تم الإختيار . فقد تزوجا ، ومنذ تلك الأثناء ، كان كريموف يلتقي سونتشكا على عجل ، في العروض الأولى للأفلام ، مذهولاً في كل مرة من بدانة جسمها ، مثل أجسام نساء التجار اللواتي رسمهن كوستودييف ، ومن فمها الصغير كالقلب ، وصيحاتها الغنائية العاصفة ، ورائحة العطر القوية ، ومن شيء ما ، فاخر ، أبيض ، متحرك بثنياته وتموجاته على صدرها ووركيها ، وكان غريباً أن يرى المرء إلى جانب سونتشكا ، مولوتشكوف ، الأقصر منها مسافة رأس ، مولوتشكوف المستقيم ، الوديع ، وهو يتجول بهيام وعشق قرب زوجته في الصالة .

* * *

— لا أريد أن أتذكر العرق والدم والقمل . ثمة حياة أخرى تدور ، تغلي . حياة السلم يا فياتشيسلاف أندرييفيتش .

— إذن ، لا تتذكر ؟ — قال كريموف عرَضاً ، وهو ينظر إلى وجه مولوتشكوف المتورد ، الملتفت إليه ، الذي لا يعاني الآن ، كما هو واضح ، من أية هموم أو هواجس ، والراضي عن حياته — وهل تذكر أحداً من شباب فصيلتنا ؟ — سأله مدركاً في نفسه انزعاجاً شديداً من مولوتشكوف . — كالرقيب أحمد دينوف ، مثلاً ؟

— كان شاباً مليئاً بالجرأة الكبيرة ، استشهد بصورة مروعة — قال مولوتشكوف ومسح بقفا كفه قطرات العرق من على ذقنه — أما أنا ، فقد جئت إلى الفصيلة كلباً غبياً أخرقاً . انني لا أحادث سونتشكا عن الحرب أبداً . انني أشعر بالخجل ، عندما أتذكر نفسي ، الغبي ، الجلف ، الغشيم .

ــ أنت تبالغ ، يا تيرنتي ، ــ ابتسم كريموف ساخراً ــ فقد كنت تبدو أحياناً ، شاباً ، عنيداً ، يابس الرأس ، إن صح التعبير .

ــ كنت فلاحاً ، مطلياً بالقطران ، ــ هكذا كنت يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ــ وضحك قليلاً مولوتشكوف ــ لا أستطيع أن أتذكر نفسي بهدوء واطمئنان . أنا لا أحب نفسي عندما كنت شاباً . كنت غبياً أحمقاً . لم يكن هناك من يريد الموت ، ولم يرغب به أحد . أما أنا فكنت في الاستطلاع ، أغدو أحياناً ، كالمجنون . كنت أخاف من الوقوع في الأسر ، ومن التعذيب حتى الموت . شكراً لك . . . الحرب ، لا أريد تذكرها أبداً ، أما أنت فلن أنساك أبد الدهر . لولاك لانتخرت عظامي في أوكرايينا . . . لانتخرت في تلك الحفرة . . .

وضحك من جديد ، ثم كرر على الفور وهو يسعل من حنجرته ، هازاً رأسه :

ــ أوه ، أي غبي كنت ! أنا لا أحب نفسي شاباً . في تلك الأثناء أنت أشفقت علي ، أنا الغبي ، الفج ، في عام أربع وأربعين . . . ولو كان غيرك ، لأطلق علي النار كالكلب . قوانينكم في الاستطلاع كانت صارمة لاتطاق . فاذا ما خفت أو استرسلت في البكاء في المنطقة المحايدة ، عليك أن تضع المسدس على جبينك وتطلق النار !

وأجهد مولوتشكوف وجهه بضحكة صامتة وفم مغلق ، ولكن برز من هذه الحركة غضب خبيث داخلي ، كان يبدو ، وكأنه فقده إلى الأبد ، في حياته الحاضرة ، شيء ما تبدل في نفسه ، كخضخضة مفاجئة في ذاكرة المصيبة المهينة الماضية .

وتذكر كريموف ، مالم يرغب باسترجاعه بالتفصيل إلى ذاكرته ، تذكر وضعه شبه المنسي ذاك ، الذي كان يعيشه في حياة أخرى ، على أرض أوكراايينا في عام أربع وأربعين ، على خط التماس ، في المنطقة المحايدة ، حيث كانا راقدين ، مستلقيين ، هو ومواوتشكوف ، في حفرة قنبلة ، بانتظار عناصر الاستطلاع المتقدمين ، حيث اتضح لكليهما ، أن وحدة الاستطلاع قد اصطدمت بالألمان ولن ترجع .

* * *

# الفصل الرابع عشر

في تلك اللحظة ، عندما سمع كريموف صرخات وطلقات على تلك الضفة ، أدرك أنه قد حدث شيء غير متوقع لوحدته الاستطلاعية .

أما هو ، فكان مقتنعاً بأنه كان من الواجب التحرك على الخط المحايد في تلك الضفة باتجاه الكومة المنهارة المحترقة في الحقل ، ولم يشك أبداً ، بأنه من هناك في المنحدر ، كان يجدر بهم السير إلى اليسار ، ومن ثم الخروج إلى مؤخرة القرية ، حيث كان على المجموعة أن تنفذ مهمتها : وقد جاءته هذه الثقة ، بعد زحف استمر يومين وليلة في خنادقنا ذات الحماية القتالية ، وبعد دراسة طبيعية دقيقة للغاية للمكان ، عشية المهمة الاستطلاعية ، التي لم يستطع هو نفسه المشاركة فيها ، بأمر من الرائد آزاروف ، ولسبب طائش غير مقنع ، بصورة غير مقبولة .

في تلك الأثناء ، كان يتألم ويتعذب ، ليس من ألم الدمامل الذي لايطاق في ظهره ، بقدر ما كان يتألم من مباغتة هذا المرض الشنيع له ، وفشل الاستطلاع الأخير ، الذي قامت به فصيلته قبيل عيد رأس السنة . فبعد استرجاع كييف والهجوم الذي أوقف في منتصف تشرين الثاني على جيتومير ، انتقلت الفرقة إلى الدفاع ، وكما يحدث عادة في نهاية الهجوم ، نشأ تعطش شديد إلى المعلومات عن العدو ، عن إعادة تشكيل تجمعاته على الضفة اليمنى . كان الرائد آزاروف ، قائد الاستطلاع ،

المسؤول عن جمع المعلومات ، مزعوجاً للغاية لقيام وحدات الاستطلاع الألمانية ، قبل ثلاثة أيام من عيد رأس السنة ، باختطاف حرسنا النائم تحت الدريئة من خندق حراستنا القتالية ، الأمر الذي استدعى من جانبنا عملية استطلاع عاجلة لم تحقق أي نجاح . فبعد أن خرجت مجموعة كريموف الاستطلاعية إلى مؤخرة الألمان ، استلقت على الثلج بالقرب من الطريق العام خمس ساعات دون نتيجة . وخلال تلك الليلة القارسة البرودة ، لم تسر ولا سيارة ضباط واحدة ، ولا مركبة واحدة إلى القرية ، وعاد الكشافون ، أدراجهم ، فارغين ، عراة ، كما نعتهم باختصار الرائد آزاروف ، الذي لم يعترف بأية أسباب موضوعية . غير أن الليل بكامله ، الذي قضاه في الثلج والرياح الصقيعية ، قد أقعد كريموف فجأة ، وأصابه ألم رهيب وحرارة عالية ، ووُضِع في الوحدة الطبية ، حيث تم اكتشاف دمامل على ظهره ، أما هو ، ولسخطه على نفسه من فشل الفصيلة ، ومن هذه النزلة الصدرية السخيفة التي تصيبه للمرة الأولى في الحرب ، فقد قرر الخروج من الوحدة الطبية ، والاكتفاء باجراء الضمادات ، والبقاء ضمن الفصيلة ، مدركاً إدراكاً تاماً ، بماذا يمكن أن يفكر الرائد آزاروف ، إذا ما بقي هو ، كريموف قائد الفصيلة ، راقداً على السرير في الوحدة الطبية التابعة للسرية ، بعيداً عن المهمة .

لهذا ، ومع انهاكه قواه في الزيارات اليومية للوحدة الطبية من أجل تغيير الضمادات ، فقد كان كريموف يدرب فصيلته بنفسه ، ويعدها إعداداً دقيقاً للمهمة . إنه لم يعهد بالتدريب إلى الرقيب أحمد دينوف ، الشاب المجازف ذي الحاجبين السوداوين ، الملاكم السابق ، الذي كان موضع ثقته الكاملة ، وزحف ليلتين بكاملهما على الخط الأمامي ،

مراقباً الرشاشات المعادية المناوبة ، وملاحظاً كل كثيب ثلجي على الخط المحايد ، على ضفتي النهر اليمنى واليسرى .

ولكن ، في الدقائق الأخيرة من الليلة الشتوية ، عندما أصدر أمره لمجموعة الاستطلاع ، وبقي مع مولتشكوف في حفرة قنبلة كبيرة على الخط المحايد ، وقال أحمد دينوف بمرح « سلام ! » ، وتلاشى مع أربعة من الكشافين في الغسق الأزرق بلون النجوم على ضفة النهر ، أخذ يشعر كريموف باحساس مسبق سيء ، يحذره بمختلف الأمارات والعلائم . فقد كان يسود في كل مكان الهدوء والصمت الرنان لصقيع شهر كانون الثاني ، وفي الأعلى ، في السماء السوداء ، الشبيهة بالصحراء ، كانت النجوم تنير بضوء ماسي ، أما في الأسفل ، على الأرض ، في ضواحي البلدة التي احترق نصفها ، فكانت تطير وتحلق الطلقات الخطاطة الألمانية . هناك ، لاذت بالصمت ، بصورة غير مألوفة ، الرشاشات المناوبة . كان هذا الصمت مريباً ، منبئاً بجمود الموت المضمر . وبعد أن صرف جماعة أحمد دينوف ، أخذ ينصت طويلاً إلى هذا السكون والصمت المطبق على المنطقة المحايدة . كانت هذه المنطقة تمتد قرابة ثلاثمائة متر إلى الأسفل نحو النهر المتجمد ، وكانت تمتد خلف النهر مائتي متر نحو الأعلى ، نحو خنادق الألمان الأولى قبل البلدة ، حيث كانت تسطع فوق الأسطح النادرة النجوم المتوهجة في السماء . كان ألم الدمامل المستقرنة ينهش ظهره ، يقصمه بين عظمي اللوح ، وكانت تخنقه قشعريرة البرداء الخشنة . وشعر بأن حرارته قد قفزت إلى الأعلى ، وربما زاد هذا من قلقه ، الذي دفع كريموف إلى اتخاذ قرار مستحيل — إلغاء المهمة ، واستدعاء جماعة الاستطلاع ، وإعلام الرائد آزاروف بالسكون الغريب المريب عند الألمان . ولكن ، في

الوقت نفسه ، لم يكن لديه أية حجة ذات وزن ( فسكوت الرشاشات ليس بحجة ) . علاوة على ذلك ، فقد يسيء آزاروف فهم إلغاء المهمة ، وقاوم كريموف شكوكه ، معتبراً أن العملية كلها ، إذا ما توفرت لها الظروف المناسبة ، ستشغل ساعة ونصف أو ساعتين : قطع خط المنطقة المحايدة بحذر ، من الشريط الضيق الذي أزال منه عناصر الهندسة الألغام ، بالأمس ، وسط الحقول الملغومة ، وأخذ أسير من الخندق الأول .

غير أن الومضات المختلطة المشوشة للرشاشات الآلية ، التي أعمت الليل ، والصرخات البعيدة التي طمست العيارات النارية ، والتنقل المبهم لكتلة من الأخيلة والظلال في العتمة البنفسجية إلى يسار طرف القرية ، وانفجار اللغم الصداح — كل هذا ، الذي حدث فجأة على الضفة اليمنى ، بدا له في تلك اللحظة مستحيلاً ، لدرجة أن كريموف ضغط بشدة على أسنانه ، وضرب بقبضته على حافة الحفرة ، قائلاً : «هاهوذا ! وهل هذا معقول ؟ . . . » . لا ، في أية عملية استطلاعية ( مهما أعدت بعناية ) ، لم تكن مستبعدة عشرات الأشكال الممكنة للمصادفات ، ولكن ، في كل مرة ، عندما كان كريموف نفسه يذهب في عملية الاستطلاع ، كان يشطب بغطرسة إحتمال الفشل القدري .

« هذا هو حدسي ، هذا هو إحساسي المسبق — لمعت هذه الفكرة في رأس كريموف — لم أذهب معهم — وهاهي ذي النتيجة ! . . . » .

— مسدس الطلقات الخطاطة ! مولوتشكوف ، مسدس الطلقات الخطاطة ! — صاح كريموف همساً ، وعندما رأى وجه مولوتشكوف المرتد بهلع في القبعة الصوفية التي ارتداها فوق الخوذة ، شتم بخشونة .

— اصطدموا ، اصطدموا . . . أليس كذلك ، أيها الرفيق الملازم وهل من الممكن أن يكونوا قد وقعوا في كمين ؟ — تمتم مولوتشكوف ناشجاً وأدخل من الجانب النبطانة الصلبة للطلقة في المسدس ، ودفعه نحو قفاز كريموف دفعات مرتجفة — هل هذا معقول ؟ . . .

— كف عن التوجع وراقب ! — أمر كريموف خاطفاً المسدس من يد مولوتشكوف . — هل ترى بوضوح ، أين رجالنا وأين الألمان ؟

— اصطدموا . . . انهم خلف الخندق . . . اجل ، وهل من المعقول أنهم وقعوا في الأسر ؟

— اخرس ، قيل لك !

حسب الاتفاق الصارم والدقيق مع مدفعية الفوج ، كان باستطاعة كريموف ، بصاروخ خطاط أحمر ، قصف خندق الألمان الأول بالمدفعية على عجل ، على نقاط الرشاشات التي تمشط المنطقة المحايدة ، وبالتالي ، تغطية انسحاب رجال الاستطلاع إلى خنادقنا ، وهذا ما حدث أكثر من مرة في مثل هذه الأحوال . غير أن اطلاق نيران المدفعية الآن كان بلامعنى — حيث يمكن للنار أن تغطي كشافينا أيضاً ، — ورمى كريموف مسدس الطلقات الخطاطة إلى مولوتشكوف .

— اخف هذه اللعبة ! ما فائدتها الآن ! اخفها ، ليأخذها الشيطان ! . . .

كان راقداً بصدره على الحفرة ، ينظر إلى امتداد الليل ، المتصدع برشات الرعد في تلك الضفة ، حيث التمعت خلف الخنادق الأولى رشات مستمرة من الطلقات ، مخمناً المعركة المتكررة لرشاشات «شمايسر» الألمانية ، والطقطقة المدوية لبنادقنا الآلية ، والانفجارات المحدودة

للرمانات الألمانية ، والرنين المتبعثر للقنابل اليدوية السوفييتية ، — ومن خلال وميض الرشاشات ، وألسنة اللهب المتراقصة القافزة ، ومن خلال الخط الناري خلف النهر ، بدا لكريموف ، وكأنه رأى عن قرب كل ما حدث وجرى هناك ، بجماعته الاستكشافية . على الأغلب ، أن الرقيب أحمد دينوف قد اصطدم ، قبيل الخندق ، اما بجماعة استكشافية ألمانية مواجهة ، وإما بزارعي الألغام الألمان ، العاملين في المنطقة المحايدة .

— ابتعد ، أحمد دينوف ، إلى الوراء ، إلى الوراء ! — كرر كريموف دون وعي ، منصتاً إلى توقف فرقعة البنادق الآلية واحدة إثر أخرى ، وكان يسمع بصورة شريرة ، ظافرة ، « تطريز » مدافع « شمايسر » الرشاشة الألمانية .

وعلى الفور ، سقط من السماء سكون غريب ، وامتلأ امتداد الليل الصقيعي بصمت أخرس كثيف مطبق ، كما لو أنه لم يحدث قبل دقيقة واحدة إطلاق العيارات النارية ولا انفجار القنابل اليدوية ، وكأنه لم تطلق أية صرخات . ولكن ، ومن بعيد جداً ، تناثرت في الأفق إلى اليمين ، تحت النجوم المنخفضة ، سلاسل حمراء من الرصاص ، ومن هناك وصل متأخراً وقع ضعيف لمدفع رشاش . وهنا ، صمت بصورة مريبة ، خطنا الأمامي والخط الأمامي الألماني ، ولم يعد يسمع أي صوت أو حركة ، في كل مكان ، ماعدا القشعريرة المعدنية للبنادق الآلية .

— وهل أخذوهم أسرى ؟ — وصل إلى أذنيه من الجانب صوت مولوتشكوف اللاهث ، وظهر إحساس غامض ، بأنه يتحرك في مكان ما

قريب ، ويتنفس بصعوبة ، زاحفاً بجزمته اللبادية الشتوية على الثلج . — وكيف جرى ياترى ؟ محكوم علينا بالموت ، أيها الرفيق الملازم ، محكوم علينا بالموت .

— مولوتشكوف ، اخرس ! أمر كريموف بصرامة ، كارهاً نفسه ومولوتشكوف لعجزهما وضعفهما ، هنا على الأرض المحايدة ، في حفرة القذيفة ، حيث لم يكن باستطاعتهما مساعدة أحمد دينوف ، لا بنار البنادق الآلية ولا بنار المدفعية . — لا أصدق ، أن الجميع ، — قال كريموف بصوت أجش — سار ثلاثة منهم في المقدمة ، واثنان خلفهم — جماعة الحماية . . . لا أصدق ، أن الجميع . لابد أن يكون أحدهم قد ابتعد . . .

خلع كريموف قفازه المصنوع من الفراء ، وأمسك حفنة من الثلج ، ورغبة منه في تبريد وجهه بالبرد القارس ، فرك وجهه بالثلج إلى حد الألم . فاختلط هذا البرد بالقشعريرة التي كانت تمسك به بثقل حار في رأسه ، واصطكت أسنانه ، كما في نوبة ملاريا قاسية .

— ماذا بك ، أيها الرفيق الملازم ؟ ماذا ؟ — ارتجف صوت مولوتشكوف فوق أذنه — أنت مريض تماماً . . .

— الآن — اعتصر كريموف وبدأ يتحرك على حافة الحفرة . — سننتظر الآن . . . ثم إلى هناك . . . سنعرف بأنفسنا ماذا حدث . سننتظر قليلاً ثم إلى هناك . . .

عض بأسنانه على قفازه ، كي لا تصطك ، وأحس بالطعم الحامض المعدني للثلج والجلد المتجمد ، وشعر بحاجة للتقيؤ ، وبتشنج في حنجرته ، فأنّ ، ولهث من مساعيه الفاشلة ، وكرر بهمس لاهث :

— سننتظر قليلاً . . . ونذهب إلى هناك لعندهم ، زحفاً . . . لننتظر قليلاً . . .

— أيها الرفيق الملازم ، أخيراً مرضت أنت . . . إلى أين سنذهب ؟ إلى قبضة الألمان ؟ إلى أين ؟

أبعد كريموف رأسه عن القفاز ، ونظر إلى مولوتشكوف ، المستلقي إلى اليمين على الثلج المتراكم في حفرة القنبلة ، ومع ضوء النجوم الصقيعي في الغسق ، بدا وجهه المثلث ، المضغوط بالقبعة الصوفية ، والغطاء الأبيض لبزة التمويه ، وكأنه وجه نسائي مخبول ، شبح شاحب بعينين زجاجيتين ، ينفث بخاراً من الهدب الكثيف للندى المثلج حول فمه ، وبدا له ، وكأن هذا ليس ذلك الشاب الريفي الخفيف مولوتشكوف الذي يردد بجرأة أغاني فورونيج الشعبية في الفصيلة ، بل شخص آخر ، مترنح ، أدرك من أعماقه المصير المحتوم .

— أتسمع ؟ — همس مولوتشكوف بصوت متقطع ، وخيل إليه أن نظرته الرطبة كانت تضيع على وجه كريموف . — انهم يصرخون . . . أليس كذلك ؟

وفجأة ، أطلقت المدافع الرشاشة الألمانية نيرانها على المنطقة المحايدة ، ولمعت الطلقات النارية الممتدة ، وحامت رشقات المدفعية كالاعصار الوحشي فوق الحفرة ، معمية الأعين بنيرانها القرمزية ، أما مولوتشكوف فقد ضغط رأسه بين كتفيه وسقط من حافة الحفرة إلى الأسفل ، ومنه إلى القاع ، وصاح بصوت رفيع :

— أشعر ، أن مصيرنا اليوم ! . . . مجموعتنا اصطدمت ، وجاء الآن دورنا . . .

— لقد سئمت منك ! — قاطعه كريموف بغضب ، ونزل إلى قاع الحفرة مترنحاً ، كان رأسه متكدراً بصورة ضبابية ، وأراد أن يستلقي ، ويلف جسمه على شكل كومة كي يشعر بالدفء . — أين يصرخون ؟ هل تخيلت ؟ — سأله كريموف كابحاً اصطكاك أسنانه ، مصغياً بجهد كبير ، غير أنه لم يسمع سوى الهدير المتقطع للمدافع الرشاشة الألمانية المضطربة التي تطلق النار على المنطقة المحايدة .

— أحدهم يصرخ في الضفة المقابلة . . . أنا أسمع — همس مولوتشكوف بحرارة ، مقترباً منه كثيراً . — أليس أحمد دينوف هذا ؟ ربما يعذبونه ؟ لقد جرحوه ويمزقونه الآن بالحراب . . . أتذكر كيف عثرنا على سيدوريوك ؟ لقد فقأ الألمان عينيه ، وقطعوا يديه . . .

— مابك ، أخذت تشكو وتنوح ؟ ماذا بك ، أنا أسألك ؟ . . .

وشتم كريموف من جديد ، مهيناً مولوتشكوف بشتمه على هذا الهمس الناضح بالمصيبة ، على خوفه العاري الحقير من المصير المحتوم الذي حدث لكشافيه ، وهذا ما لم يستطع كريموف أن يصدقه ، لمعرفته بخبرة أحمد دينوف وأولئك الذين ذهبوا في مجموعة القبض على أسير ، ولم يرد كريموف أن يصدق بسهولة ، ماكان يمكن أن يحدث هناك ، أمام الخنادق الألمانية .

— سننتظر ، — قال كريموف بحدة ، ناظراً من الأسفل إلى خطوط نيران المدافع الرشاشة ، التي كانت تمزق ظلام السماء حول الحفرة . — سننتظر حتى انتهاء إطلاق النار ونتحقق . سنزحف إلى هناك . . . أريد أن أتحقق بنفسي .

ارتفع مولوتشكوف قليلاً ، واتسعت عيناه الزجاجيتان في محيطي الندى المثلج على جفنيه ، ناضحتيْن بالرطوبة :

— لقد وقعوا في قبضة الألمان الفاشيين . . . إلى أين سنزحف ؟ إلى أين ؟ . . . وأنت مريض جداً . . .

ضغط كريموف على أسنانه .

— إلى هناك ، أليس واضحاً ؟ — قال كريموف بقرف واشمئزاز شديد ، من عجزه أمام المجهول ، وقد أثارته كلمات مولوتشكوف « أنت مريض جداً » التي لفظها بتأنيب حائر ، إلى حد الاحتدام . — مالَكَ تشتكي وتنشج ؟ وأي شيطان يدفعك إلى الذعر ؟ أنت كشاف أم خرقة للمسح ؟ اصعد إلى الأعلى وراقب المنطقة المحايدة ، وإلا فسيقترب الألمان ويأخذونك أيها الغبي ، ويجرونك في عدل !

— وهل سيأخذوني أنا . . . وأنت كيف ؟ وهل أنت حديدي ؟

— إن الألماني الذي سيأخذني ويجري لم تلده أمه بعد ، واضح مفهوم ؟ أنا نفسي سأتصرف بنفسي .

— أوه ، يايسوع . . . لن أتمكن من قتل نفسي . — همس مولوتشكوف ناشجاً ، وبعد أن رفع رأسه ، زحف على بطنه إلى الأعلى ، على منحدر الحفرة ، وهنا مد قامته وتجمد ، مغطياً وجهه بقفازيه ، وكان بالكاد يرى الأكمة الزرقاء تحت الخطوط النارية المتنقلة فوقه .

— ماذا ؟ ماذا حدث لك هناك ؟ هل نمت ؟ ، — صاح كريموف ، متغلباً على الوهن الساري إلى جسده المهتز بقشعريرة حرارته الداخلية المرتفعة ، وبالألم الذي ينهشه من ظهره الذي التصق به قميصه الداخلي

المرطب بالقيح ، وهنا شعر بظمأ قاتل ، برغبة شديدة لإرواء بدنه المتوهج الذي يحرقه .

التقط الثلج بأسنانه ، وأخذ يقرض مادته العذبة الواخذة ، التي كان لها طعم الحديد المتجمد الصدىء ، وقبل أن يلوكه ، وخوفاً ، من أن يتقيأ وتجيش نفسه ، بصق كتلة لدنة مقرحة . صعر خده بغضب ، زاحفاً إلى حافة الحفرة ، واستلقى بصدره على كتلة الأرض المتجمدة ، ورأى أمامه زرقة الثلج الكيميائية غير العادية ،والخنادق الألمانية البارزة خلف النهر ، والنيران المتراقصة التي تطلقها المدافع الرشاشة ، والمظلة الساقطة للصاروخ الحطاط . وانطفأ الصاروخ ، وأخذ يلتوي صاروخ آخر بأزيز قارص ويتناثر في الجو ، وتبعه صاروخ ثالث — كانت الصواريخ الحطاطة تتصاعد واحداً إثر آخر . لقد أزاح الألمان بضوء سماوي ، الظلام الأرضي فوق الخط الأمامي ، ومسحوا المنطقة المحايدة على امتدادها برشقات متقاطعة من المدافع الرشاشة . ومع الطنين الغامض في أذنيه ، نظر كريموف طويلاً إلى البيوت الريفية المتطرفة ، العائمة فوق الليل ، من القرية التي احترق نصفها ، حيث كانت تتراءى بخط أزرق الخنادق الألمانية الأولى ، حيث حدث على مقربة منها لجماعته الاستطلاعية أسوأ ما يمكن أن يحدث في الحرب . غير أنه الآن ، وبعد أن رأى في المنخفض إلى يسار القرية ، الفراغ المنحدر للثلج المغمور ببصيص الصواريخ ، رفض ثانية فكرة أن يكون عناصره الخمسة كلهم قد استشهدوا أو خطفوا وأسروا . كان واثقاً كل الثقة ، بخبرة الرقيب أحمد دينوف وحذره ، فهو الذي ذهب عشرات المرات من أجل أسر جنود ألمان ، وكان لا يزال يعيش في نفسه ، دون أن ينطفىء الأمل ، الذي لا يخضع لأي شيء ، في أن يكون أحدهم قد ابتعد من تحت

النيران ، أثناء اصطدامه مع الألمان ، واختبأ في المنخفض وسيعود منه ، حالما تتوقف المدافع الرشاشة عن إطلاق النار ، وتتوقف الصواريخ الكشافة عن التحليق .

— سننتظر ، سننتظر ، — قال كريموف ، متاقفاً بشراهة الثلج في فمه ، التخفيف من الحرارة الشديدة في حنجرته .

— هاهوذا ! سمعت ؟ — صاح بحسرة مولوتشكوف ورفع رأسه ، على طريقة السلحفاة ، من القانسوة . — الصوت من هنا ، من هنا ، من تلك البيوت الريفية . . . هل سمعت ؟

إنك تهذي ، يا رضيع !

نهض كريموف قليلاً متكئاً على مرفقيه ، فشعر وكأن ناراً تثقب ظهره ، وكأن فقراته اجتثت وفصلت بكماشة ، وحبس نفسه ، ثم نزع قلنسوة التمويه ، وخلع قبعة الفرو من رأسه الملتهب ، الذي تهوى على الفور بالريح الثلجية الصقيعية ، وأصاخ بسمعه . . .

كانت المدافع الرشاشة تتوقف قليلاً بين الرشقات النارية ، وفي أثناء هذه التوقفات القصيرة المليئة بالفراغ ، وصلت بوضوح إلى مسامعه أصوات متحاربة غريبة ، في مكان ما ، في المنطقة المحايدة . كانت هذه الأصوات غير واضحة ، أجشة مبحوحة ، كانت تظهر وتختفي في الليل ، لم يكن باستطاعة إنسان أن يصرخ مثل هذا الصراخ ، إنه صراخ ، أشبه بصراخ وحش يعاني آلاماً شديدة ، دون أن يرجو أحداً الرحمة قبيل الموت ، ودون أن يطالب المساعدة من أحد — لقد كان هذا صراخ الموت والغم والكآبة ، موجهاً دون وعي أو ذاكرة إلى

النجوم ، إلى الصقيع ، إلى الثلج ، إلى أي مكان ، حيث لا مجال للنجاة ولا إمكان للإنقاذ .

تشنج كريموف من هذا العويل الحيواني ، عويل القنوط واليأس ، الذي أصدره على الأغلب ، جريح محكوم عليه بالموت الأليم ، وهو يودع الحياة . في الدقيقة الأولى كان من السهل عليه أن يوحي لنفسه ، أنه كان يصرخ على هذا النحو ألماني مجروح أثناء تبادل إطلاق النار ، وليس كشافنا المجروح جرحاً بليغاً ، في المنطقة المحايدة . لكنه كان واضحاً أن الألمان من غير الممكن أن يتركوا جريحهم على الخط المحايد بالقرب من خنادقهم . وأدرك كريموف ، أنه هناك ، إلى الأمام ، خلف النهر ، كان كشافنا ينزف دماً وينازع أمام الخنادق المعادية الغربية . أما الألمان ، فعندما سمعوا صرخاته الفظيعة ، لم يقتربوا منه ، ولم يمسكوا بالجريح ، بل على العكس غالباً ، رغبوا بأن يصل عويل الجريح الذي يموت إلى الخنادق الروسية ، ليسبب الألم ويزرع الخوف في بمثابة عقاب إنتقامي لهم على استطلاعهم

- إنه هو . . . إنه هو يصرخ . . . - زحف صوت مولو تشكوف كالثعبان وراء ظهره - لقد أمسكوا بأحمد دينوف . . . إنهم يعذبونه . .

دون أن يجيب ، أغمض كريموف عينيه من انفجارات الصواريخ الخطاطة التي تؤذي العين ، فوق النهر ، والتصق بصدره على حافة الحفرة ، وبدأ يلتقط من جليد الثلج الرصاصي بأسنانه ، بالعاً إياه بأقصى جهده . أما في أذنيه ، فقد نما واقترب عواء غير بشري ، صادر من المنطقة المحايدة المضاءة بالصواريخ الكشافة دون انقطاع . وكان هذا العواء

يتشبث وينغرز بظهره ويمزقه ببراثن فولاذية ، وأصبح ظهره جامداً من الألم .

لو أنني ذهبت معهم لكان كل شيء على ما يرام » – كان يفكر كريموف في نفسه ، محتقراً بصورة موسوسة ، هذا الفشل الأول بعد معركة قوس كورسك . ولم يعد يحاول وقف اصطكاك أسنانه ، وبقشعريرة كانت تمزقه ، أخذ يلعن نفسه ، ويلعن هذه الحفرة الآمنة على الضفة ، حيث كان لايزال ينتظر عودة واحد ما من كشافيه ، رغم أن الزمن نفسه قد غار في مكان ما ، في لجة هاوية .

أيها الرفيق الملازم . . . ماذا تقول ؟ لا أسمع شيئاً . . . إنك تدمدم بشيء ما .

وهزته من كتفه يد متشبثة ، أما هو ، فعندما رفع رأسه ، رأى فوقه وجه مولوتشكوف الرمادي ، المضغوط بقبعة الفرو تحت القلنسوة ، المكشوف بضوء الصواريخ الأبيض ، وطبقات الندى فوق حاجبيه ، ورأى فمه الذي ينفث البخار ، وقال كريموف بهمس أجش ، محتملاً بلع قطع الثلج القاسية ، التي وقفت في حنجرته ، ولم تبرد حرارته العالية :

الآن . . . سنهدأ . . . لن ندع الجرحى في المنطقة المحايدة . لن نترك أحداً منهم . افحص بندقيتك الآلية ، يا مولوتشكوف ، وتدفء الآن . . .

قال هذا ، وهو متجمد ، ويحترق من حرارته ، وكأنه كان يرقد بلا معطف على الجليد ، وتنفذ الريح القوية المحمومة إلى عظامه ، وعندما

نظر إليه مولوتشكوف بفم ملتو مرعوب ، ارتد عنه ، وأصبح ظلاً أبيض في الظلام ، وأخذ يخشخش ويدوس الثلج ، نازلاً إلى أسفل الحفرة ، وصاح بصوت مخنوق : « يا إلهي ! يا عيسى ! يا إلهي ! . . . » — وصمت هناك ، وتلوى ، وتكوم مثل نابض بانتظار النفس الأخير .

« أشد ما أخشاه ألا يقعدني الألم والمرض ، أشعر أن حالتي قد أصبحت سيئة . . . — كرر كريموف هاذياً . — المهم ألا أفقد الوعي ، وأن أصمد ، حتى تهدأ . . . ولو لنصف ساعة » .

بيد أن النار لم تهدأ ، وبقيت المدافع الرشاشة تطاق دون انقطاع ، وانكشفت المنطقة المحايدة فارغة ، ميتة ولمع ماء النهر المتجمد مثل منعطف شديد الانحدار مزين بالثريات المتأرجحة في السماء ، ثم أخذ يبدو ، وكأن كل شيء يتحرك في الأمام من تحليق الصواريخ المتوهجة واحتراقها ، ويقفز من الظلام إلى النور ، ومن النور إلى الظلام . واندلع الجليد رذاذاً كالدموع في العين وانطفأ ، — وشعر بدوار شديد في رأسه بسبب الصراخ الذي هدأ وأصبح ضعيفاً في المنطقة المحايدة ، وبسبب اللمعان الخاطف المستمر ، وقفزات النيران المندفعة ، ورواسب الصواريخ الخطافة ، والظلام الذي كان ينهال على النور . وسعل كريموف ، وبعد أن التقط أنفاسه ، شعر من خلال الدوائر السوداء التي ظهرت في عينيه ، وتعزز في نفسه خوف لا يقهر ، من ألا يفقد السيطرة على نفسه ويغيب عن الوعي .

« الآن ، يجب الآن ، — فكر في نفسه . — إن المدفع الرشاش اليساري لا يبدل قطاع رميه . يجب اذن ، الزحف على الجانب اليميني من المنخفض . فهو على هذا النحو لن يمسنا . . . حان الوقت ! » .

ونادى بصوت أجش :

— مولوتشكوف

لم يسمع أي رد . أدار رأسه ، متغلباً على الألم في رقبته ، وألقى نظرة — هنالك ، في الأسفل ، في قاع الحفرة ، كان يرتسم جسم مولوتشكوف بصورة غير واضحة وبلون أبيض . لم يتحرك على الثلج ، جاذباً ركبتيه إلى ذقنه ، ووصلت إلى أذني كريموف أصوات تخور بهمهمة غامضة . فنادى بصوت أعلى :

— مولوتشكوف ! تعال لعندي

وصل إلى سمعه نشيج غير مفهوم من الأسفل :

— أيها الرفيق الملازم . . .

— ماذا بك ، مولوتشكوف ! هل صرت أطرشاً ؟

ونزل كريموف بعجالة إلى منحدر الحفرة ، وانحنى فوق مولوتشكوف وهزه من كتفه بعنف ، فانتفض الأخير مثل طائر منبوش ، ناشراً مرفقيه مثل جناحين مقصوصين حليقين . وتباعدت نظرتا عينيه الحارتان من الفراغ بخبل

— إلى أين ؟ إلى أين

— اصغ بانتباه يا مولوتشكوف — قال كريموف بصوت متقطع . — سنسير كما يلي : وثباً نحو النهر ، ثم زحفاً نحو الضفة الأخرى . وزحفاً

نحو الخنادق الألمانية . وسنلتصق بالمنحدر الأيمن للمنخفض . ونعمل كل شيء تحت ضجيج المدافع الرشاشة . تابع إشاراتي بعينيك الاثنتين . عندما أرفع يدي — يعني إلى الأمام ، وألوح بها — يعني اجمد مكانك . . .

كان يجد صعوبة كبيرة في الكلام ، ويعتصر الكلمات بصعوبة من خلال اصطكاك أسنانه ، وفجأة أصدر أمراً بهمس متقطع لضيق شديد ألم بصدر

— انتهى ! اتبعني

واستدار مترنحاً ، واتجه إلى الأعلى على منحدر الحفرة ؛ في اللحظة ذاتها حيث صمتت المدافع الرشاشة ، وفي الصمت المطبق الرنان ، وحيث ظهر صاروخ كشاف مضيء شتت الظلام على الخط الأول

— لاداع ، لاداع لذلك أيها الرفيق الملازم .

توقف كريموف عند منتصف المنحدر ، غير فاهم معنى الصرخة المتوسلة الرفيعة خلف ظهره ( « لاداع لأي شيء ؟ عم يتحدث هذا ؟ » ) ، وشعر بانفعال غاضب لمعارضة أمره ، وهذا ما لم يسمح به أبداً في فصيلته ، ونظر من الأعلى فرأى البريق الزجاجي على وجه مولوتشكوف المبقع بقطرات العرق ، ووصلت إلى مسامعه الألفاظ القافزة لصوته على شكل حزم مقوسة :

— لاداع لأخذي ، أيها الرفيق الملازم ، لاداع . . . — رن صوت مولوتشيكوف نادباً ، وتحول على عجل إلى كلام سريع غير مترابط وكأنه بلا وعي : — إن الذي صرخ هو أحمد دينوف . . . وآنذاك ،

بالقرب من « سومي » ، فقأ الألمان عيني سيدوريوك بالحربة . فالى أين سنذهب ؟ . . .

— ماذا أصابك مولوتشكوف ؟ هل فقدت عقلك ؟ هيا ، انهض ، تمالك نفسك .

وحلق فوق المنطقة المحايدة صاروخ كشاف ، بصوت واضح ، حاملاً معه الضوء الكاشف ، وتناثر في السماء مطر مائل إلى الحمرة ، أضاء الحفرة كلها باللون القرمزي . — وعلى الفور تحركت عينا مولوتشكوف وتزحلقتا مثل نقطتين حاميتين بنفسجيتين ، كعيون الكلاب المريضة ، التي تطلب الغوث .

— لا أستطيع ، أيها الرفيق الملازم ، إن فرائصي ترتعد ، انني خائف . . . — قال مولوتشكوف متوسلاً ، وخفق حاجباه الأبيضان بسرعة وبصورة ذليلة مثل دودتين صغيرتين . — اشفق علي ، أنا الغبي القروي ، بالله عليك . لا تأخذني . أخاف الوقوع في الأسر ، سوف يعذبوني . أنا لست كشافاً ، أيها الرفيق الملازم ، أنا أصلح للسير في قافلة ، لا أكثر ، وها قد تجمدت يداي أخيراً ، انني لا أسيطر عليهما . مثل قطعتين خشبيتين . . . لا أستطيع الإمساك بالبندقية الآلية .

كان مولوتشكوف جاثياً على ركبتيه ، وبسط يديه المرتجفتين في القفازين المتجمدين المتحجرين ، ثم جذب بأسنانه قفازاً واحداً بجهد كبير ، وحاول جاهداً تحريك أصابعه ، دون جدوى ، فكشر عن أنيابه ، وبكى بصمت ، وتراجع إلى الوراء ، بحيث برز منخراه المبللان ، اللذان كانا ينتفخان وينقبضان بالتناوب .

— ماهذه الترهات ! — صاح كريموف بسخط .

— انني لا أقوى على شيء ، أيها الرفيق الملازم ، — زعق مولوتشكوف بصوت رفيع ، مترنحاً على ركبتيه ، وانحدرت دموع ناعمة على شفتيه الزرقاوين . — كل مرة ، كنت أذهب معك في مهمة استطلاعية ، كنت أموت خوفاً ، وكانت روحي تنزل إلى أسفل قدماي . لكن الموت كان يمر بجانبي دون أن يمسني ، أما الآن . . . فقد اختلط كل شيء في رأسي . تجمدت بكاملي ، وانخلع دماغي من مكانه . كم أتمنى لو اقتادوني إلى المستشفى . . . . . فليقطعوا رجلي أو يدي ، آه لو اقتدت إلى المستشفى ، ليست لدي قوة . أريد أن أعيش ، أيها الرفيق الملازم ، لا أريد أن أدمر حياتي شاباً ! — ومسح دموعه ، ثم شهق ناحباً : — يا إلهي ، أيها المسيح ، انقذني ! . . .

سبق لكريموف أن رأى درجة اليأس الأخيرة في الحرب ، غير أن كآبة وخوف هذا الشاب الغض ، الذي فرزه كريموف شخصياً للاستطلاع لتكملة الملاك ، بسبب نظرته الحزينة ، وحركة جسمه النحيف الماهرة ، ان خوف مولوتشكوف المسكوب ، ليس أنه لم يكن متوقعاً ، بل أذهله بصدقه الشنيع ، بصراحة المستغيث ، وكأنه ليس هناك من شيء في الوجود سوى الرعب العاري ، أمام الحد الأخير الذي كان ينتظرهما في المنطقة المحايدة .

— لا أستطيع الخدمة في الاستطلاع ، أيها الرفيق الملازم ، — كرر مولوتشكوف ، منحنياً على الأرض ومستغرقاً في النحيب . — كنت أنتظر أمرك وأبتهل إلى الله : إلهي ، ابق على حياتي وأنقذني . . .

— اخرس يا جرو ! نطق كريموف ، وتوجه نحو مولوتشكوف ، والدم يضربه على مصدغيه ، وضغط بأصابعه على كتفه . — ماذا تظن ، هل نترك الجرحى في المنطقة المحايدة ؟ الأفضل ، أن نموت نحن أيضاً ، مفهوم ؟ قف — أمر كريموف — هيا ! بسرعة ! انهض !

— اقتلني ، أيها الرفيق الملازم ، اقتلني على الفور كي لا أتعذب . . . اقتلني . . . .

— كفاك بكاء ! انهض ، قلت لك !

وضغط بكامل قوته على كتف مولوتشكوف ، الذي التوى بمرونة ، ملاحظاً عن قرب ، وجهه المبلل ، المشوه بالبكاء . وبدا لكريموف هذا الوجه ، على ضوء الصاروخ ، مثل وجه صبي صغير ، أما هذا الارتجاف الخفيف لكتفه ، وكأن جسمه الثابت قد فقد توازنه ، فقد تهيأ له ، وكأنه علامة منذرة بالموت ، يرسمها القدر نفسه .

وفكر كريموف في نفسه ، أنه اليوم ، وبعد نصف ساعة ، بعد ساعة — سيُقتل مولوتشكوف ، وبشفقة عدائية دفعه ، وقال وكأنه في حالة من النسيان :

— ما العمل إذن ! . . . ماذا سأفعل بك ، أنت وغد لئيم ، ولست كشافاً ؟ أأطلق عليك النار ، كالجبان ، لعدم تنفيذك الأمر ؟

— أيها الرفيق الملازم ، عزيزي ، كن شفوقاً ، سوف أغسل لك قدميك بالماء وأشربه ! — أخذ مولوتشكوف يصيح ، وترنح إلى الأمام ثم سقط على الأرض ، أما يده اليسرى العارية ، التي لم تطاوعه أصابعها والتي لم يلبسها القفاز المتخشب . فكانت تبحث جاسة حزمة

كريثوف للبادية . والتوى بصورة مسحوقة ، ثم تمدد برأسه على جزمة كريموف ، مغمغماً ، مصدراً أصوات قبلات سريعة . .

— أنت ، أيها الغبي ، هل فقدت عقلك ! — قال كريموف مؤنباً ، ولم يعد يحتمل هذا الذل المجنون ، فأمره بغيظ : — هيا ، انهض ، قيل لك !

— يا عزيزي الملازم ، سوف أقبل قدميك ، سأكون خادماً لك ، اشفق علي من أجل شبابي — أخذ يصرخ مولوتشكوف ، زاحفاً على الثلج حول كريموف — وكان في ندبه الجنوني الأخرق هذا شيء معيب ، لانسائي ، بعيد عن الرجولة . — لو أرسلتني إلى المستشفى . . . أنا غير قادر على الخدمة في الإستطلاع . أخاف الوقوع في أيدي الألمان . انهم وحوش ، سوف يمزقونني قطعاً . ليس لدي الآن أي فهم أو إدراك ، أيها الرفيق الملازم ، انني غبي كالحمار ، كن شفوقاً تجاه صباي ، الخالي من الخبرة والمعرفة . . . انني أصغرك بثلاث سنوات ، وأرى الموت ماثلاً أمامي باستمرار . . .

— اذن ، تريد الذهاب إلى المستشفى ؟ وترى الموت أمامك ؟ أوه ، كم أنت مقرف وقميء ، — نطق كريموف باشمئزاز وتقزز ، ناظراً إلى ظهره الأبيض الذي كان يلتوي كالدودة بين قدميه ، وبجزم صارم يقطع الرأس ، أمره قائلاً : هيا ، اجلس !

وانتزع القفاز من يده اليسرى ، وجذب بها بشدة الرداء التمويهي لمولوتشكوف ، الذي جلس على عجل على الثلج في ذهول أخرس ( عيناه وحدهما ، الممتلئتان بالدموع ، كانتا تتألقان . وتدافعان .

وتتوسعان في رعب قاتل ) . وبيده اليمنى ، انتزع متحسساً ، الغطاء اللزج ، المبلل والمغطى بالثلج لقراب المسدس على نطاقه ، متلمساً القبضة المتجمدة لمسدس « البرابللّو » المختتم . ولم تنصع القبضة ، فقد تجمدت بالجليد في زوايا القراب الضيقة ، عندئذ انتزع مسدس « البرابللو » انتزاعاً حاداً . بصرير قوي ، بحيث انسلخ الجلد من على أصابعه ، وتغضن وجهه . وفي تلك اللحظة صعقه صراخ رفيع :

— لا ، لا داعي ، أيها الرفيق الملازم ، عزيزي ! . .

وسقط مولوتشكوف بأنين خانق على يديه ورجليه ، وزحف بهرج جانباً في قعر الحفرة ، ونظر بحفرتي عينيه السوداوين ، وهو منهك ، وقال بصوت أجش وهو ينحب : « لا داعي ! » — ودفن وجهه في الثلج ، محركاً جزمته اللبادية من جهة لأخرى .

— ليس شفقة عليك ، أيها الوغد ، بل شفقة على أمك ! . . . لقد أخطأت في اختيارك أيها العير ! . . . قلت لك ، اجلس ! — كرر كريموف متقززاً ، ومن جديد ، وبدفعة قوية ، رفع مولوتشكوف من الأرض ، وبعد أن رفعه ، شعر برجفة جسمه الواهن ، القارسة ، وبنفسه الثقيل من فمه المفتوح بصورة مستديرة خرساء ، وأمره بصوت أصم : — هيا ، انظر إلى السماء ، واعطني يدك ، إذا كنت تريد البقاء حياً ! انظر إلى الأعلى ، يا ابن الأبالسة ! — صاح كريموف وأمسك بيد مولوتشكوف المعدومة الإرادة ، وبحركة سريعة وضع حفنة من الثلج على كم بزته التمويهية ، وأطلق النار بصورة دقيقة ، مدروسة ، على حافة الحفنة الثلجية ، عارفاً ماذا يفعل . . .

( فيما بعد ، بعد مرور عدة سنوات ، ودون أن ينسى تلك السنوات من الخطر اليائس والقاسي ، ناسياً مع ذلك الملازم كريموف . هذا الشاب الحازم بصورة مفرطة ، القائد الموفق دائماً تقريباً لفصيلة استطلاع الفوج ، كثيراً ما كان كريموف يفكر بجرأته السابقة في التصرف بمصائر الناس ، بخشونة تصرفاته وأفعاله الشخصية ، بتهوره وجرأته ، عندما كان ملازماً ، بالبحث السريع عن المخرج ، حيث لم تكن هناك تلك الشكوك التي رافقت حياته كلها فيما بعد . )

لكن ، في تلك الأثناء ، في تلك الليلة الكانونية ، وبعد طلقة كريموف هذه ، تأوه مولوتشكوف ، وحرك عينيه المبيضتين كعيني الميت إلى الأعلى ، وسقط على ظهره على منحدر الحفرة ، فاتلاً قدميه ، كما في سكرة الموت . أما كريموف فقد انتظر قليلاً ، وجلس بقربه ، ومزق ببطانة المسدس الجعبة الفردية ، ثم ضمد بصمت الكم المتورم الغامق لردائه التمويهي الأبيض ، وعندما شعر بالتشنج والرغبة في التقيؤ في حنجرته ، وأحس برائحة الدم المشربة بالأملاح الحديدية ، وبالدبق اللزج على أصابعه ، خاطب مولوتشكوف بعنف وازدراء :

— والآن ، اركض إلى المؤخرة ، دون أدنى التفاتة إلى الوراء ! لن يصدقوك هناك إذا كنت سليماً معافى ، لهذا ، اصرخ هناك بأعلى صوتك : جرحني الألمان ، وضمد جرحي الملازم ! ستبقى على قيد الحياة ، أيها الوغد . على أن لا أراك بعد اليوم ، بالقرب من وحدة الاستطلاع . فاذا ما رأيتك ، سأتذكر كل شيء ، وعندها لن آسف على رصاصة . هيا ، اركض ، بأقصى سرعتك ، بحيث ترتطم قدماك بمؤخرتك !

ولكن بعد يوم واحد ، قدر لكريموف مجدداً أن يرى مولوتشكوف في مركز الكتيبة الطبي ، حيث اقتيد إليه كريموف في فجر تلك الليلة المشؤومة ، التي ابتلعت خمسة رجال من فصيلته الاستطلاعية .

لقد رسخت في ذاكرته إلى الأبد تلك الدقائق الحرجة ، عندما زحف وحيداً ، تعصف به الرياح الثلجية المعترضة ، إلى الضفة اليمنى ، ثم استلقى منهكاً ، تحت السماء الباردة المرصعة بالنجوم ، في السكون المطبق ، الذي ساد لسبب مجهول ، في المنطقة المحايدة المكتومة .

في الأمام كانت قد صمتت المدافع الرشاشة ، ولا أثر لأي صاروخ كشاف ، وانقطع العويل البشري في المنطقة المحايدة ، ماعدا الجليد في الأسفل ، الذي كان ينهار بخشخشة رنانة في زمهرير وحشي في النهر ، حيث كان الدخان يتصاعد من نقرة سوداء ، غير متجمدة ، فتحتها قذيفة في منتصف النهر . أما هو ، المخبول ، الفاقد الوعي من الحرارة والألم ، والذي كان يضنيه الظمأ ، فقد زحف متخيلاً الرطوبة النقية البللورية ، المشبعة بالصقيع ، متصوراً كيف يغمس ذقنه في الماء البارد بلذة ، ويشرب ، دون أن يرتوي ، قطرات كبيرة ، أدخلت البرودة إلى حنجرته ، دون أن يروي ظمأه .

وكان آخر ما بقي واضحاً في ذاكرته ، الموجة السوداء الثقيلة التي اندفعت من النقرة غير المتجمدة ( حيث اهتزت النجوم وامتدت خيوطاً طويلة ! ) ، ومذاق الماء الجليدية القارسة ، التي اختنق بسببها وتجمدت أوصاله ، والشفق المعتم السماوي للضفة اليمنى ، التي زحف إليها ، ساحباً على مرفقه البندقية الآلية ، التي كان أخمصها يصلصل بصورة خطيرة على حدبات صقيع النهر .

ثم انجرف كل شيء وانمحت حدوده — المنخفض ، الكثبان الثلجية للخنادق الألمانية الأولى التي يصعب تمييزها من الأعلى ، والليلة الشتوية المديدة ، فوق الحدائق المتخدرة من البرد للبلدة التي احترق نصفها ، وضربات الدم المتدفق في أذنيه ، والفكرة الملحة بأن عليه ، مهما كلف الأمر ، أن يعرف ماذا حدث هنا . وحفيف الريح الثلجية في المنخفض العاري ، ولم يكن هناك أي شيء ، لا طلقة نارية ، ولا ضوء صاروخ ، ولا أي علامة تفسر ما حدث للجماعة الاستطلاعية ، رغم أنه تخيل ، أن الريح الثلجية تفوح ببارود بارد . . .

وحدثوه فيما بعد ، أنهم قد عثروا عليه في المنطقة المحايدة ، بالقرب من الحفرة ، على الضفة اليسرى . غير أنه لم يستطع أن يفهم ، كيف استطاع العودة من الضفة اليمنى .

عندما وجد نفسه في مركز الكتيبة الطبي ، رأى في اليوم نفسه كشافه مولوتشكوف ، الذي قدم إليه في غرفته ، وهو يبتسم إبتسامة اعتذار وفرح ، وكانت يده معلقة على ضماد جديد ، أما وجهه المدهون بدهون بني اللون ، فكان مبقعاً ببقع رمادية زرقاء ، لكن عينيه الصفراوين الجريئتين كانتا ترقصان بفتوة ونشاط ، وزن صوته مداهناً ، ملاطفاً :

— أيها الرفيق الملازم ، الحمد لله ، أنت حي . . . خنصري قد التوى وتخدر . هاهوذا ، انظر . إنها أشياء بسيطة ، تافهة . لقد ثقبت الرصاصة اللحم .

— اغرب عن وجهي ، — قال كريموف بلا مبالاة .

* * *

ـ أنت محق ، يا تيرنتي ، فالطلقة أحياناً ، قد تكون خلاصاً وإنقاذاً ـ قال كريموف ، شاعراً بصورة خاطفة ، بالعجز القديم والوحدة في المنطقة المحايدة ، ولكن دون حدة الغضب السابقة ، وكأن الماضي كله قد غاص في حلم بعيد . ـ على كل حال ، لن نستعيد ذكرى الحرب ، وكل شيء قد انقضى ، في نهاية الأمر . الأفضل حدثني ، كيف تعيش الآن ؟ كيف أحوالك العائلية .

« وهل ثمة داع للتفكير بكيف كنا قبل ثلاثين عاماً ؟ إن تيرنتي مدير إنتاج جيد ، مخلص لعمله . . . » .

ـ كيف سونيا ؟ ألا تنتظران ولي العهد ؟

ـ إن حياتي كلها متوقفة عليك ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ، طيلة الوقت أفكر بك . أنا لا أؤمن بالله ، وإلا لتضرعت إليه وصليت ، ـ قال مولوتشكوف متأثراً ، بعاطفية واسترد أنفاسه بقلق . ـ من أنا بدون مساعدتك ؟ حتى أنك باركتني ، باركت زواجي الشرعي . ربما ستلد سونيا طفلاً ، قريباً . أنا أريد إبناً ، وهي تريد إبنة . وهناك نقاشات عائلية بهذا الخصوص . إنه أمر مخيف ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، مخيف جداً .

ـ وما هو المخيف ؟

ـ إن سونيا مصابة بالربو . وقد انقطعت تماماً عن الغناء . أحياناً ، تشعر وكأنها تكاد تختنق . في هذا العام ، استدعينا الإسعاف السريع ثلاث مرات . لا ينصحونها الأطباء بالعيش في المدينة . عليها أن تسكن في الضواحي ، حيث الهواء النظيف المنعش . وقد أخذت الآن من

الاستوديو قطعة أرض تعاونية . علي أن أجمع قواي وأبني بيتاً صغيراً ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، ـــ هذا سيكون إنقاذاً لسونيا . آه ، لو تمكنت من ذلك ! . . . .

ـــ مفهوم . ستتمكن من ذلك . أنت ستنجح .

ـــ ولماذا قلت ذلك ؟

ـــ الآن ، أنت تنجح في كل شيء يا تيرنتي . لقد دخلت في منطقة النجاح والتوفيق . في الحياة ثمة خط للتوفيق وخط للحظ السيء . أنت الآن في منطقة التوفيق والحظ السعيد . تنطلق فيها بسرعة ، على ظهر سيارتك الـ « موسكفيتش » .

ـــ أتسخر مني ؟ وكيف أنت ؟

ـــ أنا خرجت من منطقة التوفيق . وأنا أضحك على نفسي بالطبع .

نظر مولوتشكوف نظرة جانبية إلى كريموف ، واستدارت عيناه المستعطفتان ، المتألقتان بصورة معبرة ، مظهراً فهمه لفكاهة المثقفين بيد أنه عندما استدار ثانية نحو المقود ، أصبح قذاله مستقيماً ، مترقباً ، أما صوته الرنان فقد أبدى بوضوح شكه وريبته .

ـــ وهل الإشاعات السخيفة والإفتراءات واقع ؟ أنت رجل معروف للعالم كله ، ولن يستطيع أحد أن يمسك باصبعه ! وهل يستطيع أحد أن يقضي عليك ؟

أنزل كريموف زجاج النافذة ، واستنشق الهواء الدافىء المشبع بالهدب الصنوبري الجاف ، وهو ينظر إلى تخاريم الشمس بين أشجار الشوح على حافة الطريق ، وقال :

— ليس هناك أشخاص لا يمكن مسهم على الأرض . يسقط ذاك الذي يركض ، أما ذاك الذي يزحف ، فلا يمكن أن يقع . لقد ركضت طويلاً ، وطويلاً جداً . وهذا أمر لا يحبه الجميع ، دون استثناء . على أية حال ، كنت أنا ، بكل بساطة ، أعمل ، وأعمل ، وأعمل . حاولت الإمساك بطائر السعادة من ذيله . أتفهم يا تيرنتي ؟

— أيقوم نيتشورالوف باخراج الفيلم بدلاً منك ؟ إن الإشاعات تدور حوله . — قال مولوتشكوف وجلاً ، وتجمد قفاه المستقيم بترقب من جديد . — وكيف سأكون أنا بدونك ؟ وهل المسألة جدية فعلاً ؟

— لن يصيبك شيء ، أيها المدير — قال كريموف وربت على كتفه مشجعاً . — تيرنتي ، أنت رجل محنك ، لبق ، قادر على التفاهم والتعامل . بالابانوف يحبك ، وأنت تخدمه جيداً . قل لي ، يا عزيزي تيرنتي ، في سبيل أي شيء تكذب عليه ، وتفتري على الأساطير والترهات المختلفة ، وتلفق القصص الخيالية التي لا أساس لها من الصحة ؟

« هذا ما كان يؤرقني طيلة اليوم ، مثل الغموض الكئيب » .

— إنني أخدمه وأخدمك ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ، — رد مولوتشكوف بلهجة الموافقة الهادئة ، الخنوعة — وأخدم السلطة السوفييتية أيضاً . أنا رجل صغير ، في زمن الحرب ، كنت مأموراً ، والآن ، أنفذ الأوامر أيضاً . إنني لا أفتري عليك شيئاً ، ولا أتحدث عنك بسوء ، بل العكس صحيح — أساعدك ، عذراً ، قوتي محدودة للمساعدة . بقدر استطاعتي . وهل أنا ضدك ؟

وغص صوت مولوتشكوف الهادىء بالاستياء والضيم ، وأصبح سائلاً ، يصدر عن أنفه ، وقال كريموف بأسى :

— هاهي ذي أبهة أخرى ، ها قد بدأ مشهد الميلودراما .هل تعلمت التمثيل في السينما ؟ كفاك توجعاً ، هذا مضحك ! أنت خبيثه بلا حدود ، يا ثيرنتي ، وتعرف جيداً أن التملق يلتهم الضعفاء وهم أحياء .

— أتضحك علي ؟ انك تسيء إليّ ، — قال مولوتشكوف بصوت مرتج ، مريض ، وهز رأسه بحزن وأسى . — وأنا اليوم بالذات ، علي أن أتحدث معك حول مسألة هامة . تتعلق بك . ألم تحزر ، لماذا لم أرسلك إلى البيت بسيارة الاستوديو ، بل أقودك بسيارتي ؟ ذلك أن السائق غولين أحمق غبي ، وقد كنت محقاً في ضربه على سحنته السكيرة الرعناء . أما هو ، فيلجأ إلى القانون ، ويريد رفع قضية عليك إلى المحكمة . إنه نذل ، سافل ، لئيم ! — جاء لعندي اليوم ، يدعوني لأكون شاهداً .

— هذه مسألة تخصه ، — قال كريموف بصورة غامضة ، متذكراً نظرة غولين العابسة المتقلبة ، عندما التقاه منذ أيام في مجموعة التصوير . — وماذا أجبته ؟

رف مولوتشكوف بعينيه الجامدتين ، شاعراً بذنبه ، وتوتر منخرا أنفه الصغير الغضروفي إلى حد البياض .

— إنه أحمق — أليس هو خطير ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟ من يدري ، ماالذي يدور في رأسه . لقد تكلمت معه طويلاً ، بقي عندي ساعة كاملة ، حاولت إقناعه بمختلف العبارات والكلمات ، بأنه هو نفسه ، السكير ، الجاهل ، يمكن محاكمته بسهولة ، فقال لي : « لقد أراد كريموف أن يشوهني ، لأنني رأيت كيف كان مستلقياً على العشب مع العاهرة سكفوزتسوفا ، وقد كان يهددني . فلتنظر

المحكمة ، على حد زعمه ، في هذه القضية المريبة كلها » . إنه عنيد ، دنيء ، وحش وليس إنساناً ! إنه جاهل إلى أقصى حد . . .

— وماذا بعد ؟ ولماذا سكت ؟ أكمل حتى النهاية ، يا تيرنتي .

« هراء ، جنون . . . وما الفائدة من معرفتي ؟ وماذا سيحصل لنا جميعاً بعد ذلك ؟ — فكر كريموف فجأة ، وبلع من النافذة نسمة من تيار الهواء ، من أجل تخفيف الألم في قلبه . — ومن سينقذنا من الأغبياء الغادرين ؟ » .

— سكير ، إنه سكير ، بيد أنه كانت له حساباته في رأسه ، — وتابع مولوتشكوف بادانة لاذعة . — قال لي ، إنه أراد أن يشوهني ، فليدفع لي ، اذن ، لقاء ذلك بالعدل والقسطاط ، عندئذ سأسامحه ، ونكون قد تخالصنا ، ولن أرفع قضية ضده إلى المحكمة . إذا ما دعس سائق رجلاً ، فانه يدفع له بسبب تشويهه وإصابته راتباً شهرياً لقاء تعطيله واقعاده عن العمل . وقال لي ، ليست لدي سيارتي الخاصة ، وليس عندي بيتاً ريفياً ، أما كريموف فهو رجل غني . فليقدم أربعة آلاف روبل لرجل فقير ، إذا كان مذنباً ، — ونسوي الأمر بالود والاتفاق وبنظافة ، وسوف أصمت ، وكأنني لا أعرف شيئاً ولم أر شيئاً .

— مفهوم ، مفهوم . أربعة آلاف ؟

تأوه مولوتشكوف بازدراء واستخفاف ، لاعباً بأصابعه القابضة على المقود ، وقال بصوت جاف غير مألوف :

— لقد قلت له ، لهذا الأحمق : « ماذا بك ، هل عزمت على نهب رجل طيب ؟ أربعة آلاف ! وماحاجتك إلى أربعة آلاف ؟ ستنفقها

دون فائدة على الخمرة ، أيها الغبي ! أنت لم تحو في جيبك على خمسمائة روبل في يوم من الأيام . ألا تخاف من أن تثرثر أمامي عن الآلاف ؟ » .

أما هو ، فكان حاسباً لكل شيء حسابه . لقد اتضح أن هذا الغبي خبيث وذكي . قال لي : « نحن اثنان ، لا ثالث بيننا ، ليس هناك شهود ، ولم يسمعني أحد غيرك . انني أقول ما أريده في الخفاء . أنا أطلب أربعة آلاف بصورة مشروعة ، وليكن ثلاثة فقط ، ولا أعرف أي شيء » . أرأيت هذا الدنيء الحقير ، الذي برز ؟ !

— اذن ، أربعة أو ثلاثة آلاف ؟ وكل شيء سيكون على ما يرام ؟

— يطلب الآن ثلاثة بعد حديثي معه ، هذا النذل ، الخالي من الضمير .

— أليس كثيراً يا تيرنتي ، ما رأيك ؟

— كيف يجرأ هذا السكير على النطق بذلك ! — قال مولوتشكوف وهو يبتسم إبتسامة لاذعة ، سامة ، متأثراً ، وناظراً بعصبية من وراء كتفه المرفوع إلى كريموف . — حتى أنه اتخذني وسيطاً دون خوف أو وجل ! إنه إنسان فارغ ، عديم النفع ، لكنه خطر . وماذا تطلب منه — كما تطلب من الأهبل ! وهو ، على غبائه وحماقته ، قادر على الحاق ضرر كبير . وقد صدق المثل الشعبي : لاتمس الغائط ، فلا رائحة ذكية ترجى منه . آه ،فياتشيسلاف أندريفيتش ، إنها قضية قبيحة ، سخيفة ، ولا حاجة لنشر هذه الرائحة . لو أعطيته هذه النقود ، وليختنق بها ، بشرط ألا ينشر الروائح الكريهة ! فلتذهب النقود إلى الجحيم ، إن النقود تأتي مع الزمن ، أما الاطمئنان فهو أغلى ، قسماً بالله . ستصرف من أعصابك وآلامك مع هذا الغبي الأخرق ما يعادل عشرة آلاف !

ـ أجل ، على أعصابك ستصرف عشرة آلاف ـ كرر كريموف مقلداً لهجة مولوتشكوف ، وكأن ماقاله لا علاقة له به ، وفي الوقت نفسه ، كان يخنقه التقزز الغاضب ، وغدا كل شيء ، على الفور مقرفاً كريهاً بصورة لا تحتمل : صوت مولوتشكوف المفكر هذا بصورة مقنعة ، وقذاه المستقيم والممتعض ، وابتسامته المحتقرة للأخرق غولين ، ومن جديد ، قال له شخص ما ، في داخله ، حنكته الخبرة الفاجعة ، والشك القابض ، شخص محكوم عليه في روحه بالوحدة إلى الأبد ، ويفهم بطلان كل ما كان يرغب به ويريده ، ويتطلع إليه ويثير فضوله باستمرار : « ومن أجل ماذا ؟ وأين مغزى هذا الكذب الرخيص ؟ في الحصول على ثلاثة آلاف ـ وماذا بعد ؟ وهل ستحل في حياته الغبطة والسعادة ؟ سيشتري الخلود ؟ » . واعترض شخص آخر في روحه ، بعدم تسامح ، وبخبث ، غير راغب بوزن أي شيء في ميزان الحكمة الأليمة ، وقال : « على أي نحو طمست أنت في القذارة ؟ وجه اتهامك ولومك إلى ثقتك الساذجة ، بأن كل شيء سينتهي ! » » .

ـ تيرينتي سيميونوفيتش . . .

ـ نعم يا عيوني ؟ أصغي إليك ، فياتشيسلاف أندرييفيتش .

ـ شكراً لك على هذا الرد اللطيف « يا عيوني » مثل الجدة . لقد كان ردك رائعاً !

ـ من حبي لك . . .

ـ شكراً ، شكراً . قل من فضلك ، تيرنتي سيميونوفيتش ـ قال كريموف هامساً ، وقد مال بجسمه على أذن مولوتشكوف ، ومسه

من كتفه مشجعاً — وكيف قررتما اقتسام هذا المبلغ ؟ ألفان وخمسمائة لك وخمسمائة لغولين ؟ أم بشكل آخر — ألف لغولين وألفان لك ؟ أتعرف ، هذا مهم جداً بالنسبة لي .

أدار مولوتشكوف نحوه رأسه الطويل ببطء ، وتقوس حاجباه القصيران بمرح مثل علامة استفهام ، وانفتحت شفتاه المتحركتان وانغلقتا مصورتين ضحكة كوميدية .

— أتمزح ؟ — قال بلطف وعتاب ، ولكن دون أي دفاع عن كرامته المهدورة ، ودون حرج من الصراحة الغريبة الوقحة — آه ، فياتشيسلاف أندرييفيتش .

— إنني أتحدث بجدية كاملة ، — تابع كريموف ، رابتاً على كتف مولوتشكوف المكتنز بعطف . — إنها فكرة رائعة ، وهي بالطبع ، لم تخطر في ذهنك على الفور ، دفعة واحدة ، يا تيرنتي سيميونوفيتش . ولم لا ؟ ان كريموف ، كما يبدو ، لم يعد كما كان . لا تترك الغنيمة ، إقطعها بأسنانك قطعاً صغيرة وكبيرة ، اغتنم الفرصة المواتية ، فلعل هذا المثقف سيجبن ، ويسعفنا الحظ ، نحن الفقراء في هذا الهرج والمرج . هكذا ، أليس كذلك ، يا تيرنتي ، يا صديقي العزيز ؟

— دعني ! أنت المذنب في كل شيء ! — صرخ مولوتشكوف بصوت نشاز عال ، هازاً كتفيه ، وانحنى قليلاً جانباً ، راداً لسبب ما بيد واحدة ، السترة على صدره ، وفي الدقيقة التالية ظهر في نظرته الحولاء شيء ما نزيه ، حتمي ، محقق .

— ماذا ستقول ، اذن ، أيها الكشاف ؟ — سأله كريموف . — أية جملة تريد أن تنطق ؟

— لقد كنت أقوى مني — صاح مولوتشكوف بالصوت القوي ذاته ، ومن جديد بسط فمه بصورة متكلفة وكشف عن ابتسامة كوميدية صامتة — لقد كنت ، يا فياتشيسلاف أندريفيتش ! أما الآن ، فأنا أيضاً ، لست ضعيفاً . كنت خادمك وعبدك ، وكان هذا يروق لك ، أما الآن ، فأنا ، أكاد أن أكون حراً ، مستقلاً عنك ! يمكن لأي مخرج أن يأخذني . هكذا يحدث في الحياة ! كما في الأغنية : تارة ترفعه عالياً ، وتارة أخرى ترميه إلى القاع بلا أثر . لقد انتهت سعادتك وولت . لقد شوهت لي يدي هذه في الجبهة . وعطلت عصبها ، أنظر ، كيف يتحرك إصبعي بصورة سيئة ! — أبعد مولوتشكوف يده اليسرى السريعة ، كالقرد ، عن المقود ، وهز أصابعه مهدداً ، وحرك خنصره المعوج البارز ، دون أن يضحك بصمت هذه المرة ، مكشراً بجدة عن ابتسامة شخص مستعد للهجوم على مكمن حيوان متوحش — وأنت بحقي ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، مسيء ومذنب جداً ! أنا أيضاً يمكنني أن أرفع عليك دعوى إلى المحكمة — كيف أطلقت النار وجرحتني عامداً متعمداً !

كان مولوتشكوف ، وكأنه في عجلة من أمره ، يمدح نفسه ، ويتباهى بإصرار ، وعبر ابتسامته الحادة ، ومضت عيناه الحاقدتان بصورة غير مألوفة ، بنار صفراء . وبعد أن تمسك كريموف بقدر كاف من الهدوء الساخر وتمالك نفسه ، قال :

— وأنت ، بروتوس * ، إذن ؟

---

* بروتوس ، مرقص يوليوس ، ( ٨٥ — ٤٢ ق . م ) سياسي روماني كانت له الباع الطولى في المؤامرة على يوليوس قيصر ولي نعمته . — المترجم —

— ومن اين بروتوس هذا ؟ ومن أنا أيضاً ؟ . . . أنت لا . . .

— حمار ! — قال كريموف بارتياح واحتقار ، وتابع قوله ، مرتباً الكلمات بصورة مستهزئة ، كما في السابق : — يبدو أن هذه كانت مشيئة القدر ، أن أشفق عليك ، في العام الرابع والأربعين . . . أليس كذلك ؟

صرخ مولوتشكوف بصوت غير مألوف ، منعماً بحدة الامتعاض :

— آه ، أنا أيضاً ثمة حاجة إلي على هذه الأرض ! وماذا حققت ، ماذا اكتسبت ؟ أما الظلم ، فقد كان وسوف يبقى ! لديك شقة كبيرة ، وبيت ريفي ، ومال وفير ، كل شيء متوفر لديك ! وماذا لدي ؟ شقة صغيرة جداً ، سيارة — مهزلة « موسكوفيتش » ، زوجتي مريضة ، أما بالنسبة للمال ، فدائماً على الحافة ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ! لقد استوعبت جيداً حديثك مع الأمريكي . إنك تضع نفسك في مرتبة أعلى من الجميع ! أنت سيد نبيل بالمقارنة معي ، مع حياتي البائسة ! أنت تحتقرني ، تقرف مني ، تصبر علي ، أنا أشعر بذلك ، بجلدي وجسدي . . في الحرب كنت تحتقرني ، وكذلك الآن تحتقرني !

أسرع مولوتشكوف في اكمال حديثه هذا بصورة دامغة ، منفعلة ، وكانت ترتسم على شفتيه إبتسامة انتقام ممطوطة ، وشعر كريموف أن الوتر الحاد الطنان الذي يربط بينهما قد انشد وتوتر إلى حده الأقصى ، ولإحساسه الحارق بالكراهية الجامحة المتكشفة التي يكنها نحوه كشافه السابق ، الوحيد الذي بقي حياً من فصيلته ، قال بصوت هامس :

— هذا صحيح . لقد كنت دائماً عبداً ، بطبيعتك . ولن تثير

في نفسي أية عاطفة أخرى سوى الإحتقار والإزدراء . أوقف السيارة ، يا بروتس العصري ، — أمره بصوت خافت ومسيطر ، كما في الأيام المنصرمة عندما كان ملازماً ، وضغط على كتف مولوتشكوف المكتنز الحار . الذي توتر بسرعة ، وعندما رأى وجهه الذي ارتسم عليه شحوب الموت من التوقع والخوف ، أمره ثانية : — قف !

أخذت سيارة الـ « موسكفيتش » تزعق بفراملها ، وعرجت على حافة الطريق ، وتوقفت عند متراس من الطريق الفارغ في هذا المكان ، فوق الحقول المصفرة ، وعندما فتح كريموف باب السيارة بحزم ، وخرج منها بهدوء ، انصب عليه قيظ الطريق الملتهب بأشعة الشمس مع هواء الحقول الجاف . وهنا تأخر قليلاً ، والتفت إلى مولوتشكوف ، ناظراً بفضول لم يكتمل إلى وجهه الذي أصبح بلون الحوار ، والذي فقد بشاشته المتملقة المعتادة ، وتعبير الطاقة العملية ، المستعدة دائماً للعمل ، الضروري للغاية من أجل تنشيط مجموعة التصوير ، وبالدرجة الأولى بالنسبة له ، للمخرج كريموف .

— هكذا ، اذن ، يا تيرنتي ، شكراً على الصراحة ، فهي أيضاً غالية جداً ، أغلى بكثير من الآلاف الثلاثة — قال كريموف : مذهولاً من أعماقه من قدر الكراهية الكبير الذي نفثه مولوتشكوف ، ومن درجة رباطة جأشه وبرودة أعصابه . — لكن ، وكما تدركون جيداً ، تيرنتي سيميونوفيتش — تابع كريموف ، منتقلاً إلى صيغة الجمع باحترام ، — في مثل هذه الظروف الناشئة ، لا مجال للعمل معاً نحن الاثنان في مجموعة تصوير واحدة . وغداً سأتخذ قراراً ، إذا لم تتخذه قبلي . بهذه المناسبة ، قل السائق ستيبان غولين ، أنني باسم العدالة ،

مستعد لأن أخسر ثلاثة آلاف . ولكن ، بالطبع ، بشرط ألا أحرم من سعادة النظر إلى وجهه . . . كما أرى وجهك الآن ، كي أرى عن قرب ، من هو المحسن إلي منكما . هذا كل شيء ، كما أعتقد ، لا تقلقوا ، يا حضرة المدير ، سأصطاد أية سيارة عابرة . أتمنى لكم سفراً سعيداً . تيرنتي سيميونوفيتش ! لقد حالفك الحظ من جديد ، كما حدث في تلك الأثناء في الحفرة . . . إنك تعود وحيداً . .

وأغلق باب السيارة بتلك الدرجة ذاتها من رباطة الجأش ، عندما كان ملازماً ، والتي كانت ضرورية في تلك الأثناء ، كما كانت ضرورية الآن ، بصورة خاصة .

« وهل يمكن أن يحدث هذا – في عام أربع وأربعين ، في أوكرايينا ، أراد أن يحتال على القدر . . . وهاهو مرة ثانية الآن ؟ تبدلت هيأته الخارجية ، البزة ؟ – فكر كريموف ، ماشياً على الطريق ، وسيطر عليه الأسى بصورة خانقة . – لا ، شيء آخر ، انضاف إليه شيء آخر ، شيء آخر . . . انه كان يثبت إخلاصه ويدافع عن نفسه بوداعة مزيفة في الاختلاط مع الجميع ، أما رعايتي الطيبة له فقد ساعدته على الوصول إلى أشياء كثيرة . فما الذي دفعه إلى التفكير بالأربعة آلاف المشؤومة ؟ ليس غوابن ، واضح أنه ليس غوابن . انها فكرة مولوتشكوف فكيف ظهرت ؟ هل بسبب مرض زوجته سونتشكا ؟ أم من أجل شراء بيت ريفي ؟ أم أنه قرر ، أن اللحظة قد حانت لنهش قطعة أكبر بلا عقاب ؟ أي حساب لئيم هذا ؟ أية فراسة شيطانية هذه ؟ . . . » .

– فياتشيسلاف أندرييفيتش ! انتظر يا عزيزي ! إلى أين تمضي ؟ – سُمع نخلف ظهر كريموف صوت يزعق محذراً ؛ وكانت خطوات

تطرق الاسفلت في الخلف ، وركض مولوتشكوف اللاهث ، المبلل ، إلى الأمام ، راقصاً بالتماس ، راجياً بذهول وارتباك ، بعينين مرفرفتين ، مستعداً للبكاء ، وقد حبس دموعه . — فياتشيسلاف أندريفيتش ، عزيزي ، لقد أسأت إليك ! — قال مولوتشكوف لاهثاً — اعذرني ، اعذر حيواناً جاهلاً ، ماهذا الإفتراء السخيف الذي افتريته عليك ، خرج من لساني دون قصد ، أنا نفسي لا أعرف ، انني غبي ، انني بهيم أخرق ! يالي من ديبلوماسي ، أخذت أمارس الثرثرة الفارغة ، في حين أنني مدين لك حتى الممات ، وسأقول لأطفالي أنك إنسان طيب ، انك ، بروحك ، إنسان طيب . . . أما أنا ، فأخذت أدافع عن السكير غولين ! . . . .

« هاهوذا . مولوتشكوف الآخر ، في البزة الواقية » .

— إن الطيبة في عصرنا نقيصة لا تغتفر . صحيح ، يا تيرنتي سيميونوفيتش ؟ — قال كريموف وابتسم ابتسامة ساخرة . — قل لماذا احتجت إلى ثلاثة آلاف ونصف ؟ انني أعرف جيداً ، أن غولين لن يحصل من هذا المبلغ إلا على خمسمائة . لماذا لم تطلب مني ، ببساطة ، ديناً ، قرضاً ؟ .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش ، النقود ليست من أجلي ، ليست من أجلي — صاح مولوتشكوف بصوت معترض وفجأة اندفع بحمية خرقاء . بشفتين ممطوطتين ، وبوجهه كله نحو كتف كريموف ، مما كان يعني به قبلة شكر جارفة . — وهل بامكاني ذلك ! النقود لغولين ، لغولين ! لقد أردت أن أحميك من شره ، ثم اختلط كل شيء في

رأسي ، وبدأت أكلمك بكلمات قاتمة ! كم أفضل لو تضربني ، لشعرت بشيء من الراحة ! لماذا قلت لك هذه القبائح ، لا أدري . لا أستطيع أن أفسر ذلك لنفسي ، أنا الغبي . فأنا أحبك ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ، وتكلمت عليك بتلك الشتائم والعبارات ، وكأنني عدو لك ! لقد أنقذت حياتي . . .

ـــ كفاك تذللاً وتضرعاً ! ـــ أوقفه كريموف ، محاولاً قمع غضبه ـــ بالله ، إنه شيء مقرف . لا حاجة لك الآن للذهاب في مهمة استطلاعية ، ولن تذهب معي إلى الضفة الأخرى . حتى عندما كنت شاباً ، كنت دائماً تعرف ما تريد . وهل تظن ، أنني صدقتك ، في تلك الأثناء ، في الحفرة ، أن يديك تجمدتا وفقدت عقلك ؟ كل شيء كان واضحاً . كل ما في الأمر أنني أشفقت عليك ـــ وذهبت إلى المؤخرة يا سعيد الحظ ، وبقيت حياً . في حين أنه كان من الواجب قتلك بالرصاص . وهل تعتقد أن هذه القذارة المتعلقة بالنقود ليست مفهومة بالنسبة لي ؟ شيئاً واحداً لم أفهمه ـــ لماذا كنت دائماً أمد لك يد العون ؟ لماذا أساعدك ؟ على أية حال ، فالطبيعة خلقت ، لسبب ما ، هؤلاء الظربان أيضاً . هل أصبح موقفي منك واضحاً الآن ، يا تيرنتي سيميونوفيتش ؟ اذهب إلى الجحيم ، ولا أريد أن أراك بعد الآن !

ـــ يا إلهي ، يا مسيح . . .

أصغى مولوتشكوف إلى الكلمات الساحقة ، وذقنه ترتجف ، ثم ألصق قبضتيه بعينيه وأنَّ ، وبكى بكاءً خفيفاً ، وهو يزعق كالكلب ، ولوى كريموف وجهه قائلاً :

ـــ كفى توجعاً ، كفى أخيراً .

ـ يا إلهي ، يا مسيح ، النقود ليست من أجلي ، ليست من أجلي أنا خادمك ، كنت ولا أزال ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ! . . . .

ـ قلت لك ، اذهب إلى الشيطان ، اذهب إلى الجحيم !

ـ علام ؟ علام تكرهني ؟ إنك تكرهني أليس كذلك ؟

ـ بل وأسوأ من ذلك .

ـ هكذا ، اذن !

ودون أن يرفع قبضتيه عن جبينه ، رقص ، وخطا خطوات سريعة حول كريموف ، وفجأة ، ثاب إلى رشده ، واتجه نحو السيارة هازاً رأسه ، وكأنه مقتول من ظلم إنسان كان يؤلّهه ويقدره من أعماق روحه ، لكنه رفضه ، ونبذه ولم يفهمه . وعندما أنزل قبضتيه والتفت كان وجهه المزهر معوجاً ، مفعماً بالحقد .

ـ أما النقود فستعطيها لغولين ، وإلا فسيوقعك في مأزق ، انه قادر على ذلك ، سيوقعك في مصيبة ! . . .

« فعلاً ، لماذا يكنّ لي هذه الكراهية ؟ ربما تكون هذه الكراهية كلها من الماضي ، ومن تلك الحفرة ؟ توقع الانتقام ؟ » .

* * *

وقف كريموف على قارعة الطريق العام ، كاسراً عيدان الثقاب ومشعلاً سيجارة ، ونظر نظرة سريعة إلى السيارة ، التي استدارت على الطريق ، وتمكن من رؤية كتفي مولوتشكوف المستقيمين ، وفمه

المضغوط بجبات ، بل وبصرامة ــ هذه أول مرة يرى فيها تيرنتي سيميونوفيتش على هذا الشكل ــ وعلى الفور ، خطر في ذهنه ، أنه ، مولوتشكوف ، عموماً ، سيد الموقف ، لأنه لن يتورع عن أي شيء ، مستغلاً الفرص المناسبة . لقد لاح وجهه الصارم العدائي سريعاً واختفى ، وكأنه لم يدر بينهما أي حديث ، وكأن مولوتشكوف لم يعتذر بصورة ذليلة ، مهينة ، ولم يحاول البكاء بعويل منقبض كالكلاب . « ماذا يحدث لي ومن حولي ــ جنون ؟ ــ فكر كريموف بأسى . ــ من المستحيل أن تكون شفقتي قد أهلكت ايرينا ، وأن يكون أبوها على حق : لم يكن علي أن أزرع في نفسها الأمل ، ــ ارتعشت في ذهنه هذه الفكرة ، وشعر بألم موجع في صدغيه . ــ إذا كان الأمر كذلك ، فالشفقة ، اذن ، تنقلب تعاسة وشقاء ؟ وهل هناك من منطق ثابت ؟ الجوع فقط ، والولادة والموت ــ هذه وحدها فقط الحقائق الثابتة ، أما ماعدا ذلك فهو مزدوج ، ذو وجهين ، خاضع للظروف : الحقيقة ، الشر ، الخير . أجل ، أجل ، نحن جميعاً أسرى الظروف . وليس هناك من أحد حر ، مستقل . إن هذا رهيب ، بلا مخرج ، وحقير . . . لكن ، يجب أن يكون في هذا أيضاً ، مغزى سديداً ما ! وهل للفكر السديد علاقة ما بالجبان الماكر بالابانوف ، وبمولوتشكوف ، بحقده ولعبة العبد التي يمارسها ، وبوالد ايرينا الذي يقتله الألم والوحدة ؟ وفي نهاية الأمر ، هل هناك من هدف لدى الشهير غريتشمار ، المصعوق بعدم قبوله المدنية المريضة ؟ وأي هدف لي من هذا الإيمان المضجر ، الذي لا يبرأ ، بالحقيقة ؟ . . . وما هي الحقيقة ــ هل أعرف على وجه الدقة ؟ وكيف الخلاص ؟ ــ بسخريتي المتكلفة ، وبلعبتي بالحياة . وفي سبيل أي شيء ؟ أجل ، هل هو عجز المثقف وضعفه أمام الظروف ــ هذه

هي سخريتي . عجز أمام الخساسة والدناءة والكذب ، ورغبة بالتخفيف وليس زيادة التوتر ! . . . . كلا ، من المستبعد أن أخاف شيئاً ، وأنا في عمري هذا . لكن سخريتي هي أيضاً حل وسط ، هي أيضاً استسلام للظروف وتوافق معها ، وأخيراً ، خيانة تجاه نفسي ذاتها ! . . . إنه مضحك ! لقد تعب المتحمسون ومحبو الحقيقة . لقد أنهك العادلون وسئموا . والناس يتملصون منهم وينبذونهم ، ولا يبتسمون لهم إلا شفقة . ومع ذلك ، ففي لحظات اليأس ، أتذكر رجلاً لا يعرف الوسطية والحلول الوسط في التاريخ ، إنه الشهيد والمعاني ، الذي لا مثيل له . من أعطاه الإيمان والتعلق به — الرب ، الله ؟ فمن الذي يمنحني الإيمان ، وأنا رجل غير مؤمن ، — الفن ؟ القِمِّس حبقوق ؟ وبأية قوانين يمكن أن يؤثر ظهور الحقارة والدناءة الذليلة على النفس بمثل قوة التراجيديا العظيمة ؟ حبقوق ، الكاهن الأكبر حبقوق ، المتأجج المشاعر والعواطف ، القديس ؛ والعالم المعاصر الفقير روحياً ، الراغب بالملذات بصورة تشنجية ، وكأنه عشية يوم القيامة . ومن جديد جون غريتشمار ، « مدينة المدائن » باريس وشعور الألم الخانق ، كالذي انتابني هناك في الليلة قبل الأخيرة . . . . » .

ساحة بيغال ، الحي المرح ، السابح في الملذات ، ليلاً ونهاراً ، من « مدينة المدائن » ، الحي الذي اقتاده إليه غريتشمار الذي لا يعرف الكلل والنصب . كانت ساحة بيغال تلمع وتغلي ، وتتلون ، بدا له بالألوان ذاتها والأضواء ذاتها ، وبالأسماء ذاتها للبارات والكباريهات الليلية ، وبأسواق الجنس وأفلام الجنس ، كالتي رآها كريوف في هامبورغ ، وفي بروكسل وسان فرانسيسكو ، الندل أنفسهم في بزاتهم الحمراء الفاحشة ، في قبعاتهم السوداء العالية الأريستوقراطية ، وتلك

السحنات الشاحبة المهلهلة للقوادين ، الذين يعرضون ، في جميع الزوايا باغراء واصرار ، الدخول إلى المفاجأة المثيرة ، ومعاناة الشعور الذي لم يشعر به المرء من قبل ، الازدحام البشري ذاته ، الحركة الضيقة لحشود الناس ذات الوجوه والألوان المختلفة ، الهواء الفاسد المشبع بروائح العطور المنوعة ، والمختلط بالرائحة الساخنة لحبات الكستناء المشوية قرب دور السينما ، والعذوبة الآسرة للقهوة في محلات «السندويش» ذات الأبواب المفتوحة ، وفي كل مكان أمام الأرصفة ، ترى السيارات اللامعة ، ذات الظهور المدهونة ، المنطلقة إلى مكان ما في العدم الضوئي ، والضجيج الذي لا ينقطع ، ذو النغمة الواحدة ، بالاختلاط مع صرير آلات اللعب الأتوماتيكية ، والأصوات المحنكة ذاتها أمام البوابات والمداخل ، ولمس سماعات الهاتف : « ألو ! » — والنظرات المتواضعة إلى الأعين مع الانحناءة الداعية ، المنادية ، والعفة المتصنعة لبائعات الهوى ، الصغيرات السن أحياناً ، الشبيهات بطالبات جامعة السوربون ، وقد ارتدين النظارات البريئة البسيطة ، وإلى جانبهن الحدقات المتوسعة للشباب — متعاطي المخدرات ، المصوبة على الوجوه الخالية من الدم ، وجماعات من الزنوج المرنين الممشوقين ، مثل الإيلة ، في قمصان بيضاء داخلية ، المتربصين بضجة أمام المطاعم ، ينتظرون عروض السائحات الأمريكيات الغنيات ، اللواتي يُثِرن خارج أمريكا خيالاً متزايداً ، والرجال المحترمون الذين ينقلون نظراتهم اللامبالية على واجهات الأندية الليلية ، وعلى صور الأجساد العارية بأوضاعها المختلفة .

المنعطفات والأزقة ذاتها ، حيث الأنوار الخافتة ، والظلام الخفيف ، التي تفوح منها موجة دافئة من « البودرة » ، ورطوبة الحمامات أحياناً مع تدفق عطري لأشياء مالحة ، حيث بالقرب من جدران منازل شبه مظلمة ، وأمام أبواب شبه مفتوحة كانت تتنزه المومسات المتقدمات في السن ، متوترات السيقان في جوارب من لون أجسادهن ، وفي

سراويل ذات مثلثات ملونة في أسفل بطونهن ، فكن يبدين وكأنهن عاريات تماماً ، وكن يتحادثن فيما بينهن بحرية ، بأصوات مدمنة على التدخين . وكن في الوقت نفسه ، بلامبالاة متكلفة ، يصطدن بنظرات جانبية من أعينهن المرعبة المنقشة كأعين المهرجين ، أقل اهتمام يبديه المارة من الرجال . صاحت إحداهن ، وكانت نحيفة مسطحة الصدر ، وهي تهز شعرها الطويل ، وقد أسدلت أحرفاً مزخرفة باسمها على كتفيها العريضين ، صاحت منادية غريتشمار بضحكة فظة :

— ايه ، أيها البدين ، أنا أعرف أنك ألماني غني ، اصعد إلي ، سأعمل ما تريد ! لدي صديقة . . .

— وكم ستكلف ، يا عزيزتي ؟ — رد غريتشمار بحماسة مفتعلة وغمز كريموف بجرأة . — أين صديقتك يا عزيزتي ؟

— اصعد إلى العلية وستراها . إنها شقراء مثل سافو . وأصلها من ليسبوس . هل تفهم شيئاً من هذا ؟

— وكم فرنكاً ستأخذين يا عزيزتي ؟

— ستدفع إيجار شقتنا .

— وكم سأدفع ؟

— لن تندم على نقودك أيها البدين بعد أن ترى .

كانا يتحدثان بالفرنسية ، ولم يفهم كريموف حديثهما كاملاً . كانت ترهقه هذه الحركة المسائية الجشعة للناس ، الباحثين عن الملذات السريعة في الساحة ، وفي هذه الأزقة العاتمة ، حيث كان يباع على المكشوف الجسد البشري الحي — أفخاذ وأوراك ، سيقان وشفاه ، وكذلك تلك الحركات الآلية من جانب المشتري أثناء اختياره ؛ وشعر بذلك الإحساس الضاغط ، الذي كان قد عانى منه قبل عامين في مخزن بمدينة هامبورغ ، يدعى بسذاجة مخزناً صحياً ، وذلك عندما شاهد

لعبة مطاطية ضخمة كريهة ، مدعوة باسم ليندا ، تتمتع بدفء « جسد نسائي طبيعي » ( وهذا ما عرفه من الإعلان التجاري ) ، يمكن شراؤها بثلاثين ماركاً ، كعشيقة دائمة ، لا تختلف إطلاقاً عن أي امرأة . كما أذهله في هذا المخزن زبون غريب ، رجل نحيف ، دقيق الرجلين ، في حوالي الأربعين من عمره ، كان يدور حول باب المخزن . وكان يربط لسبب ما ، منديلاً على وجهه إلى مستوى العينين ، وكان يخطو خطوة نحو منضدة البيع تارة ،ويتراجع إلى الوراء تارة أخرى ،وهوينظر نظرة شبه مجنونة لصريع خجل مرضي ، وهوس وخوف مجهولين . . .

أما هنا ، في ساحة بيغال الباريسية ، بالقرب من الأزقة المظلمة ، كان كل شيء يغلي بالألعاب النارية الساهرة لمصابيح النيون والكهرباء . كانت تتدفق في كل مكان حشود متسكعة فضولية من الراغبين بمعرفة أو رؤية مواد الملذات ، وكانت المومسات الشابات يقفن ، وقد ارتدين سترات ، مثل حلقة متربصة أمام نوافذ البار الساطعة ، وكان رجل مقعد ممتلىء الجسم عند رقبته وكتفيه ، يرتدي قبعة ذات تفصيلة عسكرية ، يتنقل على عربته من مومس إلى أخرى ، وكان يقنعهن طويلاً بشيء ما ، رافعاً إليهن عينيه بتضرع وتوسل ، غير أنهن كن يشرن إليه سلباً بسباباتهن ، ويدرن له ظهورهن ، وبدا ، وكأنهم لم يتفقوا على السعر ، فابتعد مضطرباً ساخطاً بوجه متعرق ، ثم انطلق متعباً أخيراً نحو الحاجز المعدني الذي يفصل الرصيف عن الشارع ، ووضع بحركة واحدة قبضتيه المرتجفتين على الحاجز ، وخيل لكريموف ، غالباً ، أن الدموع الحاقدة قد انحدرت بسرعة على وجنتي المقعد الفتيتين المستديرتين . نظر المقعد ، عبر الطريق ، إلى الواجهات المضاءة بالشموع القرمزية لملهى أمريكي جديد ، وهناك ، على الطرف الآخر من الشارع

دوت صفارة بصورة حادة ، وازداد الحشد المتراكم على الواجهات ومدخل الكاباريه . وتوقفت سيارة البوليس التي تطلق وميضاً دواراً من الإشارات الزرقاء بعنف أمام الرصيف . واقتاد شرطيان شخصاً مغطى بالدماء عبر الحشد المتجمع أمام المدخل ، ودفعاه إلى داخل السيارة التي فتح بابها على مصراعيه . ودوت الصفارة من جديد ، وأثناء تحركها من مكانها بصورة جامحة من بين جموع السيارات الواقفة على حافة الطريق ، اصطدمت سيارة البوليس من الجانب بعمود حديدي كتبت عليه يافطة باسم الشارع ، فأنّ العمود وتمايل ، وضحك الحشد كله بشماتة. وانطلقت السيارة التي كانت تشق طريقها بدوي الصفارة الرهيب ، تحت الحلزونات الوامضة للإعلانات ، واختفت في فوضى الأنوار والأضواء الغازية ، وسط سيل السيارات .

في تلك الأمسية ، لم تفارق كريموف حالة من السخافة البلهاء الجارية فيما حوله ، وكان قد تناول من المسكرات أكثر من عادته ، وكان يصغي بصمت إلى غريتشمار ، وجلس في البار حتى الساعة الثالثة ليلاً ، جرياً وراء أمل باطل بالتخلص من تلك الحالة المرضية المضجرة التي استمرت خارج جدران البار ، وفي شوارع باريس الليلية.

« بم أفكر ؟ بالكاهن الأكبر حبقوق ، بساحة بيغال ، ببائعات الهوى في ستر هن الطلابية ، بالمقعد البا كي وهو على عربته . . . وبالأربعة آلاف ، وبفم مولوتشكوف المضغوط بصورة لا تعرف الشفقة ؟ أي ارتباط ، أي ترابط ؟ أين ؟ أشكال ومتغيرات . هكذا أو بصورة تقريبية على هذا النحو ، حدث في روما القديمة . وربما كان يحدث دائماً ، في التاريخ كله . لا ، فحتى بعد الحرب ، لم يكن هناك مثل هذا الإحساس المتطرف بالجنون . فما العمل ؟ إلى أين يتحرك كل شيء ؟ »

# الفصل الخامس عشر

أوقف سيارة خاصة ، تعمل بالأجرة بصورة غير قانونية ، ولم يستطع ، طول الطريق إلى بيته الريفي ، التخلص من الفكرة العالقة في ذهنه ، المتكررة بالحاح : « لماذا كان يلوح في حدقتي عينيه ظفر مسطح ؟ »

كانت تانيا تقرأ وهي جالسة في الأرجوحة ، وكانت تهز رجلها وتتأرجح ، وعن بعد ، وخوفاً من أن يزعجها ، كان يسير على الممر أناتولي بتروفيتش ستيشوف ، وكان يُرى بوضوح تحت أشعة الشمس بين أشجار التفاح ببزته الفاتحة اللون ، وشعره الأشيب الفضي ، والأناقة الكبيرة لفرق شعره المائل . وما كاد كريموف يفتح خوخة الباب ، حتى استدار ستيشوف للقائه بخطوات عاجلة :

— وصلت قبل ساعة ، أنا أنتظرك ... قال ستيشوف قلقاً على غير عادته . — على أن أقول لك شيئاً . سأشغل من وقتك عشرين دقيقة . اليوم كنت عند المحقق ، الذي يحقق في القضية . . . .

— دقيقة ، يا توليا ، لن نستعجل الأمور .

قاطعه كريموف ، وتحلى بشكاله المازح ، الساخر المألوف ، ثم

اقترب من تانيا ، أما هي ، فقد قفزت من الأرجوحة ، وقد سطعت عيناها الرماديتان ، وقبلته على وجنته بصورة غير مسموعة .

ـ سلام يا بابا .

ـ مرحباً أيتها العنزة ـ الشيطانة ، ألم تشتاقي إليّ ؟

ضحكت تانيا وقالت :

ـ والدي العزيز ، أمرت أن أطعمك . ماما في الهواء الطلق ، كما يقال ، سوف تنتظر غروب الشمس . أما أنا فكنت بانتظارك . ولم أذهب إلى الشاطىء ، رغم أن الخطيب والخطيبة قد دعواني باصرار . أخبرك ، أن اليوم عندنا حساء «أوكروشكا» البارد اللذيذ. أين سنتناول طعام الغداء ، على الشرفة أم في الحديقة ؟

« هذه هي الوحيدة ، القريبة ، المخلصة التي لن تخونني أبداً . . . » ـ فكر كريموف ، وشعر بالدموع ، التي أخافته لفجاءتها ، تندفع إلى حنجرته .

ـ ليست لدي رغبة بالطعام ، يا تانيوشا الحبيبة ، ـ قال كريموف ، وقبلها من رأسها بحنان جديد إلى صوت ابنته ، إلى شعرها الأشقر المقصوص كشعر الصبي ، الذي تفوح منه الشمس . ـ أتعرفين ، لقد تغديت في الاستوديو . سأصبر حتى العشاء . إذا سمحت ، احضري لنا ماء « بورجومي » المعدني ، أو ماهو موجود في البراد ، إلى غرفة مكتبي . مفهوم ، أيها النقيب ؟

– سمعاً وطاعةً أيها القائد ، – ردت تانيا بموافقة مشاكسة ، مُمارِسةً اللعبة اللذيذة التي يمارسانها ، بيد أنها سألته على الفور بقلق : – ألم تكن اليوم هناك حرب باردة ؟ ألست مرهقاً كثيراً اليوم يا بابا ؟

– لا ، – أجاب بطيبة خاطر ، – لست مرهقاً كثيراً . ولكن ما الأمر ، يا ابنتي ؟

– اعطني يدك ، وسأعرف كل شيء بسرعة ، من خلال خطوط راحة كفك . أتريد أن تعرف نفسك ؟ لقد كنت أحاول رؤية لوحة حياة أناتولي بتروفيتش ، لكن كل شيء مدرع مخفي في راحة كفه ، كما السلحفاة . ضباب مشوش .

– تلك هي حياتي ، تاتيانا فياتشسلافوفنا ، – قال ستيشوف ، منحنياً بأناقة واحترام .

– يدي ؟ تعرفين صورة الحياة من خلال الخطوط ؟ هذا ممتع – قال كريموف بمرح كبير . – لكن ، ربما فيما بعد ؟ حسناً ، أيتها البصارة ، تعرفي وبصّري .

أمسكت يده ، وركزت انتباهها بصرامة ، وجمعت حاجبيها المستقيمين على قصبة أنفها ، وصمتت دقيقة . ثم نظرت إلى راحة كفها الزهرية ، وإلى راحة كفه ، وقالت وهي تهز شعرها ، بصورة غامضة :

– أنت إنسان طيب ، وكذلك أنا . انتقلت إليّ الطيبة عن طريق الهرمونات . سوف تعيش ثمانية وسبعين عاماً . أما أنا فخمسة وسبعين .

ـ تانيوشا ، لا تخيفيني .

ـ أنت اسمع من فضلك ، لديك خطوط طريفة في راحة كفك . زوجتك تحبك ، أما أنت فتحبها بدرجة أقل ، هكذا اذن . وأطفالك مختلفون تماما .

ـ ترهات ، ماهذا ؟

ـ أنت اسمع واصمت . النصف النسائي في الأسرة يحبك . لكن الأبناء ، كما قلت مختلفون تماما : أحدهما يذهب باتجاه الغابة ، والآخر باتجاه الفِطر . أنا باتجاه الفِطر . وعموما ، ان مصيرك سعيد . هذا كل شيء . بيد أنه يجب وضع جميع الأغبياء على ظهر سفينة فضائية ، وارسالهم إلى كوكب غير مأهول .

ـ هذا اقتراح معقول ، يا تانيوشا ، يجب أخذه بعين الاعتبار . هذا طريف جداً . وأين تعلمت التبصير وقراءة الكف ؟ ـ سأل كريموف بلهجة رعناء ، متابعاً لعبته ، وشاعراً في الوقت نفسه ، بشيء جدي ، مقصود في تصرفات ابنته .

ـ اليوم صباحا على الشاطىء ، ـ أجابت تانيا بعدم اكتراث ـ علمتني التبصير امرأة ذكية . وهي بالمناسبة ، مشاهدة ومعجبة بأفلامك ، تكن لك الإحترام والتقدير ، وقد رجتني أن أبلغك الآتي : « قولي لفيانشيسلاف أندريفيتش ألا يعر أي اهتمام لجميع المرائين ، أصحاب الآذان الطويلة ، المتواجدين الآن بكثرة » . أنقل لك قولها هذا . وهذا ، رغم كل شيء ، صوت الجمهور ، فخذه في اعتبارك ، وأنا مع الجماهير يا بابا . آه ، كم أكره جميع المرائين المفترين الأغبياء .

سيطر فجأة على كريموف ألم لذيذ ، نابع من عاطفة الأبوة ، ومن الحدس القابض بأن ابنته ، رغم أدائها لدورها المرح السابق ، كانت ترفض ، بارتباك وبطريقة طفولية ، الأمور السيئة ، وتريد مساعدته . ودون أن ينطق بكلمة واحدة ، نظر كريموف إلى وجهها المرفوع ، الحر ، المستعد للدفاع عن أبيها ، وداعب شعرها الطري في نقرتها بخفة ولطافة وشكر ، والتشنج في حنجرته .

— شكراً يا حبيبتي .

قالت بشفتين مرتجفتين :

— ألا تصدقني ؟ أنا ساحرة وبصارة . سوف ترى .

— شكراً يا تانيوشا . أنا أصدقك ، أصدق تبصيرك وقراءتك للكف . أتجلبين لنا شيئاً ما ، بارداً ؟ احمليه إلي في الأعلى . — وأشار لستيشوف الذي كان ينتظر بصبر ، وخلع سترته على عجل ، متخلصا من ضيقها ، ورماها من يده . — أنت إنسان مثقف يا توليا ، فقل لي متى ستنحسر موجة الحر ؟

— كان بودي أن أزف لك خبراً ساراً ، يا فياتشيسلاف ، لكنني لست راصداً جوياً ، وأنا عاجز في هذه المسألة .

— مؤسف جداً ، أننا نكون أحياناً عاجزين ، ضعفاء .

كان كريموف محطماً ، منهار القوى من هذا اليوم كله ، وما ان صعد إلى العلية حتى سيطرت عليه رغبة جامحة ، بأن يسقط جسمه الآن على الأريكة ، مستمتعاً بنسمات الهواء العليلة ( كانت النوافذ والأبواب ، المطلة على الشرفة مفتوحة على مصاريعها ) أو الاستلقاء

على الأرض التي تبدو وكأنها مغطاة بأوراق الشجر بالقرب من السرير ، والاستسلام للصمت والتدخين ، وتأمل التذبذب المائي لأشعة الشمس على السقف ، وعدم التفكير بأي شيء . لقد كان هذا إحساساً بقلق ما ، مبهم ، هادىء ، خامد مكتوم ومن أجل إخماد الامتصاص المختبىء الخامد للأسى ، رمى الجاكتة على السرير ( لم يكن لديه ما يكفي من القوة لتعليقها في الخزانة ) . وقال : « آه ، حسناً » — رمى غطاء البار الصغير ، الواقع بين رفوف الكتب ، وسكب في قدحين قليلاً من الكونياك ، ثم نظر بطمأنينة إلى ستيشوف الذي كان واقفاً أمام باب العلية ، غارقاً في أفكاره ، وقد صالب يديه على صدره .

— لماذا أنت واقف هكذا ، مثل نابليون على جبل بوكلونايا * ؟ الوفود لن تأتي ، والمفاتيح لن تُسلّم ، ولا يعترف أحد بأنه مغلوب . وفي النصر — نصف الهزيمة .

— في أي نصر ؟

— في نصر لايخص أحداً . ليس هناك من نصر لأي طرف . طالما بقي هناك إله وشيطان ، — قال كريموف ومد قدح الكونياك إلى ستيشوف — أعتقد ، يا توليا ، أن كل نابليون مبرمج عصري ، حتى عندما ينام ، يصالب يديه على صدره كل ليلة . أنا لا أدخلك في عداد

* جبل صغير ، يقع غربي موسكو ،وقف عليه نابليون أثناء لروسيا عام ١٨١٢
— المترجم —

مختصي السلطة . فلست قادراً على الإحتفاظ بها . ولكن ما رأيك ، هل ينام مدير إنتاجي مولوتشكوف بيدين متصالبتين على صدره ؟

— أنا أقود سيارة ، وتعلم أنني أكره الكحول ، — رفض ستيشوف الكونياك ووضع القدح على رف البار . — وفي مثل هذا الحر ، لا أنصحك به : إنه عبء على القلب .

— إنها روح انضباطية مذهلة . أحيي فيك الإعتدال والتحفظ . لقد كان سقراط عظيماً . . . بصحتك يا توليا .

شرب كريموف قدح الكونياك وتنحنح ، متنفساً الصعداء ، وسقط على الأريكة ، متمدداً بكامل قامته ، حالماً بهدوء طال انتظاره — هكذا ، براحة واسترخاء ، بودي أن أستلقي على الأريكة ، وأغرق في السكون ، وأسبح في النسيان المريح بلا تفكير . لكن ستيشوف كان يقف منتظراً أمام الأريكة ، وقد سلط عليه ضوء النهار الصيفي القوي ، القادم من الحديقة ، وقد بدا هذا الضوء ، المجزأ بأوراق الشجر ، المنعكس على عينيه الزرقاوين الجاحظتين ، شتوياً خافتاً .

— توليا ، — قال كريموف ، — إن حُزن كانون الأول يطل من عينيك ، فما السبب يا صديقي ؟

— فياتشيسلاف ، انني مذهول من خسة الناس غير المفهومة ، إذا ما تحدثنا صراحة .

— مذهول مم ؟ من الخسة ؟

— نعم بالذات ، انني مذهول من خستهم ، من خفرهم الذليل ، من خبثهم الشرير ! ماذا حدث ؟ بالأمس فقط ، كانوا يبتسمون من

السعادة باجتماعهم معك ، ومحادثتك ، ويعبرون عن حبهم لك ، ويندفعون نحوك مقبلين ، ويبكون في أفلامك من فرط التأثر ! . . .

ـ ماذا تقصد ، ومن ؟

ـ لا تأخذك الدهشة ، فياتشيسلاف ، واسمح بالإصغاء إلي ـ تابع ستيشوف حديثه غاضباً . ـ اليوم ، أخيراً ، لم أعد أستطع احتمال إشاعات الاستوديو السخيفة إلى درجة الذهول ، وذهبت في الساعة الرابعة إلى ذلك البناء الشهير في شارع بتروفكا ، إلى محققك أوليغ غريغورييفيتش توكاريف . . . اتصلت به هاتفياً وذهبت لعنده . اعذرني ، أنا أعرف أنك كنت صباحاً هناك ، ولكن لم تتم المحادثة معك لأسباب ما . أعرف كل شيء كما ترى . وهاك جوهر المسألة . جوهر المسألة ، أن المحقق ، بصورة عامة ، هو رجل غير متحامل أبداً ، انه يتمنى لك كل الخير ، كل الخير ، وأضيف إلى هذا،أنه في موقف عسير ، كما قال بنفسه . . .

ـ اشرح لي ، ماذا يعني ذلك ؟

ـ انني غاضب ، وعموماً ، أشعر بأنني طيلة اليوم لست على مايرام ، ـ قال ستيشوف وحرك يده بعنف ، تعبيراً عن يأسه ، فلمع كالذهب ، زر كمه النظيف المنشى . ـ لقد أتيت لعنده مضطرباً ، أحمل معي سؤالاً واحداً ، متى أخيراً ، ستضع ربة العدالة تيميس المبجلة نهاية للشك في رجل محترم ، بما هو بريىء منه ؟ لقد خرجت عن طوري . أتعرف ، ماذا أجابني ؟ قال لي : « للأسف ، إنني مندهش من الموقف الغامض للاستوديو وبعض زملائه ، الذين لا يتخذون أي موقف شخصي محدد ، والمستعدين للموافقة على أي افتراض في المأساة

الرهيبة التي حصلت . و « نعم » ، و « لا » ، و « ممكن » ، و «غير ممكن » . فما هذه الحقارة وما هذه الخسة ! يالهم من سفلة أصلاء ! — صاح ستيشوف متعجباً ، وبعد أن فك زر الجاكتة العلوي ، دخل إلى المكتب . — لم يكن لديه الحق بذكر أية أسماء والتحدث بالتفاصيل ، غير أنني ، عموماً ، أحزر من هؤلاء الزملاء ، الذين لم يتخذوا موقفاً ! انهم لا يستطيعون أن يغفروا لك . . .

— ماذا يغفرون لي على وجه التحديد ؟

— بعضهم لا يغفرون لك موهبتك ، وآخرون لا يغفرون لك استقلاليتك .

— فلتذهب الإستقلالية إلى الشيطان ! — لم يوافقه كريموف — من منا مستقل على هذه الأرض ؟ من فضلك ، لا تبالغ . ليس هناك من إنسان مستقل . حتى أولئك الذين يسيّرون هذا العالم ليسوا مستقلين .

— أنا لا أبالغ ، يا فياتشيسلاف ، بل أقلل من شأن ذلك ! — اعترض ستيشوف بحماسة — أتريد مثالاً على ذلك ؟ تفضل . هذا الأبله ، بالابانوف ، يخاف منك ، رغم أنه في سره ، ميال إلى الرذائل والسوء . كان يعرف أنك تستطيع أن ترفض طلبه وترسله إلى الشيطان ، لكنه كان في أمس الحاجة إلى إرضاء المخرج الأمريكي الشهير ، الذي تمكن معه إنتاج فيلم مشترك والقيام برحلة لطيفة إلى أمريكا . فأرسلني إليك كي أقنع صديقي المتمرد . إنهم يحتاجونك كواجهة . ومع ذلك ، فبودهم أن يتخلصوا منك بحزن وبكاء . ان من السهل على المرء أن يعيش مع الناس العاديين البسطاء . تصور ، وَصَلَ إلى المحقق تقرير

مجهول بلا توقيع ، ليست له أية علاقة بالقضية ، ومع ذلك ، فهو بيضة ملونة في يوم الفصح . يتهمونك بالموقف اللاسياسي في حديثك مع غريتشمار ، كما قال لي المحقق . وبما أن هذا اللقاء حضره اثنان فقط — مدير إنتاجك مولوتشكوف وأنا — فهذا التقرير المغفل كتبه واحد من هذين الاثنين . . .

— ليس تماماً — ابتسم كريموف ساخراً . — أثناء اللقاء كنا أربعة . لذا ، فالوشاية قد تكون صادرة عني ، بعد أن صحوت وثبت إلى رشدي ، وتبت . أو كتبها غريتشمار ، الذي اهتم بأخلاقيتي وروحي الضالة ، بعد أن تناول قليلاً من المشروب في بار المطار ، قبل إقلاعه بالطائرة .

— ألا يزال لديك من القوة ما يكفي السخرية يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ، — قال ستيشوف ، واصفر وجهه الناعم ، الرابط الجاش ، الذي يشبه وجه نبيل روماني ، وبدا حزيناً . — أجل ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ، في سنوات هرمي ، هذه هي المرة الأولى التي أصل فيها إلى نتيجة مؤلمة . وهل يمكن للمرء أن يكون خارج بيته ، كما هو في داخله ؟ من المستبعد ذلك يا فياتشيسلاف ، من المستبعد . لايمكن المحافظة على البراءة والسذاجة . إرض الأذواق المختلفة ، ابتسم للناقدين العديمي الموهبة — وأنت عزيز على الجميع ، موهوب كبير ، حاذق ، لقد كدت أن تصبح إنساناً عظيماً ! أما أنا فأشمئز ، أقرف ، وأخشى الثعالب الحانقين والحمقى . . . آه ، أو ليست سفالة ! — صاح ستيشوف متعجباً ، ومقترباً من البار ، وكان من المضحك والمحزن في الآن نفسه ، رؤية هذا الرجل الطويل القامة ، ذا الشعر الأشيب ، المهيب ، العازب

الأنيق ، ذا الملامح الشابة ، وقد أمسك بيديه بشيء من الاشمئزاز والقرف ، قدح الكونياك ، وأخذ يشمه ، ويديره من طرف إلى آخر أمام أنفه ( كما يشم شيئاً ما فظاً ، سمجاً ، كريه الرائحة )، وقال بأسف ساخر : — لو كان بامكاني ، لسكرت حتى فقدت وعيي ، كما فعل عامل التمديدات الصحية من ورشة إصلاح منازل الحي في يوم السبت ، وعندها كان باستطاعتي أن أتفوه ، بصورة رائعة ، بالشتائم المقذعة ، وأنظر إلى الدنيا !

— لست قادراً ، يا توليا ، لا على هذا ولا على ذاك ، — قال كريموف . — ليست وظيفتك ، وليس دورك . أما أنا فقادر على الشراب باعتدال ، والتفوه بالشتائم بافراط ، باعتباري ضابط استطلاع سابق . أما أنت فهذا لا يليق بك . وان يفهمك أحد . لقد تربيت وفق تقاليد أخرى ، وفق تقاليد النبلاء ، ذوي الدم الأزرق .

— سيفهمون ! — اعترض ستيشوف محتداً ، ودفع بالقدح إلى دعامة البار بحيث اندلق الكونياك قذفاً . — سيفهمون ! — كرر ستيشوف ، وبارتباك قليل مسح راحة كفه بمنديله المطوي بعناية . — عليك أن تذهب إلى حيث يجب الذهاب ، وتمزيق خيوط العناكب الكافرة ! وإلاّ فستخنقك هذه الخيوط ! . . .

— إلى أين سأذهب ؟ للشكوى على أحد ؟ للتذمر من زملائي في العمل ؟ لا أعرف مع من تحادث المحقق . هل أشتكي على بالابانوف ؟ لديه أكثر مني بعشرات المرات مما يدعى بالبراهين والحجج : ممثلة شابة ماتت في ظروف غامضة ، لهذا يجري التحقيق ، أما المخرج كريموف نفسه ، فهو رجل مدلل إلى حد كبير ، أفسده المجد ، اغترّ

بنفسه ، وظن أن كل شيء مباح له . علاوة على ذلك . فالشكوى دليل ضعف يا توليا .

— آه ، ماذا اقترفت أنت هناك مع بالابانوف ؟ — أخذ ستيشوف يئن وأمسك برأسه يائساً . — إن الاستوديو كله يتحدث عن تلك الفضيحة التي لم يسبق لها مثيل ! وهل صحيح ، أن « الحنبلي » بيسكاريوف ، الموظف ذو العقد الفرويدية كان جالساً في مكتبه ؟ انني أتصور تقريره إلى الرئاسة ، والألوان الزاهية التي سيزينه بها ! وأنت ، ماذا بك — وهل أردت فعلاً أن تكيل صفعة لبالابانوف ؟ يا لطريقة الفرسان القديمة التي تستخدمها ! على أسوأ إحتمال ، كان من الافضل لو رميت قفازك ، تحدياً له .

« إذن ، لقد حدث هذا . وهل من المعقول أنه قد حدث ؟ » .

— لاوجود الآن لقفازات الفرسان البيضاء ! واو حدث هذا قبل ثلاثين عاماً لضربته على وجهه الناعم ، بدون تفكير ، وبسرور عظيم . للأسف ، لقد فقدت منذ زمن طويل خفة الجندي وسرعته . اذن ، فضيحة ؟ رائع ! في حين كنت أظن ، أن كل هذا حدث في خيالي الجبان .

— أنت تقتل نفسك بنفسك يا فياتشيسلاف . إنك فظيع ، مثل صبي مشاكس ! إنك تبحث عن قاع الهاوية معصوب العينين !

— مرة أخرى ، ليس تماماً يا توليا . تصور ، قدمت إلى القيادة العليا : مديرنا ذو الخدين السميكين يركض في مكتبه ، هاباً لاقائي ، كله لهفة ، مشعاً بالبهجة : « آه ، أنت قادم لعندي ، أي ضيف كبير ،

انك لا تنعم علي كثيراً بزياراتك ! » مضطرب اليدين ، فرحاً ، حتّى كاد أن يقبلني بفرح ، شاي مع الكعك ، لمعان عينيه السعيد ، أسئلة مرهفة ، وعود : « طبعاً ، طبعاً ، سنتدارك كل شيء ! إذا لم نساعد الموهوبين ، فعلام نجلس هنا نحن الموظفون ؟» و . . . لاشيء إطلاقاً! لا يحرك حتى إصبعه . هذه هي الصيغة العصرية البقاء على قيد الحياة . كل شيء مجرب ، يا توليا .

— أكرر : أنت مشاكس ، وتقدم على الانتحار ! وكأنك تريد هلاكك عامداً ! . . . أتوسل إليك ! استسلم واقبل ! أرجوك ! أتوسل إلياك ! — صرخ ستيشوف فجأة ووضع يديه على صدره معتذراً — هل تريد أن تتعذب وتتألم دون ذنب ؟

— بماذا أقبل ، لأي شيء أستسلم ؟

— لا تدخل في صراع مع أي كان ، يا فياتشيسلاف ، أرجوك .

— تصور ، أن أشياء كثيرة ليست متوقفة عليّ ، يا توليا .

سُمعت خطوات راكضة على الدرج المؤدي إلى العلية ،وبعد أن سألت على العتبة « بابا ، الدخول مسموح ؟ » — دخلت ثانيا إلى المكتب ، وهزت شعرها بريبة ماكرة ، باتجاه كريموف ، ثم باتجاه ستيشوف ، ووضعت على دعامة البار المفتوحة الابريق الذي مال بسائله الزهري ، ثم قالت :

— أرى أن لديكما أسراراً . بابا ، هذا عصير من صنعي . توت عليق مهروس مع ماء البئر . انه رائع ! على المرء أن يشرب منه ، ويغرق في أحلامه . سأصب الآن .

ملأت ، بجود وسخاء ، قدحين نظيفين حتّى الثمالة ، وقدمت لهما العصير ، وانحنت محيية بمزاح ، على أصابع قدميها :

— إذا كان وجودي لا داعي له ، فأنا ذاهبة إلى الشاطىء لألعب كرة الطائرة وأستحم . أليست هناك اعتراضات جوهرية على ذلك يا بابا ؟ الغداء في المطبخ .

قبلت تانيا أباها على جبينه وخرجت ، وهي تخطو بخفة بقدميها الملفوحتين بأشعة الشمس . أما هو ، فعندما أحس بشفتيها الطفوليتين على جبينه ، وكأنهما نسمة عليلة من الهواء ، جسم من جسمه ، لم يسمع على الفور صوت ستيشوف ، الذي غص بجرعة من العصير الشديد البرودة :

— أنت غير مذنب إطلاقاً ، بينما يريد بعضهم أن يصطاد في الماء العكر : وقد يكون كريموف مذنباً !

— أنا مذنب ، على الأغلب يا توليا ، على الأغلب .

— ماذا تقول أيها المجنون !

— أتذكر دمعة الطفل ؟ . . . لذلك ، نحن كلنا مذنبون . مذنبون ، بحق دمعة الطفل المراقة بلا ذنب . نحن ، كل من هو قادر على الاحساس والشعور . وإلاّ ، فلا قيمة لأي كان ، كائناً من كان .

— قل لي من فضلك ، وما علاقة فيودور ميخائيلوفيتش * ؟ أنا أرى أن نزعة عاطفية قد ظهرت عندك .

---

* المقصود هنا : فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي — المترجم —

– صدقني ، يا توليا ، أن المقاعد في الحدائق العامة لا تكفي للجلوس والتفكير بالنزعة العاطفية التي يشتمها العمليون .

كان أحدهما يعرف الآخر جيداً ، منذ أعوام ، وكان أحدهما يفهم الآخر من أقل من كلمة ، وهما الآن كانا ينظران ، – أو أرادا أن ينظرا – إلى شيء واحد من وجهين مختلفين ، ربما لأن ستيشوف القلق ، من فرط التأثر ، قد بدل على نحو ما ، طريقته المألوفة ، وهو الرجل المهذب إلى حد نادر ، في نشر جوّ الاجتماع اللطيف المريح من حوله ، وهذا ما كان كريموف في أشد الحاجة إليه أحياناً ، فكان كالمرفأ الهادىء ، بعد العوم العاصف في أثناء اللقطات السينمائية . لم ينتقم ستيشوف من القدر للسنوات العديدة ، التي عاشها بدون أسرة ( فقد طلق زوجته منذ أن كان شاباً ) ، وبدون أطفال ، مع محافظته على صلته الراسخة الوحيدة مع أمه ، المرأة الحكيمة ، التي كرست حياتها كلها لابنها ، وتوفيت للأسف قبل عشرة أعوام . كان دائماً حليق الذقن بعناية ، أنيقاً بصورة ملحوظة ، مسرح الشعر ( وكان شعره الأشيب ذا بريق فضي ) ، وكان حتى في البيت ، في مكتبه ، بين الرفوف الكثيرة الغاصة بالكتب ، أنيقاً ، حسن الهندام ، كان يرتدي القمصان الدارجة التي تكسبه هيأة الشباب . وكان كريموف يرى ، أن قمصانه هذه وربطات عنقه ، والألوان الفاتحة لستراته وجاكتاته المخصرة ، التي تشد قامته الرياضية الطويلة بصورة ممشوقة ، وبنطاله الضيق المكوي – كل هذا كان تعبيراً واضحاً عن رغبته العنيدة بالظهور بالمظهر المناسب ، ومقاومته الدائمة الدؤوبة لتقدم السن الزاحف بخطى ثابتة . ولتفضيله الليونة على الحدة ، كان يبتعد عن الخشونة والكلمات الحادة ، ولم يكن باستطاعته حتى قتل بعوضة تحط على يده ،

مهما بدا ذلك غريباً ( كان يلوح لها مهدداً بالمنديل ، مقتنعاً بالارتباط العالمي الشامل لجميع الكائنات الحية ) . بيد أنه كان ثمة شيء آخر يذهل كريموف إلى حد كبير أحياناً : وهو اخلاص ستيشوف الذي لا يتزعزع للسينما ، وتكريسه نفسه لها ، ووفاءه الثابت للفن ، الذي جعل مرتبته أعلى من الحياة .

— وما علاقة فيودور ميخائيلوفيتش هنا ؟ — كرر ستيشوف بذهول ، رافضاً الموافقة على كاتبه المحبوب دوستويفسكي . — دمعة : كلمة قديمة ، غير مستعملة . أما الواقع فهو دموع . وإذا كان الأمر كذلك ، فأود أن أقول لك شيئاً آخر . أين الآلهة المعاصرون ؟ أين المعبودون والعباقرة الذين يمكن للمرء أن يرغب بتقليدهم ؟ ليس هناك من مدارس جدية ، ولا يريد أحد أعلاماً بارزين في الفن ، لأن كل واحد يعتبر نفسه الأول . هل نكتب مثل تولستوي ؟ انه نمط قديم . مثل ريبين ؟ انه أسلوب ممل ، محافظ . هل نصور أفلاماً مثل ايزنشتين ؟ لقد أصبح هذا الشيخ مملاً مضجراً . لهذا ، فان التشتت والصيحات العقيمة ، ووليمة الكثيرين ، من غير الجديرين بالدخول إلى محراب الفن ، الذين يؤلفون ويكتبون السيناريوهات بحمية ، ويصورون الأفلام بحركة وجلبة ، ويهرجون ويمرجون بلا نهاية ، انهم يحسدون ، ويندفعون ويتدافعون في السكون الدافيء . ومع ذلك ، لدينا بعض الناس ، ومن بينهم صديق لي ، يمكنهم أن يزينوا أية سينما في العالم ، ولكن . . .

وضع ستيشوف القدح على شفتيه ، وكأنه لسع من البرد ، وأكمل شرب قدح العصير ، وكانت يده البيضاء الناعمة ترتجف ( وهذا أمر لم يلاحظه كريموف سابقاً ) ، كما كان الزر الذهبي على الكم الأبيض يرتجف أيضاً .

ـ لماذا ينحني الناس احتراماً للموهوبين وتبجيلاً لهم ، ويريدون إهانتهم في الوقت نفسه ؟ وهذا الحادث المأساوي المؤسف ، الذي يبحثون فيه عن شيء ما . . . ويرتابون بك بشيء ما . بأي شيء ؟ بالدمعة ؟ ، بالدموع . . . أمر لا يدركه العقل ! مسألة فظيعة ، مرعبة . أتوسل اليك ، لا تفكر أبداً بالتحدث عن ذنبك الأسطوري الخيالي هذا إلى المحقق . ستعقد بذلك كل شيء ، ولن يفهمك أحد ، ولا لثانية واحدة . أنت ، أنت أنبتني يوماً ، لأنني أعتبر الفن موازياً للحياة ، وأعلى من الواقع . لكنك أنت ، أنت القائد السابق لفصيلة الاستطلاع ، ذو الصدر الممتلىء بالميداليات ، أنت الواقعي الصارم ، لا تكن دونكيشوتياً عصرياً . . . فارس الشخصية الحزينة من العاطفة الكونية !

صمت كريمونـ ، وغرز نقرته في غطاء الأريكة الدافيء .

ـ في يوم الحساب الرهيب ، ـ قال ، وهو غارق في أفكاره ، وغمز بدهاء ، ـ ستبرز البشرية هذا الكتاب العظيم في تبريرها . نحن جميعاً تنقصنا الدونكيشوتية أتفهم ؟ من جديد ، فيودور ميخائليوفيتش . . .

وأغمض عينيه ، ومن جديد ، مر عبر حنجرته تشنج مفاجيء ، باختناق لذيذ ، كما حصل معه سابقاً ، في لقائه لتانيا ، وكرر بهمس ، ضاغطاً على نفسه بصعوبة ، وخائفاً من نوبات هذه الوعكة .

ـ هل تفهمني يا توليا ؟

ـ من جديد دوستويفسكي ، يا صديقي العزيز ؟ غير أنك إنسان قوي ، أقوى مني بألف مرة . . .

ـ هذا ليس دوستويفسكي ، هذه حياتنا .

ولمس ستيشوف في ذهول ، بأصابعه المجمدة ، يد كريموف :
وسأله غير واثق :

— ماذا بك يا فياتشيسلاف ؟ لقد أصبحت إنساناً غير أرضي . . . صعب الإدراك بالنسبة لي . أنا فعلاً ، لم أعد قادراً على فهمك . وهل نستطيع أن نأخذ على عاتقنا عيوب العالم كله ونحمل أنفسنا مسؤوليتها ؟

— عيوب العالم . . . أنا لا أتحدث عن هذا ، — قال كريموف بصوت خافت ، وعينين مغلقتين ، وأطبق بشدة على أسنانه . — ان قلبي ينفطر . — قال بصوت أجش — عندما أتذكر برودة شعرها المبلل على وجنتي ، عندما نقلتها إلى المستشفى . والفظيع في الأمر — أن السيارة كانت تهتز بعنف ، وانزلق رأسها على صدري ، وكانت وكأنها تطلب مني الغوث . . . أتعرف أية فكرة مرعبة خطرت لي في تلك الأثناء ؟ أنني أنقل ابنتي تانيا ، وأن هذه نهاية حياتي . كان من الممكن أن أفقد عقلي . صدقني ، لم يكن بيننا أي شيء . ولم يكن ، بالامكان أن يحدث أي شيء . لا ، إنها عاطفة أخرى ، تماماً ، أسمى من الشفقة .

— إشرح ، من فضلك — طلب ستيشوف .

— اعذرني لهذا الكلام المنمق والمبتذل ، لا أعثر الآن على عبارات أخرى . ان أولئك الناس ، مثل ايرينا ، موهوبون ، مثل الزهرة ، لكنهم ضعفاء ، عاجزون ، تحطمهم الرياح . . .

— وكان بودك أن تساعدها ؟

— لم أستطع . أخشى ، يا توليا ، أن ماحدث ، لم يكن حادث قضاء وقدر .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— لا أريد أن أقول شيئاً . ليست لدي قوة ، يا توليا . لقد كان هذا اليوم يوماً مجنوناً ، مرهقاً . . . على أية حال ، مثل بقية الأيام الأخيرة . — وحاول الابتسام بعينيه . — اشرب العصير الذي أعدته تانيا ، أما أنا فسأشرب كونياك . هذا أقوى . لا أقوى على النهوض . اسكب لي .

— ألا تفرط في الشراب في السنوات الأخيرة ؟ وكما لاحظت ، فلم تتخلف عن غريتشمار الشهير في هذا المجال ، — أنبه ستيشوف ، وعندما أخذ يسكب الكونياك ، أوقف يده ، ونظر بقلق إلى كريموف ، الذي هز رأسه بموافقة ساخرة — مدركة .

— الله أدرى بذلك ، يا توليا . انني أشرب ولا أثمل . أنا نفسي متعجب . هذا بسبب « الافراط » ، بسبب الجهد المفرط ، بسبب الارهاق المفرط ، وبسبب أشكال الافراط الأخرى . لم تكن لدي أية فرصة أو استراحة بين الأفلام ، لم أتمتع بأي قسط من الراحة ، وأنام نوماً رديئاً . آه ، لو أخلدت للنوم ، كالدب ، ثلاثة أيام بلياليها ، لأصبح كل شيء على مايرام .

وكأنه نسي الكونياك ، وتمدد بسبب اعيائه وخور قواه ، وأضحى شبه مستلق على الأريكة ، وصالب يديه على صدره ، وقال هامساً :

— لا تتذمر مني ، أكاد أموت من النعاس . أتتصور كم كان ينام نابليون بعد كل معركة يربحها ؟ فكيف لو أنه خسرها ؟ ومع ذلك ، . . .

– لماذا تؤدي أمامي دور الاستبطان الرائع لمؤرخ غريب ؟ ورغم أنك لا تحب التذمر والشكوى ، لكنني لست غريباً ، بالنسبة لك . . . – قال ستيشوف باستياء غاضب ، وسار في غرفة المكتب جيئة وذهاباً ، ماشياً على البساط الأرضي الجاف ذي الصرير . – يا للانتليجنسيا الروسية بذنبها الأبدي تجاه العالم كله !

– لكن ، هذا شامل ، عام جداً ، يا توليا .

– عام جداً ، أكثر من اللازم ! انني أكبر منك بعشر سنوات ، وقد عشت حياة في ضجيج الصراع الهائج ، رأيت كل شيء – قال ستيشوف . – لذا أسمح لنفسي بالتصرف بصورة مستقلة ، إلى أن يَدَعوك بسلام ، ويتخلوا عن ازعاجك . أنا لست صديقك فحسب ، أنا أحد أفراد جمهورك . اعتبرني معجباً بك .

قال كريموف شبه جاد :

– شكراً ، يا توليا ، هنا من المستبعد جداً ، أن تستطيع المساعدة بشيء . كل شيء سيكون مرهوناً بي ، متوقفاً علي . علاوة على ذلك ، أنا متفائل ، وآمل أن ألتقي ، مع مرور الزمن ، جميع مناظري ومحاججي في مملكة الظلام ، وأتحدث إليهم حديثاً صريحاً ، من القلب للقلب ، إذا لم أتمكن هنا من ذلك .

– طبعاً ، وبخاصة إذا كنت سوف تبحث ، على طريقة الانتيليجنسيا الروسية ، عن الذنب والمسؤولية في ذاتك ، وتصرح به للمحقق ، وللاستوديو كله ، تحت التصفيق الحاد للأشخاص المتشوقين إلى هذا الاعتراف .

ـ أترى ، كيف بدأت المزاح غاضباً ، في حين أنك لمتني . أي اعتراف ؟

ـ أنا لا أمزح ، يا فياتشيسلاف . انني غاضب بكل بساطة . أتفهم ، انهم قادرون على تطويقك وانهاكك ، وعصرك ، مثل الليمونة ؟ ان جميع هذه الدعابات مع القضاء تكلف غالياً . خذ قرصاً من سيدوكسين ، ونم يا صديقي . سأتصل بك بالهاتف اليوم مساء أو غداً صباحاً . نم نوماً كافياً ، خذ قسطك كاملاً من النوم ، بحق كل مقدس لديك : آمل أنك لم تكن تشعر بذنوب العالم على كاهلك ، قبل ثلاثين عاماً ؟ أنا لا أودعك .

« لم أعرفه على هذا النحو ، ـ فكر كريموف ، مصغياً إلى خطوات سريعة في الأسفل على الدرج ، ثم صرير الرمل فوق ممر الحديقة . ـ مثقف نقي ، خالص ، لا تشوبه شائبة ، متقن للغاية ، لا يدخل أبداً في أية نزاعات ، في أي وقت من الأوقات ، يشمئز من الكلمة غير الحذرة ، ـ وفجأة قال بسخرية قاتلة وسخط غير مألوف ـ وهل من المعقول أنه مخلص لصداقتنا إلى هذه الدرجة ؟ لماذا لم أكن معه صريحاً حتى النهاية ، وكنت أسخر مثل أبله مخلوق ؟ وهل لدي صديق أكثر إخلاصاً ووفاء منه بين زملائي ؟ » .

وصل إلى مسامعه من النوافذ المفتوحة ، أصوات متحمسة من الحديقة ، وصوت ضرب خوخة الباب ، ونهض رغماً عنه ، وخرج إلى الشرفة ، الممتلئة بالهواء والضوء في هذا اليوم الصحو ، والخضرة الدافئة ، والحرارة العسلية لرائحة الأزهار الناضجة من الأسفل ، المرتخية في ساعات بعد الظهر القائظة . وشعر للحظة واحدة بروعة الصيف ،

ففكر متأثراً : « أجل ، أجل ، الحياة رائعة ! فمن الذي يرغمنا على جعلها فارغة ، تافهة ؟ » وفي الحال ، رأى في الأسفل ، خلف الخوخة ، ستيشوف إلى جانب السيارة الواقفة على قارعة الطريق وبجانبه فالنتين ، الفارع الطول ، بصورة غير معقولة ، وهو عار حتى خصره ، وقد ارتدى قبعة « كاسكيت » ذات رسوم مربعة ، وخطيبته لودميلا ، كالقصبة الرفيعة ، واضعة على عينيها نظارات شمسية ضخمة ، مسدلة شعرها البني على كتفيها . يبدو أنهما كانا عائدين من الشاطىء والتقيا ستيشوف . فقال بشيء ما للودميلا ، وقبل يدها ، ابداء لاحترامه لها . دخلت الخطيبة من خوخة الباب ، وهي تهز وركين رفيعين ، ملوحة بقبعتها البانامية بدلال ، كالمروحة . وبقي الرجلان وحيدين خلف باب الحديقة . أخذ ستيشوف فالنتين من مرفقه ، وقاده إلى الطريق ، ورغم أن كريموف لم يستطع أن يسمع حديثهما ، فقد تكدر في سره : « كم هو مزعج ، الافتراض أن الحديث يدور عنك » .

وعاد إلى مكتبه ، مرغماً نفسه على التفكير بخطيبة ابنه ، التي تعايشت مع أسرتهم ، دون حياء كبير ، مثيرة خوف أولغا ، التي اعتبرت فتاة ورشة الخياطة هذه ليست مناسبة لابنها فالنتين لأسباب عدة .

« ربما تكون الخطيئة ، أحياناً ، انقاذاً وخيراً ، والخير خطيئة ؟ نحن جميعاً وحيدون وعميان في أخطائنا . الخير ، الخير . . . البجعات البيض في البحيرات الزرقاء ، أزهار اللوتس الناعمة والثياب البيضاء الملائكية ، كما في الجنة البوذية ؟ أنا لا أؤمن بنعيم الجنة . . . اذن ، بم أؤمن ؟ أؤمن بأنه لا مكان لي في العالم بدون الفن . فهذا الوحيد الذي أؤمن به . أنا أعرف ، أن الحق يرتفع فوق الحياة مع الاحساس بوجود

الموت . . . بيد أنني لم أدرك أبداً حتى الآن هذا بالدرجة التي أردتها . أنا أعرف : لقد تغيرت المشاعر الانسانية . ألم يخن الإنسان نفسه ؟ هذا ما أريد أن أفهمه » .

ابتسم ابتسامة ساخرة ، وهو ينظر إلى رفوف الكتب ، باحثاً بعينيه عن مجلدات ليف تولستوي ، حيث كانت توجد يومياته التي يحبها ( إنجيله في ليالي الأرق ) ، وحيث كل جملة ، مثل حبة ملح مرة ، مترعة بتعذيب النفس ، باحتقار ضعفه الشخصي ، حيث كانت آلام الكاتب العظيم الروحية مرتبطة أحياناً بصغائر الوجود ، التي كانت تسبب له آلاماً ومعاناة لا تقل عن الأحداث الخطيرة . بيد أنه هكذا كان هو ، ليف تولستوي ، بولعه بالأفكار ، وندمه ، وبأفكاره حول البساطة والحب والأخوة ، حول ما أراد أن يفهمه كريموف بعد الحرب ، بيد أنها كانت أعلى من القدرة على الفهم ، حيث بدأ يذوب ويضيع في العالم كله ، بصورة جامحة لا تعرف الشفقة ، كل ما هو جوهري هام ، تاركاً مجرد كلمات ، كنُصُبٍ تذكارية للوفاء والاخلاص والطيبة السابقة .

« إذا كنت أريد أن أؤمن بالفن ، فهذا يعني أن أؤمن بالطيبة أيضاً ، وإلاّ فما هو المعنى من حياة المرء ؟ — كان كريموف يوحي لنفسه بشعور خانق بالعجز . — فمن هم هؤلاء ، المدعوون بمحاجحي ، بأبناء بلدي ، باخوتي ، وبالتالي شركائي في الرأي ؟ إنه خوف النعامة من النظر بامعان فيما حولها وإلى نفسها . خوف الحقيقة . . . وماذا بعد ، ماذا بعد ؟ » .

وأثناء تكراره بصوت مسموع « وماذا بعد ؟ » ، اقترب كريموف من مكتبه ، الذي لم يجلس خلفه للعمل منذ فترة طويلة ، والمغرق بالأضابير والرسائل والمجلات التي لم يفتحها بعد ، والمهمل كاليتيم بسبب هذه الفوضى ، وسحب الجارور الأسفل ، وأخذ منه ظرفاً فيه أوراق مالية ( كان يحتفظ بها في البيت من أجل النفقات غير المنظورة). هذه النقود كانت جزءاً من مكافأته عن الفيلم الأخير ، وأحصى هذه النقود من جديد : ألف وخمسمائة روبل . « أوه ، يا للأسف ، يا للأسف ، لم يسعفني الحظ . . . » . رمى كريموف الأوراق المالية ثانية في الجارور ، دون أي شك ، بأنه إذا ما وجد في الظرف ، لمجرد توافق الأحداث ، أربعة آلاف ، لأعطاها في اليوم التالي لمولوتشكوف بصورة مشروطة ، لاسيما وأن أيدي غولين طليقة لكتابة أية رسائل : ودهش كريموف بسرعة ، مما أراد أن يفعله ـ أن يعطي هذه الأتاوة الغامضة لمولوتشكوف ، لنفسه الذليل ووضاعته ، لمداهنته العبودية ، ولتشبثه بالحياة ـ هذا التشبث الذي يمتد بخيط من الحفرة في المنطقة المحايدة عام أربع وأربعين إلى ذلك اللقاء العابر أمام الصناديق الآلية للمياه الغازية ، اللقاء السعيد الذي أنقذه ، وأوصله إلى حياة طبيعية ، إلى سونيا النشيطة ، المريضة ، التي يحبها إلى درجة العبادة .

« في تلك الأثناء ، أطلقت النار على يده من أجل إنقاذه ، والآن يمكن أن أعطيه أربعة آلاف من أجل مساعدة زوجته سونيا . . . فمن أنا أكون في هذه الحالة ؟ الفضيلة ذاتها ؟ لا ، في تلك الأثناء ، في الحفرة ، كان مولوتشكوف كريهاً بالنسبة لي ، لكن هذا كان الشيء الوحيد ، الذي كان باستطاعتي عمله كي يذهب إلى المستشفى ، كي لا أراه

بعد الآن في الاستطلاع . والآن ؟ . . . شيء ما أشبه بالرشوة والتعويض . لكن ، لماذا ، للمرة الثالثة في حياتي ، أفكر بهذا الرجل التافه ، بمثل هذه الجدية ؟ على أي نحو ذليل أخذ ينتحب مولوتشكوف في الحفرة ، وأي عزم وثبات عبر عنه فمه المضغوط عندما استدار بسيارته ! وهل في هذا الشخص يكمن الخطر الأعظم المحدق بكل شيء؟ان هذا أمر مضحك بالطبع . . . » .

* * *

# الفصل السادس عشر

ــ أبي ، أتسمح لي بالدخول ؟

التفت كريموف من مكانه عند الطاولة بنشاط متعمد إلى فالنتين ، الداخل إلى مكتبه ، ــ كان فالنتين حافي القدمين في قميص بلا أكمام ، غير مبكل من الأمام ، واجتاز العتبة ، وأحنى رأسه عند الباب ، فعانقه كريموف بسرور مؤثر ، على غير عادته ، وربت على ظهره الحار من استلقائه طويلاً تحت أشعة الشمس :

ــ ادخل ، يا بني ، ادخل ، أنا مسرور بلقائك ، نحن لا نلتقي معاً كثيراً . اجلس يا فاليا ، دخّن ، وأنا سأتأملك عن قرب . ــ قال كريموف بلهجته الخفيفة التي يتحدث بها مع أطفاله ، وأشار إلى علبة السجاير على المنضدة في طرف السرير . ــ دخن ، من فضلك .

ــ أنا لا أدخن ، يا أبي ، ــ أجاب فالنتين وجلس على حافة السرير بحذر غير مريح ، وهو عابس مقطب ، طويل اليدين . ــ بدأت التدخين ثم تركته : قرأت كل ما يكتب حول السرطان ، وبخاصة ما يكتبه الانكليز . . . للأسف لودميلا تدخن .

ــ أصبح التدخين تقليعة دارجة بين النساء ــ قال كريموف وجلس أيضاً على السرير ، متأملاً ابنه بانتباه وعدم تصديق . هل من المعقول أن هذا من لحمه ولحم أولغا ، وهل من المعقول أنه هو كريموف ،

قد ظهر ، برجولته ، في ابنه ، في هذا الشاب الأخرق ، النحيف ، ذي الطول الفارع ، مثل لاعب كرة السلة ، الشاب الجدي بافراط ، المفكر ، الصارم ، الذي لا يشبه أباه في أعوام شبابه ، المفعمة بالمجازفة العسكرية والتهور ، والذي ورث في الوقت نفسه عن أبيه لون عينيه الرمادي ، ورائحة جلده نفسها ( وهذا ما أدهش كريموف ذات يوم إلى حد كبير ) ؟ — بيد أن « الموضة » الخرقاء الغريبة ، ستزول على الأغلب وتنقضي كما يزول وينقضي كل شيء .

أكمل كريموف جملته الأخيرة شبه ساخر ، تماماً كما لو أنه يقترح اختياراً حراً للحديث . بيد أن وجه فالنتين بقي جدياً مركزاً ، وسأله كريموف :

— كيف تجري أمورك ؟

— أبي ، انني لا أستطيع أبداً الاسترشاد في الحياة .

— هكذا إذن ؟ لا تستطيع الاسترشاد ؟ . . .

لم يدرك فالنتين لهجة أبيه شبه الساخرة ، التي لا تلزم بأي شيء ، والتي كان كريموف يستخدمها كثيراً ، من أجل عدم تعقيد علاقتهما بصوره لبقة ، حيث اقتنع ، منذ فترة ، بعدم فائدة قهر العناد ، بعدم فائدة قهر طباع ابنه المشاكسة ، ابنه غير المهيأ لا المزاح ، ولا الضحك على شيء ما ، أو على أحد ما ، والذي يرغب بحل مشاكله بعقله الخاص ،

في السنة الثالثة ، أخذ يحصل فالنتين على منحة دراسية عالية . واتخلصه من التبعية ومن اهتمامات أمه ، رفض قطعياً عون أسرته المالي ، واستبدل البزات التي كان يرتديها بستر رخيصة ، كان يشتريها

بنفسه . وذات مرة ، بعد مشادة مع والدته ، قال لأبيه بعبوس وبصورة قاطعة : « أنا لا أريد أبداً الاستفادة من اسمك أو من مواردك . سأكون مستقلا بنفسي » . وهذا الطموح إلى الاستقلال المادي المبكر ، حسب معايير اليوم ، ( وهو استقلال مادي جزئي بالطبع ) ، أو بصورة أدق ، هذا الطموح الى تأكيد نفسه على تربة متقلقلة ، من المنحة الدراسية ، وإن كانت عالية ، قد أغم كريموف في البداية . فهو ، كما تبين ، لم يشك أصلاً في هذا العناد من ابنه ، عارفاً في الوقت نفسه ، أن هذا الميل المبكر إلى الاستقلالية ، وحب الذات الصبياني الجامح لن يجلبا له حرية التصرف التي يتوقعها ، بل سيجلبا له ضربات مرضية في الحياة التي لا تحتمل الاستخفاف الزائد بمعايير الارتباط المرعية في علاقات القربى المعاصرة .

— أبي ، أنا لا أستطيع الاهتداء في الحياة — كرر فالنتين — لا أستطيع بأي شكل من الأشكال .

— كان يبدو لي . . . — وأخرج كريموف سيجارة من العلبة ، وضغط على أطرافها ببطء ، — كان يبدو لي أن كل شيء واضح بالنسبة لك يا بني .

— لاداعي للسخرية . أنا لم أعد صبياً ، يريد أن يصبح راشداً .

— أصغي إليك ، أنا أصغي إليك يا فاليا * . . .

كانت غرفة المكتب ممتلئة كلها بالشمس والهواء ، ومشبعة برائحة النباتات ، وكانت الطيور المنهكة من القيظ تغرد في الحديقة بصوت واهن ، وقد انتقل هذا النهار التموزي الطويل بلا نهاية ، إلى

* فاليا : صيغة تصغير وتحبب للاسم الكامل فالنتين — المترجم —

مساء طويل ، وكان يسمع طنين ناعم لزنبور دخل من النافذة ، وأخذ يزحف على المرآة ، حيث كانت ، في العمق المنعكس ، تستحم الفروع الخضراء لأشجار البتولا . « الآن سيقول مالا أتوقعه — فكر كريموف — إنه يبحث عن الكلمات ، كي لا يزعجني » .

أما فالنتين ، فقد كان يجلس على حافة السرير ، ضاغطاً ساعديه الكبيرين بركبتيه ، وكان ثمة تجعيد عرضاني يقسم قصبة أنفه ، وقد تركزت عيناه الرماديتان بصوره عابسة على المرآة ولم يرفّا ، لكنه كان واضحاً — أنه لم يكن يرى ، لا المرآة بعمقها الأخضر ، ولا الزنبور الذي كان يطن بالحاح ، وكرر كريموف قائلاً :

— أنا أصغي إليك يا فاليا .

سأل فالنتين بصوت هادىء :

— قل لي يا أبي ، كيف يمكن تحديد ذنب المجرم والضحية ؟

— ذنب الضحية ؟ — قال كريموف مستغرباً . — ماذا تقصد ؟ أو من تقصد بذلك ؟

— أنا أقصدك أنت يا أبي .

— هذا طريف ، هام . تابع ، من فضلك ، أنا أصغي إليك .

— هل تستطيع أن تجيبني بصراحة ؟ وإلا فلن أسألك شيئاً . أتستطيع ؟

— سأحاول .

ضغط فالنتين بشدة أكبر أصابعه المشبكة بين ركبتيه ، وقال بصوت متقطع ، عابساً مكفهراً .

— أبي ، يحدث ظلم وبعد عن العدالة ، تجري سفالة ما حول اسمك . . . إشاعات تدور ونمائم تلفق . . . عندنا في المعهد ، شعب متنوع ، بعضهم ينظر إليّ بشماتة ، ويهمس : هذا هو ولي عهد كريموف الشهير ، الذي وصل إلى ارتكاب الجريمة ، وماشابه ذلك والخ . ماذا حل بهم . هل أصابهم الجنون ؟

— هل أجيب الآن ؟

— لا ، انتظر ، لم أكمل بعد . . . أنا لا افهم شيئاً واحداً يا أبي ، انني لا أفهم ، من أين ظهر الوشاة وتكاثروا ، ولماذا يريد المعجبون بالماركيز دوسا تصديق الإفتراءات والإشاعات المغرضة المختلفة ! وكيف يمكنهم تصويرك في دور المجرم ؟ أم أنهم يريدون ذلك ؟ لا ، يا أبي ، الإنسان ليس تاج الخلق والإبداع ، وليس فيه أي صوت أبيّ . ناهيك عن أي تشامخ أو تطوير ذاتي على طريقة تولستوي ! قل لي ، لماذا يبقى الشر دون عقاب ؟

فقش فالنتين بأصابعه ، ناظراً بتجهم إلى مكان ما ، باتجاه رفوف الكتب ، أما هو ، كريموف ، فقد لاذ بالصمت ، متوقعاً حديثاً عسيراً مع ابنه العنيد ، مدركاً بوضوح أنه لن يستطيع أن يجيب فالنتين بعبارة أب حكيمة مجربة . لأنه لم يكن لديه جواب ذو بعد واحد ، ذلك الجواب المأخوذ من الحقيقة المقدسة أو الفاسدة ، الذي يمكن أن يضع ، مرة واحدة وإلى الأبد ، كل شيء مكانه ، حياته وحياة غيره ، ويضع الحدود الثابتة بين نعم ولا ، وبعد ذلك ، يمكن لموقفه الشخصي أن يفسر بدقة ، ومرة واحدة وإلى الأبد ، العالم كله ، الذي كان يصعر

تحده من حوله بطيش كبير ، ويضحك ، ويقتل ، ويشوه الطبيعة وفق قوانين مضادة للطبيعة ، فرضها البعض .

— سأجيبك ، يا فالنتين ، على قدر استطاعتي ، — قال كريموف أخيراً ، ودون أن يشعل سيجارته المدعوكة ،رماها في صحن السيجارة ، الموضوع على الطاولة الصغيرة . — في الحرب ، استشهدت خيرة أبناء الشعب . ولم يبق حياً من أفضل أبنائه إلا القليل . أما الأطفال فلم يصبحوا أفضل من آبائهم ، غير أنه لا يصح إدانة جيل كامل ، كائناً من كان . وربما لهذا السبب ، قليلون جداً من يخاطرون الآن بالارتماء بصدورهم فوق فوهة المدفع ، مدافعين عن شرفهم وشرف غيرهم .

— بصدورهم فوق الفوهة ؟ — كرر فالنتين وأحنى رأسه . — ماهذا يا أبي ، هل يعني ذلك سد فوهة الرشاش بصدورهم ؟

— أنا قصدت التشبيه ، —قال كريموف مرتعباً مما لاح على وجه ابنه ، عندما أحنى رأسه . — أنا لا أتحدث عن تلك البطولة ، عندما يسدون فوهة الرشاش بصدورهم ، رغم أنه تحدث في الحياة لحظات مجنونة . أنا أتحدث عن شيء آخر . أتدرك ، يا فالنتين ، ان المدنية المعاصرة قد قادت العالم إلى طريق كاذب . لقد اخترع الأذكياء السيارات والآليات ، بيد أن هذه التقنية لم تعثر على قادة أذكياء ، ولم تخضع للناس ، بل أخذت توجههم . لقد رفهتهم ، ونعّمتهم ، وسلبتهم قوه الروح . وبدلاً منها وضعت لهم في نفوسهم مسطرة حاسبة تنتجها التقنية . . . في أواخر الخمسينات ظهر نوع جديد من المتكيفين مع خيرات المدنية — الأخوة الميسورون في العالم كله . في الغرب يدعونهم

بالامتثاليين . وهذا يمسنا أيضاً . فنحن لسنا منفصلين بجدار اسمنتي مساح . .

— وأنت يا أبي ، إلى من تنسب نفسك ؟ — سأل فالنتين غير مصدق ، ومن خلال لهجته القاسية ، أحس كريموف أن ابنه ليس متسامحاً مع أعدائه ، ولا مع أية تبريرات مخففة بسبب الظروف الناشئة . — آمل ألا تكون امتثاليا ؟

— أنا إنسان فاسد ، يا فالنتين . أنا مخرج ، أنقل مشاهد الحياة إلى السينما ، وهنا يكمن شقائي ، — قال كريموف بابتسامة ساخرة حزينة — حتى أنني أستطيع أن أرى جنازتي الشخصية عن بعد ، من الجانب ، وأنقلها إلى مشهد . على أية حال ، أنا لست دقيقاً في كلامي . على الأصح هكذا — الرغبة في معرفة ماذا يمكن أن يقدم هذا المشهد الكريه للناس ، وماذا يمكن أن يأخذ منهم . لاتلمني يا بني ، على عباراتي الفخمة الكبيرة ، بيد أنني في السنوات الأخيرة ، أفكر بمسألة : أين يكمن سر الحياة وسر الموت ، ذلك السر الذي يفسر تصرفاتنا وأعمالنا . ومن المفيد هنا ، على الأغلب ، أن يكون المرء محامياً أكثر منه قاضياً . وهذا أمر لا يستطيع المرء تحقيقه دائماً . في القرن العشرين ، الناس أصحاب الضمير ، ليسوا سعداء كثيراً ، بصورة عامة ، يا بني . أما السعداء البائسون فهم أقلية . العالم كله صار ، أو يصير ، بائسا ، تعيساً . أما أنا ، فأحاول أن أفهم : متى وأين انحرف الإنسان ، أو ينحرف ، عن الطريق القويم . وأنا مع الآخرين . . .

— أبي ، أنت مثالي ! أما آنا ، فأريد أن أعرف ماهي السفالة ، وماهي الأمانة ؟ — وهذا كل شيء — صاح فالنتين ونهض مقطباً حاجبيه

بصورة فاترة -- في هذه الحالة ، من الذي دعا الخير خيراً ، والشر شراً ؟ وأين ذو طريق المدنية القويم ياأبتي ؟ إن التقنية والعلم ليسا شراً أبداً بل هما خير ، كالماء الساخن ! أتعرف ماذا تحتاج البشرية من أجل خلاصها ؟ قل لي ! ربما حان وقت يوم الحساب ، وصاحب المعجزات التوراتي الثاني ؟

- أنت منفعل جداً . . . وتتكلم معي باستياء وامتعاض . اجلس - قال كريموف ، وأخذ بابنه ، برقة من يده ، الذي حاول افلاتها ، وشده إلى الأسفل ، وأرغمه على الجلوس ثانية ، على السرير . - الحساب العسير ، أردت أن تقول ، وليس مجرد الحساب - صحح كريموف . - وماذا في الأمر ، كل شيء ممكن ، وقد حان وقت محاسبة البشرية على جميع الشرور والسخافات . لكن هذا الحساب سيكون رهيبا - فالحساب الأخلاقي سوف يستبدلونه بحساب ذري . وسيحولون المحاكمة إلى إعدام شامل لجميع أبناء البشرية ، أما الأرض فسيحولونها إلى رماد . - وصمت متضايقاً ، من أن شيئاً ما ، قد منعه الآن ، من أن يكون مقنعاً مع فالنتين ، العنيد ، الذي لا يقبل الحلول الوسط . - ومع ذلك يابني ؛ ثمة طريق أخلاقي ، رغم أنه ليس الطريق الوحيد . . .

- أي طريق ؟ الطريق القويم ؟ وماهو هذا الطريق ؟

- إنه طريق مستحيل . إنه المشاركة في المعاناة . أن يشعر المرء بآلام الآخرين ويدركها . بيد أنه من أجل ذلك ، يجب أن يند في العالم آلاف من الدعاة الصبورين .

- أبي ، هذه أقوال ، أقوال ، مجرد كلام . المشاركة في المعاناة أمر جيد ، فقط بين الناس الجيدين ، - قال فالنتين بصوت جهوري

منقطع ، – وكيف يمكن أن تقوم مشاركة في المعاناة والآلام مع السفلة والأوغاد ؟ أيضاً ممكن ؟

– ليس لديّ جواباً دقيقاً . أريد أن أقول ، يا فاليا ، أن الأوغاد ، وغير الأوغاد ، مرتبطون بحبل واحد ، – قال كريموف ببطء –. أي أن الإنسان الواحد متصل بالإنسان الآخر ، وبجميع الكائنات الحية على الأرض ، وهذه تشبه الشبكة الواحدة . والتخلص منها مستحيل غالباً .

– إذن ، فالمجرم والضحية – كلاهما مذنبان ، طالما أنهما في شبكة واحدة . – ضحك فالنتين ضحكة بشعة ، وكان في ضحكته تمرد ، واعتراض ، وعصبية ، وارتباك وحيرة لاتميز الابن – اذن ، كلاهما مجرمان .

أجاب كريموف بجفاء :

– في حال موافقة الضحية على أن يغدو ضحية .

– وأنت ، ألم تعتبر نفسك أبداً ضحية ؟ ولا مرة في حياتك ؟ انت كنت تنتصر دوماً ؟

– لا أستطيع إجابتك على كل شيء . غالباً ، كانوا ينتصرون علي .

– أنا لا أتحدث عن هذا .

– وأنا لا أتحدث عنه . بيد أنني فهمتك كما يجب . في الحرب ، كنت أندهش من أن كثيراً من الناس محكوم عليهم ، دون صراع ،

وبدون المقاومة الأخيرة ، كانوا يسمحون باطلاق النار عليهم في معسكرات الاعتقال الألمانية . صدقني ، يا فاليا ، في الاستطلاع ، كنت أعرف خطوتي الأخيرة ، حتى إذا ما استهلكت آخر طلقة في مسدسي .

— أنت تريد الحديث عن الكراهية والاحتقار ؟

— لا ، هذا ليس مخرجاً . ثمة شيء أعلى .

— وماهو ؟

— انعدام الخوف . أن يتوقف المرء عن الخوف على نفسه — هذا أعلى من الكراهية . كان في الحرب هذا ممكناً أحياناً . انه شيء نادر ، لكنه حدث .

— وهل أنت لا تخاف أبداً من أي شيء ؟

— أخاف . — ولمس كريموف ركبة ابنه الرفيعة . — أخاف أن أفقدكم : أملك ، ثانيا ، أنت . اذن ، أنا ضعيف .

— أبي . . . — قال فالنتين بصوت متقطع عريض ، وأشاح بوجهه عن أبيه بسرعة ، ثم تابع حديثه : — إذا كنت ترى هذا الرأي في نفسك ، فما هو رأيك بي ؟

— ليس عندي رأياً سيئاً نحوك .

— وهل كنت تأخذني معك صديقاً في الحرب ، — قال فالنتين متحدياً . — أنت ، غالباً ، تحتقرنا نحن جميعاً ، أبناء العشرين عاماً ، الذين لا يعرفون شيئاً .

– لا ، كنت أخذتك معي صديقاً . ونحن ، أنا وأنت ، أصدقاء .

– غير صحيح . لا يمكن أن تقوم صداقة بين الأب والابن .

– غالباً ، أنت مخطىء .

هاهو ذا يجلس إلى جانبه على السرير ، ابنه – العنيد ، المناقش ، المحاجج ، الذكي ، الساذج ، ابنه ، خليفته المذكر على الأرض ، لا يشبه أباه ، وهو في الحادي والعشرين ، لا بحركاته ، ولا بشيء من طباعه ، لا يشبه ذلك الملازم الباسل ، قائد فصيلة استطلاع الفوج ، باستقلالية نظرته الساخرة ، باستعداده الفوري للعمل والمخاطرة ، الذي وثق فوراً بخاوده في الحرب . فما الذي دفعه إلى هذا النضوج المبكر ، إلى هذه المخاطرة ، إلى تلك الثقة بالنفس – هل هو الخطر المميت المحدق فوق رأسه ؟ هل هي اللجة السحيقة بين الوجود واللاوجود ؟ وما الذي جعل ابنه وهؤلاء الشباب ، الذين يعرفون الكثير ، والذين قرأوا الكثير ، الشباب المثقفون ، الذين اطلعوا مبكراً على المنطق الصوري واللامنطقية – أطفالاً ضعفاء عاجزين ، هل هو الرفاه الهادىء ، والنعومة المفرطة في الوسط العائلي ، وعناية الوالدين المفرطة بأبنائهم ؟ أم إنعدام الاستقلالية ؟ طبعاً ، كان من الممكن تفسير كل شيء ، كما يجري غالباً في الحياة ، من أجل تبرير الرأي المطمئن والمناسب للناس في اللحظة الآنية . بيد أن أي تفسير لم يكن ليغير شيئاً في الجيل نفسه ، الخاضع لحتمية الزمن المعدية ، الذي لم يعيه أحد من المعاصرين بشكل كامل . وهو ، أي الزمن ، قد تشكل ن زوايا حادة ومنفرجة ، من الأشياء غير اللازمة ، من الأموال الفائضة والفاقة ، من التقليعات والتصاميم الشرقية والغربية غير المطابقة ، حيث كان يبرز في أحيان كثيرة حساب مقتبس ،

مستعار ، حتى في الحب ، في دعوة الضيوف ، حيث كانت البرودة المضرمة بصورة مصطنعة ، تزيد أكثر من الاغتراب ، وهذا ما لم يحدث أبداً في المرحلة السعيدة ، أثناء الحرب وبعدها ، من عمر كريموف ، في سن الشباب ، في مرحلة الخطر والفقر والآمال . وأحس كريموف بوضع ابنه الصعب في المعهد ، الناشيء ، كما يبدو ، من جديته المفرطة في تعامله مع الآخرين ، ومن الأحداث غير السارة المرتبطة به ، بكريموف.

— أرى أنك تخطيء يابني ، — قال كريموف بأكبر قدر ممكن من الهدوء . — وأنا مسرور ، لأن صداقتك معي . . .

— غير صحيح ، — قاطعه فالنتين ، وقد قطب وجهه . — مستحيل . الأب هو الأب . وأنا لا يمكنني أن أقول لك ما أقوله لصديقي .

— وليس لديك صديقاً ؟

— صديقاً حقيقياً ، لم يكن لدي أبداً . والآن ، ليس لدي أصدقاء حقيقيين . هناك مشاركون في السهرات وحفلات الرقص . انني أحسدك لوجود صديق عندك مثل ستيشوف . فهو ، غالباً ، لايخون .

- غالباً فقط ؟

وأجاب فالنتين ببرودة واقناع :

— أبي ، أنا أعرف ، أن الأصدقاء هم أول من يخون ، مثلهم مثل الزوجات .

« لم أفكر أبداً سابقاً ، أن ابني وحيد » .

— الزوجات ؟ لماذا الزوجات ؟

اعتدل فالنتين في جلسته ، وارتسم التجعيد العرضاني بصورة أكثر حدة بين حاجبيه المستقيمين الداكنين – وهي السمة الربانية للإنسان الذكي ، كما حدد كريموف في نفسه هذا التجعيد . بيد أن وجه الابن ، عبر على الفور عن دهشة متسامحة ، وتردد صوته بحيوية أكثر ، وكأن الحديث كان يدور حول طيش آني .

– تلك هي طبيعة النساء يا أبي .

تنفس كريموف بارتباك وحيرة .

– عفواً ، يا فاليا ، ولكن لديك خطيبة . ان عبارتك الغنائية هذه لا تنسجم مع واقعك . وهل تخاصمتما ؟

– لم نفكر بذلك .

– هل يمكنني الافتراض بأنك تحب لودميلا ؟

– آه ، يا أبي ، لو أنني أعرف ماهو الحب – ألقى فالنتين رأسه إلى الوراء ، وقال بتأكيد ساخر غير مألوف منه : – لا أستطيع أن أحدثك بصراحة . أشعر بشيء من الحرج . . . سأتزوجها . ان لودميلا حامل ، وسأتزوجها . . . ألست مصدوماً جداً من طيشي ورعونتي ؟

ضحك فالنتين من جديد ضحكة رديئة ، وفكر كريموف ، أن ضحكته وسؤاله حول الطيش – أن هذا كله غريب ، فليس هذا جوهره ، إنما هو عبء ، وضعف في دفاعه الواضح الذي لجأ إليه في محاولته تأكيد ذاته أمام أبيه

– ليس كثيراً ، – قال كريموف كاذباً ، وأضاف مشاركاً

بصورة مرغمة : — كل شيء يمكن اعتباره طبيعياً . بيد أنه لا داعي لتخبر أمك بذلك ، قبل الوقت المناسب .

— إن أمي تستوعب أشياء كثيرة بصورة مأساوية مفرطة . ولكن ، لابأس ، سوف نسكن الآن عند لودميلا . وسوف أعمل خارج أوقات الدوام . وبعد عامين سأتخرج من المعهد . وسوف أصور فيلماً من الأفلام . . . سنعيش في حب ووفاق . هكذا !

ارتعش وجهه بصورة قبيحة ، واستعد من جديد لضحكته الدفاعية . بيد أن كريموف طلب منه ، بصوت خافت :

— لاحاجة الضحك على هذا النحو ، يابني . أنا معك ، في متاريسك أجبني من فضلك ، يا فالنتين : هل تحب لودميلا ؟

— لا أعرف ، ياأبي . كان بودي جداً ، كان بودّي جداً ، ولكن ماذا أعمل . . . أنا أعرف : أنني سأحبها عندما يولد الطفل . ولكن لو كنت مكاني ، كيف تصرفت ؟ كيف كنت أنت . . . أنت بالذات ؟

اندفع فالنتين بضعف ، بكامل جسمه إلى الأمام ، مشبكاً يديه الكبيرتين بين ركبتيه ، مفرقشاً بأصابعه ، فاقداً بصورة نهائية ، ثقته المنيعة بنفسه ، ولاحظ كريموف بشفقة مريرة ، أن ابنه الجدي ، خليفته على الأرض ، وأمله الأخير ، لم يخاطر ، ولم يتمتع بالجرأة على التغلغل إلى ذاته ومعرفة نفسه ، في العشرين من عمره ، حيث يصدق الشباب عواطفهم ومشاعرهم الأولى ، دون تأملات طويلة . « وهل يحق لي أن أسأل ، كيف حدث ذلك بينهما ؟ »

— في مثل هذه الأمور ، لامجال لإسداء النصيحة ، يا فاليا ، — قال كريموف مراوغاً ، متملصاً ، وعانق ابنه من كتفه .

— فمن ، من اذن ، يمكنه أن ينصحني غيرك ؟ — قال فالنتين ، وسُمِع في صوته وتر مشدود . كنت تنصحني أنت ، عندما انتسبت إلى معهد السينما . أردت لي أن أنتسب إلى كلية التصوير ، وانتسبت . . .

وحرك بشيء من الحرج ، كتفه ، متخلصاً من يدي أبيه ، وأحس أبوه بالرائحة الذكية الصحية لجسد ابنه الفتي ، الذي تشرب حرارة الشمس على الشاطىء ، وهذا الإحساس الجسدي القريب ، القوي ، وهذه الحيرة العارية التي تجلت على فالنتين ، قد طعنا كريموف بأسف قابض : لا ، كان بامكانه أن يعرف ابنه ، لكنه لم يكن يعرفه تقريباً .

— مهما كانت النصيحة التي سأسديها الك ، عليك أن تتخذ القرار بنفسك ، برجولة — كرر كريموف بصلابة ، — تصور ، لو أن عسكرياً من سلاح الهندسة ، في الحرب ، أخطأ مرة واحدة في حقل ألغام . قليل جداً من عدم الدقة في التعامل مع آلية اللغم وتكون المصيبة ، ولا يذكره أحد . الزواج والطلاق — ليسا مسألة موت وحياة ، لكنهما قد يسببان جرحاً دامياً مميتاً .

— وكيف حدث بينك وبين أمي ؟ كيف حدث ذلك الك ؟ — سأل فالنتين باصرار . — أنت لم تشك في أي شيء ؟ .

— أبداً ، لم أشك في أي شيء . — أجاب كريموف . — عندما رأيتها للمرة الأولى ، أصابني مس من الجنون . شيء شبيه بالمخدِّر . . . لا تبتسم ، يابني ، هكذا كان فعلاً .

— أبي ، ان جيلكم كان جيلاً سعيداً . كنتم تعرفون ماذا تريدون . — وتحرك فالنتين باضطراب . — أبي ، ليس من أجل هذا الغرض جئت لعندك ، عذراً ، ليس طلباً للنصيحة . أنا سأتدبر أموري بنفسي ، بشكل من الأشكال . . .

— هكذا سيكون أفضل يا فاليا . وهل تعرف يا فاليا ، أن ذلك المخدر لم يفارقني حتى الآن

* * *

# الفصل السابع عشر

في صباح عيد رأس السنة ، آنذاك ، كانا آخر من خرج إلى الطنف في الصقيع القاسي للفناء المغطى بالثلج في منطقة زامسكفوريتسك .

وكان هواء كانون الصقيعي يتورد حول أشجار الزيزفون المغطاة بالصقيع .

كان كريموف يقف في الأسفل ، عند الطنف ، وفي يأس مداعب ، مد لها يده ، مساعداً إياها على النزول ، وقال بشيء من الوقاحة المشجعة :

— تمسكي بقوة ، ياسيدة قلبي ، وكل شيء سيكون على مايرام ، إذا لم أقتل في مبارزة .

ضغطت اولغا بكل قوتها على يده ، لكنها لم تنزل على الدرجات إلى أن خفتت في الفناء الأصوات المبتعدة ، والضحك ، وصرير الثلج خلف البوابة . وبعد أن رفعت رأسها نظرت إليه ، واستدار حاجباها السوداوان ، كلون الفحم ، الدقيقان بصورة مدهشة .

— ماذا تعني بـ « كل شيء سيكون على مايرام » ؟ وماهذه اللغة ، لغة الفرسان المبتذلة « ياسيدة قلبي » ؟ أعتقد ، أنك حفظت روايات والتر سكوت عن ظهر قلب !

— ياللشيطان ! ، انك فعلاً سيدة قلبي .

طيلة الأمسية . لم يستطع أن يفهم ماالذي كان يجذبه ، بصورة لاتقاوم ، إلى وجهها ، والآن فقط ، في ضوء الصباح الجلي الزجاجي ، رأى بصورة صاعقة : كانت عيناها وديعتين مخمليتين ، في طرفهما حوّل خفيف ، وكانت شفتاها ممتلئتين قليلاً ، مستعدتين للفرحة والمسرة

خلف المائدة ، كانت تجلس قبالته ، وكانت تشرب النبيذ بجرعات صغيرة ، وتمسك القدح بحياء ، سألته مرة بصوت سلس : « لاتبدو عليك أمارات المرح — هل تشعر بالملل هنا ؟ » ، وفي محاولته التغلب على ارتباكه ، تمتم بفكاهة طلابية : « لقد مرضت جدتي بالحصبة » — وأراد أن يكسب الحديث الذي بدأه خفة طبيعية ، غير متكلفة . بيد أنه استدار ، مصادفة ، ورأى في المرآة وجهاً أحمر ، متوتراً ، ولم يعرف نفسه مباشرة ، مذهولاً من عجزه الجاهل على متابعة حديث المائدة في جماعة مدنية ، غير عسكرية . وهنا غضب كريموف من عدم لباقته ، وشرب من اليأس أكثر مما يجب ، وبعد أن أثارته موجة من الصداع ، شرع يحدث ويروي النكات والفكاهات دون خجل ، والنطق بالأنخاب ، قالباً على الطاولة القدح بذيل سترته التي اشتراها ، منذ أمد قصير ، بدلاً من السترة العسكرية الخارجية . أما هي ، فقد أخذتها الدهشة وذرت الملح على السماط ، وقالت بمرح أن عيد رأس السنة يشبه عيد ديونيس الاغريقي القديم ،وأن إراقة النبيذ من الطقوس التقليدية المقدسة .

في الساعة الثانية عشر ليلاً تماماً ، صرت على طريقة الجنود «أورا» ، تحت فرقعات أغطية زجاجات الشمبانيا ، وبعد ذلك ، وفي حمية مشاعر

العيد ، بدأ يدور على الحضور مقبلاً ومهنئاً كل واحد بعبارات التهاني التقليدية ، ثم توقف بالقرب منها ، وصاح بعزم جريء صيحة « غوركا ! » * الداعية إلى التقبيل - وفي بهلوانية جسورة قبلها مرتين ، أما هي ، فلم تلحق أن تثوب إلى رشدها ، وأن تعترض ، وقالت هامسة :

— ماهذه ال « غوركا ! » ؟ هل فقدت عقلك ! — وأضافت وهي تضحك ، وقد احمر وجهها : — ياله من غريب الأطوار !

وعندما أُبعدت المائدة ، وبدأ زحام الرقص ، جلس على الديوان ، في ظل غطاء المصباح القرمزي ، ودخن سيجارة ، وقد تعرق من الاضطراب ، ورأى كيف يقترب منها شاب مهمل ، مهلهل الثياب ، مشعث الشعر ، ذو وجه مخمور ، ويدعوها للرقص ، غير أنها ألقت عليه نظرة سريعة ، وهزت رأسها سلباً . « برافو ! - قال في نفسه — ولكن الق علي نظرة ، ولو لثانية واحدة ، أنا لست سيئاً إلى هذه الدرجة ، أقسم بشرفي » . في اللحظة ذاتها ، ناداها أحدهم ، فمرت أمام الديوان ، حيث كان يدخن جالساً ، فنضحت عليه بالهواء وبرائحة ثوبها . ومن المفترض أنها أحست بنظراته التي رافقتها ، وقد ارتخى بغباء ، لأنها التفتت إلى الوراء ، ووجهت نحوه نظرة متسائلة وهزت كتفها .

كان كريموف شاباً ذا هيأة عادية ، لهذا كثيراً ما كان يعاني من غيرة مرضية ، وهو يتأمل النساء الجميلات ، اللواتي يلتقيهن في الشارع

* « غوركا » صرخة يطلقها الضيوف في العرس ، تعني حرفياً « مرة ! » وتدعو العروسين لتبادل القبلات — المترجم —

أو ضمن جماعة ما ، وعندما كان يجد في مظهرهن الخارجي عيباً من العيوب ( أنف طويل قليلاً ، أرداف عريضة جداً ، أرجل غير مستقيمة تماماً ) ، كان يفكر بسخرية مطمئنة : « اذن ، ليس هناك نموذجاً للجمال والروعة ، حتى بينهن » . لكنه في تلك الأثناء ، كان طيلة الليل لا يستطيع التعرف على نفسه ،مأخوذاً بوقاحة المازح ، وجرأة اليأس ، خائفاً للحظات ، من ألا يزول الضباب قريباً ، وتتجلى عيونها على الفور ، ويغدو كل شيء واضحاً .

نزلا من الطنف ، عندما خفت الضحك وصرير الثلج والأصوات خلف البوابة ، وفرغ الفناء من الناس . وقفا، كلاهما ، متوردين في الفجر الكانوني ، لا يدركان ماذا حصل ، كان يحيط بهما الصباح الشتوي القارس ، وفراغ السماء بهلالها الباهت ، والبخار الجليدي ، والكثبان الثلجية في منطقة زاموسكفوريتشيي ـ هل من المعقول أن يكون قد انتهى المخدر الليلي ، والهرج المرح في هذا البيت الخشبي المريح ، وعليه الآن العودة إلى مسكنه الجامعي ، وعليها العودة إلى بيتها ، الواقع في مكان ما ، في أوستوجينكا ؟

ـ لقد تفوهت بسخافة من السخافات ،ـ قالت أولغا ـ ألم تلاحظ؟

ـ صحيح تماماً . هذا يحدث عندي ، في أحيان كثيرة .

كانت أصابعها تتحرك بانتظار في يده ، أما عيناها الحولاوان ، فقد مستا حدقتيه بابتسامة .

ـ عام سعيد ! وأين زميلك الذي كان يحمل الحاكي ؟ أتذكر كيف كان كل شيء مضحكاً وغريباً ؟

ــ لقد رأيتك هنا ، في الفناء ، ــ أجاب كريموف ، وهو بالكاد يسمع صوتها ، وسبح في العمق الداكن لعينيها المخمليتين ، متذكراً كيف اندفع وصديقه إلى المدخل الصغير ، ضاحكين ، منتفضين ، مدخلين زمهرير المساء الموسكوفي الثلجي إلى الدفء . أما هي ، التي التقتهما صدفة في الفناء ، فقد كانت منتعشة أيضاً ، وخلعت جزمتها قرب مشجب الثياب ، وحدثت أحد الحضور : « أنظر ، فأرى شخصين يحومان حول العنابر ، يمسك أحدهما بيد الآخر . أسألهما : إلى أين ؟ فيجيبان ، ما رقم البناء الذي نحن فيه ؟ لقد ضل البائسان طريقهما . ها قد أحضرت لكم ضيوفاً ! » . أما صديقه ، طالب الدراسات العليا في معهد التعدين ، فهو شاب رائع ، يتقن الاهتمام بالنساء ومداعبتهن ، وقد ارتمى أمامها على ركبة واحدة بفطنة وشجاعة ، وهو يقول « يامنقذتنا » ، وساعدها بمهارة على خلع جزمتها ، على طريقة الفرسان ، وهذا ما أضحكها .

ــ كل شيء كان مضحكاً ــ ، كررت أولغا ، دون أن تبعد عينها عن حدقتيه ، وخلصت يدها بهدوء .

ــ أنت ثمل قليلاً ، لكنك ، هل تذكر على الأقل ، ما قلته آنذاك في المدخل ؟

ــ على الأغلب . . . ــ أجاب كريموف ، عاجزاً ، كما في السابق عن إدراك ما تسأله عنه بشكل دقيق . . . ــ كنت أهذي على مايبدو . . .

ــ لقد قلت آنذاك : « الشيطان يعرف ماذا هنا ، الشيطان نفسه يكسر رجله في هذه الأحواش ، المليئة بالكثبان الثلجية ! ها قد التقى أحمقان وفتاة جميلة ، طائر السعادة ، حتى أنهما لم يتعارفا عليها ! » .

ـ هل قلت أنا هكذا ؟

ـ بل وأضفت أيضاً : « لقد جلبنا معنا الموسيقى . جهاز حاكي واحد لجماعتين » .

ـ أوه ، يالي من غبي مريع ! أبله عبيط ! . حمار بهيم !

ـ ماذا تقول ، على العكس ، كان جيداً : لقد قلت هذا من الارتباك ـ اعترضت أولغا ونظرت إلى الفناء ، حيث كانا يقفان وحيدين بين ركام الثلج الكبيرة ، التي كانت ترقد عليها بقع حمراء .ـ أعتقد أن علينا أن نتحرك . . .

ـ ألست أبلهاً حقاً ! ـ قال كريموف ، مغمضاً عينيه ، وتصور الأمسية كلها ، وتصور نفسه ، وقد حلت عقدة لسانه ، لاذعاً ، واثقاً من نفسه ، وغمره الحياء والخجل : ذلك أنها كانت تستمع إلى سخريته غير المحتملة . ( « أتريدون شمبانيا ؟ » كان يسير حول الطاولة ، حاملاً زجاجة الشمبانيا وهو يقول : « هل تريدون أم لا تريدون ؟ » كانوا ينظرون إليه متوقعين المقلب أو الفكاهة ، ولكن لم يكن هناك مقلب ولا فكاهة . « ماذا تريدين أن تقولي بذلك ؟ » ـ « وأنت ماذا تريد ؟ » ) « ماذا أصابني ؟ وكأنني في حالة هذيان ، وكأنني شربت سماً حلو المذاق ، أردت أن أحوز على اعجابها ، بيد أن لولباً ما في داخلي قد انكسر » .

ـ كنت ثملاً ، ـ قال كريموف ، شاعراً بذنبه . وكان عليك أن تكرهيني . . .

ـ عم تتحدث ؟ ـ ذهلت أولغا . ـ هل يعجبك الثلج ؟ الثلج المتساقط عشية السنة الجديدة ؟

— أنا لا أفهم . . . . — تمتم كريموف .

— وما الذي يحتاج إلى فهم هنا ؟ الثلج يتساقط ، المصابيح متوقدة ، وأنتما حول الأحواش ، تسيران يمنة ويسرة ، ومعكما الحاكي ، وفجأة تلتقيان طائر الأحلام — أعتقد أن هذا بحد ذاته طريف ! لم تكن بعد ثملاً آنذاك . كانت عشية رأس السنة . أما الآن ، فقد أصبحنا آخرين. لقد زاد عمرنا عاماً جديداً، هذا كل شيء . أوصلني إلى موقف الباص. أما طائر الأحلام فلم تمسك به . . .

ربتت بيدها على كم معطفه العسكري بهدوء وود ، واتجهت نحو البوابة على الطريق المغطى بالصقيع ، وتموجت قليلاً حاشية الفراء لمعطفها الضيق ذي الحرملة فوق جزمتها . واندفع هو خلفها ببلادة وغباء . « الله أرسل للغراب قطعة جبن . . . » أمثولة كريلوف هذه ، كانت تدور في رأسه وتقرعه بمطارق غامضة ، عند مرأى حركة معطفها الرشيقة المتزنة ، حتى أنه لم يصدق صفاقة نكاته وفكاهاته الوقحة السابقة وصراخه الماجن « غوركا ! » وتلك القبلة التي كررها مرتين على وجنتها ، والتي أثارت خوفها ( عضت على شفتها من الألم حتماً ) . «وهذا أنا ، العسكري الوقح ، دخلت إلى حديقة الجنة بسحنة شجرة بلوط ! قه ، قه ، يالي من فارس ! . . . . »

— شكراً . هنا سأركب الباص بنفسي . أما بالنسبة لك ، فستأخذ عربة الترام ، كما أعتقد . هناك ، أترى الموقف ؟ كم أنا سعيدة الحظ — الباص قادم ! . . . يا لهذا الصباح ، إنه صباح رائع ! أكبر الظن أن مثل هذا البرد الشديد لم يحدث منذ القرن السابع عشر . أتتصور ، بيوت ومنازل منقوشة ، الدخان يتصاعد من المداخن ، النوافذ منارة من

زوایاها في الفجر ، والغربان تحوم فوق قباب الكنائس ، كما هو الآن ، يا للروعة !

— الآن ؟ . . . أنت الآن سترحلين بالباص ؟

أما في الشارع ، الخالي من أي عابر سبيل ، الهادىء ، الذي اجتاحه عيد رأس السنة ، فقد همد الصباح في البخار المتجمد ، في الندى المثلج الكبير ، الموبر على الأسلاك ، في العتمة الليلكية للكوى المغطاة بالثلج ، وفوق القبة المتوردة كالتوت ، للكنيسة شبه المخربة ، كان يتعلق هلال ، كالأسطوانة الشفافة ، ويذوب ، وهناك كانت الغربان تتمايل بفوضى وسواد وقلق ، وكانت تزقزق بصوت عال في الهواء الدافىء ، وكان صوت الأسى القديم هذا يمزق له روحه .

— اهدني بريق عينيك الرائعتين ، في لحظة الوداع ، علينا أن نفترق ، نحن سنرحل الآن إلى الغرب . . . — أنشد كريموف بعبث وغفلة ، وأزاح قبعته العسكرية إلى نقرته ، وكأنه أراد أن يقوم بنزوة شاب ريفي ، مرحة ، وبعد أن خلع قفازه ، مد لها يده . — اعطني كفك ، هيا ، هذا باصك ! إلى اللقاء ، حان وقت الفراق ! ( « ماذا أقول ! هذيان ! جنون ! ثمة خبل في عقلي ! » ) اهدني ، في لحظة الوداع . . . — أنشد من جديد ، بصورة مزيفة ، في يأس الخجل ، لأنها لم تمد له يدها ، عاضة شفتها السفلى بأسنان نظيفة آسرة . — اهدني في لحظة . . .

— تفضل ، سأهديك ، ولكن كفى ، توقف — قاطعته أولغا ، مطوقة وجهه المنتعش السخيف بعينين مرفوعتين ، مشبعتين بالشفقة المزدرية . — واذهب ، اذهب بسرعة ، أيها الشقي ! . . . — أكملت

حديثها وأدارت له ظهرها ، ثم نزلت بسرعة من الرصيف إلى حافة الطريق في مواجهة الباص ذي النوافذ الزجاجية المغطاة بالندى الثلجي الأبيض ، الذي كان يقرقع على الجليد بعجلاته .

— توقفي ! — صاح ، وانقطع الصوت في حنجرته فاختنق ، بيد أنه سرعان ما قفز اثرها إلى الباب الذي انفتح بقرقعة للباص البارد الخالي من الركاب تقريباً ( ثلاثة ركاب كانوا جالسين كالقنافذ ، شبه نائمين ، على مقاعد متباعدة ) ، وأخرج من جيب معطفه العسكري قطعة نقدية صغيرة وركض نحو الجابي المتدثر بمعطف سميك من الفرو . — بطاقتان ! واحدة منهما للذكرى ! — قال كريموف بحماسة مفرطة ، ومال نحوها ، حيث جلست على مقعد جانبي ذي تنجيد صرار ، وقال بدقة ، وجرأة ، وثقة بالنفس : — إذا لم تعطني رقم هاتفك فسأقبلك من جديد . . . على مرأى من الجميع ! هنا . أتعرفين ، إنك ترتكبين جريمة بحقي ! إذا لم أراك . . .

— اخرج ، اخرج ، يالك من مهرج بائس . . . — قالت أولغا بتقزز ، ومالت على الزجاج المغطى بالصقيع ، وضحكت ضحكة غير طبيعية . — ماذا تفعل ؟ ماهذه المصيبة التي ألمت بي . . .

— أرجوك رقم الهاتف ! — صرخ متوسلاً ، دون أن يعير اهتماماً إلى ذهول الركاب الشاخصين إليه ، وكأنه التقط صوتها من بين الضباب ، فقفز من الباص ، ضارباً كتفيه بفتحتي الباب المنغلق . — أظن أنها قالت رقماً أم خيل لي ذلك . . . يجب تسجيله ، يجب تسجيله ، — تمتم بجنون ، واضعاً بطاقة الباص على عمود المصباح الكهربائي ، وبقراضة قلم رصاص سجل الرقم . — أم خيل لي ذلك ؟

وقف وحيداً على الرصيف ، ناظراً ببلادة إلى دخان الباص ، المت
بين الثلج . وخنق الهواء الصقيعي تنفسه .

استمر عذاب كريموف المتواصل أسبوعاً كاملاً ، وحاول
يفهم ، دون جدوى ، ما الذي يحدث له ، غير مدرك بوضوح ا
التي تدور من حوله : فكانت تظهر وتختفي بالقرب منه الوجوه الم
وغير المألوفة ، وكانت تمر كالظلال صور الأساتذة في القاعات
وتصل إليه من مكان ناء بعيد أصوات الطلاب وصفير عربات التر
وصوت اسمه ، وكان يطوقه أحياناً السكون البارد للقاعات ، .
كانت تنسكب أشعة الشمس الشتوية بصورة مائلة ، وتنعكس
الطاولات والمقاعد ، ثم بدلاً من تناول طعام الغداء كانت الفو
في المطاعم الشعبية الرخيصة تحرق أحشاءه ، وأخيراً كانت تشعل الأ
وتظهر النوافذ بستائرها المسدلة ، والبوابات ، وأجساد تماثيل الأط
المائلة ، الحاملة للشرفات ذات القضبان الحديدية الصب فوق مد
أوستوجينكا القديمة . في هذه المنطقة ، كان يسير ساعات طويا
وينظر طويلاً إلى أرقام الشقق السكنية ، ويصعد إلى الطوابق ، وي
دون كلل أو ملل أمام ردهات الأدراج ، وفي الزوايا ، ومقابل الأقو
داخل الأفنية ، أملاً أن يلتقيها ، كان ينتظر بصبر وعناد ، وبعا
يرتجف ويقشعر نهائياً من البرد في ليالي العواصف ، كان يعود
سكنه الجامعي في الأزقة الخالية من المارة ، رافعاً قبة معطفه العسكر
الذي لا يجلب الدفء ، فوق رقبته ، متنفساً بأنفه هواء رطباً ،
عاصفاً . « سوف أعثر عليها ، سوف أجدها » — لم يكن يفارقه .
تلك الأمسية . وصباح العام الجديد ذاك ، كان يحرقه بالعار والحج
وفي الوقت نفسه ، كان يسيطر عليه مثل مرض لذيذ غير قابل للشف

يقرب إليه في هذيانه المرغوب صوتها الناعم المنسجم ، ونظرتها اللطيفة الحولاء قليلاً ، ومعطفها ذا الطرحة ، المتموج فوق جزمتها . وكان يلاحقه ذلك النغم المسيطر ، المتكرر بلانهاية في تلك الليلة ، من أغنية « اهدني في لحظة الوداع . . . » ، والأزيز المتكرر لأسطوانة الحاكي ، وصوته المزيف ، الذي ردد هذا اللحن أمام موقف الباص . بيد أنه كان يراها غالباً ، وهي جالسة على مقعد جانبي ، محنية الحاجبين ، وقد أنارتها بصورة متوردة ، أشعة الشمس الصباحية ، المارة عبر الزجاج المتجمد ، وكان همسها العدائي يمر عبر جسده كالتيار الكهربائي : « ارحل ، اخرج ، يالك من مهرج بائس . . . » .

فيما بعد ، لم يستطع أن يفسر ، بصورة منطقية ودقيقة ، بأية قوة إرادة ، وبأي ولع كبير ، وبأية تراكيب مخترعة لأرقام الهاتف ( فالرقم الذي سجله على بطاقة الباص لم يكن يجيب ) ، وبأية دراسة يومية مسائية للبوابات والمداخل في حي أستوجينكا ، استطاع العثور عليها في نهاية الأمر . وكان من المستحيل أيضاً تفسير سبب موافقتها على الذهاب معه ، ليحلا ضيفين على بيت صديقه ، طالب الدراسات العليا في معهد التعدين ، الذي سافر بمهمة .

أما المسكن المتواضع لصديقه ، بالقرب من تاغانكا ( غرفة ومطبخ ) فقد كان في تلك الأمسية مملكة خيالية للسكينة والخير الذي لا مثيل له ، الخير الصاعق المذهل لأنها كانت إلى جانبه ، حيث كانت تمس المدفأة الحامية ، وتتأمل خزائن الكتب والمرآة العتيقة ، — وشعر كريموف من جديد بموجة المخدر السام الحارة ، رغم أنه لم يشرب نقطة واحدة من المشروب ، وشعر أنه سوف يجن ، وسوف يبدأ الآن بالكلام

القارص وسرد النكات والفكاهات دون تمييز – وهل من المعقول أن يتكرر ذلك من جديد ؟

وصفّر ساخراً من نفسه ، واستلقى على الديوان ، ووضع يديه تحت رأسه ، وأخذ ينظر بخضوع إليها ، كأنه طفل ، مفتون اللب والفؤاد .

كانت تجلس على الأريكة ، وتنظر متأملة بعينيها الداكنتين النقيتين ، أما هو فقد كان غارقاً في سكينة عزلاء ، لا يستطيع أن يتصور ، كيف تجرأ على تقبيلها آنذاك في عيد رأس السنة ، ثم قول الترهات المختلفة بعد ذلك .

– أولا ، – ناداها هامساً . – هل تريدين أن أموت ؟

– اسمع . . . أظن أنك الآن لست مخموراً ؟

– لست واثقاً . أولا ، سوف أموت ، إما بسبب غبائي . . . أو لأنني لا أعرف مايجري لي . . . اجلسي إلى جانبي على الديوان ؛ لا تخافي ، أرجوك .

جلست إلى جانبه على الديوان . ومن جديد ، كما في ليلة رأس السنة ، كان وجهه يفوح بهواء عليل بسبب حركتها .

– دلليني ، – طلب منها ، وأغمض عينيه .

– ماذا ؟

– دلليني ، امسحي بيدك على رأسي .

وأخذ يدها ، متذكراً الملمس المنتظر لهذه الأصابع الخفيفة قبل

ثلاثة أيام في فناء منطقة زاموسكفوريتسك ، وأمرّ بها على جبينه ، على شعره ، ووضع رأسه على ركبتيها ، ومسح وجنته ، وقد شعر برائحة الصوف في تنورتها القماشية ، وبدفء ركبتيها المتلاصقتين ، الأنثويتين المستديرتين ، وكانتا مرعبتين له بسبب قربهما منه ، لدرجة أنه قال بهمس متلاش :

– أولا ، ان رأسي يدور ، وكأنني على حافة الهاوية .

– أي عقوبة لي هذه ! أنت ضابط ، وتحمل خمس ميداليات ، في حين أنك مثل الصبي . . . .

– أولا . . . أتريدين ، سأموت أمام عينيك ؟

– ماذا تفعل ؟ لماذا ؟ – قالت أولا ، وقوّمت ظهرها ، ناظرة إلى النافذة بعصبية . – لماذا ؟ ماهذه المصيبة . . . .

أما هو فقد صمت ، وهو يمسح وجنته بالدفء الصوفي لتنورتها ، وبركبتيها .

خلف نافذة المملكة الهادئة لهذه الغرفة في حي تاغانكا ، كان الغسق الشتوي يزداد زرقة ، وأضيئت الأنوار الأولى ، وكان الثلج الكثيف البطيء يتساقط ويتساقط دون انقطاع . وكان يمر تحت المصابيح الضبابية في فترات متباعدة الترولي باص ، الهادىء ، رامياً شرارات بنفسجية من أسلاكه ، وعلى الجسر البعيد كانت تزحف ببطء عربات الترام المنارة مساء ، وكان رنينها لا يكاد يصل إلى الآذان عبر ستار الثلج المتساقط ببطء ورتابة .

ثم طرق الباب ، على سبيل الاستئذان ، ودخل صديقه ، وقد

ارتدى جزمته ومعطفه ، حاملاً حقيبته التي رتبها ، كما يبدو ، في المطبخ ( كي لا يزعجهما ) ، ودون أن يشعل المصباح الكهربائي ، سعل ، ثم سألها بصورة مباشرة وصريحة ، وهو يميل بطبعه عادة إلى الحديث المازح :

— هل تحبينه ؟

— سؤال غبي لا يحتمل ! — نهضت أولا وجمعت بين حاجبيها — . وان كان نعم ؟ أو كان لا ؟ ماذا ينتج عنه ؟ أين مفتاح الكهرباء عندك ؟ أشعل النور !

— تصبحان على خير . ان قطاري بعد ساعة ، — قال الصديق مضيقاً عينيه بارتباك للنور المشعل ، وارتدى قبعته . — أترك المفتاح هنا . أتمنى السعادة.

تراجع نحو الباب ، وانحنى لهما ، تعبيراً عن تمنياته الطيبة ومشاركته الوجدانية .

— إلى اللقاء ، يا صاحب اللسان اللاذع ! — صاح كريموف ، ونهض من على الديوان ، وأغلق الباب خلفه ، ثم وقف أمام العتبة ، داساً يديه في جيبيه . — نعم ، إذا كان نعم ، ونعم إذا كان لا ، — قال بحدة ، ونظر من خلال كتفه شبه متسائل . — على أية حال ستصبحين زوجتي .

« لقد بدأ الجنون من جديد ؟ يحل الشيطان من جديد في داخلي ! »

— أنا ؟ زوجتك ؟ وهل يمكنني أن أصبح زوجة إنسان غريب وغير مفهوم ؟

فقال بصوت متمرد :

ــ سترين من أنا ، أي شاب غريب ، أي شاب غير مفهوم ، إنما أي شاب جريء أنا ! اعلمي ، أنني خدمت في الاستطلاع . أتتصورين ماهو استطلاع الفوج ، وماذا يعني السير في مؤخرة الألمان ؟

ــ اشفق علي من فضلك . وهل من المعقول ، أنك تريد الانتصار علي ، كما في الحرب ؟ أنت متبجح منفاخ ، محب لذاته . . .

ــ أولا ، حبيبتي ، ارحلي الآن ، على الفور ، أنا أعرف أن أهلك ينتظرونك في البيت ! اذهبي . هكذا سيكون أفضل . وإلا . . . ( « من جديد ، من جديد ! . . . » ) .

ــ شكراً . سأذهب . وإلا ، ماذا ؟

ــ وإلا ، لن أستطيع أن أتمالك نفسي . اذهبي ، أرجوك . أنا أحبك . الشيطان وحده يعرف كم أنا أحبك ! . . .

أوصلها كريموف حتى موقف الباص ، ثم دار طويلاً في مكانه حول المصباح الكهربائي ، متغضناً ، وكان يشعل عيدان الثقاب ، أما الريح الصاعدة بين الأبنية فكانت تطفىء النار ، وكان الثلج الرطب يلصق بالسيجارة . ثم جمع راحتي كفيه ، على طريقة العسكريين في الجبهة ، وتمكن أخيراً من اشعال السيجارة ، وسحب منها سحبة ، بيد أن إعصاراً ثلجياً انتقم منه ، ورمى بقوة كبيرة لا تقاوم الشعلة من السيجارة ، وعندها ، ولأول مرة منذ سنوات عديدة ، بكى من العجز والضعف . كان يبكي بحقد انفعالي لذيذ على نفسه ، على هذا الجنون الجامح ، على كل ما كان مرتبطاً بتلك الأمسية القدرية عشية

رأس السنة ، وبذلك الصباح المثلج الرطب في الفناء في منطقـــة زاموسكفوريتسك .

– هل كان هذا هذياناً أم حالة طبيعية ؟ بيد أنه كان واضحاً في ذهنه شيء واحد : هو أنه أحب أولا حباً جنونياً ، فلقاءاته العارضة السابقة مع النساء الأخريات لم تثر هذا الجنون ، لم تثر ذلك الحنان النهم ، ذلك التعطش الدائم ، الذي كان يشعر به نحوها .

أجل ، ذلك كان زمن آخر ، وكانا هما غير ماهما عليه الآن ، في تلك الأثناء ، بدأت مرحلة الشباب الخالدة ، التي لا تنسى .

* * *

# الفصل الثامن عشر

في ذلك اليوم ، وبعد أن ودع فالنتين ، لم ينتظر أولغا ، وخرج كريموف من البيت . لم يعثر عليها في المرج ، وسار وحده في الغابة على ضفة النهر المرتفعة ، على طول الأماكن الرملية الضحلة ، حيث كان يحط البط البري في الربيع . كانت الغيوم ، في البداية ، تسبح في المياه وتنساب بتكاسل صيفي ( « من أين هذه المتعة التي لا توصف في حركتها البطيئة ؟ » ) ، وعند الغروب توردت غيوم رفيعة — أنثوية بنعومة ، عند المنعطفات ، واعدة بالغبطة السماوية ( « ان هذا خداع رائع » ) ، ثم بدأ يندفع تدريجياً ذلك الإحساس الفتي الخفيف في أمسية تموزية ، يتبخر فيها دائماً نور الشفق الطويل ، انه شيء ما مرهف ، متقلقل ، ليست له حدود زمنية دقيقة . وفي الظلمة المزرقة الخفيفة ، جلس كريموف وقد سيطرت عليه رطوبة السرخس ، على شجرة بتولا منهارة ، وأخذ يدخن ، طارداً البعوض بغصن من شجرة ، وكان ينظر إلى الضفة الأخرى ، التي كانت تبرز خلف النهر المتلألىء . كان يبعد عن بلدة المنازل الريفية حوالي ثلاثة كيلومترات . هناك ، في ظلمة الغابة ، لم يكن يصل إلى الأنظار ولا ضوء واحد ، رغم أن الأنوار كانت مشعلة ، كما يبدو فوق الأسوار وفي جميع زوايا البلدة ، وكانت تتراءى بين أشجار الصنوبر نوافذ « الفيللات » ، وكان غطاء مصباح الطاولة ، في غرفة أولغا مخضراً بصورة آسرة ، وعلى مقربة منه كان

المصباح مشعلاً في مكتبه — ففي انتظارها له في الأمسيات ، كانت أولغا تشعل الضوء في العلية ، مفسرة موقفها الغريب بابتسامة صغيرة خفية : « أنا أشعر بالخوف عندما أكون وحيدة ، وهذه المنارة الصغيرة أشعلها ، كي تعثر بسهولة أكبر على الطريق إلى البيت » .

« أنا أشعر بالخوف عندما أكون وحيدة ، وهذه المنارة . . . » — تذكر كريموف متأثراً ، وعندما نهض ، وهو لايكاد يميز الدرب الضيق ، نزل على السفح الشديد الانحدار إلى الضفة ، حيث كان يتوقد بلمعان خط متعرج من الأضواء المنعكسة في الأسفل : كانت الخيوط المتعرجة الذهبية تتدفق وتتحرك . لم يدرك كريموف على الفور هذا الشيء الذي كان يضيء متلألئاً ، ويلمع ويتعرج في الماء الأسود .

تجاوز كريموف الشجيرات ، وسار فوق جسر صغير ضيق ، محاط من جميع الجهات بكورس مغتبط من الضفادع ، التي تنق بين القصب في الأماكن الضحلة ، وهنا رأى شيئاً ما ، يلتهب ، ويسبح على المجرى السريع للتيار . ففي تلك الضفة ، في الغرب ، حيث كانت السماء أكثر إشراقاً بسبب الشفق ، وفوق الذروة الداكنة لشجرة البتولا كان نجم كبير غير معروف يتلألأ بأضواء ماسية آسرة .

« ماهذا — الزهرة ، المريخ ؟ — فكر كريموف ، المفتون بالبريق الاحتفالي فوق ذروة شجرة البتولا . — عشت حياتي كلها ولاأعرف ...».

توقف كريموف في منتصف الجسر ، رافعاً رأسه ، ورأى بين شقوق الذرى الجامدة لماناً بعيداً لأضواء النجوم ، وغبطة السماء العظيمة ، و كل هذه النجوم المنثورة المتلألئة ، والارتجاف السماوي للاشعة

الفضائية في أعماق الأغوار المريعة للمجرة ، وفاح في وجهه من الهوة السماوية برد أبدي ، وسر طقوسي لما لا يدرك كنهه ، وأخذت تسيطر على كريموف رغبة هادئة بطلب الصفح عن شيء ما ، عما أذنبه الجميع تجاه هذه العظمة ، عظمة الجمال الذي لا يدرك ، عن ذنب الجميع تجاه هذا اللا متناهي الاحتفالي الذي لا يعرف له اسم .

« ماذا نعرف ، نحن المتغطرسون ، والمعجبون بأنفسنا ؟ ؟ نحن واثقون من أننا نعرف كل شيء لكننا لا نعرف شيئاً . وماذا هناك ؟ وماذا بعده ؟ ولأي هدف ؟ وفي سبيل أي شيء ؟ — أين يكمن معنى كل ما هو أرضي وسماوي ؟ أم معناه بأنه بلا معنى إطلاقاً ؟ أم أن لكل شيء معنى ، وهو المعنى الذي يدركه الإنسان في لحظة الموت ؟ ربما يكون الموت هو إدراك كل شيء ؟ أجل ، ان السماء هي لغز ، مثلها مثل الموت . . . أجل ، أجل ، يجب أن نتذكر هذا دائماً ! بيد أنه لا يريد أحد تقريباً أن يتذكر هذا . ونحن ننسى ، ولا نريد أن نعرف ، أن التواصل مع الجمال الغامض هو فرحة ، وأن الفرحة هي الحكمة العليا . كم هي تافهة الهموم والمساعي الإنسانية كلها نحو المتعة الآنية ، والحسد ، والغرور . . . أي ترهة لا معنى لها ولا فائدة منها ! كم من الناس على الأرض توصلوا إلى هذا الفهم ! وماذا كانت النتيجة ؟ »

سخر كريموف من فهمه هذا للعبث الأرضي ، ناظراً إلى النجم الذي يتلألأ بأشعته المتحركة ، ومع ذلك ، كان يشعر في أعماق روحه بالضياء والانعتاق .

* * *

بالفعل ، كان النور شاعلاً في العلية في مكتبه ، وكان يظهر من خلال الأشجار ، وكانت نافذة غرفة أولغا إلى جانب مكتبه مضاءة بنور أخضر هادىء من مصباح الطاولة . ودون أن يشعل المصباح الكهربائي في الطابق الأول ، صعد كريموف بسرعة إلى العلية ، وكان باب غرفتها منفرجاً بفتحة صغيرة . كان الشعاع الضوئي القادم من غرفتها ، يقطع الديجور على بهو الدرج ويقسمه إلى قسمين ، وبدا وكأنه ينبعث من غرفتها هدوء الليل والفراش النظيف .

— ألست نائمة ، يا أولا ؟

ودخل كريموف . كانت أولغا جالسة على الأريكة الخيزرانية ، مرتدية بنطال العمل ، وقميصاً أسود اللون ، تسند ذقنها بقبضة يدها ، وتتأمل لوحة صغيرة ، لم تجف بعد ، رسمتها اليوم ، وقد وضعت على الأرض ، مستندة إلى الجدار ، ومنارة بمصباح الطاولة الكهربائي . كانت هذه اللوحة تمثل منظراً طبيعياً : غروب الشمس المنطفىء خلف الغابات ، البريق الأخير في الماء ، والارتجاف القلق المندفع للنجم الأول في اللمعان القرمزي . وربما كان هذا بريق ذلك النجم المسيطر ، وغير المعروف ، الذي كان ينقل أشعته الماسية فوق القمة الداكنة لشجرة البتولا ؟ فهل هي رأتها أيضاً ؟

— هذا أنا ، يا أولا ، — قال كريموف بصوت خافت . — مرحباً .

لم ترفع أولا يدها عن ذقنها ، ونظرت إليه بعينين حولاوين وهزت رأسها غير مصدقة .

— مرحباً . في مثل هذا الوقت المتأخر ، يا سلافا * ؟

---

* سلافا — تصغير وتحبب لاسم فياتشيسلاف — المترجم —

سمع صوتها ، ولم يميز مافيه ، هل هو استفهام بسيط مازح ، أم عتاب مبهم ، وتنفس الصعداء بأسف ، وعندما اقترب منها من جهة ظهر الأريكة ، رأى شعرها المجمع في حزمة وفق التقاليعة القديمة ، وأذنها الصغيرة ورقبتها المفتوحة بقميص العمل ، وقال بحذر :

— أنا ، كالعادة ، مذنب دائماً . انطلقت أبحث عنك . فلم أجدك . فاتجهت صوب الغابة ، بعد الجسر . وهناك ، كان كل شيء مناسباً للتفكير . بالمناسبة ، لقد رأيت ولادة الليل . كان رائعاً . . .

— واضح . ألم يكن معك أناتولي بتروفيتش ؟

— لقد رحل باكراً . غريب . . . هذا النجم ، كالنجم المرسوم في لوحتك ، رأيته أنا أيضاً . ولكن تحت الجسر ، أمام الوتد . هل هو المريخ أم الزهرة ؟

— اذن ، كنت وحيداً ، وكان رائعاً ، — قالت أولغا بلهجة الاستهزاء الخفيف ، ناظرة من الأسفل إلى وجهه بتعبير منتظر .

أما هو ، فقد قبلها باعتذار ، وهو واقف بالقرب من الأريكة ، من شفتيها المنفرجتين عن ابتسامة صغيرة .

— أعتقد أنها المرة الأولى منذ سنوات عديدة ، أشاهد فيها الزهرة أو ما يشبهها ، قال كريموف ، شاعراً بعدم الاكتراث والبرودة في شفتيها ، وقال بشيء من المزاح : — وأنت مع من كنت ؟

— وحدي مع نفسي .

— وكيف كنتما ؟

ـ تصور ، كنا في حالة ممتازة ! وكيف تواصلنا ، وتحادثنا ، وبكينا جيداً .

ـ بكيتما ؟ على من ؟ ولماذا ؟

ـ عليك ، وعلي .

في عينيها المخمليتين الهادئتين ، كان ثمة تساؤل غير مكتمل ، كما في السابق ، ليس من عادتها ، وقد أحس كريموف بأن خلف هذا التساؤل هناك شيئاً مقلقاً ، مؤنباً ، معاتباً ، تخفيه بعناية ، وقال لها بدون رموز كلامية لا لزوم لها بينهما :

ـ أولا ، ان أمكن ، اشرحي لي ماحدث . اليوم ، أنا متعب قليلاً ، ولن أفهم شيئاً . أنت مغتاظة مني لسبب ما ؟

ـ لا ، أبداً . كل مافي الأمر ، أنني بكيت على شبابنا الراحل . لكن هذه أمور تافهة ، إنها رومانسية النساء .

نهضت أولغا وأحاطت كتفيها بيديها ، وكأنها تعانق نفسها من أجل أن تصطلي وتتدفأ ، ووقفت أمام لوحة المنظر الطبيعي ، واستدارت شفتاها استدارة خفيفة ، شبيهة بالابتسامة ( أما هو فقد تذكر فتورهما البارد المميت ، الذي قرصه قبل دقيقة واحدة ) ، وعلى هذا النحو ، ربتت بكفيها على كتفيها ، معانقة نفسها ، ثم ابتعدت جانباً ، خلف ضوء المصباح ، ومن هناك ، من الظل الأخضر ، قالت بصورة متعمدة ، بصوت حيوي نشيط :

ـ لم أكن أفكر أبداً ، أنه سيحدث هكذا يا فياتشيسلاف . وكم هو محزن ، وفي غير محله !

— يحدث ؟ ماذا يحدث ؟

— أعتقد ، أنك لا تحسب قواك بصورة صحيحة .

— هكذا كان دائماً ، — قال مازحاً ، حازراً بخوف كبير ما أرادت أن تقوله . — أنا أعرف عيوبي منذ زمن طويل يا أولا .

— أنا عرفتها مؤخراً ، منذ فترة قصيرة ، بعد أن عشت معك عمراً كاملاً . فماذا سنعمل ، يا سلافا ؟

« هذا ماكنت أخشاه ، إذلالها هذا . لقد كنت أخشى من أن تتلوث أولنا أو تمس بقذارة ما ، من قبل بعضهم . وهل من المعقول أن تكون قد وصلت إليها افتراءات الاستوديو بكامل ألوانها وأصباغها ؟ لا ، ان الناس بلا شفقة ولا رحمة . . . » .

— أولا ، لقد أصبحت غبياً بصورة مفجعة . لذا ، سأطرح أسئلة ساذجة : ماذا حدث ؟ هل اتصل بك أحد هاتفياً ؟ هل وصلتك رسائل ؟ مغفلة المصدر بالطبع ؟ . . .

من خلال الضوء الخافت . اكفهرت عيناها غير المبتسمتين ، أما شفتاها ( كم من المرات قبلهما ، وهما فاترتين لا ترويان ظمأه ) فقد ارتعشتا بانعكاس الاستغراب المتحفظ .

— أنا لا أدينك . لم تعد تحبني ، لذلك يمكنك أن تتصرف كما يحلو لك . المسألة ليست في الاتصالات الهاتفية ولا في الرسائل .

— أولا . . .

— هنا لا يمكنك عمل أي شيء . في الحياة يحدث كل شيء .

– أولا ، لماذا أنت ؟ . . .

« وهل من المعقول أنها تصدق الإشاعات ، وأن علي أن أشرح ، وأن أبرر موقفي وأبرىء نفسي ؟ لكنني لا أقوى على ذلك » .

وجلس كريموف القرفصاء ، وهو منهك ، بادي الاعياء ، بالقرب من اللوحة ، وهذه السماء الخضراء بعد الغروب ، والتلألؤ العنيف للنجم الأول في نقاوة الماء الفارغة ، والغيمة الرمادية من الغربان المحلقة فوق الغابة البعيدة في المساء ، والأنوار الصامتة القريبة للنجوم في السماء ، والعيد السري في أعماق المجرة التي لا قرار لها ، وحركة الأشعة وتنقلها وتحولها – هذه العظمة الاحتفالية كلها ، التي تكشفت له عند منتصف الجسر ، كما لو أنها من قعر فج عميق ، بين القمم الجامدة فوق الضفاف العالية ، فقدت خلال لحظة واحدة الأمل المعتق ، وفكر كريموف بيأس : « كل شيء قد أزيح من مكانه ووضع في مكان آخر ، وكل شيء يهوي إلى القاع ! » .

– أولا ، – قال كريموف بخضوع ، دون أن يجرأ على إدارة رأسه عن لوحة المنظر الطبيعي ، غير أنه لم يعد يرى فيه أية تفاصيل ، – أولا ، أرجوك شيئاً واحداً فقط : صدقي نفسك فقط ولا تصدقي أحداً ما . . . أتعرفين ، بم أفكر في الفترة الأخيرة ؟ هناك طيور مغردة وطيور صيادة . والطيور الصيادة ، حتى عندما تكون شبعة ، يمكنها أن توجه ضربة على النقرة بمنقارها الحاد . ماهو المغزى من ذلك ؟ لاوجود له . ولكن ثمة رغبة بالضرب ، بالأذى . أما الأسباب فهي آلاف مؤلفة وكل سبب أتفه من الآخر . أولا ، يحدث لي مالا أريده . إن الحياة ، لسبب ما ، عاجزة عن أن تعلمنا الصدق والحقيقة .

نحن سريعو التصديق إلى حد مفرط . وأنت أيضاً ، سريعة التصديق يا أولا . اليوم أيضاً ، فكّرت بمدى سخافة سعي الناس ، عندما رأيت في الماء فجأة هذا النجم الرائع ، عندما كنت فوق الجسر . . . على كل حال ، انها مبتذلة تلك الحقائق جميعها المكتشفة منذ زمن طويل ، والمنسية منذ زمن طويل ، والمكتشفة مجدداً .

ونهض من القرفصاء ، وتجهم بعد صراحته الصادقة اللاارادية ، مما جعل من الممكن أن تعدها أولا متعمدة بصورة مفرطة ، . أما هي فقد كانت واقفة عند الجدار في الخط المعتم خلف مصباح الطاولة وكانت تصغي إليه بعينين مغلقتين .

ـ شيء مرعب ، ـ قالت أولا واقتربت منه ، رابتة بحنان على وجهه ولامسة ذقنه بطرف اصبعها . ـ انه مريع جداً ، كم تغيرت في الفترة الأخيرة ، لقد نحفت وضمرت ، ولم تعد كما كنت . شيء ما قد حدث ، يا فياتشيسلاف . . . لقد أحببتك كثيراً آنذاك ، في عيد رأس السنة ، عندما بقيت وإياك هنا . . . أنت لم تعد كريموف الذي عرفته ، أو أصبحت رجلاً آخراً ؟

ـ رجلا آخراً . ولكن ليس بشكل كامل على الأغلب .

ـ أسوأ ؟

ـ نعم .

ـ اذن ، أنت خنتني ، يا فياتشيسلاف ؟

ـ لا ، ولا مرة واحدة .

— إنني ، لسبب ما ، لا أصدقك الآن يا سلافا . — قالت أولا بوجه شارد ، ورسمت باصبعها طغراء مبتكرة على قلبة سترته . — لقد كنت ألاحظ كثيراً ، كيف كانت النساء ينظرن باتجاهك . ثم عاداتكم في الاستوديو ، وبوهيميتكم الاريستوقراطية ، يمكنني تصور ذلك . . . وأنت لست قديساً ، يا سلافا . هكذا ، أليس كذلك ؟

— أنت تخطئين ، يا أولا . أنا شبه قديس . وأنت لست على حق بخصوص عاداتنا في الاستوديو . انها ، كما في كل مكان . وليست هناك بوهيمية ، — قال كريموف ، شاعراً برغبة في أن يعانقها ، ولا يقول أي شيء في سكون قربها ، في فتورها الهادىء ، الذي لا ينطفىء ، كما في تلك الليلة العاصفة المقفره ، عندما بقيا كلاهما في البيت الريفي الذي لم يكن قد اكتمل بناؤه . بيد أن شيئاً ما منعه من تكرار لحظات مزاج عيد رأس السنة الذي تحدثت عنه أولا ، واكتفى بأن أمرّ يده على كتفها القريب المحبب ، من تحت قميصها الأسود ، وأكمل حديثه بشيء من الوجل ، — كيف يمكنني أن أقسم لك ، أنني أحبك ؟

— لا حاجة للقسم ، — قالت أولا دون أي تعبير ، — اذهب ، من فضلك . اذهب يا سلافا . لقد تأخر الوقت كثيراً . اذهب ياقديسي الحبيب . — ورسمت من جديد باصبعها طغراء غير مرئية على قلبة سترته ، وكان وجهها خاملاً لامبالياً . — وإلا فلن نتمكن كلانا من النوم .

— تصبحين على خير .

قبلها من وجنتها وخرج بمشاعر مؤلمة ، وكأنها ، لعدم تصديقها له ، لم ترغب باكمال حديثها وتحطيم كل شيء إلى النهاية .

## الفصل التاسع عشر

— فياتشيسلاف أندرييفيتش ، عذراً لسؤالي غير المتواضع ، الذي لم أكن لأجرأ على طرحه لولا الجانب الشكلي من مهنتنا . فمن أجل اثبات الحقيقة ، علينا أحياناً أن نعرف شيئاً ما شخصياً . . . غير متواضع . اعذرني من فضلك ، ثانية ، هل كنت على علاقة قريبة بايرينا فينيامينوفنا سكفورتسوفا ؟

— أوليغ غريغوريفيتش ، لقد قلت لك كل شيء أثناء لقائنا الأول . وهل تظن أن جوابي الثاني سيكشف حقيقة الكارثة الحاصلة ؟ ان كان نعم ، فهل كل شيء واضح ؟ وان كان لا ، فما هو غير الواضح ؟

— أوه ، أرى أنك بدأت أنت الآن تطرح علي الأسئلة يا فياتشيسلاف أندرييفيتش . أنا أدرك جيداً ، أن كل لحظة اصطدام بالحياة — هي بالنسبة لك ، الإنسان الفنان ، نوع ما من جمع المواد والتجربة التي سوف تتجسد . . . أنتم الفنانون ، كقطع الاسفنج ، تتشربون كل شيء وتجسدون . ولكن ، على أية حال ، ألا تريد الإجابة عن سؤالي الشكلي ؟

— يستحيل شرح ذلك تقريباً . كيف يمكنني أن أشرح لك ذلك ؟ ان هذا ليس للمحضر الذي تحتاج إليه .

— وماذا تقصد تحديداً ؟ ربما أناث ، مع الاعتذار ، لاتود الحديث عن شذوذ ما تعانيه الممثلة سكفورتسوفا ؟ فقد عانت كثيراً من إصابة قاسية ، وقد ترك فشلها في البالية بصماته على نفسيتها ، ربما كان هناك عندها شذوذ أو هوس من نوع خاص ؟ . . .

— لماذا تقول هكذا ؟ ايرينا سكفورتسوفا كانت طفلة نقية ، طاهرة ، سريعة التصديق إلى حد السذاجة . ومثيلاتها بين الشبيبة المعاصرة ، نادراً جداً أن تلتقيهن . كانت تؤمن بأن الهدف من الحياة هو الفرحة . ليس اللذة ، ولا البطالة ، وليس الرفاه المادي ، بل الفرحة تحديداً . كانت تتمتع بعاطفة الحرية الأخلاقية . وأي شذوذ يمكن الحديث عنه هنا ؟

— طبعاً ، طبعاً ، طبعاً . . . لم أرد أن أسبب لك إساءة ، لم أرد ذلك . قل لي ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ، ألم يدر بينك وبين ايرينا سكفورتسوفا ، قبيل الحادث المؤسف ، كما سوف ندعوه مؤقتاً ، أي حديث جدي ؟ ألم تخبرك بأي شيء ، ألم تحدثك عن أي شيء . ألم تطلب منك شيئاً ؟ ألا تتذكر بعض كلماتها ؟

— أتذكر . كانت منزعجة ومتكدرة من حديث سمعته من غرباء في الاستوديو مصادفة .

— ألا تتذكر هذا الحديث ؟

— كما يحدث غالباً ، فالمرشحات للدور كن يغتبنها ، وكن يتحدثن بالطبع عن أنها بلاموهبة ، وأنها قد حصلت على الدور الرئيسي ، بالطبع ، بعد أن أصبحت عشيقة المخرج .

— أوليس هذا صحيحاً ؟ أليس مطابقاً للواقع ؟

— ماهو « ليس صحيحاً » ؟

— هل كانت ايرينا سكفورتسوفا ، وأعتذر هنا ، عشيقتك أو . . . صديقتك أو عشيرتك ، كما يقال الآن في أوساطكم ؟

— لا أعرف ماذا يقال في أوساطنا حول هذه المسألة ، لكن ايرينا سكفورتسوفا لم تكن عشيقتي ، ولا صديقتي ، ولا حياتي . كانت شيئاً آخر .

— فما هي العلاقة التي كانت بينكما ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟ بسبب واجبي في الخدمة ، أجد نفسي في وضع غير مناسب . . . وعلي أن أطرح عليك أسئلة حساسة ، ملحة ، كما يقال ، أرجوك أن تصبر على إصراري وإلحاحي .

— سأصبر . لكني سأسمح لنفسي بعدم الإجابة على الأسئلة الحساسة .

— غير أنني أسمع في أجوبتك نعم ولا في وقت واحد . فكيف علي أن أفهم حديثك ؟

— بمعنى لا .

— وكيف تحديداً ؟

— أوليغ غريغوريفيتش ، ليس باستطاعتي أن أشرح لك جوهر علاقتي بايرينا سكفورتسوفا بكامله . كانت ايرينا تتمتع بالقوة والضعف

والعجز . أمام الحياة كانت عاجزة ضعيفة ، مثلها في ذلك مثل جميع الموهوبين تقريباً .

– لايصح القول عنك مثلا ، أنك عاجز ، ضعيف ، رغم أنك موهوب بصورة فظيعة ، كما قال عنك شفهياً مخرج كبير ، زميلك.

– ليس كل شيء كما يبدو . أنا ، ببساطة كنت موفقاً ، حالفني الحظ . وثمة كثير من المبالغات حولي . وهناك كثير من الحاسدين والأغبياء من حولي . ان المحظوظين والموفقين غير محبوبين كثيراً في الفن . انهم يحسدونهم ، ويتملقونهم ، لكنهم لا يحبونهم كثيراً . ألا يصدمك جوابي هذا ؟

– أنت الآن تتدلل وتتصنع ، فياتشيسلاف أندرييفيتش . فالنقد المحترم يكتب عنك . . .

– لاداعي لقراءة النقد المحترم . فهو في أحيان كثيرة يكذب ، أو ينظر من وجهة نظر مراتب إخراج ضيقة . على النقد أن يكون فتياً ، وبالتالي سليطاً ، جسوراً .

– إنك تتدلل من جديد .

– كما تريد . إذا كان بالامكان التصنع والدلال مع الحقيقة ، فأنت على حق .

– أنت لست طيبا تجاهي . على نحو ما ، فياتشيسلاف أندرييفيتش . أنت ، عامداً متعمداً ، ترى في شخصي رجلاً معادياً ، ان صح التعبير ، في حين أن مهنتي تقتضي عدم التحيز ، وعدم المحاباة ، حتى بالنسبة للأشخاص المشهورين جداً ، وأنت لست منهم . لكن ، لنعد إلى موضوعنا

اقد تحدثت الآن عن سكفورتسوفا ، وكأنها . . . كيف يمكنني التعبير بصورة دقيقة ؟ وكأنك عاشقاً ، مغرماً بهذه الفتاة الغريبة إلى حد الجنون . هل كان لديك مثل هذه العاطفة نحوها ؟

ــ لم أكن مغرماً بهذه الفتاة الشاذة الغريبة إلى حد الجنون . علاوة على ذلك ، فهي لم تكن تطيق الشذوذ والغرابة . وأنا كذلك .

ــ على هذا النحو أو ذاك ــ ماهي العلاقة التي كانت بينكما ؟ هل أرادت أن تصبح زوجتك ؟ هل طلبت منك أن تطلق زوجتك ، فشعرت أنت بأنك مرتبط بأسرتك وأطفالك ، فظهر عندها ، عند ايرينا سكفورتسوفا ، امتعاض ، وألم ، وعدم الارتياح لوضعها ؟

ــ لم يكن هناك شيء من هذا القبيل .

ــ فما الذي كان بينكما في نهاية الأمر ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟ هل كانت راضية ، عن وضعها ؟

ــ لم تكن راضية عن نفسها . هكذا أعتقد . أنت تعرف ، أنها ، بعد بدايتها الرائعة في البالية ، تعرضت لإصابة مرضية وابتعدت عن خشبة المسرح عاماً كاملاً . لقد رأيتها عدة مرات كيف كانت تتدرب في بيتها على الحامل ــ كانت تسعى لاستعادة لياقتها البدنية مهما كلف الأمر . ولم تستطع للأسف الكبير . وعندما عرضت عليها الدور ، لم توافق سكفورتسوفا في البداية ، تصور ! فهي لم ترغب بخيانة نفسها وخيانة البالية .

ــ وأنت تعتقد ، أن هذا بالذات ، قد أدى إلى نهايتها التراجيدية ؟

ــ وهل قلت أنا ذلك ؟

ـ لكن هذا ما يمكن استنتاجه من أقوالك .

ـ لقد كنت أجيب عن سؤالك الذي لم يكن دقيقاً .

ـ على الأغلب ، أنا مضطر لأطرح عليك كثيراً من الأسئلة غير الدقيقة ، لذلك أرجو أن تعذرني ، فياتشيسلاف أندريفيتش . أتعرف ، أحياناً يكون الطريق الدائري هو الطريق الأقرب إلى الحقيقة .

ـ أرجوك أوليغ غريغوريفيتش ، لاداعي للأسئلة غير الدقيقة ولا حاجة للطرق الملتوية والدائرية . أقسم بشرفي أنني متعب جداً . سأسهل عليك مهمتك . أنا أعرف : أنت بحاجة إلى تحديد سبب هلاك ايرينا سكفورتسوفا ، أو المذنب في هلاكها ، وتحديد القاتل المباشر أو غير المباشر .

ـ أتريد ماء ، الماء في الابريق دافىء على الأغلب . تفضل فياتشيسلاف أندرييفيتش ، هذه زجاجة المياه المعدنية « بورجومي » . اليوم حر منذ الصباح ، الشمس تكوي .

ـ أشكرك . والجو خانق في مكتبك أيضاً . لماذا لا تفتح النوافذ ؟

ـ أوه ،أنت قوي الملاحظة ،لديك نظرة مهنية دقيقة ، فياتشيسلاف أندرييفيتش .

ـ أريد أن أسهل عليك مهمتك ، التي لم تحل بسبب عدم دقة إفاداتي . انني على الأرجح ، متهم ، لأنني مذنب . . . مذنب فيما حصل . إن فينيامين فلاديمير وفيتش سكفورتسوف ، الذي التقيته عندك ، كان على حق . لقد كان محقاً باتهامي بأنني كنت غاوياً شريراً . . . ، بأنني حاولت زرع الأمل في نفس ابنته . . . لكنني ، مثلك ، بودي

أن أعرف ، كيف حصل ، كيف حدث كل شيء . هل كان هناك عارض مأساوي ، أم أنها أقدمت ، بوعي وقصد على الانتحار ، هذه الفتاة البائسة ؟ أم ماذا ؟ أريد أن أصدق أنه عارض ، مصادفة . . .

— بيد أنه ثمة أسس الافتراض ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ، بوجود أسباب أخرى للنهاية المأساوية ، بوجود ظروف أخرى . . .

— اذن ، أنت تشك بشخص ما ؟ أنا أفهمك . طبعاً ، القضاء ، القانون ، التحقيق ، الافادات ، شهود العيان . بيد أنني الشاهد الوحيد . وإذا كنت لا أعرف بصورة دقيقة ، بيد أنني أريد أن أعرف ، كيف ولماذا حدث كل هذا ، فمن يمكنه أن يعرف سوى الله ، ونحن ، أنت وأنا ، لا نؤمن بالله ، كما أظن .

— كان هناك شاهد عيان آخر ، فياتشيسلاف أندرييفيتش .

— من ؟

— أنت تعرفه جيداً . سائق الاستوديو غولين ستيبان يفدوكيموفيتش أنت تغفله لسبب ما ، رغم أنك عاملته بطريقة تخلو من الاحترام ، على أقل تقدير .

— آسف من الأعماق لأنني أظهرت عدم الاحترام تجاهه . كما آسف لأنني كنت متساهلاً أكثر مما ينبغي مع السائق المحترم ستيبان يفدوكيموفيتش . على أية حال ، فالتساهل والندم — خاصية ثابتة الانتيليجنسيا الروسية .

— غير أنك ضربته ، يا فياتشيسلاف أندريفيتش ! أنت ممثل الانتيليجنسيا الفنية المبدعة ، أنت الرجل الأكثر شهرة ، المخرج المعترف

به ، ضربت إنساناً عاملاً ، أثار غضبك ، لمجرد أنه كان شاهداً لخلافك مع سكفورتسوفا ، في ذلك اليوم عندما وقع الحادث المأساوي . أنت أغفلت هذا الجانب بالذات .

ـ هذا طريف حقاً ، كيف يمكنه أن يكون شاهداً على شيء ما ، في الوقت الذي كان فيه بعيداً عن مكان الحادث ثلاثين كيلومتراً ، حيث ذهب لتناول طعام الغداء في مطعم بمركز البلدة ؟ أعترف بأنه أثار ، وما يزال يثير ، في نفسي مشاعر النفور والاشمئزاز . . .

ـ ولهذا ألحقت به الضربات مسبباً له ضرراً بدنياً ؟

ـ أي ضرر ؟

ـ جاء في التقرير الذي قدمه الشاهد من المستوصف الثاني والأربعين ، أن شفته قد شقت نتيجة الاصطدام بأسنانه بسبب الضربة ، وثمة كدمة في أسفل أنفه .

ـ رائع ! أنا آسف جداً ، حقاً ، لأنني ضربته ضربتين فقط . بالنسبة لهؤلاء الأشخاص الضرب مرتين قليل لا يكفي .

ـ فياتشيسلاف أندرييفيتش ، أرجوك ، اقرأ بيان الشاهد هذا .

ـ قراءة صامتة ، أم بصوت عال ؟

ـ أشك في أن هذه القراءة ستكون ذات طابع فني . لماذا أنت شديد التحفظ والحذر معي فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟

ـ تماماً ، كما أنت معي ، بالرغم من الصيغة المحببة والاحترام الذي تبديه نحوي . عن أذنك ، سأقرأها بصوت عال ، كي يكون

أكثر وضوحاً وأكثر صدقاً . سأقرأ . . . « إلى الإدارة العامة . مقدمه : غولين ستيبان يفدوكيموفيتش ». حسناً ، ماذا يقول ستيبان يفدوكيموفيتش السائق الحائز على لقب الجدارة ، الذي كوفيء بشهادة تقدير ؟ أنظر كيف يعرض جوهر القضية . . . « أريد أن أصف للرفاق المحترمين في الشرطة ، جوهر قضية الجريمة ، نظراً لأنني كنت أعمل في فيلم « الجيل » ونقلت الرفيق كريموف فياتشيسلاف أندرييفيتش ، مخرج الفيلم ، والممثلة سكفورتسوفا ايرينا ، لا أعرف اسم أبيها ، إلى الطبيعة . حيث كان من المنتظر أن يتم هناك تصوير مشهد فيما بعد . عندما انطلقنا بالسيارة من أجل استكشاف الطبيعة ، كان المخرج كريموف يؤنب سكفورتسوفا على غبائها ، على أنها ليست قادرة على عمل أي شيء ، لا في البالية ولا في السينما ، أما سكفورتسوفا فكانت تجلس صامتة ، تبكي بهدوء ، ثم قالت بأنها لاتريد أن تبقى على قيد الحياة وتحمل مثل هذه الإهانات ، أما المخرج كريموف فقد ضحك لسماع هذه الكلمات بأنانية نادرة . وعندما وصلنا إلى الطبيعة ، نزلا من السيارة وذهبا باتجاه الكنيسة على الضفة اليمنى من النهر ، أما أنا فقد بقيت على الضفة اليسرى ، نظراً لعدم قدرة الجسر الصغير على احتمال ثقل السيارة . أمرني المخرج كريموف أن أنتظر ساعة أو ساعة ونصف ، بيد أنه انقضت ساعتان ولم يحضرا ، وشعرت بالجوع ، لأنه كان قد حان موعد الغداء . لقد رأيتهما على الضفة الأخرى : كانا يسيران ، أحدهما مقابل الآخر ، ملوحين بأيديهما ، وكأنهما يتقاذفان الشتائم . وفكرت آنذاك ، بأنهما سيبقيان طويلا ، وذهبت إلى مركز البلدة ، من أجل تناول جرعة ماء على الأقل ، فقد تصببت عرقاً في الجو الحار . وعندما عدت إليهما ، رأيت سكفورتسوفا كالميتة ، ترقد

غريقة على العشب ، في « مايوه » السباحة ، مبللة الشعر ، بيضاء الوجه كالمرمر ، أما المخرج كريموف فقد هجم علي كالوحش ، وأخذ يضربني إلى أن أدماني ، وهو يردد كلمات مقذعة ، وحذرني ، وهو كالمسعور ، بأن لا أجرؤ على التفوه ببنت شفة ، حيثما كان ، عن كل شيء رأيته أو سمعته . اقتدنا سكفورتسوفا إلى المستشفى ووضعناها هناك . هذا ما أعرفه عن هذه القضية المجرمة . رفقا تقرير عن الأضرار الجسدية الملحقة بي . التوقيع : غولين » . هذا كل شيء ؟ أجل ، التوقيع واضح . وماذا أقول ، ان السائق المحترم قد شرح كل شيء بصورة رائعة . لقد عرض كل شيء بصرامة رجل واقعي . هنا يستشف أسلوب الضحية . وأنت ، تأخذ هذه المذكرات التلميحية ، التي كتبها سائق يضطهده مخرج ، بعين الاعتبار ؟

ــ إنني آخذ بعين الاعتبار كل ماله علاقة بالقضية . السائق غولين يعرض موقفه الشخصي مما حدث . أما النتائج فأنا أستخلصها على أساس جميع افادات الأشخاص الذين يعرفونك وكانوا يعرفون ايرينا سكفورتسوفا .

ــ وإذا ما أصغيت إلى غولين ، وإلى رئيس الاستوديو الحكيم بالابانوف ، وإلى المدير الإداري المحترم مولوتشكوف فسيتشكل لديك رأي عادل ــ استنتاج حول المجرم المحتمل ، حول القاتل المفترض المخرج كريموف . هذا دون الحديث عن فينيامين فلاديميروفيتش سكفورتسوف ، والد الفتاة المرحومة ، الذي يتهمني بكل شيء دون أي تردد . يبدو أنه محق ، من حيث كونه أباً ، وأنا أفهمه أيضاً كأب . أنا مذنب ، أو كيف يقال من وجهة نظر حقوقية ، أنا مدان ، وليس

مذنب ، أنا مدان بأنني زرعت الأمل في نفس سكفورتسوفا ، أما الأشخاص الحسودون والشريرون المتنكرون ، والمقرفون كالحساسة ، فقد حطموا الأمل . وإذا كان هذا الأمل قد قتلها فأي زهرة هشة كانت سكفورتسوفا . . .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش ، إن مثل هذه التصريحات تبعدنا جانباً ، إلى سيكولوجية الإبداع ، إلى غابة مظلمة حالكة السواد ، حيث يمكن المرء أن يتعرض لخطر الضياع ويضل الطريق بين ثلاثة أشجار صنوبر ويحطم عنقه . وأنا ، إن كنت تعرف ، حريص جداً على عنقي ، لا لمجرد ارتداء ربطة العنق . لذلك ، أعود إلى السؤال الرئيسي — ماهو ، برأيك ، السبب المباشر لموت ايرينا سكفورتسوفا ؟ سأكشف لك سراً ، رغم أنه ليس سراً في الواقع . قصد والد سكفورتسوفا مرجعاً أعلى ، وطالب باجراء تحقيق دقيق في أسباب موت ابنته ، وقد كلفت أنا بهذه القضية . وأنا ، رجل دقيق ، اعذرني لهذه الصراحة ، ورغم أن احترامي لك . . .

— وأي احترام هنا يمكن أن يكون ، وما هو الاحترام ، ولماذا هذا الاحترام ! . . . هذا هراء ! لقد قلت لك ، بل على الأصح ، أجبت في المحضر ، انني مدان ، انني مذنب . . .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش !

— أنا مذنب ، وافعل معي ما يقتضي ذلك لاحقاً .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش !

— لقد قلت لك — لن تجد مذنباً آخر .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش ، أنا مذهول . . . عليك أن تكون مسؤولاً عن أقوالك ، لا أن ترمي الكلمات في مهب الريح . مثل هذه التصريحات خطيرة في نهاية الأمر .

— لم أعد أخشى شيئاً ، منذ وقت طويل . لا ، أحياناً ، أخشى الموت طبعاً . هنا ، يغلب علي الفضول البحت : وماذا سيحدث من بعدي ؟ لقد كان الفضول وحب المعرفة يقتلاني طيلة حياتي . وربما لهذا السبب ، أصبحت مخرجاً : كي أعرف حياة الغير . بيد أنني لم أتمكن من معرفة الكثير .

— لقد قلت أنك مذنب في كل شيء ؟

— في كل شيء . ولاحاجة لك بعد الآن ، لطرح الأسئلة على بالابانوف ، ولا على مولوتشكوف ، ولا على غيرهما . . .

— وعلى ستيشوف ، الذي كان عندي صباحاً ؟ أعتقد أنه إنسان جدير ومحترم للغاية .

— أيضاً لاحاجة . إنه رومانسي ومثالي ، معجب بي . إنه غير قادر على أن يكون موضوعياً . لاسيما وأنه صديقي ، وصديقي المقرب أيضاً .

— ليست لدي أسئلة أخرى أطرحها عليك الآن . لاتوجد لدي أسئلة . وإذا ما ظهرت فسأضطر لازعاجك من جديد ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش .

— أشكرك . يمكنني أن أذهب ؟

ـ حظاً سعيداً . أتمنى لك النجاحات الإبداعية على الشاشة .

ـ شكراً . إنني متأثر جداً بمشاعرك الطيبة تجاه الفن السينمائي .

* * *

علقت بوجهه المتعرق حرارة الاسفلت المنبعثة من الشارع المتوهج الداوي في هذه الساعة ، الشارع الذي يلطم الآذان بهدير المحركات والآليات . اقترب كريموف المنهك من السيارة التي كان قد أوقفها قرب الرصيف ، تحت أغصان شجرة زيزفون ( كي لا تسخن كثيراً من أشعة الشمس ) . فتح كريموف باب السيارة ، حارقاً أصابعه بالمعدن الحامي ، وجلس في داخل السيارة بيأس طاغ ، لأنه ينهار ، ولا يستطيع التوقف ، ولا السيطرة على نفسه ، وايجاد التوازن ، ولأنه يقدم الآن ، في كافة تصرفاته على مجازفة غامضة ضبابية ، فاقداً القدرة على التفكير السليم ، ولأن هذه الحالة قد تودي به ، أو أودت به الآن ، إلى التهلكة . لم يكن ليتصور الآن الانهيار الكامل لمكانته السابقة ، لم يكن يتصور مكانته الذليلة الحالية في الحياة ، حيث يسري مفعول قوانين أخرى ، وعلاقات أخرى ، كما حصل أمام عينيه لبعض الناس المشهورين ، الذين انهاروا تحت ضربات الظروف العادلة أو الظالمة . ولم يكن يتصور وضعه الشخصي تابعاً ، خاضعاً إلى تلك الدرجة ، التي لم تكن تنطبق عليه مسبقاً .

إن ما حصل معه ، وما عمله ، من جيد ومن سيء ، وما كان يقوله ، ويرفضه ويؤكده ـ كل هذا كان مُبعَداً ، بصورة غير معقولة ، محاطاً بظروف سخيفة مجهولة ، وبمبررات وذرائع رديئة ، وبدا له

غير واقعي من ناحية ما ، غير ثابت ، آنياً ، وأنه سينتهي الآن بأقصى سرعة ، وسيعود إلى التيار اليومي للواقع العادي ، الذي لم يتغير أبداً من الناحية الخارجية ، وصار كما كان عليه قبل سفر كريموف إلى فرنسا . بيد أن تغييرات واضحة حدثت وأعادته من جديد إلى ذلك اليوم الحزيراني الحار ، يوم ايرينا الأخير ، — وعندما خرج من عند المحقق ورأسه يؤلمه ، وعثر في صيدلية السيارة على حبوب آميدوبيرين ، لم تسعفه سوى حبتان ، ابتلعهما كريموف بمرارتهما الكيميائية ، دون جرعة ماء وفكر في نفسه ، وهو يستند بارهاق إلى ظهر المقعد الساخن : « الآن علي أن أذهب إلى البيت الريفي » .

ثم جلس مقلباً الأمر في رأسه — هل يجب فعلاً الذهاب اليوم إلى البيت الريفي ، إلى الفيلا ، إلى الصيف الممتع ، إلى أشجار الصنوبر ، إلى العشب والشمس ؟ ربما كان من الأفضل أن أبقى في موسكو ، وأن أمكث وحيداً في شقة خالية ، وأفكر وحيداً بما حصل اليوم ، لأنه في البيت الريفي ، ليس هناك من يقدر على مساعدتي — لا أولغا ، ولا فالنتين ، ولا ابنته الحبيبة تانيا .

« أية سعادة هذه : أن أجلس هكذا وحيداً في السيارة ، وأنظر إلى ارتعاش توزع الضوء والظل في عمق شجرة الزيزفون ذات الأوراق المغبرة المعفرة بالتراب ، ولا أفكر بأي شيء ، بل أرى الشارع وأسمعه وأحسه . ولكن هل الاحساس والشعور يعني عدم التفكير ؟ ومع ذلك لا يفارقني هذا الألم المبهم ، الشبيه بالحنين ، الذي ظهر عندي ليلاً ، عندما خرجت من عند أولغا . . . ولماذا أشعر ، بهذه الرغبة ، بالهرب إلى مكان ما ؟ ولماذا كان بودي أن أحدث المحقق بهذه السهولة

عن ذنبي ، من أجل وقف هذه الأسئلة المهينة له ولي ، ـ هل من المعقول أن لا ينتهي هذا كله أبداً ؟ » .

وأملا منه باستعادة توازنه النفسي ، حاول أن يتذكر أسعد يوم في حياته التي عاشها ، وأخيراً استطاع أن يتذكره ـ إنه قاص ، ناء ، ربيعي ، كما لو أن سنوات طفولته التي لا تنسى قد عادت وتكررت . هاهوذا : آذار المشمس ، قطرات من الثلوج الذائبة ، الظلال الزرقاء لأشجار البتولا على الثلج الأبيض . . . وصبي ( إنه هو ) يقف أمام الطنف المغطى بالثلج ، وينظر إلى زرقة السماء الجذلة ، فوق المعلقات المجمدة النازلة من الميازيب المغطاة بالصقيع .

لا ، إنه يذكر أيضاً صباحاً سعيداً آخراً ، ضوء الفجر الناعم على جدران عُليّة غريبة ، وبقع حمراء على مفروشات ثقيلة ،تفوح منها رائحة قديمة ، عتيقة لذيذة . . . وكانت آنذاك أمسيات طويلة في شهر أيار ورائحة الليلك العبقة في الحديقة . أين كان هذا ؟ في ألمانيا ؟ في تلك الأيام ، كان كل شيء غريباً ، ولم يتكرر بعد ذلك أبداً . ليلاً ، كانت تضيء في الأفق الهالات المتخلفة من الحرب المنتهية ، وبين كتل الرماد المحترق ، والانفجارات والدخان ، وتخيل بجعات ضخمة متفحمة ، تحلق بعيداً نحو الأفق الرهيب ، وقد برزت بصورة مستديرة ، من بعيد قباب وأسطح وذرى أشجار . أما الهلال المصقول ، كالمرآة ، فكان يسطع بحدة وقوة بين الثقوب ، واعداً بالحياة والحب والشباب ، والتوفيق ، وتجديد ذلك الصباح ، في فترة ماقبل الحرب ، بالقرب من موسكو ، عندما رآها . كانت تقف ، وقد ارتدت ثوباً صيفياً بلا أكمام من الدمور ، عند خوخة الباب ، تقطع عناقيد الأكاسيا ، لامسة بركبتها

العارية الدراجة المائلة المسندة إلى السياج . . . ثم رأى بوضوح نفسه إلى جانبها . كان ينفخ إطار الدراجة ، وكانت هي واقفة تحت شجرة الأكاسيا ذاتها ، مارة بيدها بصمت على السياج ، وكانت شفتاها منتفختين . « من غير الممكن أن نكون قد تخاصمنا . من أجل أي شيء ؟ تلك كانت أياماً فريدة لا تتكرر من شبابي ، رغم أنه لم يبق في ذاكرتي اسم الفتاة الشابة ذات « السارافان » ، ولم أعد أذكر أسباب الخصام . . . ».

بيد أنه لم ينس حتى الآن ، لسبب ما ، كيف أنه أفاق من نومه ذات يوم من أيام شبابه البعيدة ، على مخزن الحشائش المجففة بشفتين متوجعتين من القبلات ، وقد أيقظه السكون بعد العاصفة الليلية ، وسيطرت عليه الدهشة : فمن بين الغيوم الكثيفة برز ولمع في عينيه نجم وحيد صاف ، وبقي هذا النجم حتى الفجر فوق المنحدر الأسود للسطوح التي لا تزال تفوح برطوبة المطر وطراوته .

« البارحة رأيت أيضاً نجماً ، لكن كان هناك شيء آخر ، هو الشعور بالفقدان والحرمان ، أما تلك الليلة في شبابي ، فلا تزال حية في ذاكرتي . أجل ، أجل ، ظلال آذار الزرقاء على الثلج ، القمر في برلين ، فتاة في سارافان من قماش الزهور ، مخزن الحشائش المجففة الهواء العليل العبق للسطح الذي يجف من المطر — ماهذه ، أحلام صافية ، خالية من الغموم ، من شبابي ؟ أجل ، الحقيقي هو ذلك القديم . إنه بقي معي ، لم يغادرني ، وربما هو بالذات ، يمسك بي على الأرض » .

شعر بحماسة شديدة لتذكر طفولته الباكرة والاحساس بها : اللمعان الهادىء للندى على المروج ، صراخ الغربان في الصباح الشديد الريح ، سكون الغروب ، نفحة الحليب الصريف ، صوت المجاذيف على

النهر ، وفي الليل نباح الكلاب البعيد تحت العمق الواسع المكشوف للسماء الخريفية ، ثم رصيف المحطة الرطب ، المغرق حتى أطرافه بضباب شهر شباط ، المبشر بالربيع ، وبدخان القاطرات الحديدية الذي تفوح منه رائحة الفحم . كما يذكر نفسه ،وقد أمسك بيد أمه المذهولة ، التي تستقبل أباه القادم من مكان ما ، بلحيته الطويلة وشفتيه المرتجفتين ، وهما تهمسان : « أيها الأم ، لم يقدر لي الصفح والغفران على هذه الأرض ، كما لم تكتب لي السعادة . . . » .

لم يتمكن هو ، كريموف ، من تصوير شيء مماثل في أفلامه ، بمثل هذا الشمول المر ، كما أنه كان من المؤلم جداً تصوير قوة الأب اليائسة المكبوتة المقهورة .

« ــ لا أحد ، لا شيء ، لا لأحد . هكذا عشت ، يا أمي .

ــ ما هذا ؟

ــ هذا زمني .

ــ أنا أشفق عليك يا أندريه .

ــ أنت قديسة . . . هل من المعقول أنك قديسة ؟

ــ الق نظرة على ابنك سلافا ، ألم تنساه ؟

ــ وهل هذا ابني ؟ »

كانت يدا أبي القذرتان ، بصورة مزعجة ، والمتميزتان بالضخامة والجمال الرجولي ، قاسيتين عندما ربت على كتف أمي ، ومس بهما بوجل ، ابنه المنسي . أما الابن ، الخائف من مظهر أبيه الذليل المسحوق ،

فقد رأى كيف كانت عينا أمه تشتعلان دفئاً وخضوعاً بشوشاً ، و كيف كانت هي تصفح عن جميع اساءات زوجها الطائش واساءات هذا العالم الظالم — لقد كانت في ذلك اليوم سعيدة ، وهذا ما لم يستطع فهمه .

« السعادة هي ما لم نشعر به نحن أنفسنا . وهذا أيضاً كذلك . . . » .

« أين ، وفي أي بلد ، كنت أبحث عن الميدان الصغير السعيد الذي يجب أن يكون تجسيداً لجنة الأرض ، والسكون والشفافية الناعمة من شمس الغروب ؟ — أين — في كوستروما ، في باريس ؟ في فيينا ؟ ؟ »

آنذاك خـــرج كريموف من المعبد وأخـــذ ينزل إلى ميدان « ريزيدنتبلاس » ، مقرراً فجأة ، أنه أمام ذلك الميدان الموعود ، — كانت السماء التشرينية تبدو رمادية ، وكان الثلج يسقط فوق السطوح ، وفوق الكنيسة ، الثلج الأول الخفيف ، النظيف كالملائكة ، وابيضت أحجار الميدان بالثلج ، كالوبر ، كما ابيضت مقاعد حوذية العربات ، كما في القرن التاسع عشر الطيب الذكر ، وكان الثلج يسقط على الأجلال الخضراء والحمراء للجياد الواقفة ، على القبعات التقليدية التي ابيضت كلها ، وشعر الحوذية بالبرد الشديد وأخذوا يمشون جيئة وذهاباً بين العربات ، كما في ساحات روسيا القديمة القيصرية . وفي منتصف ميدان ريزيدنتبلاس تساقط الثلج على حشد المظلات المفتوحة للسياح ، الذين تجمعوا حول الكأس الضخمة للفسقية التي كانت تمتد منها متجهة نحو السماء ، في رعب مجنون ، الوجوه الأصيلة للجياد البرونزية ، التي تراكمت عليها قطع الثلج الكبيرة بكثافة ، كالقطن المندوف . وخلف القوس الحزين ، على مقربة من المعبد القوطي ( بقناطره العالية المرتفعة وضخامته المدوية الرنانة ، حيث كانت تتردد أصداء الخطوات على

البلاط الحجري ) كان تمثال حديدي أسود لأحد الكرادلة ، يقف جامداً ، وقد غطى الثلج نصفه . وكان كل شيء في الميدان ليس كما تصوره ولا كما كان يرغب .

كان هو طيلة النهار يبحث في المدينة ، ولم يعثر على الميدان المرح ، الطيب المبارك ، الذي رسخ في ذهنه بفرح في رحلته الأولى . آنذاك وقف كريموف على الرصيف أمام الدرابزين الحجري ، شاعراً ، من خلال سترته الرقيقة ببرد نيسان ودفئه ، وكانت الشمس في كل مكان تلون واجهات المحلات التجارية وزجاج الأكشاك ، وكان يتحرك أمامه حشد مبرقش منوع ، وقد ارتدى الثياب باهمال احتفالي ربيعي على أبواب الصيف . أما في الأسفل ، فقد كان الميدان الدائري الصغير يرقد مثل مسرح يوناني قديم ، غارقاً كله في سكون نيسان الدافىء من النهار المضيء والهواء الجبلي العليل ، وفي الظلال الليلكية لأشجار الدلب. كان الميدان هادئاً ، مشمساً ، مثل وعد الربيع الخالد في المدينة النمساوية العتيقة .

« اذن ، ربما حلمت بهذا الميدان ؟ في فيينا أم في زالسبورغ ؟ »

أثناء رحلته الأخيرة إلى فيينا ، هرب كريموف من قصر بالفي ، حيث كان يجري لقاء السينمائيين الموسكوفيين مع المثقفين النمساويين ، وأخذ يبحث من جديد ، بعناد عن هذا الميدان ، الذي لا اسم له ، وكان هو ، كما في السابق ، في مكان ما ، خلف الدرابزين الحجري ، دافئاً ، محاطاً بأشجار الدلب الخضراء ، وبالحشود الربيعية المزركشة . . .

ولم يتمكن من العثور عليه . كان نهاراً رطباً ، من شهر شباط ، غائماً ، شديد الريح . وقد ضل طريقه في نهاية الأمر ، وفي أثناء بحثه

عن فندقه ، صادف « سوق الخردوات والأشياء القديمة » ( كما عرف فيما بعد ) . كان يسير على أرض موحلة ، بنية مائعة ، وكان الثلج الرطب يتساقط . وكانت تظهر ، من اليمين ومن اليسار ، وجوه ازرقت من شدة البرد ، وسيارات ومنصات البيع ، وقد كدست عليها ، بصورة فوضوية ، أشياء لايمكن تصورها : ساعة حائط على شكل تابوت ، شمعدانات ضخمة تعود إلى عصر فرانس — جوزيف ، ثريات برونزية ، مصابيح كهربائية ، أقفال معلقة من عصور مختلفة ، كتب مجلدة تجليداً جلدياً مهترئاً ، معاطف من الفرو من التقاليعات القديمة الباطلة ، قبعات وطاقيات متنوعة ، صدرات الأجداد والأسلاف البالية ، أحذية أطفال مستعملة ، لوحات زيتية منسوخة من القرن السابق ، بطاقات ملونة زاهية صورت أشجار عيد الميلاد ، وسط المعلقات التزيينية الفاخرة ، محاطة بالشموع العائمة ، خوذات عسكرية قديمة ، آلهة هندية متعددة الأيدي ، محفورة على الخشب ، صحون سجاير على شكل تماثيل من العاج ، كانت توضع في العصور الغابرة في الصالونات الفخمة ، ثريات من الماضي الغابر للامبراطورية النمساوية — الهنغارية ، تنانير مستعملة ، سترات وسخة ، لفاعات نسائية معتونة من الفرو ، وكانت تنطلق من جميع هذه الأشياء المتنوعة والعقيمة على المناضد ، ومن الحشد الشديد الحماسة ، ومن الزحام الشديد رائحة صوفية لثياب رطبة ، وللثلج المتساقط الرطب . وكان شباب ملتحون ، غير مهندمين ، يتدافعون ، دون حياء ، في بنطلونات الجينز المهترئة ، وكانوا يضحكون بأصوات عالية معانقين فتيات طويلات الشعور ، يشرقن بأنوفهن البنفسجية ، وكانوا يشربون البيرة من الزجاجات ، ويلتهمون بضجيج المقانق من أكياس « السلوفان » .

استرعت انتباه كريموف امرأة شابة ، في معطف قصير من فرو الأرنب ، ذات وجه شاحب رفيع ، أبعدت نظرها عنه عندما توقف فجأة أمام بضاعتها الغريبة . كانت تضع على مفرش أمام قدميها ملعقتين خشبيتين منقوشتين ، ومجموعة من دمى « ماتريوشكا » الروسية ، وكُبَبَ ملونة من الصوف .نظر كريموف بفضول إلى دمى «ماتريوشكا» اللامعة من الثلج الأبيض المتساقط عليها ، الغريبة ، العارضة ، هنا في سوق فيينا المزدحم،وتبادر إلى ذهنه على الفور ، أن هذه المرأة من بنات وطنه . كانت قد رحلت ، كما يبدو ، بحثاً عن جنة الله على الأرض . . . .

لم ترفع المرأة أهدابها السوداء المدهشة على وجهها الناصع البياض ، رغم أنه قد وقف أكثر مما يجب ، من أجل استرعاء الاهتمام والفضول . لقد لمست ، على الأغلب ، أنه ليس مغفلاً سوقياً ، وأنه رجل قادم من منطقة بعيدة ، ولم يكن بودها أن تلقاه ، في مثل هذا اليوم السيء الطقس ، الشديد الريح ، وفي هذا المكان ، وبين هذا الحشد المهين .

— ألست من روسيا ؟ — تجرأ كريموف أخيراً على سؤالها ، وهو يرى ، عن قرب ، وجهها الجميل المتعب ، ومعطفها الجديد المصنوع من فرو الأرنب ، الذي كان السير فيه على الصقيع المتكسر يبعث الدفء والغنج والدلال ، أما الآن ، فقد كان الوقوف عند مهب الريح ، في الثلج الذائب الذي وطأه كثير من الناس ، يبعث الاحساس بالبرد . — عفواً ، — أضاف كريموف . — لقد لاحظت الملاعق الخشبية المنقوشة ، ودمى « ماتريوشكا » الروسية ، لهذا ظننت . . . .

تغير وجهها الهزيل المضني ، وأصبح زهري اللون ، وتحدب قوسا حاجبيها الأملسين ، فرفعت نحوه عينين كبيرتين ، مفتوحتين

بالألم ، وأزالت على النور أهدابها ، وبيدها الناعمة الرفيعة ، دون قفاز ، لفت قبة معطفها على حنجرتها ، ولم تنبس ببنت شفة .

ـ أنا أخطأت ـ قال كريموف معتذراً عن الموقف الحرج الذي خلقه ، ـ انتشول ديغين ، بيتي ، مادام * .

بعد أن قال كلمات الاعتذار بالألمانية ، رأى كيف التوى فمها من الألم ، وقالت بصوت مذبوح ، محبوس :

ـ مات زوجي بالسكتة القلبية قبل شهر . وأنا بدون أية أموال أو موارد .

دهش كريموف من صوتها الواضح ، المؤدب ، ومن لفظها الروسي المثقف ، الذي بدا له من المستحيل سماعه في هذه السوق ، في هذه الفوضى ، بين صراخ الشبان المتسكعين المنفعلين ، المارين بالبيرة والبيع والشراء ، وسألها :

ـ أين كنت تقيمين ـ في روسيا ، في أوكرايينا ؟

أخرجت بعجلة علبة السجاير من جيب معطفها ، وكانت السيجارة ترتجف بين أصابعها الرشيقة ذات المانيكور المنقش على أظافرها ، أدارت المرأة دولاب القداحة على عجل ، ولم تستطع إشعال النار ، بأي شكل من الأشكال ( لأن يديها قد تجمدتا من البرد ) ، فساعدها كريموف باشعال النار من ولاعته . استنشقت المرأة الدخان بصورة متقطعة ، وقالت وهي تلف قبة المعطف على رقبتها :

ـ كان بولفار تفيرسكي يُرى من نوافذنا .

---

* اعذريني من فضلك ، يا سيدتي ـ بالالمانية ـ المترجم

وتصور كريموف بولفار تفيرسكي ، خلف السور الحديدي ، مغطى كله بالركام الثلجي ، ورأى السطح المغطى بالثلج لمسرح موسكو الفني الأكاديمي بين الأشجار ، وأشجار الدلب المغطاة بالعواصف الثلجية تحت النوافذ ، وتصور شقة مسكونة مريحة ، وتصور هذه المرأة الفتية ، وهي تخرج من المدخل إلى مصابيح البولفار المسائية ، بل رآها ، وتصورها أيضاً ، واقفة على الموقف ، ثم تستقل « الترولي باص » بنوافذه الزجاجية المتجمدة ، فاتحة مفتاح حقيبتها المتجمد لاخراج تذكرة ركوب . وبعد أن تصور هذا كله ، توقفت نظراته على مكبات الصوف المبللة بالثلج الذائب ( كانت هذه المكبات تشير على نحو خاص إلى شقاء لا يمكن إصلاحه ولا تداركه ) ، وإدراكاً منه لانعدام أفق الشفقة والمشاركة في العناء ، قال بعدم اكتراث :

– أريد أن أشتري منك « ماتريوشكا » ، كم ثمنها ؟

– لن أبيعها ، – أجابت بصوت خافت ، وهي تنظر بعينيها إلى الأرض .

– لماذا ؟

– أنا أعرف ، أنه لا تتوفر لدى السياح السوفييت نقود فائضة ، – قالت المرأة ، وذكرته من جديد ، سرعتها في التدخين بموسكو ، بالأمسية الشتوية ، بالمؤتمر وازدحام السيارات أمام قصر السينما في شارع فاسيلييفسكايا ، بعرض دوري جديد – في الردهة الواسعة ، كانت النساء الأنيقات يدخن وهن جالسات على الأرائك ، ويضحكن ويتحدثن عن فيلم فيلليني الأخير ، عن قضية طلاق ايليزابيت تايلور ، عن فيلم أنطونيوني المطول إلى درجة لا تحتمل .

ـــ أنا سأطير إلى موسكو بعد ساعتين ، ـــ قال كريموف ، وأخرج بارتياح محفظة نقوده ، ـــ ولم أعد بحاجة للنقود ـــ ان هذه الـ «ماتريوشكا» رائعة . لدي مائة شلنغ ، هل تكفي ؟

أخذت المرأة النقود ، وأفلت من العمق الليلي لعينيها المتسعتين يأس شديد لا يقاوم ، مما أدى إلى انقباض قلبها .

في الفندق ، أثناء حزمه لحقائب السفر ، قلّب كثيراً بين يديه هذه «الماتريوشكا» التي اشتراها من سوق « البالة والخردوات » ، ولعزمه على عدم تبديله لوسواسه الثابت ـــ عادته القديمة التي سار عليها ، أثناء الحرب وبعدها بعدم أخذ أشياء ترمز للتعاسة والشقاء ، ترك كريموف «الماتريوشكا» في غرفة الفندق ، ( كذكرى ) على منضدة السرير الصغيرة ، مع الثلاثين شلنغ الأخيرة للخادمة . . .

« لكن ، كيف ، وبأي شيء ، كانت استقصاءاتي الفاشلة وبحثي بلا جدوى عن الميدان السعيد وتلك المرأة الشابة ، تمسني وتمس أولغا ؟ هل بتوقع الفرحة وتوقع الشقاء ؟ وجون غريتشمار ؟ ومولوتشكوف ؟ ووالد إيرينا ؟ لا ، لا أريد التفكير بهم ، انني متعب ، متعب إلى حد الارهاق » .

* * *

مسح كريموف جبينه ، محاولاً تهدئة وجع رأسه الذي لا يتوقف ، بالمساج ، وكان عليه الآن ، بشكل من الأشكال ، أن يرتخي ، ويخفف من توتره ، كما كان يفعل أحياناً ، بعد التدريبات القاسية والبروفات : كان يقود السيارة إلى المحلق الدائري ، ماراً على البلدات والقرى غير

المعروفة ، ويتوقف ، ثم يخرج لاستنشاق هواء الغابات والحقول ، والريح الدافىء الذي يبعد التعب والارهاق .

* * *

أجل ، أجل ، غريتشمار . . .

« عندما أفقت من النوم ، وأنا في الصف الثالث من الصالة ، أدركت أن فيلمك عظيم » . « عندما أفقت من النوم ، أدركت . . . » لمن قلت هذه العبارة ؟ لجون غريتشمار بالذات ، بخصوص فيلمه . وماذا حصل ؟ إنه لم يمتعض ، بل ضحك . إنه سأم شكلاني ، مفعم بالفرويدية . بيد أن الفيلم ضم مشهداً مذهلاً — أب وابنته يلتقيان في ناد ليلي سري ، وهما ضمن جماعتين مختلفتين . الابنة لا ترى أباها . والأب يراقب ابنته ، من خلال الضوء الخافت ، وهي تتعرى طواعية من ثيابها ، فيتعرفها ويُصاب بصدمة عصبية ، ويخجل ويعاني ويتألم ، حتى كاد أن يفقد عقله . . . ماالذي يخطر في رأسي ؟ مولوتشكوف من جديد ؟ كان يجلس دائماً ، كجندب متجمد ، على الديوان ، ينتظر ، وكأنه مثال الاخلاص ومثال المحبة — لماذا ، لماذا احتاج إلى الأربعة آلاف؟من أجل شراء البيت الريفي ،من أجل الهواء النقي لسونيا ؟وأي فرق— سواء من أجل البيت الريفي أم للتكديس في صندوقه. كان الجو خانقاً على طريق السيارات ، لا يستطيع المرء أن يستنشق الهواء . الآن منعطف نحو اليمين ، نحو الغابة . كل شيء سينتهي ، كل شيء سينسى في الغابة ، في الطريق إلى البيت الريفي . لا غريتشمار ، ولا مولوتشكوف ، ولا تلك المرأة في « سوق البالة » ، ولا ذلك الميدان السعيد في فيينا . . . على أي نحو تتعلق هذه الأمور بي وبأولغا ؟ عدت من خارج البلاد ،

هل كنت في صحة جيدة ، هل كنت راضياً ، ألم يجاملك الغرب .
هكذا أم لا ؟ أريد أن أنسى ، لا أريد أن أذكر كثيراً من الأشياء
« عندما أفقت من النوم ، أدركت . . . » — لقد أنهكتني هذه العبارة ،
علي أن أنساها . وعلي أن أنسى جون غريتشمار بمشهده المريع المذهل
في فيلمه ، وأن أنسى باريس وميدان بيغال ، وكذلك الفندق وأقداح
الكوكتيل في البار ، وبالابانوف بوجهه القرمزي ، وبيسكاريف النزيه
بعكازيه ، والعاملون في الاستوديو ، الذين كانوا في الردهات ، في
الدهاليز ، بشماتتهم الحقيرة . ليسوا هم الحقراء ، بل أنا نفسي وماحدث
في الليلة الفائتة . . . شيء واحد فقط كان رهيباً آنذاك ، هو فتور
أولغا ووحدتي . ولكن ، إلى أين أنطلق ومن أجل أي هدف ؟ إلى أين
أنعطف ؟ إلى حيث الغابة ؟ » .

قيظ حارق على طريق السيارات ، لمعان منزلق ، ضربات الذباب
على زجاج السيارة ، الريح الساخن ، نتن الاسفلت الذائب ، الغازات
المقذوفة — المحلق الدائري الذي لا نهاية له ، بدا وكأنه انتهى إلى الأبد
فجأة . وماكادت السيارة تنعطف نحو الغابة ، إلى الطريق الضيق المبرقش
ببقع الأشعة الشمسية ، حتى أخذ يهب الهواء البارد بلطف على نوافذ
السيارة ، واهتزت أغصان أشجار الشوح المنخفضة كالمراوح المنشطة
على الزجاج الذي يهب عليه الهواء ، فكانت تنضح بالضوء تارة ،
وبالظل تارة أخرى .

« كل شيء انتهى ، كل شيء انقضى وانتهى . سيارتي — قلعتي ،
ملجأي وملاذي ، ملاذي في جميع المصائب ، — فكر كريموف في
نفسه بسخرية ، محاولاً التمتع بالرطوبة وبهواء الغابة ، وهنا تذكر

عبارة تولستوي المحبوب إلى قلبه من يومياته للعام التسعين — انها عبارة الأمل الرائعة : « إذا ما بقيت حياً . سأحيا وأكتب . وكأنني أشعر بنفسي أكثر نشاطاً » . — أجل ، أكثر نشاطاً وحيوية . كل شيء رائع . كل شيء جميل . كل شيء ممتاز إذا ما بقيت حياً . . . » .

ودون أن يدرك ما يجري له ، أحس كريموف بدموعه التي تذرف وتخنقه بحرارة ، وشعر بغشاوة ساخنة تغطي عينيه ، فضغط بشدة على أسنانه ، وبكى بارتباك من التعب المميت ، من الكآبة ، مبتلعاً نحيبه ودموعه ، خافضاً رأسه ، وكأن هناك من يسمعه ويراه في السيارة ، يرى ضعفه ، الذي كان يكرهه عند الآخرين ، والذي عرفه الآن بمتعة ويأس ومرارة .

* * *

# الفصل العشرون

كانت هذه قاعة ضخمة كبيرة ، تشبه الصالة الرياضية ، ذات جدران زجاجية عازلة للصوت – وفي منتصفها كانت تتراءى مقصلة معدنية بلونها الأسود ، وكأنها منشأة أسطورية ، يلمع فيها الفأس المرفوع بحده المرهف المائل ، ويظهر في المقصلة تجويف المقصورة ، حيث على المحكوم أن يضع رأسه ، قبل أن تسقط الفأس المتحررة على الرقبة الموضوعة ، شارمة العمود الفقري . . .

كان قد أحس مسبقاً بالألم الناري المحرق ، أحس مسبقاً بصرخته الواهنة الخرساء الأخيرة من فمه المغلق ورأى جسده بلا رأس ، ودمه ، ورأسه الميت المقطوع ، المتدحرج الدائر في السلة . ومن هذا المصير الأخير الذي لا يرحم ، انتابه الرعب وتجمد شعره على نقرته ، وكاد أن يسيطر عليه الغثيان .

كانت تظهر ظلال مجهولة في الزنزانة ، وكان أحد جدرانها ، مثل باب واسع باتجاه القاعة الزجاجية ، وكانت سيور صلبة تصرصر على هذه الظلال ، أما الوجوه العامة المجهولة فكانت لبقة ، طيبة ، كانت تبدي نحوه عطفاً مشروعاً في الدقائق الأخيرة من حياته . كانت هذه الظلال تفعل شيئاً ما في الزوايا ، دون كلل ، وتنتظر دون ملل . سأل أحدهم بصوت هادىء أبيض ، ما إذا كان يرغب بتدخين سيجارة ،

فارتعش ببدنه كله ، مدركاً بصورة نهائية ، بأنها هاهي قد اقتربت متعة الوداع الأخيرة على الأرض ، وأنه يسمح له بتلبية رغبته ، كمحكوم عليه بالاعدام ( وكان قد قرأ ذلك وعرفه منذ طفولته ! ) . كان يدرك العبث الكامل لكل ما يعرض عليه ، كان يدرك أن كل ما عليه أن يفعله ، أو لا يفعله هو لاشيء ، وليس له أي قيمة — وقال ببلاهة ، وهو بالكاد يحرك لسانه المنعقد : « أجل » . قُدمت له سيجارة مشتعلة ، فخدره الدخان الحلو — القابض ، وشعر بدوخة في رأسه على الفور . أخذت تسبح القاعة ذات الجدران الزجاجية والمنشأة المظلمة ذات الفأس المائل إلى الأعلى ، المجهز له أداة للموت ، في ضباب مائل إلى البياض ونضح الضعف زيزفوناً متبخراً . تبلّد كريموف بصورة قاسية ، وكاد أن يفقد وعيه ، فأسند صدره ويديه على طاولة ، كان يدور حولها ويتحرك شيء ما ضبابي أبيض . وفي هذا الشيء الأبيض لم تكن تختفي ، بل كانت تبرز وتحضر ظلال جامدة ، أخذ يسحب أحدها ، دون أن يشعر ، السيجارة من فمه ، واختفى طعم التبغ ورائحته ، وشعر بشيء من الارتياح ، وتبدد الشيء الأبيض في الزنزانة ، ومن جديد سأله ظل لطيف ، فيما إذا كان يرغب في شرب كأس من النبيذ الأحمر ، وإذا ما رغب بذلك ، فعليه أن يشرب ببطء ، وإلا فلن يشعر بأي متعة . . . غير أنه بعد أن شعر بالتخدير القاسي للسيجارة ، أراد أن يتخلى عن كأس النبيذ ( « ولماذا كأس وليس قدح ؟ » ) ، بيد أنه كان ثمة طعم المخدر الحلو السام الفاسد في خدار السيجارة ، ومن يدري فقد يكون هذا الطعم التخديري في النبيذ الأحمر ، الذي لم يكن يحبه في الحياة الحرة الأخرى . انسكبت في حنجرته قطرة من السائل الأحمر الدافىء ، الذي قدمه له ووضعه في يده ظل لا يتراجع ، وكانت هذه

القطرة ذات كثافة قابضة ، وكان لونها لون الدم البشري ، فصعر خده ، شاعراً بمذاقه الضارب إلى الملوحة ، بدلاً من الحلاوة والعذوبة الثملة للنبيذ الأحمر الذي كان قد جربه ذات يوم فرنسا .

« لأية قوة أخضع أنا ، بأية قوة أوافق هذه الظلال ؟ ولماذا تحمل الظلال سيوراً ؟ . . . من الذي يرغمني ؟ لا أحد يقمعني ، ولا أحد يتوسل إلي . ذلك لأن لا معنى لأي شيء ، فبعد بضعة دقائق لن أبقى على قيد الحياة » .

والغريب أنه لم يرد بالرفض ، ولا بالامتعاض والصراخ ، عندما سأله صوت بلا جسد ، فيما إذا كان يرغب برؤية امراة . وظهرت في الحال في الزنزانة صورة امرأة هيفاء قوية ، دخلت بجسمها كله إلى الزنزانة ، في ثياب شفافة ، تهز ردفيها بصورة متموجة ، وعندما اقتربت بخطواتها الهزازة المشوشة ، ومن خلال ثوبها الرقيق الفاضح ارتسم ثدياها المصقولان الكبيران بحلمتيهما البنيتين ، بشباب وبروز وإثم ، كما برز انعطاف خصرها ، وبطنها ، وقدماها الرشيقتان الممشوقتان .

« بلا معنى » ، — اندفعت إلى وعيه ، وأراد لو يتسمر في الزاوية ، لو ينسحق في الجدار ، رافضاً ولاعناً عمل الوعي ، الذي مهما كان يتصور بوضوح ما يجري في الزنزانة ، فانه كان يكرر في الوقت نفسه ، بصورة مسموعة ، وبلا رادع : « عبثا كل ما لن يتكرر غداً . عبثاً كل ما لن تشعر به غداً . الأمل — في الابداع والخلق . واليأس يعني الموت . ان الموت يجعل من كل حي تقريباً لا معنى له . وبقي المعنى واحداً . القفز إليه ، إلى الموت ، عبر الألم واليأس . . . » . « وهناك ،

هل سيكون هناك معنى أم لا ؟ آه ، لو كان هناك معنى ! المعنى هو الحياة ، بل الأصح ، هو عدم الاختفاء إلى الأبد. الوجود في شكل آخر ، جسدي أم غير جسدي ، وجود الروح ، المهم ألا نهلك ، ألا نختفي دون أثر ، ألا نتحول إلى عدم . ولماذا ، يا إلهي ؟ لماذا أخاف الاختفاء إلى الأبد ؟ قد تكون في هذا حكمة عظيمة ، قانون عظيم — الاختفاء والانحلال والذوبان ، أي عدم الشعور بما هو بعد الاختفاء ؟ الحياة هي الاحساس بالحياة ، وبالتالي الرغبة . أما الفراغ ، فحيث لا وجود لها . الموت هو الظلمة ، الانهيار ، التحليق اللانهائي إلى مكان ما . لو كان الأمر إحساساً بالتحليق المنسجم اللانهائي في الظلمة . لكنها هي الحياة ، الحياة . أن يكون المرء ذرة غبار في الكون ، أن يصبح ذرة غبار . . . انني أؤمن بهذا ولا أؤمن . والأكثر أني لا أؤمن . بماذا شعرت هي في الدقائق الأخيرة ؟ هل فكرت بي ، كما فكرت بها الآن ؟ كلا ، لم يكن هذا حباً ، لقد كان شيئاً آخر . اذن ، لازلت أشفق عليها ، وأذكرها حتى الآن . وهل حدث لي كل هذا بسببها ؟ و . . . المقصلة ؟ ومن حكم علي بالاعدام ؟ وهل ارتكبت جريمة ؟ لقد أخطأت في شيء واحد ، كما أذكر : كان علي أن أدير المقود إلى اليمين ، إلى اليمين قليلا ، نحو حافة الطريق ، أما أنا فقد أدرته نحو اليسار . . . لماذا لم يكن المقود طيّعاً لي ؟ ولماذا خطرت في ذهني العبارات التي قالها أحدهم في الحلم : « ولاشيء ، ولا خطوة واحدة . ولاشيء ولا معنى واحداً » ؟ هل أردت اللعب بالقدر ، بالمصير ؟ . . . وكم بدت رائعة هذه العبارات ، الواعدة بالراحة ، والهدوء والطمأنينة ، ومتعة سكينة المساء . انها عبارات قالها أحدهم في اللحظة ذاتها ، عندما واجهه شيء ملعلع ، ينبعث منه الدخان . . . » .

« وهل حدث لي هذا ؟ » .

في الليلة الفائتة ، أفاق كريموف خائفاً بلا سبب ، كان يستلقي والعرق يغمره ، مختنقاً ، لاهثاً ، في ذهول . أما الخوف فقد غمر جسمه كله بالبرد ، لقد توقف تنفسه بضربات قلبه السريعة ، واعتصره الأسى ، وتركه لحظة ثم تزايد وأمسك به من جديد رعب مجهول بلا سبب من شيء آخر ، قدري . . . وكان هو لافاً رأسه بالمخدة ، ينتظر ، بل ويستعجل الثانية الأخيرة ، عندما يتمزق قلبه ويتوقف كل شيء ، لكن قلبه لم يتمزق ، ولم يتوقف ، وكان الألم ينغرس فيه بأسنان معذبة ، بأشواك . « فلتنتهي هذه الليلة بسرعة . انني لن أستطيع احتمال هذا » ، — قال كريموف مخاطباً نفسه ، متأملاً ظلمة الغرفة ، في تلك الجهة ، حيث يجب أن تكون النوافذ ، وفجأة ، أحس بوضوح ، أن المنزل يبتعد ، يهبط ، ينزلق إلى تحت الأرض ، إلى قاع منفتح ، وينطبق فوقه سواد مع قرقعة بسمك أمتار عديدة ، ويتكثف ، وينضغط ، ويضغط على السطح ، على الجدران ، على الأبواب ( « هكذا ، هكذا اختفى بالأمس فندقان في كاليفورنيا ! » ) ، — وفي هذا السقوط الممتص في الظلمة الخانقة تحت الأرض ، كان من المستحيل طلب العون والمساعدة بالهاتف ذي الأسلاك المقطوعة ، وفي الوقت الذي كان يعرف فيه أن المصير المحتوم قد حل ، وحان الوقت ، وأنه سينتهي الآن كل شيء في الظلمة المسدودة للمنزل المنهار ، ولن يتمكن من العثور عليهما ، من انقاذ زوجته وابنته اللتين كانتا في مكان ما من الغرف المجاورة . واستجمع قواه ، وبذل كل جهده ، وصرخ ، وناداهما ، بيد أنه لم يخرج من صدره سوى حشرجة ضعيفة خافتة : « أولا . . . تانيا . . . » .

« هذه هي النهاية ، النهاية ، — فكر كريموف وهو يكاد أن يخرج من الكابوس . — انني أدرك هلاكي ، وأودع نفسي بنفسي ، وأودع زوجتي وابنتي ، وأتصور أية آلام عاناها المدفونون وهم أحياء ، عندما يعودون إلى وعيهم وسط الظلمة القاتمة مع رائحة ألواح التوابيت ورطوبة القبور . . . بماذا شعر غوغول ، بخياله ، هناك تحت الأرض ، الذي كانت جثته مقلوبة ، كما يقال ، عند الكشف عن قبره ؟ هل فقد عقله ؟ وأنا أيضا أفقد عقلي ، لأنني الآن لا أشك ، بأن كل ما فعلته ، وما أحببته سيختفي معي ، باختفائي . اذن ، ربما يكون الكذب خلاصاً ؟ أجل ، ان الحقيقة الأكثر يقيناً وصدقاً تغدو بلا معنى ، إذا ما اختفى الكذب الذي أوحى به أحدهم للانسان حول استمرارية حياته . ونحن جميعاً خاضعون للكذب الدفاعي المنقذ . انه الخداع العظيم ، خداع له مفعول المعجزة ، حول لا نهائية الأيام على الأرض ولا نهائية متعة الحياة ، وانه أعظم من جميع الحقائق ، لأنه يبقي فينا الأمل بعمل شيء ما . . . وربما ، أن الحقيقة تعيش تحت سقف الكذب الدفاعي ؟ وهل من الممكن أن الحقيقة مجرد ساكن ، مقيم ، مستأجر غرفة في بيت الكذب العظيم الذي يوحي لنا جميعاً منذ الولادة : ربما أنت لن تموت . . . على الأقل سيحدث هذا لك بصورة متأخرة كثيراً عن الآخرين ، وربما لن يحدث لك ؟ . . . — تابع كريموف ، فرحاً وهو شبه نائم ، بهذا التبرير للأفعال والآلام الإنسانية . — ان الحقيقة الأكثر نقاء وطهارة ليس لها أي قيمة أمام الخداع العظيم ، الذي يريده الناس أنفسهم . ولو لم يكن هناك ذلك الكذب — لما رأيت ذرى أشجار البتولا الجامدة في السماء ، ولا ذلك النجم الجليل ، كما حدث بالأمس . اذن ، فالحياة هي مسرحية ، سيناريو ، ينشط فيه شخوص ، أبطال مسرحيون ،

ويتحركون ، ويبدون رغباتهم ، دون أن يفكروا ، دون أن يرغبوا بالتفكير بأنه سوف تغلق الستارة حتماً . وعلي أنا أن أرى هؤلاء الأبطال كي أفهم مسرحيتي في نفسي . لعبة ؟ عم أتحدث ؟ وهل يحق لي أن أفكر على هذا النحو ؟ أجل ، فهل يعني هذا أن كذباً لايقهر ، حول لا نهائية حياتي يجعلني سعيداً إلى حد ما أحياناً ، راضياً إلى حد ما أحياناً ؟ انني أخالف شيئاً ما ، انني أتجاوز حداً محرماً ، يكمن خلفه سر أسرار الخلود وسر الوجود الإنساني الذي لا يدرك . . . ان الخوف من الموت سيختفي عندما يتم العثور على معنى الحياة وإدراك هذا المعنى . ولكن هل يفكر الناس بذلك تفكيراً جاداً ؟ وهل أعرف أنا هذا المعنى ؟ . . . ولكن إلى أين نسقط وننهار ؟ إلى أية هاوية يسقط بيتنا ؟ » .

استيقظ كريموف من ضباب الحلم ، ونهض قليلاً من الفراش ، سامعاً بارتياح سريع التكتكة الصاحية الصرارة للساعة — المنبه ، — وراق الهواء في المكتب ، وبدا وكأن سكون الليل الصيفي قد سيطر على العالم كله ، وتدفقت البرودة من النافذة المفتوحة ، غاسلة له صدره المتعرق . وأشعل متلمساً بيده المصباح الموجود في طرف الديوان ، غير أن ضوءه بهر له عينيه بسطوعه الشديد ، فأطفأه على الفور .

كان لايزال تحت سيطرة النوم ، عندما تذكر حديثه بالأمس مع أولغا في غرفتها ، حتى الكلمة الأخيرة ، واللوحة المسندة إلى الجدار ، وآثار النجم المنهمر في الماء المسائي ، الذي رآه من على الجسر وعلى لوحتها . « أي تطابق غريب ! لقد رأينا معاً النجم نفسه في وقت واحد . وأية علاقة بين هذا النجم والحلم الكابوس ؟ بين النجم والكذب . . . ومافائدة البحث والتنقيب عن علاقة غامضة مبهمة ! لقد خدعت أولغا

وتأنيا في شيء ما ، يحبي لهما حباً يفوق الوصف . ولكن ، أليس الأمر كذلك ؟ وهل كان من الممكن ألا يكون كذلك ؟ انني مذنب ، تافه ، حقير في كل شيء ! » .

كان كريموف يشعل الضوء تارة ، عازماً ، عبثاً ، على القراءة ، ويطفئه تارة أخرى ، ويمسح صدره ، واضعاً وجهه قبالة الريح الذي كان يهب من النافذة ، حيث كان الجو في الحديقة قبيل الفجر صامتاً ، لا مبالياً ، موحشاً . كان البرد القارس يصيبه بالقشعريرة ، ويضغطه بالأسى ، وتوقفت ضربات قلبه من حدسه بأن شيئاً ما عالمياً ، شاملاً ، رهيباً ، سيحدث الآن في العالم — ستصطدم الأرض بكوكب جبار ، وتتوقف في قتامة الكون ، وخيل له أنه في هذه الدقيقة قد مات أحد من أقاربه ، ووقعت كارثة لأبنائه ، — وعندها جلس في فراشه ، جلس متأملاً الستائر المفتوحة ، التي كان يسود خلفها ليل لامبال ، بطيء ، لا يساعده في أي شيء ، وتضرع إلى الليل بأن ينتهي بسرعة ، والا فسوف يجن من الوحدة والخوف المبهم ، ومن إحساسه المسبق بالكارثة .

في الغرفة المجاورة كانت أولا نائمة ، وكان عليه أن يبذل قصارى جهده ، ويتوقف عن التفكير بما كان يعذبه ، ولم يكن يجيبه عن أسئلته ، وإرغام نفسه على تهدئة نفسه ، والدخول إلى غرفتها ، والاستلقاء بجانبها ، وتقبيلها وهي نائمة ، بالكاد تتجاوب معه بنعومتها الرتيبة الخفرة .

« أنت تعرفين ، أنه من السخافة بمكان ، في مثل سني التحدث عن ذلك ، لكنني أحبك ، كما كنت قبل عشرين عاماً » — بدأ كريموف

يكرر الجملة التي خطرت في ذهنه ، والتي كان عليه أن يقولها لها . لكن هذه الجملة التي لم يلفظها بعد ، تلبدت بالابتذال واحتجبت مسبقاً ، فطرحها جانباً ، مدركاً أنه حل زمن غريب ، لا يخصه ، وأنه بعد تلك الكلمات ، لن يستطيع النظر إلى عينيها المخمليتين المعاتبتين بهدوء .

وتذكر كريموف : بالأمس ظهر في عينيها ذلك التعبير ، وكأنها كانت تنتظر كلمة ما ، كانت تنتظر مصالحة ما ، رغم أنه لم يحدث بينهما خلاف ، بحاجة إلى المصالحة . ان أولغا لم تخلق للخصومات العائلية . ولم تكن تبدي رغبة أنانية ذاتية بالتغلب عليه . وهي بالأمس لم تؤنبه بالكلمات ، بل بابتسامة لم تكتمل ، بسبب هذه الابتسامة أصبح أشد قسوة عليه أن يفكر ببراءتها وطهارتها ، وبإثمه الذي ارتكبه في حقها .

« أولا ، مهما حدث ، عليك أن تصدقيني » ، — أخيراً ،وجد الكلمات ، ومن جديد ، رمى جانباً هذه العبارة التبريرية ، غير عارف ماعليه أن يفعل في وحدته القلقة هذه ، ودخل إلى غرفتها متردداً ، ووقف في الظلمة الرمادية خلف فراش أولا ، واستلقى بحذر على طرفه ، ومس بشفتيه الجافتين كتفها العاري ، الذي بدا له دافئاً ، طفولياً ، ضعيفاً .

— أولا ، — قال كريموف بهمس ، — سامحيني . . .

— أنا لا أفهم ، لماذا أيقظتني ، — قالت فجأة ، دون أن تلتفت ، بصوت جلي واضح ، أذهله بتأففه وبرودته . — انني لم أنم طيلة الليل . لقد غفوت لتوي.ياإلهي ،—همست أولا بتوسل،—لماذا تزوجت منك ؟ كان علي الزواج من رجل عادي...ماذا سنفعل الآن يافياتشيسلاف؟الطلاق؟

ـ كان باستطاعتي أن أخلصك مني ، يا أولا ، لو لم أحبك ، ـ قال كريموف بصوت أجش . ـ تصرفي كما ترين أفضل .

ـ أرجوك ، أخرج ، من فضلك ، لن أحتمل . . .

في مكتبه سقط بجسمه على الديوان ، ومن أجل أن يهدأ قليلاً ، أخرج من الطاولة الصغيرة يوميات تولستوي ، لكنه لم يستوعب النص ، فقد كان أسوداً ، حجرياً في الضوء الجامد للمصباح الليلي الخافت . ولم يستطع قراءة سطر واحد ، كان ينظر إلى الصفحة المتوهجة ، وينتظر ، لسبب مجهول ، اتصالاً هاتفياً ، ينبئه بالمصيبة ، بالكارثة ، ـ الإشارة الأخيرة المفاجئة . بيد أن البيت كله كان صامتاً ، خارج الزمن ، في الوقت نفسه ، كانت الساعة تدق بيقظة ، ولم يصل إلى مسامعه أي صوت من غرفة أولغا . كان النوم المميت ، الخالي من القمر ، يحلق فوق العالم ، وأوحت له فكرة بعيدة غامضة ، بهدوء ، بأن عليه أن يغفو حتماً ـ ففي النوم الخلاص . وخلال تفكيره بأن النهاية والخلاص من قيود الليل الذي لا ينتهي ، قاب قوسين أو أدنى ، بدأ ، وهو مستلق على ظهره ، بتدليك صدره ، والتنفس بعمق ، وهو يعد إلى المائة ، ثم أطفأ النور ، وأغلق عينيه ـ وهنا اقترب خوف مجهول ، بلا سبب ، على قوائم كثيفة الشعر ، من سريره . وتوتر جسده بكامله ، وأخذت كآبة مسيطرة تدفعه إلى النهوض وارتداء ثيابه ، والهرب على عجل والسير في شوارع البلدة ، إلى مرأى عينيه ، والهرب إلى أقصى الأرض . . . غير أن هذا يمكن أن يكون جنوناً . . .

في تلك الليلة ، أدرك كريموف أنه وحيد حتى نهاية أيامه ، ولن يستطيع أحد مساعدته .

« من أين هذه الأصوات ؟ ولماذا أسمعها بهذا الوضوح ، وبهذا القرب ، لدرجة أنني أميز لكنة غير روسية . من كان يتكلم بمثل هذه اللكنة الحادة المألوفة ؟ إنه صديقي . . . ان اسمه يدور في ذهني ، لكنني لا أستطيع تذكره . . . » .

– عليك الآن أن تفكر بالأرض ، أن تفكر ، وتفكر كالمسعور . . .

« بالأرض ؟ ألا يجب أن أفكر بالإنسان ؟ وماهي الأرض بدون الإنسان ؟ من أجل أي شيء هذه الأرض ؟ لمن هذه الأرض ؟ ؟ »

– إن النظر إلى النار ، إلى الماء ، إلى الأرض أكثر متعة بمليار المرات من النظر إلى شاشة السينما وشاشة التلفزيون . وكيف أعبر عن هذا ؟ يستبدلون الحياة بلعبة ، لا . . . يقلبون الحياة إلى لعبة بالحياة . العالم كله يلعب بالجمال الرخيص . انهم أغبياء،انهم يقتلون أنفسهم . هناك ، عندي في الورشة . . . أقصد في المكتب ، عصافير فقط ، أما جميع الطيور الجميلة فهي تزقزق في النافذة . صيفاً ، لا يصح النوم في الساعة الثالثة – هناك حفلة موسيقية . وسيقتلون الطيور . سوف ننظر إلى العصفور في المتحف . كما ننظر إلى الحراذين الطيارة المنقرضة .

« أي مرارة ، أي كآبة ، أي سخط في كلماته هذه ! »

– الآن سيلد إنسان بتركيب غير إنساني . بدون عقل . إنه الإنسان – الآلة من الصنف الثاني . إنه يلعب بالأموال والأشياء ، أما قلبه فيطير بعيداً هـ . . . كذا . . .

« ماذا يعني » بعيداً هـ . . . كذا » ؟ أغلب الظن ، هنا كان المعنى التالي – لم يكن القلب على وفاق مع هذا التركيب . والناس خضعوا للاغراء الشامل ولم يعودوا يعيشون في وفاق مع أنفسهم » .

— والأطفال ، الأطفال . . . ربما يسيرون على ظهور آبائهم ، ربما يدوسون آباءهم .

« من ؟ لا ، ليس مجرد الأطفال ببساطة . أطفال البشرية ؟ أطفال العالم كله ؟ وماذا في الأمر ، ففي هذا ثمة حقيقة خالدة ورهيبة . . . »

— الإنسان ليس مسؤولاً عن مكان ولادته ، وكيف ولد . . . طالما أنه يتمتع بوجه ولغة ويَديْن . . . فهو سيمفونية . سيمفونية سيئة ، لكنها موسيقا على أية حال . الأمريكيون يودون رؤية البشرية في غرفة العمليات . إنهم يصرخون وينادون بالتفوق الأخلاقي على الآخرين ، والجراحون أفظعهم . . . فهم يحلمون بتحويل العالم كله إلى أغبياء . الأمريكيون هم لعنة أوروبا ، وعندما يخرجون منها فسيتفق الأوروبيون ويتفاهمون . الآن ، هناك أناس كثيرون بأعين دولية . ( « بأعين دولية . . . ماذا يعني هذا القول ؟ » ) .

— نحن نتعلم منكم الأشياء السيئة ، وأنتم تتعلمون منا الأشياء السيئة . وهذا لن يمر مرور الكرام . في البداية ، سوف نشكو وتشكون من وجع الأسنان . سوف نصرخ من الألم . يجب ألا تدور رؤوسنا ، من الوجع ، ثم تعود إلى ماكانت عليه . لا وقت للتفكير . نحن جميعاً قتلة ومنتحرون . يقتل أحدنا الآخر ، ونحن معصوبو الأعين . ونقتل أنفسنا أيضاً . نقطع أوردتنا ، ونظن أننا نقتل جارنا . اننا أغبياء بأوداج منتفخة . قال دوستويفسكي : الجميل ، ماذا قال . . . إن الجمال سوف ينقذ العالم . لا ، ليس هكذا . النساء سينقذن العالم ، إذا لم ينفجر في عام ثمان وثمانين . ان النساء مخلصات للأرض كالكلاب . أما الرجال فقد خانوا الأرض ، واغتصبوا مدنيتها . وسيفعل النساء ما لم يتوقعنه

هن . فقد سئمن من الرجال — السياسيين الحمقى ، الذين اخترعوا الحرب والتحرير . إن النساء لسن ملائكة . ولو كن ملائكة ، لما رغبنا بهن . النساء مجرد نساء لا أكثر . انهن يعملن على استمرار الجنس البشري . . .

أين يدور هذا الحديث ؟ أجل ، أجل ، كانا جالسين ، قبيل العرض الدوري في بهو صالة سينمائية ، ثملين قليلاً من الويسكي ، وكانت عينا غريتشمار الذكيتان ، كعيني خنزير ، تلمعان بارهاق وحزن .

* * *

« إن أولا لم تنقذني ، رغم أنني لست سياسياً ، وهي ليست مجرد امرأة . . . ولكن ، متى وأين جرى كل هذا — في أي قرن ، في أي عالم ؟ لقد بدأت أنسى . . . أظن ، في عام سبع وخمسين ، في ضاحية موسكو ؟ كانت تقطع عناقيد الأزهار من غصن شجرة أكاسيا ، وارتفعت تنورتها الخفيفة ، كاشفة عن ركبتيها الممتلئتين ، وعن فخذيها السمينين البريئين ، وهذا ما أفقدني عقلي . . . أنها كانت المرأة الوحيدة التي جذبتني إلى نفسها جذباً شديداً بنعومتها الفاترة ، التي تشبه أمسيات نيسان العليلة بروعة هوائها البنفسجي الهادئ . . . » .

« ربما يكون ، هذا الألم — عودة إلى الذات ؟ ربما الخلاص في العودة إلى الوراء ، إلى تطهير الذات ؟ لكن الوراء لا يضم سوى الفراغ ، لم يكن هناك شيء — لا حرب ولا حب ، ولا أفلام . وهل يعقل أنني عدت إلى تلك الدقائق الطاهرة البريئة من ولادتي وظهوري إلى الدنيا ، حيث لم يكن هناك أي شيء معيب ومخجل ؟ . . . غير صحيح ، الشيء

المهم كان قد حدث.فقد سبق ولادتي حب أبي وأمي . وهل يعقل أنني عدت إلى تلك البداية ، إلى ذلك الحب ، الذي أدين له بكل شيء ، إلى طفولتي المباركة السعيدة ؟ وماذا حدث بعد ذلك في فتوتي وشبابي ؟

الحرب ، الخطر ، المكافآت ، ومعها الفكرة الدائمة من أجل البقاء حياً ، وأحياناً ، في الدقائق المميتة ، تراودني فكرة مقرفة ، شنيعة بأن أصاب بجرح في يدي أو قدمي ، والحلم بأن أنزل في المستشفى ، وأستريح ، وأسترد أنفاسي في المؤخرة ، ولو لنصف شهر . . . في حين أنني كنت أعد الملازم الأكثر شجاعة تقريباً في استطلاع الفوج . كنت في العشرين من عمري . لماذا أطلقت النار على يده ؟ هل هي الشفقة ؟ أم أردت التخلص منه ؟ من خوفه ؟ مااللذي كنت أريده طيلة حياتي ؟ ارضاء طموحي ، أم أردت الحب ، أم أردت الحصول على مديح الناس ، واعجابهم ، دموعهم ؟ كم هذا مقرف ، تافه ، خطأ لا يغتفر . . . ان من المستحيل تذكر الكثير دون خجل ، دون تقزز واشمئزاز من ذاتي . وماذا كانت حياتي — مخدر أم حالة طبيعية ؟ والا لما كان باستطاعتي أن أعيشها . ونادر جداً أن يعود أحد إلى براءة الطفولة . لو كان ذلك ممكناً . . . ماذا حدث لي ؟ كم عمري ؟ أكثر بكثير من خمسين عاماً . . . وفي الوقت نفسه ، أنا في العشرين ، وفي الأربعين من العمر . . . ومع ذلك ، فهذا أنا مستلق على الطاولة ذاتها ، محاط من جميع الجهات بالسيراميك البورسلاني الأبيض المعتم...ولكن ماذا يفعلون لي ؟ ولماذا أسبح في الهواء فوق بياض الطاولة ، وأرى نفسي من الأعلى ، ولا أفهم لماذا انحنت علي هذه الممرضة الشابة ، انني أرى جبينها الفتي ، رموشها ، وهي تمس شفتي بشفتيها . لماذا تجري لي التنفس الاصطناعي ؟ وأنا الآن لا أريد العودة . . . انه ينتظرني ، يدعوني

ويعدني بالهدوء والفرح ، مثل أمسية ربيعية صافية ، مثل الغروب الذهبي فوق ذرى أشجار البتولا . . . والذوبان السعيد اللذيذ في كل شيء . انني أسبح في الهواء نحو سكون الغروب هذا ، نحو هذا الهدوء ، وليس ثمة ألم ، وليس هناك ذلك الأسى الذي لا يحتمل . ها أنذا أرى أولغا جيداً ، انها تجلس في الممر ، في ثوب رمادي متواضع ، تنتظر آخر ما سوف يحدث لي ، وتبكي بصوت غير مسموع . اذن ، هي أحبتني ولا تزال تحبني ؟ . . . وابنتي الحبيبة ، فرحتي تانيا ، اختفت خلف كتف أمها وقد جمدت كلها ، وقطرات الدموع تتساقط من عينيها . ولسبب ما ، فالنتين ليس معهما . وصديقي الطبيب ستيشوف يقف عند النافذة ، واضعاً يديه وراء ظهره ، يلتوي وينحني ويعض على شفته . أحبائي ، لاداع لهذا كله ! لا أستطيع أن أقول لكم شيئاً . لا أستطيع أن ألمسكم ، أن أطمئنكم . لكن ، لم تعد لدي رغبة بالحياة . . . » .

وفي هذه اللحظة ، تصور ، وكأنه قد تناول وأولغا طعام الغداء في مطعم صغير ، خال تماماً من الزبائن ، وبدون نُدُل تقريباً . وقد وضعت على الطاولات الخالية من الناس مناديل سميكة منشّاة ، وقوائم الطعام المخيفة الضخمة ، وقد خرجا لوحدهما ، لاستنشاق الهواء في بلدة صغيرة جداً . كانت الشمس قبيل المغيب ، وكانت تغطي بلون ذهبي حزين الجدران الحجرية للأزقة الضيقة ، المكنسة بنظافة من أولها إلى آخرها ،والخالية من الناس ، وتهيأ له ، أن هذه البلدة الروسية الشمالية ليست على الأرض ، بل في مملكة الحزن المضيء ، والصمت الأبدي ، وعندما اقتربا من الحاجز في نهاية الزقاق ، الخالي من أي مخلوق ، انفتح في الأسفل واد ، وفي أسفل الوادي العميق ، كان يجري نهر ، متجهاً نحو ضباب مائل إلى الاحمرار في الأفق ، متعرجاً ، لامعاً من بعيد ،

كما لو كان في ثغر في آخر العالم ، كما لو كان في جرف ساقط في بوابة الجنة ، وهناك ، فوق البوابات غير المرئية ، كانت تنف الشمس منخفضة ، وتتلألأ في الماء برذاذ ضبابي كلون الفضة ، وكان يسود في كل مكان هدوء خفيف ، ولون الخريف الأصفر ، وكان يهب الهواء الخريفي الساكن الخفيف . . . ثم مرت طوفية وحيدة على الماء الزهري ، بدون أي صوت ، بدون أمواج ، وبدا وكأنها بلا ركاب وبلا قيادة ، وتلاشت في نهاية العالم كظل خيالي .

وعندها خطر في ذهنه ، أننا جميعاً مآلنا إلى الموت ، وقال كريموف لأولغا مازحاً :

ــ لا أريد أن تعيشي من بعدي . سيكون ذلك سيئاً . علينا أن نكون معاً .

ــ أنا أيضاً لا أريد من بعدك . . . لأنني أحبك ، يا مغفلي الفظيع . . .

كان يتذكر هذا ، في تلك اللحظة ، عندما حمله ، باتزان ، تيار عريض من الهواء العالي ، المفعم برائحة أوراق الأشجار العفنة ، والرطوبة المتخمرة لغابات الخريف ، فوق الثغر ، فوق بوابات الجنة ، حيث كانت الشمس تضيء مودعة ، مطمئنة ، في ماء النهر الشمالي عشية الغروب ، وحيث كان يرقد المحيط المجهول في امتداد بنفسجي ، مغرياً بالدفء والسكينة ، والخير ، وواعداً بالاطمئنان الروحي الأبدي .

ثم رأى بعد ذلك رملاً أبيض كالسكر ، ساخناً ، كانت تغرق فيه باغتباط قدمان حافيتان حتى الرسغين . ورأى نفسه وحيداً فريداً على شاطيء المحيط ، السائر بعناد نحو اللانهاية . وسرعان ماسمع موسيقا

متموجة ، لا أرضية ، كانت تتدفق كالبخار الجوي من غابة استوائية خضراء ، عذراء ، صادرة بسعادة من طاسات عميقة ، ثم رأى على العشب الزمردي خطوطاً من الأشعة الشمسية بين الأشجار العملاقة ، ووصل إلى مسامعه صوت ناعم متسائل، رقيق، ليس له رنين مادي بدني :

« من أنت ؟ وكيف ظهرت هنا ؟ وما هو اسمك ؟ »

أراد كريموف أن يجثو على ركبتيه ، ويجيب ، بأنه فقد الأمل ، ويئس من الناس ، وخلال يأسه ، خرق ، خالف شيئاً ما ، مثل صديقه جون غريتشمار ، الذي كره البّشرية لمدنيتها المزيفة ، بيد أن المذنب ليس غريتشمار ، بل هو المذنب بصورة لا تغتفر ، وحاول تذكر اسمه وذكره . لكنه ، ما إن تذكر أنه قدم إلى هنا من بلاد بعيدة ، ذات سماء زرقاء ، وظلال سماوية ناعمة على كثبان آذار الثلجية ، المرقطة بالقطرات الذائبة ، حتى اجتذبته فجأة العودة من المحيط اللؤلئي اللامحدود ، حيث كان كل شيء ميتاً ، جامداً ، اجتذبته العودة إلى الوراء ، إلى البلاد التي تركها ، بلاد الزرقة والقطرات الربيعية ، مع رغبة متحمسة لكي يرى ، ويعاني من جديد ، ويشعر بكل ما هو أرضي ، كل ما كان يسبب له ألماً لا يطاق ، يدعى بتلك اللغة ألم الحياة . أما ذلك الصوت اللطيف اللامادي فقد أخذ يقنعه ويوحي له ، بأنه يقطع طريق العودة إلى ذاته ، إلى الطهارة الأولى ، إلى النقاء الأول ، وأنه ، مثل كثيرين من الذين عاشوا على الأرض ، وأنه جزء من كل ، وأنه لا قيمة أبداً الآن ، ماإذا كان قد ضل أم لم يضل ، لأن مملكة الخير لها حد ، أما الشر فلا يعرف حدوداً .

« لكن ، إلى أين أنا أذهب ؟ وأي حزن غير أرضي في هذه السعادة

الخالية ، المقفرة ! . . . آه لو رجعت ثانية ، إلى هناك ، إلى ذلك الألم ، إلى أولغا بعينيها الهادئتين ، إلى ابنتي تانيا المضحكة ، إلى بالابانوف ، إلى مواوتشكوف ، إلى جميع الآثمين الخاطئين ، إلى التعساء الأشقياء عامة ، هناك ، هناك ، إليهم ! ولكن مااسمك ؟ من أنت ؟ تذكّر ! كيف ظهرت هنا ؟ » .

بيد أنه لم يعد باستطاعته تذكر اسمه ، كما لم يعد باستطاعته الشعور بالألم الراحل إلى الأبد ، ولم يستطع أن يفهم في اللحظات الأخيرة ، لماذا ظهرت على الرابية بين أعشاب الصيف بوابة مفتوحة لدير حجري قديم ، مغطى بالشمس الهاجرة ، كان قد رآه في الشمال ذات يوم ، ولماذا ظهرت أمامه راهبة طويلة القامة ، عليها ثياب الحداد السوداء ، يعرفها بصورة مؤلمة ، بنظرة عينيها المخمليتين العزيزة عليه ، بقبعتها السوداء ذات المناديل الأبيض ، وبوجهها الجميل المبلل بالدموع . كانت الراهبة تسير باتجاهه ، يرافقها القمس حبقوق النحيل الشاحب ، في أسى مميت ، ضاغطاً يديه المشبكتين على صدره بخشوع وابتهال .

١٩٨١ — ١٩٨٤

* * *

# الفهرس



عبمري في مواجهه بيروقراطيه هي كالأخطبوط .
من العسير جدا ، لا بل من المتنع أحيانا ، على الذي
يقع في شباكها أن يفلت منها - تلك هي اللعبة التي
تحكي فصنها هذه الروايه وروايات روسية أخرى
كثيره بدأت تظهر مع الخمسينات من هــذا القرن
وما يزال موضوعها من الموضوعات الكلاسيكيه في
الأدب السوفياتي .

وسيرى القارىء أن المؤلف قد حقق في روايته
ثلاثة أهداف .

الأول تجديــد موضوع مستهلك بنقلــه الى
الثمانينات من هذا القرن حيث بدأت تظهر ارهاصات
التجدد في الاتحاد السوفياتي .

الثاني انقاذ البطل من براثن البيروقراطيه بجعله
مخرجا سينمائيا مبدعا ، أفلامه نقلتــه من المستوى
المحلي الى المستوى العالمي فأخذت تتنازعه شركات
السينما الكبرى العالمية .

الثالث : اعطاء الروايه معنى انسانيا على اعتبار
أن البيروقراطية صارت اليوم مع الدوله الحديثــه
مشكلة عالمية .

والحق أن الروايــه والى جانب قيمتها الفنيــة
العالية ، تضعنا في قلب مجتمع ينتقل من مرحلة تاريخيه
الى أخرى . والمفاصل التاريخية هذه هي الأكثر غنى
بالامكانات فنيا وفكريا . انها تطرب وتثقف . وهذا
أقصى ما ينتظره قارىء من رواية عالمية .

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٠

سعر النسخة داخل القطر
١٢٥ ل.س

في الاقطار العربية ما يعادل
٢٥٠ ل.س